

قصة الحضارة

ول وايرنيل ديورانت

فيصروالمسيح
أو
الحضارة الرومانية

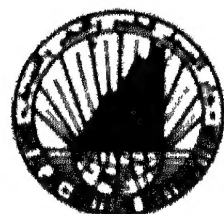
ترجمة
محمد بدراڤ

الجزء الثالث من المجلد الثالث



تونس

١١



بيروت

الكتاب الرابع

الامبراطورية

١٤٦ ق.م. - ١٩٢ م.

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

الكلت الجيد ليون يقزون إنجلترا .	١٢٠٠
الكلت البريثونيون والبلجيون يقزون إنجلترا .	٩٠١
بيثياس المرسط برناديس الشمال .	٣٥٠
بداية الأسيرة الأرسانية في بارثيا .	٢٤٨
صقلية تصبح ولاية رومانية .	١٠ - ٢٤١
الاستيلاء على سردينية وكورسكا .	٢٣٨
أرسيس الثاني ملك بارثيا .	١٩٠ - ٢١١
مثراداتش الأول ملك بارثيا .	٣٨ - ١٧٠
الاستيلاء على مقلونية .	١٦٨
إليريكم .	١٦٨
آخية ، « أفريقية » ، إبيروس .	١٤٦
بطليموس السابع .	١٣٠ - ١٤٥
يوحنا هركانس ، ملك اليهود .	١٠٥ - ١٣٥
هوسيلونيوس .	٥١ - ١٣٥
أنطس الثالث يوصى لرومة بربجم .	١٣٣
مثراداتش الثاني ملك بارثيا .	٨٨ - ١٢٤
جالاينا ريننس .	١٢١
الحرب الجوجزئية .	٥ - ١١٢
فيلو البيزنطى ، العالم الطبيعى .	١١٠
الكسندر جانيوس ملك اليهود .	٧٨ - ١٠٤
قليقية ، بمقيليا .	١٠٢
الحرب المثرداتية الأولى .	٤ - ٨٨
مذبة الرومان في الشرق الأدنى .	٨٨
الحرب المثرداتية الثانية .	١ - ٨٣
الكسندره ، ملكة اليهود .	٦٩ - ٧٨
تموماكس البيزنطى ، المصور .	٨٦
الحرب المثرداتية الثالثة .	٦٣ - ٧٥
بيثينيا .	٧٤
فورنى وكريت .	٦٧ - ٧٤

- ق. م .
٦٩ - ٦٣ أرستو بولس الثاني ملك اليهود .
٦٤ سوريا .
٦٣ بنتس وبلاد اليهود تصبيحان ولايتين رومانيتين .
٦٣ - ٤٠ هر كاقس الثاني ، ملك اليهود .
٥٨ قبرص .
٥٨ - ٥٠ قيصر يفتح غاله .
٥٥ - ٥٤ قيصر في بريطانيا .
٥٠ هيرود الإسكندري ؛ مليجر الحدرائي .
٤٦ فوميديا .
٤٠ البارثيون يغزون سوريا .
٣٧ - ٤ هيرود الأكبر .
٣٠ منصر .
٢٥ جلانيا .
٢٥ - ٤ حملة إيليوس جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .
١٧ الاستيلاء على ألمانيا العليا والسفلى
١٥ نوركيم ، رينيا .
١٤ جبال الألب البحرية .
١١ موسيا .
٧ وما بعدها ؛ استرابون الجغرافي .
٤ ؟ مولد المسيح .
٤ق. م - ٦ م : أكولوس ملك اليهود ، هيرود انطيمس ، تترارك الجليل .
١٧ م كبدوكيا .
٤٠ موريتانيا .
٤٣ بريطانيا .
٤٧ ثورة كركتاكس .
٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلي .
٥١ ٦٣ حرب پارثيا ورومة .
٥٥ - ٦٠ كبريولو يخضع أرمينية .
٦١ ثورة يودوكا .
٦٤ جبال الألب الكتية .
٧٠ - ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .
٧٧ - ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .
٧٢ انفراض الأسره السلوقية .
٨٩ أفلوطنس في رومة ؛
٩٠ إيككتس .

- ٩٥ ديوكريسمس .
١٠٠ أبلودورس الدمشقي ، المهندس المعاري .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ داشيا .
١١٤ أرمينية ، آشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسي ، الطبيب .
١١٧ هديران يتخلى عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصوري الجغرافي .
١٢٢ سور هديران في إنجلترا .
١٣٠ إيليا كيتو لينا تشاد في موضع أورشليم ، بشون الأزميري العالم الرياض ؟
أريان النقوميدي المؤرخ ، كلوديوس بطليموس الفلكي .
١٤٢ سور انطونينس بيوس في إنجلترا .
١٤٧ - ٩١ فلوجيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ، إيليرس أرسنديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ، پوسنياس الجغرافي .
١٩٠ سكستس إميركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأميرة الأرسانية .

باب الحادى والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المسند

فلتقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأنًا من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خطب ألباب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المختصرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى (*) .

قال بلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! - ومنذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! « لقد كان حول رومة وجنوبها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لا تهوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هربها ، ثم
جنة من الضواحي والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والدوق السليم .
وكان إلى جنوبي العاصمة وغربها نهر التير وطرق برية صالحة تربطها بالمرافئ
المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر الترهني . وقد وصلت أستيا
إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها
خاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تحميلها مزدحمة بهم . وكانت بيوتها
ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمانها فى رومة الحاضرة ،
وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب
ببروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل
أحد المذابح البديع التصميم والذى نقش عليه أزهار جميلة دقيقة ، على أن
سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبي أستيا على شاطئ البحر مدينة أنتيوم Antium
(أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ،
وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض
للتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد
نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تماثيل المجالد البرغيزى
وتماثيل أبلو بلفدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر « المواطنين
العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كلنوا من
عهد قريب يستمتعون بروية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة
دبية ضارية^(٢) . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكويم
مسقط رأس جوفنال وأرپينم Arpinum التى كانت تفخر بابنها ماريوس
وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميلاً من رومة كانت تقوم مدينة
پرانستى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثة Palestrina) ، وكانت
بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وجدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوجها هيكल ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريميجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المحاسن ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها ولد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « المجادلات المكبولاتية » (*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية نيبور (ترفولي) التي مد إليها هيريان قصره الريني والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سنى أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعا ، وفيها بلدة پروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها ووجد بناء بعضها ، وجعل فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديما : وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة بيسي Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من پيزا Pisa في اليلوبونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حتى قلده : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إتروريا محاجر كرراز Carrara التي كان ينقل منها أجمل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة : وكانت جنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمال إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أى من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتى Frascati وارثة تسكيولم ملجأ أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتيني ، وترلونيا ، ومندوجوفى وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت في كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التي أنشأها الغاليون الثوريونيون Touurini. Gauls ، والتي جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفي مقدور الإنسان أن يرى الآن أوصفتها ومجاريها. القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقي فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت في يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال . وهنا يقطن نهر يدوا (الهو) الكسول الذي ينبع من جبال الألب الكتيية Cottian ويحري نحو الشرق مائتي ميل وخمسين ميلا ، ويقسم الجزء الشمالي من إيطاليا قسمين كانا يعرفان في عهد الجمهورية بغالة ما قبل الهو وغالة ما وراء الهو . وكان وادي الهو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكانا ، وأعظمها رخاء .

وكان - عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - قربانس Verbanus (مجيوري Maggiori) ، ولاريوس Larius (كومو Como) ، وبناكس Benacus (جاردا Garda) ، التي كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن في هذه الأيام . وكان يبدأ من كوم ، مدينة بلني الأصغر طريق تجاري رئيسي يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان) . وقد استقر الغاليون في هذه المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت في أيام فرجيل من الخواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ، وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت فيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التي تعبر ممر برنر Brenner ، وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظرة . وقامت على نهر البو الملتوى مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزه

الحديثة Piacenza ، وكرمونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara
- وكانت في أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين .

وكان إقليم فينشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق
اسمه من الفينيقي Veneti ، المهاجرين الأولين من ألبريا Illyria . ويصف لنا
هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللاتي
في سن الزواج . ويقدرّون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها ،
ويزوجونها ممن يؤدي ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية
للفتيات لمن كنَّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة^(٤) . ولم تكن مدينة البندقية
(Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند بولا Pola على شبه
جزيرة إستريا Istria ، وترجسقي Tergeste (تريسته Trieste) وأكويليا
Aquilata ، وبتشيوم Patavium (بلدوا Padua) تتوج رأس البحر
الأدرياتي . وقد بقي في بولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل
ظريف ، ومدرج لا يفوقه في الروعة إلا الأصل الذي بنى على نمطه
وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المذن تبدأ من
بلاستيا مخترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ،
وفافنتيا Faventia (فينزي Faenze) وتنتهي عند أرمنيم .

وهنا عند ريميني Rimini يقوم جسر من الجسور التي لا حصر لها والتي
أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم .
وكان الطريق الفلاميني يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل
الحلق الروماني في صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعي يصل بتونيا
برافنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم في المستنقعات
التي لوئتها عدة أنهار تصب في البحر الأدرياتي . ويصف استرابون مدينة رافنا
بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعدبات »^(٥) . وقد اتخذها أغسطس
حقراً لأسطوله الأدرياتي ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم في القرن

الجائس . وقد كان تفوق شمال إيطاليا على سائر أجزائها في خصب التربة ، وفي جوه الصبحى المنشط الباحث على العمل ، وفي موارده المعدنية ، وفي صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة . كان تفوقه في هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا في القرن الأول الميلادى ومن ناحية الزعامة السياسية في القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقى في جزئه الممتد جنوبى أرمنيم وشمالى برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صغرى كثير العواصف قليل المرافق . بيد أنه كان في أمبريا Umbria ، وبسنيم ، وسمنوم ، وأبوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطيع الحكم على ثرائها وقتها إلا بدراسة أنقاض بيجي . ومن هذه البلدان أسسيوم Assisium مسقط رأس پروبرتوس والقدائس فرانسيس ، ومنها سرسينا Sarsina التى ولد فيها بلوتس Plautus ، واميتيرنم Amiternum مسقط رأس سلت Sallust وسلمو Sulmo التى شهدت مولد أوغد ، وفنوزيا التى شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنقتم هزيمة هرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذى أقامه فيها تراچان وهديران . وقد قص هديران في نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المحيطة في الحرب والسلام . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبى الشرقى تشرف على طرق الاتصال في دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنم ، وكانت من قبل دولة - مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن في الوقت الذى نتحدث عنه إلا مشى آخذاً في الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفي جنوبى إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضى وحولوها إلى مراعى للماشية ، ففقدت المدن من تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأفل نجم العشائر اليونانية التى كانت تنفق أموالها بسخاء في الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفي « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربى كانت تقوم قبليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد فى جنباتها أصداء أشعار برمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الجالية الرومانية التى استعمرت بوسيدونيا اسم هذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان فى الوقت الذى نتحدث عنه قد أخذوا يلدبون فى الدم « البربرى » - الإيطالى فى هذه المرة - الذى كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حية فى إيطاليا إلا فى كپانيا .

وكانت كپانيا - المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بناپلى - من الناحية الجغرافية جزءا من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالما مستقلا بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدما من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت فى رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم فى إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى - Surrentine والفالرنى - Falernian الذائعا الصيت ، ولعل فلرو Varro كان يفكر فى كپانيا وهو يتحدث العالم بقوله : « يامن ضربتم فى أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء بخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ » (٦) . وفى طرف كپانيا الجنوبي شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة في البحر من سالرنم *Salernum* إلى سرنتم *Surrentum* . وكانت القصور الصغيرة منبئة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتمو *Sorrento* في هذه الأيام ، وقد لقبها بلنى الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التى حبتها بكل ما لديها من هبات (٧) ؛ ويبدو أنه لم يكذب يتغير فيها شئ فى خلال ألى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم فى هذه الأيام هى آلهتهم فى الأيام الخالية ؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له .

وكان فى مواجهة هذا اللسان البارز فى البحر جزيرة كبريا *Capraea* (كاپرى *Capri*) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان فيزوف المطل على الشاطئ الجنوبي للخليج يرسل دخانه فى السماء ، بينما كانت بىي وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات اللحم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوبوليس *Neopolis* « المدينة الجديدة » أكثر بلاد إيطاليا اضطباعاً بالصيغة اليونانية فى عهد تراجان . وفى وسعنا أن نقين من كسل نابلى فى هذه الأيام مدى أنهما كها القديم فى الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم ، وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة فى كل خمس سنين مباريات فى الموسيقى والشعر نال استاتىوس فى واحدة منها جائزة . وفى الطرف الغربى من الخليج كان ثغر بتيولى *Puteoli* (پزىولى *Puzzuoli* الحديثة) التى اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية (٨) . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعات الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التى تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التى كان يصل بها الجبالدون والوحوش إلى المجتلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولى كانت تتلأأ قصور بايا *Baiac* التى

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكلجتيولا
ونبرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية يأتون ليستحموا في مياه
عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجني فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد
الخلقي ، وهاهوذا Varro يقول إن فتيانها كنّ ملكاً مشاعاً ، وإن
كثيرين من فتيانها كانوا بنات^(٩) ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد
جلله عار لا يحصى أيد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة^(١٠) . ويقول سنكا
متسائلاً : « أتظن أن كانوا كانت تحدّثه نفسه بأن يقيم في قصر مليء بأسباب
اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينه من
النساء القاصرات اللاتي يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة
الألوان ، والورود التي تتمايل حول البحيرة ؟ »^(١١) .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، في فوهة بركان خامد ، كانت
بحيرة أفيرنس Avernus تبعث في الجو دخاناً كبيرتياً بلغ من قوته أن وصفته
الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ، وكان بالقرب من
الكهف الذي شقّ فيه إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء في
ملحمة فرجيل .

وفي شمال البحيرة كانت مدينة كومي Cumae القديمة ، وكانت قد أخذت
تختصر في ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيپوليس التي كانت
أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين يجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولي
واسبيا ، ولتقدم الصناعة في كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطئ
البحر في الداخل نحو خمسين ميلاً وتقوم في إقليم خصيب كان ينتج في بعض
الأحيان أربع غلات في العام^(١٢) ، ولم يكن في إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها
من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيئال جزاء أضرّ
بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

في خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا » (١٣). وظلت كذلك حتى أحادها
قيصر إلى صائق عهدها بأن جاء إليها بالآلاف من المستعمرين الجدد ،
وأضحت في أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التي كانت قائمة في إيطاليا القديمة والتي
مردناها على القارئ مردأ سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ
إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن
صاخبة لرجال مرهق الحس يحدون في طلب الطعام والشراب ، والنساء
والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى الملائن الرومانية لنقف من آثارها التي
احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة في تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثاني

بمبي

كانت بمبي إحدى البلدان الصغرى فى إيطاليا ، وقلما ىرد لها ذكر فى الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبها ، ودفنها تحت الرماد البركانى . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة فى قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال فى عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يحدد فى الوقت الذى دمرها بركان فيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م : وقذف من فوهته رماداً وصخوراً فى الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وإنهمر فوقها حطر غزير فاستحالت المواد التى قذفها البركان سيلا جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبي وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاها بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار واليلة التى أعقبته : فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل^(١٤) ، واختنق مئات من الأهلىن بالتراب والدخان ، وثارَت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان بلنى الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربى عند ميسنيم Misenum القرية من بيتولى . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته فى مشاهدة هذه الظاهرة عن كنب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبى للمخلىج ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البردّ والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشىخ ، فسقط فى

الطريق: وقضى نحيبه (*) (١٥). وفي صباح اليوم التالي انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة الياسية التي كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابل إلى سرتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلاً خالك السواد : واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا في هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعاً ورعباً . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التي ظالماتنبأ بها الناس قد حلت (١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر في اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شيء في يمي إلا أعلى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان يمي البالغ عددهم عشرين ألفاً قد قضوا نحبهم في هذه الكارثة ؛ وقد حفظ الرماد البركاني أشكال عدد من الموزي ؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التي سقطت عليها غطتها بطبقة سمكية صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفي عام ١٧٠٩ احتضر قائد نمساوي حفرة في موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التي فوق المدينة والتي كان سمكها في بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما يمي فقد بدأ الكشف عنها في عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجري في فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف بلني الأصغر لموت عمه في هذه الثورة البركانية في الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العلمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن عُمى القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها في هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك في أن هذه السوق كانت في الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم في « يوم السوق » ، وكانت تقام فيها الألعاب ، وتعمل فيها المسرحيات ، وقد أقام فيها الأهليون أضرحة لأهلهم ، فسادوا ضريحاً لجوهر في أحد طرفيها وضريحاً لأهلها في الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشوا ضريحاً لفينوس (زُهرَة) *Pompeiana* راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوما متدينين ، فقد شغلهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخلوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية^(١٧) . ولما أن زادت الشئون الاقتصادية والحكومية في مقدارها وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفي وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين ، ويملأ فيها ضجيج البائعين والمشتريين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون في خرائب الحوانيت على بعض الثقل ، والعيش ، والفاكهة ، المتفحمة أو المتحجرة التي لم تجد من يشتريها . وفي الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولم يحرص أهل عُمى على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المباني العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشوها في بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجريء ، الذي لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ؛ ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصلونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم « من ساميوس Samius إلى كورنيليوس Cornelius : اشتق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استيفيلس Stephylus » ؛ وكتب شاب متيم : « وداعاً يا فكتوريا ، وفي وسعك أيا كان مكانك أن تعطني أحسن عطسة » (١٨) ،

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعانقون أيام عطلتهم ، والدين فقد لهم متاع يعلنون عن فقدته ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم في حملات الانتخابات البلدية ؛ فهام أولاء « صائدو السمك يرشحون بوبليوس Popsidius Rufus ليكون إيدىلا Aadile » ، و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النبأى يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسيليس » (١٩) ؛ وها هي ذى بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة بعض مشهورى المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هي ذى « العذارى تتحسر » أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين - « أى أكتيوس Actius » ، يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! » (٢٠) . لقد كانت بمبي تعيش لكي تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضى ؛ ودار تمثيل صغيرة تسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بالآلام الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلا منهم . وها هو ذا نقش يقول : « سيفقتل في بمبي في الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفمبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

ملك يا ميوس Maius ، مرحى يا باريس ! ، وكان ميوس هذا أحد حاكي المدينة ، أما باريس فكان كبير المجالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تحملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة ، ولا تظهر الحمامات إلا في منازل الأغنياء ، وكان لبعض الدور بركة في حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع من الأسمت أو الحجر ، أو من السيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ، ونقش آخر « الكسب للذة » (٢١) . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شيء يذكر ، غير أن عدداً قليلاً من النضد ، والأسرة ، والكراسي ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف ، وفي وسع الإنسان أن يرى في متحف بمبي وناپلي مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحي القايا الفنية التي كشفت في بمبي أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون في القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة . فقد كشفت في هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوى على ١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ، ولا داعي هنا لأن نعبد ما قلناه من قبل عن كوئوس البسكوزيالي Boscoreale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل بمبي . ولقد كان في كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ، وكان في السوق العامة وحدها مائة وخمسون تماثلاً . وقد عثر في هيكل جوبتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذي سواه ، فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماثلتين في ثنايا الشعر الغزير والاحبة الكثة . وكان في هيكل أبلو تماثيل لديانا ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

مغربي* أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر في أحد قصور هركيولانيم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت في متحف نابلي ؛ وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة - عطارد المستريح ، ونارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص - كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهي تكشف عن خدق في الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادى في الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان المائلتان في الفن البركستيلي . ومن هذه التماثيل تمثال نصفي من البرنز لأحد الدلايين في مدينة بيمبي ويدعى ل . كاسيليوس أيوكنديس L. Caacilius luocundus الذي وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عمر عليها في داره بمدينة بيمبي . ويظهر في هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . في هذا التمثال تبرز الحشونة بالدكاء ، والحكمة بالثآليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه - ولعله مثال إيطالي - أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات . والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها في متحف نابلي من تماثيل الآلهة والإلهات الحالية وجوهها من الغضون ، والتي تكاد تنطق بمعارفها الملساء الوديدة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت في إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات في عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التي كان الأهليون يعضون عليها بالنواجذ ، لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضي الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول - المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها في موخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية في هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار في كل مدينة يقتنعون في الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنة الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم في الانتخابات ؛ ولم يكن اضممحلال الجمعيات العامة في العاصمة مصحوباً باضممحلال مماثل له في مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمجي نفسها . وكان لمعظم البلديات الإبطالية مجالس شيوخ Curia - ولعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية - تسن قوانينها وجمعيات comitia · ekklesia تختارحكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

علمه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين لآخر
حين يبيع المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذا كان المنصب لا يتنازل
عليه صاحبه أجراً فإن ديمقراطية الأحرار - أو أرسقراطية الأحرار - قد
استحالَت في كل مكان تقريباً إلى حركة يتولاها ذوق المال والجاه .

وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخاء
وازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة
الحال ، فقد تكفلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ؛ ولكن
التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل
فيه الأغنياء للفقراء قدراً مما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات
إدارة المدينة كلها تقريباً ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك
من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشيد الهياكل ؛ ودور التمثيل ، والملاعب ،
ومدارس التدريب الرياضي ، والمكتبات العامة ، والباسقات ، والقنوات
التي تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها
بالأقواس والأروقة ذات العمدة ، والصور ، والتمثيل ، كانت كلها يتحملها
ذوو اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطورية
يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً
أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التي كانت تمولها ، أو المدن
التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة في أيام القسط
أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا
في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، وجميع السكان أحياناً ، زيتاً
أو خبثاً بالخبان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال .
وعلمت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فها هو ذا متر من
أصحاب الملايين يهب مدينة ألينم في فنيشيا ١٦٠٠٠٠٠ سترس لإقامة
حمامات عامة ، وها هي ذى سيدة تشيد هيكلاً ومدرجاً في كسينم Casinum ؛

وهاهو دا ديسميوس تلس Decimius Tullus هب تركوينياى Tarquinii
علامت نكلفت ١٠٠٠٠٠٠٠ ره سنسرس ، وهاهى ذى كرمونا Cremona
لى دمرها جنود شهبازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين ..
وتذكر النقوش اسمى طبيين قدما كل ما يملكان هبات لتأبلي . وفى استيا
التي كانت مزدهرة بالسكان دعا لوسيوس جمالا Lucilius Gemala جميع
أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلاً واسعاً ، ورم سبعة هيكل
أو أبعاد بناءها ، وأعاد بناء حمامات البلدية ، ووهب خزائنها ثلاثة ملايين
سنسرس (٢٣) .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسما كبيرا من المواطنين في عيد ميلاده أو لمناسبة انتخابه إلى منصب عام ، أو زواج ابنته ، أو ارتداء ابنه الطوغة ، دليلا على بلوغه سن الرشد ، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة . وكانت المدينة تجزى هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه في منصب عام ، أو تقيم له تمثالا ، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش . ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين يتألون هذه العطايا كلها ، ذلك بأنهم كانوا يهتمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذي يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال ، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد في المباني الجميلة والتمائيل ، ويلحون في تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب (٢٢) .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد ، ما كان يهبه الأباطرة للمدن ، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث ، فضلا عن الأعمال العامة والمناصب التي كانت تحول من خزائن البلديات ، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية وعزها في عهد حكومة الزعامة . لقد كانت شوارعها مرصوفة ، وكان فيها مجار لنقل المياه القلرة ، وشرطة لحماية الأمن ، وكثير من وسائل الزينة ، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها ، وماء نقي نظيف يصل إلى الدور في أنابيب نظيفة أجبر قليل ، وطعام يقدم

للفقراء بضمن بخش . وكانت الحمامات فى معظم الأحوال مباحة من غير أجر
ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على
تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم
والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم
لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابثة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن
حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذى كانت عليه فى العاصمة ؛
فتمتد كانت هذه المدائن تتنافس فى إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك
هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها فى رومة (٢٤) ، وجعلت
شهورها مرحلة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق
بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرجبة للمحاضرات ،
وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقين . وكانت
يسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتزهر ، والحياة الثقافية القوية .
ونها ، لا من رومة ، خرج عظماء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن
ما فى متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) فى متحف نابلى ،
وتمثال بروس (الحب) فى سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس فى
أتركولى Atricoli . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن
عدهم قبل هذا القرن ، فى المدن التى قامت مكانها وتوهمهم من مصائب
الحرب تأميناً منقطع النظر .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثانى من التاريخ الميلادى قد شهدا
ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .

الباب الثاني والعشرون

تمدين الغرب

الفصل الأول

رومة والولايات

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا - إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة - هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدي لها الشيء الكثير نهياً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قبيل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات . وكان سر الحكم الروماني وشعاره هو فرق تسد Divide et impera .

ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، في

سياق تشهيره بقريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة في عهد الجمهورية :
« إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يضرخون ويغولون ،
وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرها ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ،
مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا » (١) . أما الزعامة
فكانت أكثر سخاء من الجمهورية في معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا
كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب في أيامها غير
باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية
الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً في السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ
بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان
وسيادتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة
لسلطانها أقساماً متفاوتة في المرتبة ، وتقسيم الأهالي في داخل كل ولاية
طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة ورودس
« مدناً حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدير شئونها
الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام
الاجتماعي والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا
وكيودوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقبالا » لرومة
يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد
إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع في شخصه السلطة التشريعية
والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق
المواطن الروماني في أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التي كان يقوم
بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيئوا استخدام
سلطتهم ، ومع أن المدة التي كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت في عهد
الزعامة ، ومع أن مرتبه وخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن
مستوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قللت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن في وسعنا أن نستدل من رسائل بلني فومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة في آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه . وكانت الدولة في عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام في كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك - ومنها الحيوانات والعبيد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ، ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية في الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية في غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل في بعض الحالات سفناً محملة بالغلال إلى رومة . واحتفظ في الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالي بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفنًا للأسطول ، ومباني للأغراض العامة ، وطعاماً لضحايا القحط ، ومغنين في الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة في الدولة ، إن الضرائب التي كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفي نفقات الإدارة والدفاع (٣) . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التي خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبتنا ألا نرى حرجاً في أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام في ذلك الوقت جباية يجمعون أكثر مما يكفي لهذين الغرضين . على أن الولايات قد دعمها الرخاء في عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين في الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذي كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهي أن نعمتين يجب أن تضمّنهما الدولة للشعب قبل كل شيء : وهما الحرب والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (رومة) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا » (٤) .

الفصل الثاني

أفريقية

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ، وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهليين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً^(٥) . أما سردينيا فكانت تدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف مبل من الطرق الصالحة ومرفأ جيد ممتاز هو مرفأ كراles Carales (كجليارى الحالية) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضة من الولايات التى تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعاً كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا يتناولون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للنسب والنهب . وكان سكانها فى عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠٠٠٠ (وقد بلغوا فى عام ١٩٣٠ حوالى ٣٠٠٠٠٠ ٩٧٢ ر) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هى قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتورومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وبنورمس Panormus (پلرمو الحالية) . وكان فى سرقوسة وتورومينيوم ملهيان يونانيان فحخان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدى قرىس Verres مملوءة بالمباني الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة^(٦) ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة فى العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين فى

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره في هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحمل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة في توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ، ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدق العقل . وما من شك في أن الفاتحين الجدد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التي تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مدارى يمدّه نهر بجر داس . Bagra das (مجردا) بكفائته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهليين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه . ماجو Mago وأرعمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التي تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه في خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه في قنوات للرى في الأشهر الحارة التي تجف فيها مياه الأنهار (٧) . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجنيه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالق رومة ونحسيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التي تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها بعد ميل من الصحراء أو الأراضي البور فزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد في القرن السابع ، إذ وجدوا أن في وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون (٨) . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمازية .

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديداً يعبر عنها . وحسبنا دليلاً على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقي والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات بحر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل في أرض أصبحت الآن قفراً ييباً . ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحوطت الآن صحارى زملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجوبل كان سببه تبادل الحكم — من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادي والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال يخربان الطرق والخزانات وقنوات الري .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التي بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس وقصر الذى أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعرضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أفضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتركها تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافى الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ودال نهر بجر داس الحصبة ، والطرق الصالحة التى أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أصبحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملوك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخى ، أو ببوناً صغيرة ذات حدائق فى الضواحي الشجرية ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعايلك المدن وإلى الأرقاء، وعاشوا فى أحياء وبيوت قلدة حياة العدم والفاقة التى جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت فى المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلأل الرخام فى المباني العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتمائيل المنحوتة على الطراز اليونانى . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثانى بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطعمال الأحياء^(٩) . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان في حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة في المدينة حماماتها العامة العظيمة التي وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البسيان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية . وفد إليها أبوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحاو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه^(١٠) .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شر^١ . بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة في جنوبي هذه المدينة على الشاطئ الشرقي طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثني عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب في هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضر متم Hadrumentum (محلها الآن سوسة) ولبتس Leptis الصغرى ، وثيسوس Thapsus وتكابي Tacapae (قابس الحالية) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض لإقليم يدعى تريبوليس Tripolis (طرابلس) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea (طرابلس الحالية) التي أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata ولبتس مجنا (الكبرى) (لبتة الحالية) : وهذه البلدة الأخيرة هي مسقط رأس الإمبراطور سبتيموس سيفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام ١٤٦م ؛ ووهبها في حياته بأسلفا وحاما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب في هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهي الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل روماني عظيم ، وثسدروس Thysdrus (الجم) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، وثجا Thugga (دجا) التي تشهد خرائب ملهاها ذى الصمد الكورنشية الرشيدة بئراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت في شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفي وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء في عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثائة من رجال المصارف وبائعى الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها . عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالاً إلى هيو ديرهيستل Hippo Diarhytus بنزرت الحالية) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هبورجيوس Hippo Regius (بونه) ، التي أصبحت بعد زمن قليل كرسى أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبها في الداخل مدينة سرتة Cirta (قسنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفي غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة ثمجادى Thomugadi (ثمجاد) ، التي تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ يمي ، ففيها الشوارع المرصوفة المعمدة ، والمجارى المسقفة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباسلقا ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر في أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari, ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هي الحياة » (١٢) . والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ ثمجادى حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ في عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم في ثمجادى ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبسيس Lambaesis (لمبيز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا في بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون في المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً - فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقبل في جمالها عن أية حمامات أخرى في أفريقية . أما في خارج المعسكر فقد أعانوا الأهليين في بناء هيكل لچوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، ومدرج

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .
وكان الذى مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة
الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها
عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية ، وكانت تربط
قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان
الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرتة إلى قيصرية عاصمة مورتانيا
(مراکش) ؛ وهنا نشر الملك جوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين
المورى Mauri أى السود (المغاربة) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم
فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان جوبا الثانى هذا ابن جوبا
الذى مات فى ثبوسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب
قيصر ؛ ثم عفى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء
فى أيامه . وعينه أغسطس قيلا على مورتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه
الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من
أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ ولشد ما كانت دهشة
رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابن جوبا
هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها
ولائتين : مورتانيا سيزرينسس Caesariensis (مورتانيا القيصرية)
ومورتانيا تنجيتانا Tingitana (مورتانيا التنجيتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس
Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء
على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال (١٣) ، ويسمى جوفنال أفريقية
مرية المحامين (١٤) . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير
— هما فرنسو وأبوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب
العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان أوسيوس أبوليوس شخصية غربية
جديرة بالنصوير ، أكثر من شخصية متأنى المتعدد الكفايات وكان مولده فى

ملبورا Madaura من أسرة عريقة النسب (١٢٤ م) ، وقد درس فيها وفي قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة في موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج في طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه في الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقاؤها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أبوليوس . وقضى الرجل بقية حياته في مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتي الحمامة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان في الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريًا نقش عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفلاطوني** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساء ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبي** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب ساتريكوم Satyricon لمؤلفه برونيسيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أهمر عشر كتاباً في التحول** Metamorphoséon Leбри XI ، وهو توسع غريب في قصة رواها لوسيوس الطراسي عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيما حشرأ ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش في القول ، والحديث عن التقوى المرجأة .

ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألقى نفسه أينما حل في جو من السحر . ومما جاء في هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مدهول ، راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أني لم أكن أرى شيئاً أعنفد أنه كما أراه في الواقع ؛ بل إن كل شيء بدا لي أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة . وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن الحجارة التي قد تعثر بها أقدامى تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها ، وأن الطيور التي سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنايع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإني سأسمع من فوري وحياً من السماء ومن شعاع الشمس (١٥) .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة يريدتها ، يقول إنه يدلك جسمه بحرهم سحري ، وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من الخن ذلك الحمار « الذي له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هي « أذني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو كان شديد البعد عني » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ المحارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيئ . ثم كره الحياة ، فليجأ أولاً إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهاج المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب (١٦) . ثم يحلق رأسه ويقبل في الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلمه يأمره فيه أوزيريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشغل بالقانون .

وما أقل الكتب التي تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب في طلاوتها . ذلك أن أبوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حاوله أجهل لباس ؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب هو الأسلوب المطنّب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف في بداية الألفاظ ، المليء بالعبارات العامة الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعري في بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقى القوى ما في الشرق من غموض وشهوانية(*) . وأهل أبوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفى ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك في الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التي يعودون بها إلى آدميتهم هي اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون في القصص العارضة التي يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين ، كما نرى في قصة العجوز التي تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيوبد وسيكى (١٧) — فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (فينوس) في حب فتاة حسناء ، وهياً لها كل أنواع السرور إلا سرورها برويته ، وأثار غيره أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها في السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بزقله لسان هذا الأشيب السليط ، في رواية هذه القصة القديمة .

(*) لسنا ندرى لم يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانية في الشرق تفوق ما وصف به هو نفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة في هذا الكتاب . (المترجم)

الفصل الثالث

أسبانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسبانيا في موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ؛ وفي جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة زوت أرضها بدماء الشره ، وتخترقها سلاسل الجبال التي تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدهم . وقد أحست أسبانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذي كان فيه الفنانون في العصر الحجري القديم يصورن الثور الوحشى . (البزون) على جدران الكهوف في ألتيرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسبان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ، وكانوا ولا يزالون صلاب الرأي ، أقوياء العاطفة ، يمتازون بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمروءة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكاناً يتألفون حتى في ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبريون من أفريقية ، واللجوريون من إيطاليا ، والكالت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين . وإذا جاز لنا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسبان كانوا قبل الفتح الروماني شعباً قريباً من الهمجية ، يعيش بعضهم في مدن وبيوت ، وبعضه في قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على البطين ، ويغسل أسنانه بالبول المعق (١٨) . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلايب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله فى سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدى (١٩) » .

وقد أنشأ سكان جنوبى أسبانيا الشرقى - فى تررسوس وهى ترشيش Tarshish الفينيقية - حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت تررسوس على أساس هذه الصناعة ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان فى ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار هذا الفن سوى بضعة تماثيل فجأة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلكى Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتى قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسبانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبى الشرقى ، وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببنى عمومهم القرطاجنيين لإخماد ثورة فى البلاد ففتحوا تررسوس وجميع أسبانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونوية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما فى البلاد التى يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سبيو إلى أسبانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضااض هنببال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أنبائهن على وقوعهم أسرى فى أيدي الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحرية وهم يموتون مصلوبين (٢٠) : وتطلب فتح أسبانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقبصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التى كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطبغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، واتخذ الأهليون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسبانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسبانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ، وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وبيرو لها هي فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل في استخراجها في هذه الأيام . ولا يزال . وسع المرء أن يرى في هذه الأيام المناجم عند ريو تينتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة في صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يوماً بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس (٢٢) . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسبانيا في هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدياء تخرج الحلفاء التي تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذى الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأفديمون من أنواع الخمر وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادي الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من المجاري التي هي أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسبانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التي يخطئها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التي تمخض عنها الحكم الروماني في هذه البلاد نتيجة تمازجها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهي تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها : فقد كان في ولاية بيتكا Baelica (الأندلس Andalusia

الحديثة (مدائن كارتيا Carteia (الجسر (ومندا (Munda) ومالقة ،
وابطاليسكا (مسقط رأس تراچان وهديران) ، وقرطبة ، وهسپالس
(أشبيلية) ، وقادس . ونشأت قرطبة في عام ١٥٢ ق . م ، وكنت
مركزاً أدبياً عظيماً واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها
ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس
بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ،
وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوروبا علماً . وكانت قادس أكثر مدائن
أسبانيا سكاناً ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب
نهر الوادي الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلسي مع غرب
أفريقية ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ، وقد أضافت فتياتها الراقصات
الرشقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما
كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيبو Olisipo . وأقام مهندسو تراچان
جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرية Norba Caesarena (التي
أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر روماني بقي
على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقود الفخمة التي يبلغ اتساعها مائة قدم
والتي تعلو مائة وثمانين قدماً فوق قاع النهر ، تحمل طريقاً من أربعة دروب
كثير الحركة . وكانت عاصمة لوزتانيا هي مدينة إمرينا (مريده Mérida)
وكانت تزدهر بما فيها من تماثيل كثيرة ، ونبثلات قنوات لجر مياه الشرب ،
وبحلبة للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة
طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقها في ولاية تراكننسس Tarraconensis
مدينة سجوفيا Segovia التي لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها
قناة أنشئت في عهد تراچان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة
Toledo الحديثة) التي اشتهرت في عهد الرومان بما فيها من مصانع
الحديد ، وقامت على الساحل الشرقي مدينة نوفا كرتاجو Nova Carthago

« قرطاجنة الحديثة » التي أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها
وكان في البحر الأبيض بالقرب من أسبانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا
بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا في ذلك العهد مدينتين قديمتين
مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقى نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو
Tarraés (Tarragona) (طرقونة) وبرسينو (برشلونة) ، وكان إلى
جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار
المسافر سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألقى نفسه في
يلاد غالة .

الفصل الرابع

غالة

لقد كان في مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير في تلك الأيام في نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدي من الرون والساوون إلى الوار وإلى المحيط الأطلنطي ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساوون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير في هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية — بأحد المعاني التي يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة — بدأت منذ أيام « الرجل الأوريناسي » Ourignacian man . أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان في هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنيك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجري القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفتح الأرض في العصر الحجري الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألبى » المستدير الرؤوس . يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر في فرنسا ، ومثا إلى بريطانيا وأيرلندا .

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Tène فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أوفاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تنم عليها المدن التى شادوها (*) . ويقول قيصر إن الغالين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرة العضلات (٢٣) ، يشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أقفيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجوهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية — إن لم يكن عندهم ما هو أثمن منها (٢٤) . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب البجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن نصدق أبيان (٢٥) . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سذج ، ذوو شتم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غلبوا » (٢٦) . ولكن علينا ألا نشق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

(*) منهم الأميباني Ambiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكي Bellovaci فى بوڤيه Beauvais والبيوريي Bituriges فى بوج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Charterres والپاريي فى باريس ، والبكتون Pictones فى پواتيه ، والريمي Remi فى ريمس Rheims والسنون Senon's فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

فى كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعدائهم . وقد اشمأزت نفس
پوسيدونيوس حين رأى يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم
فى رقاب جيادهم^(٢٧) . وكان يسهل استثارتهم للجدل والقتال ، وكانوا فى
بعض الأحيان يسلون أنفسهم فى المآذب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا .
ويقول عنهم قيصر : « إنهم كانوا أكفأ لنا فى الشجاعة وفى التحمس
للحرب^(٢٨) » ، ويصفهم أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus
بأنهم :

« مهما تكن سنهم يلقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج
للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب فى مقتبل العمر . . . والحق أن
سريه كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف فى وجه غالى واحد إذا دعا
زوجته إلى تأييده ، وهى فى العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة
إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ،
وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تقذف من منجنيق » .
وكان الغاليون يؤمنون بأله كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير
علينا إذا لم نذكر أسمائها . وكان إعتقادهم بحياة سعيدة فى الدار الآخرة
قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر فى
شجاعة الغاليين . ويقول فاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت
تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم فى الدار الآخرة ،
ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغاليين فى إحدى الجنازات يكتبون الرسائل
إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت
إلى المرسلة إليهم^(٢٩) ؛ ولينأ نستطيع أن نستمع برأى رجل غالى
فى هذه القصص الرومانية . وكان كهنتهم يشرفون على جميع شئون
التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية فى نفوس المتعلمين ؛
وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها فى الأياك أكثر
مما يؤدونها فى الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم في هذه الأيام. طريقة الإعدام بالكهرباء ؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة - ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية - في هذا المجتمع الغالي ؛ وكانوا يولفون الترانيم الدينية ، والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها » ، وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة » (٣١) . ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير في بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت في العصور الوسطى ، تسير على النظام الإقطاعي المكتسب بشباب الحكم الديني . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة في القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لادين La Tène الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوروبا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسبانيا ، وشمال إيطاليا . وفي عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفي عام ٢٧٨ نهبوا دلفي واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم في الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب في هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا في العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع في القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذي قبل . وأخذ الكلت يردون إلى الوراء في كل مكان عدا أيرلندا ، فأخضعهم القرطاجنيون في أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان في عام ١٢٥ ق . م جنوب غالة لحصرهم على تأمين طريقهم إلى أسبانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفي عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد سغارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماهما أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهي المعروفة للرومان باسم پروفنسيا Provincia ولنا باسم پروفانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا في الجنوب الغربي ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدجونية Ludgonensis في الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلث ، وبلجيكا في الجنوب الشرقي وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتق بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التي تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملوك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملوك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا . ومنحت حق المواطنة الرومانية مكافأة منها للغالين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام في مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها في أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها لم لبث أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وابتزعت شئون القضاء من أيدي الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الروماني في فرنسا ، وظلت بغالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجليد .

وحدث في عام ٦٨ م وفي عام ٧١ م أن اندلع لطيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة فندكس Vindex وسقيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلاً لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية .

وأصبحت غالة في ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ في عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت بذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة (٣٣) . فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية (٣٤) ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون في كل مقاطعة ، وكان بلني وكوللا Columella في القرن الأول الميلادي يمتدحان نخور برغندية وبردو . وكانت في البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع في العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة في غالة القديمة ، كما هي في فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه في أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدماً سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج في الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجاري وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة (٣٥) . وكانت البراعة الفنية في الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الروماني ، وكانت الطرق التي أصلحها الرومان أو أنشئوها والتي يبلغ طولها ١٣٠٠٠ ميل غاصة بأدوات النقل والتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى في غالة الرومانية ، فكانت پردجالا Burdegala (هي بردو الحالية) عاصمة أكويتانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطي حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum (ليموج) وأفريكيم Avaricum (يورج) وأغسطنم Augustonemetum (كليرمون - فران Clermont-Ferrand) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزنودوتس Zenodotus أربعائة ألف سسترس ليقم بها تمثالا ضخما لعطارد^(٣٦) . وفي غالبا البرونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت يأنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان في الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التي اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية في القرن الأول الميلادي أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التي تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسبانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أبولينارس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للفتنة ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهى ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومراعى ، وبحيرات ، وقنطرة ، وبحراً »^(٣٨) . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذي يصل أسبانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes) ، وقد شاد أغسطس والمدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تخليدا للذكرى حفديده لوسيوس وكبوس قيصر ؛ وما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلة في جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد في رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن في مدرجها الذي كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التي كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم في صورة آثار ضخمة محطمة في الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التي فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية .

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات Arelate (آرل الحديثة Arles) ظنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه . وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه القرصبة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات في الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق : وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة في شئونها عن حاكم الولاية . وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii (فريجوس Frejus) ، وأنتيوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسا Nicaea (نيس) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر في نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقى في هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ، وفيها أيضاً ملهى روماني ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هي غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساوون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجربا ، ولذلك أضحت المركز التجاري لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل في القرن الأول الميلادي عدداً من السكان يبلغ خوالى مائتى ألف (١٠) . وكان إلى شمالها بلدة كيسلونم Cabillonum (شالون - على - الساوون Chalon-sur-Saône) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطلدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسناوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) . لوثيريا Luteria (باريس الحالية) . وكتب الإمبراطور يوليوس يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء (٣٥٧ - ٣٥٨) في لوتيريا
مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين
الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر . . . يعصر فيها الخمر الطيب » (١) .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين
بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ، وكان معظم ما فيها من صناعات
قليلة متصلاً بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تبدل بقاياها الكثيرة على
أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه
الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان
كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وبوقيه ، وتريف Treves . وازدهرت
آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطس ترفرورم Augusta Trevirorum
لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ، وأصبحت فى
أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس
أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية
القديمة - فلا تزال الهورتا نجرا Porta Nigra محتفظة بأسوارها الرومانية ،
ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القرية منها مقبرة أسرة
سكندينى ، وفى نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت
على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبدلاً بطيئاً وجددت عناصرها
فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا
ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم فى القرن
السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامهما فى الكنيسة
الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخت حتى صارت
فرنسية . ونالت رومة أعظم فوز لها فى غالة بنقل الحضارة الرومانية
إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال جوليان وفنك برنتانو

Funck-Brentano^(١٣) أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هي لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحها ألمانيا حتماً ، وأنه لو لم ينتصر قيصر في تلك البلاد. كما يقول Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمئة عام ، وفي وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت في غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو في أفريقية وأسبانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسي الروماني العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هي العدو المنافس للعالم الروماني - اليوناني ، وبفضل قوته وشدة بأسه التي استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومي بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية - الرومانية الفترة التي لم يكن منها بد لتمدين الغرب »^(١٤) .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية - اليونانية وبين الحضارة البدائية ، فأما غالة فلم يكن في وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذي حدد مجرى تاريخ أوروبا إلى يومنا هذا .

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلث واستقر فى إنجلترا . وقد وجدوا فى تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبيرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلث هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا فى إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠ ق . م (ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجلييلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلث من داخل القارة وطرد بنى عمومته من جنوبى بريطانيا وشرقها . ولما جاءها قبصر وجد سكان الجزيرة يتألقون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبى القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلثية شبيهة كل الشبه بغالة الكلثية فى عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها فى حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدي قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أن بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر پيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها حصبة بفضل الأمطار

الغزيرة ، وكانت أرضها تحتوى على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ،
والقصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفى
لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت
فيها نقود من البرنز والذهب (٤٥) . وكانت غارات قيصر فى واقع الأمر
غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التى تسكن تلك
البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى
الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٣ م) عبر كلوديوس
بالقناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم
فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك
الوقت ولاية تابعة لها . وفى عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية
تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن
ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا
كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينما كان الحاكم الرومانى
بولينس مشغولاً فى الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلق
الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت
فى ذلك الوقت - على حد قول تاسيتس - « أهم مسكن للتجار ، كما
كانت سوقاً كبرى للتجارة » (٤٦) . وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى
فريولامينيوم Verulamium (سانت أولبنز St. Aibans) ، وذبح
سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى بولينس وفيلقه بالثوار .
وحاربت بودكا وابنتها فى معركة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء هزيمتها ، ثم
تجمعت السم ، وضربت بحمد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاسيتس عن أجر كولازوج ابنته وحاكم بريطانيا (٧٨ - ٥٤ م)
فى روى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتهى ذى نزعة حربية » بإنشاء
المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط : « واستحوذت مباحج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محبة إليهم ، وأخذ البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة ؛ وإن لم تكن في حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلاً للاسترقاق » . واستطاع أجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الروماني ، إلى ضفاف نهري الكليد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الأسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولولم يدعه دومتيان ليواضل الزحف . وشاد هديران سوراً (١٢٢ - ١٢٧) طوله سبعون ميلاً في عرض الجزيرة يمتد من خليج سلواي Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الأسكتلنديين الذين كانوا يرتابون في نواياه ؛ وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius في شمال هذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلاً يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبي الكليد والفورث . وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان .

وكان حكم رومة يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك في غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة في بريطانيا حضارة مدن كما كانت في إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ، ولكن المدن البريطانية أخذت وتشد أشكالا جديدة بفضل استنهاض رومة وحمايتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنة الرومانية وهي : كمولودونم Camulodunum (كلشستر Colchester) التي كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التي يدل اسمها لتكوّن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم Eboracum (يورك) وكانت وقتئذ مركزاً حروبياً هاماً ؛ وجليشم Glevum ، التي

امتزج في اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليقم وشستر وثاني اللفظين .
هو اللفظ الإنجليزي السكسوني المقابل لكلمة مدينة (*) ؛ ويلوح أن تشستر ،
وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر (لستر) وسلشستر ، ومنشستر
قد بدأت كلها في القرنين الأول والثاني من حكم الرومان . وكانت في أول
الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها
كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ،
وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان
في فركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسلفا تسع لسته
آلاف شخص ، وحمامات تسع لاستحمام مئات من الأشخاص في وقت
واحد . وكان في أكواسالس Aquae Salis (المياه الملحة) ، التي تعرف
بامم Bath هيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طبييا في الزمن القديم
كما يدل على ذلك ما بقي من آثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن
لندن يوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز
ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان
الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان
ما أصبحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم (٤٩) .

وكانت البيوت في لندن الرومانية من الآجر والمصيص أما في البلدان الصغيرة .
فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذى يحدد شكلها ، فكان لها سقف هربى .
يقبها المطر والتلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ،
« لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكثر من ثلاث ساعات
أو أربع حتى في اليوم الصحو » (٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الرومانى :—
أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عمودية وتدفة مركزية .

(*) هافريلد Haverfield (٤٨) ؛ لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من
كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أو كسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خطط معظم
المدن الرومانية — البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المعسكرات الرومانية ..

» تزيد على ما كان منها في البيوت الإيطالية) بأنابيب تحمل الهواء الساخن في أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم في تدفئة البيوت ، وفي الأغراض الصناعية كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها^(٥١) . وكان في باث مصنع (فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية^(٥٢)) ، وأكبر الظن أن صناعات الخزف ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع في المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت في البيوت ، والخوانيت الصغيرة ، والدور ذات الحدائق . وكان في الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التي كانت عكس تجارة بريطانيا في هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أى عمق نفذت الحضارة الرومانية في حياة بريطانيا وروحها في الأربعة القرون التي سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد ضارت اللغة اللاتينية لغة السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة في البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً في الزيف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن في ويلز وفي جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة في بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبُنيت هياكل للآلهة الرومانية ، ولكن الرجل العادى ظل يمجّد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما في الأمر أن الأهليين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا في ظله بسلم مشمرة وروحاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعى .

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتييريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحوادث الهامة في تاريخ أوروبا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبغت كما صبغت غالة بالصيغة الرومانية ، لكان لأوروبا الواقعة في غرب روسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوروبا الوسطى في هذه الحالة حاجزاً في وجه تلك الجماعات الكبرى التي كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم لإيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الاسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(*) ، ولقد كانوا في الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة في ذلك الجزء من أوروبا المحصور بين نهري الرين والفستولا Vistula ؛ وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطي . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً في القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لا يزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التي يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحمد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمان وشرايه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاسيتس :

« ليس شعار الألماني هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يحني الحصول في موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى في جسمه الجراح الشريفة في ميدان القتال . ويرى الألماني أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

(*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanus الوصفية (المشتقة من German بمعنى النسل) ويعنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون في نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الحاملين وأنه لا يلبق قط بالجندي» (٥٣)
ولقد تحدث المؤرخ الروماني عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة
النساء وهن يحرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم في كثير من
الأحيان . وكان وهن يصفهن يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ،
ويغالى في هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاقي . ولقد كان الفرار
من العدو يسر بل من يرتكبه بعار لا يحصى مدى الحياة ، ويؤدى في كثير من
الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً
وأطول قامة من الغالين » (٥٤) . وكان سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا
نتائج منكرة بأسوأ النثر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام
القوية العنيفة ، وهذه القوى التى لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم
والحدق في الحركات العسكرية — وحسبى هذا . ولن تستطيعوا (أيها الرومان)
أن تقفوا في وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم » (٥٥) .

ويروى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا في أيام السلم كسالى بلداء ، يقضى
الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) في ملء بطونهم باللحم
وشرب أنهار من البعثة ، بينما تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية (٥٦) . وكان
الألماني يشتري زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى
أبنائها حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن
النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن
يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلعن
أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء
القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ،
ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعى مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية ،
« فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبت المرأة عوقبت بقص شعرها .
والحكم عليها بأن تسير عارية في الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهى تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت (٥٨) ، ولكنها كانت في العادة امرأة ولودا . وكان ينذر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل (٥٩) .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : (١) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أقنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ، (٢) والمحجرين - وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة (٣) والأحرار - وهم الملاك والمحاربون ؛ (٤) والأشراف - وهم ملاك الأراضي الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص (Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التي برع فيها الألمان ؛ أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهي التي أنشأت نظام الفروسية في ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضاف إلا قليل من البناء الثقافي فوق هذا النظام الاجتماعي الساذج . ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة في صورة الآدميين . ويسمى تاسيس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطارد Mercury ، وهرقل Herculies - والراجع أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هي تيو Tiu (تير Tyr) ووودن Woden (أودن Odin) ، ودونار Donar (تور) ، ولاتزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكرها هي وفريا Freya إلهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلهة عنراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض) ، التي حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعفاريت الصغار والكبار ، ووجن البحار ، والمردة ، والأقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألد طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام في الحلاء في الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة في مسكن تشيده الأيدي البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد *Driuds* عند الغالين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل في القضايا الجناحية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهيل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان في غالة شعراء يتغنون في شعر فح بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التي تطورت منها الحروف القوطية وهي الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقتها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادي الفخم ولايتين — ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولندا وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولوني . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجريبننس *Colonia Agrippinansis* قد جعلت ولاية (٥٠ م) تكريماً لأم نبرون التي ولدت فيها ، ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاماً حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب محترقة مجتياكم *Maguntiacum* (ماينس) *Mayence* ، وأكوا أوريليا *Aquae Aureliae* (بادن — بادن *Baden-Baden*) وأرجنتراتم *Argentoratum* (استراسبورج *Strasbourg*) وأغسطا روركورم *Augusta Rauricorum* (أوغسط *Augst*) وتنتهي عند فنلونسا *Vindonissa* (فندش *Windisch*) . وكان في هذه المدن

جميعها تقريبا ما في غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهي ، والحمامات ،
والتماثيل العامة . وكانت كثير من الفيالق التي ترسلها رومة لحراسة الرين
تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون
مواطنين في تلك البلاد بعد أن تنتهي مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن
بلاد الرين لم تكن في أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها في أي وقت قبل
القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسي رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهري
الرين والدانوب طريقاً محصناً ، وأقاموا على جانبيه قلاعاً تبعد كل منها عن
الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد
هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة
المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر
الدانوب الذي يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حداً
فاصلاً بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات
النصف الممجة ريتيا ، ونوركم ، وبنونيا ، وهي الولايات التي تتكون
منها البلاد التي كنا نعرفها في شبابنا باسم دولتي النمسا والمجر والصرب .
وقد أنشأ الرومان في موضع أجزبرج Augsburg (أي بلدة أغسطس)
الحديثة مستعمرة رومانية هي مستعمرة أغسطس فندلكورم Augusta
Vindelicorum كانت هي المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق جمر
برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين
عند فندوبونا Vindobona وهي مدينة فيينا الحالية ، وعند كونكم Aquincum
على المرتفعات التي تشرف منها بودا Buda على بست Pest . وقامت مدينة
سرميوم Sirmium (متروفيكا Mitrovića) في بنونيا الجنوبية الشرقية على
نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة في أيام
دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجاري

ثليونان ، والرومان ، والأهالي الوطنيين في مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبي
بنونيا ثغور البحر الأدرياتي وهي سالونا Salona (اسپلاتو Spalato
الحديثة) وأبولونيا Appolonia (بالقرب من فالونا) ، وديرهكيوم
Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة) . وكانت رومة الإمبراطورية
تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما
وأصلهم عودا ، كما كانت تستمد منها في القرن الثالث الأباطرة الحربيين
الذين صدوا سيل البرابرة حوالى مائتي عام . وكان في شرق بنونيا ولاية
داشيا (رومانيا الحالية) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التي لم يعد لها
الآن وجود . وكان في جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية ميثزيا (وتشمل
أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة) ، وكان فيها على الدانوب
مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم (بلغراد الحديثة) وترتزمس Troesmis
(إجلتزا Iglitza) وثالثة بالقرب من نهر إسكسر Isker وهي سريديكا Sardica
(صوفيا الحالية) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهي إستروس
Istrus ، وتومي Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنه
Varna) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية في هذه
المستقرات النكدة لكي تحافظ على كيائها ضد القوط ، والرومانيين ،
والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التي أنحاث تتكاثر وتتجول في شمال
النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدهما نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدين هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذي
أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى
آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف في مهاد الراحة
والعقم بينما كانت القبائل الضاربة في الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا .
فلما أن قدم تراچان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية
النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بآلاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التي كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان في الجيش الروماني بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة . وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها في إيطاليا بينما كانت الأسر الإيطالية آخذة في الانقراض . وهكذا انعكست الآية في هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « يبربرون » رومة . بعد أن كانت رومة تصبغهم بضبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لخطيرة التراث الروماني واليوناني القديم ما يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . ففي هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان في وسع الناس أن يستبدلوا بسيفهم محارث من غير أن تنحل قواهم في نعيم المدن وأحيائها القلدة . ونبت فيما بعد حضارة جديدة في أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها في البلاد التي جاءت إليها الجحافل العاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلو طرخس

بلدت رومة جهدها لكي تكون كريمة في معاملتها لبلاد اليونان ، ولم آخفق في هذا الإخفاق كله ؛ فهي لم تضع حاميات من الجند في ولاية أخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينزعه جباتها من أهلها قبل مجيء الرومان إليها ؛ وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كاثينة ، واسبارطة ، وبلاتية ، ودلفي وغيرها « مدناً حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها في أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حلقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ، ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثراداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوزها كل دلق . وإليس ، وإيدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقابل قيصر وبمبي ، ثم انطونيوس وبروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها في جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا في عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتبشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الروماني بل كان هو الاستبداد الذي خنق أرواح الأهلين في اسبارطة ، والحرية التي انحطت حتى أصبحت فوضى في أثينة ، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجذب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جزأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضي التي كانت أغنى منها وأحدث استقلالاً . وأذى قيام دول جديدة في مصر ، وقرطاجنة ، ورومة ، وقيام الصناعة في بلاد الشرق الهلنستي إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة نخاوية مهجورة . وكانت رومة تثقل اليونان بمديحتها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scaurus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيولا زوج عشيقته لينقب في بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما في دلفي من روائع النحت ، ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدريان الملك .

وكانت إبيروس هي التي انصب عليها غضب رومة أول الأمر في الحروب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند يهبونها ويعيشون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً في سوق الرقيق ، وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإبيروس في نيقوبوليس ليخلد ببنائها انتصاره في أكتيوم القريبة منها . وما من شك في أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصماً لأن « مدينة النصر » آوت إيككتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوقية ، فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطاً بفضل طريق إجناتشيا Egnatia الذي كان يصلها هي وتراقية من أبلونيا ودبر هكيوم إلى بيزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسي الذي لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وپلا ، وئسالونیکا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التي نعرفها نحن باسم سلانيك والتي كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة في شرقها فقد اقتصت نفسها بالزراعة ، والرعى ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica (صوفيا Sofia) ، وفلپوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل (أدرنه) ، وپرنثس Perinthus ، وبيزنطية (اسطنبول الحالية) . وهنا على القرن الذهبي ، كان التجار وضائلو السمك يجمعون ثروة طائلة بينا كان اليونان الذين يقطنون من ورائها في الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجيء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوديا والبحر الأسود تؤدي إلى المكوس وهي مارة بها ، ويكاد السمك لكثرتة أن يقفز في الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليوناني — الروماني القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية في إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريسستم^(١) جزيرة عوبية العظيمة التي أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم بوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، وصفها بأنها تعود إلى البربرية في القرن الثاني الميلادي . وقد تجمعت في هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا في يوم من الأيام شعباً زراعياً مطرد الثماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هي ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة في أيدي عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وجهم الثراء أو لفقرهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية في داخل أسوار خلقيس وإرنيريا
نفسهما . ولم تكن بووشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها
أمن الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست
إلا قرية صغيرة » ، قد انكشفت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذى
لم يكن قبل إلا قلعها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء
إلى بلاتية ، واحتفظت قبرونية التى كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين
عظيمتين ما يكفى من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها
هذا الإبن - أفلوطرخس - إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تضغر عنه
بتركه إياها . وإنا لنجد في حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرفة
مبهجة من منظر نكد كتيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلاً مهذباً من رجال
الطبقة الوسطى مستمسكاً بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص
لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس في قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية
أفلوطرخس القيرونياى .

- وكان مولده في تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام ١٢٦ .
وكان يطلب العلم في أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته في بلاد اليونان . وما
من شك في أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف
مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية في رومة ، ويبدو أنه خدم
بلده في بعض الشؤون الدبلوماسية . وكان يحب العاصمة العظيمة ، وآداب أشرفها
الجدد ، وحياتهم الرقيقة ، ويعجب بقانونها الصارم ، ويقول مع لانيوس إن رومة
قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينما هو يفكر في أمر هؤلاء
النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم
يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سراً فحسب ، بل كان يعتزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت في ذهنه دروساً في الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقها من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحلرنا في سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عطاء الرومان وعطاء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث في نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب والبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن ننفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين (٣) .

وليس من حقنا أن نتوقع في كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ليء بالأغلاط في أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكماً عليه) يخطئ في فهم الحوادث ، بل إنه ليقتصر في واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سير - وهما أن يبين أن أى شيء في أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف ، وأن ينتج تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقى عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلو طرخس كما نخرج من كتاب هرقلطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب

« السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفي كلها في روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس في صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سطر واحد يحس القارى أنه حشواً لضرورة له ، بل إن كل جملة من جملة لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عطاء الرجال - منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مربّع النفوس العظيمة » (٤) . وكتب عنه متفاني يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى »^(٥) . وقد استمد منه شيكسبير كثيراً من قصصه ، وإن رأيه فى بروتس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعود به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أئمن من هذا الكتاب :

وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه بلبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمباني ، ثم كبير حكامها ثم بوئوتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاختفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحى فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييد الذى تستمد منه أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فيها المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية^(٦) . وبما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحدّه زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بعبداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل في الطبيعة وفي بني الإنسان .

ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بحجة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة في المطهر قد تظهر أى إنسان مهما خبث حتى نثرون نفسه ، وأنه قلما يوجد في الناس من يعدبون عذاباً سرمدياً^(٧) . وكان يتندد بالخرافات ويرى أن أهوالها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل ، ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أبولوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون وبوق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شيء واحد^(٨) .

وقد عني المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها المورال (Moralia) لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة ، وهى تبحث في كل شيء ، من الخث على استبقاء كبار السن في المناصب العامة إلى البحث في أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة . وأفلوطرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعملون لحصار . . . إن أقل الأطعمة ثناءً هى على الدوام أكثرها نفعاً . . . ولما هجر أزدشير ممنون في أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير

والذين صاح قائلاً : « ما ألد هذا الذي لم يكن لي من قبل ! » . . . والنبيذ .
أفيد المشروبات على شريطة أن يكون في مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . .
وأكثر ما يجب أن ينشأه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم
لأنها تخمد العزيمة في أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ،
وخير ما يفعل الإنسان أن يعود جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى
غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفرة من أشياء كثيرة .
لا تفيد في التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة وممتعة أما وقد أصبحت
العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة .
وسنداً لغذائنا ؛ وينبغي لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التي هي أكثر
منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها ضلالة على شعلة التفكير التي توقد من مواد
سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير (٩) .

وهو يحذو حذو أفلاطون في الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء
على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات في الأزمنة القديمة (ولقد
كان هناك نساء مثقفات في المحيط الذي يعيش فيه) ، ولكنه ينظر إلى زفي
الرجل بنفس السهولة التي ينظر بها إليه الرجل الوثني فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكاً في ملذاته وزل مع عشيقته أو خادمة ،
فلا يصح لزوجه أن تغتاز لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه
لها هو الذي دفعه إلى أن يشرك في فجوره امرأة غيرها » (١٠) .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسننا
بعد قراءتها ، بأننا كنا في صحبة رجل رقيق القلب ، طيب في جوهره ، كامل في
رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله هو الترياق الشافي من
الهوى الفكري الذي يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المزن ، وفكاهته
اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا تقوى على مقاومته حتى
في المواضيع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوثق من

الحكمة ما يكتفى لإسعاده ، وينصحنا بأن غلبنا أن نحمد الله على ما فى الحياة
من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً فى قلة ابتهاجنا بها :
« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التى نشترك فيها مع
الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء
الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح
أن يعد كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها
بسيدها . فى هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تماثيل
ساكنة من صنع الأيدى ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهى
لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التى لا تنفك
تصب الماء العذب صباً ، والأرض التى تخرج الطعام . . . وإذا كانت هذه
الحياة هى أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن غلبنا أن نكون على
الدوام ممثلين غبطة وبهجة » .

فصل ثانى

صيف هندى

تمثل فى أفلو طرخس حركتان قامتا فى عصره أولاها العودة إلى الدين ،
وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية فى الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى
جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليونانى .
وازدهرت فى هذه الأثناء ست مدن من مدائن الهلنوينز ، ولكنها لم تمد
التفكير اليونانى إلا بالقليل . وهذه المدن هى مدينة باترى Patrae التى ظلت حية
منتعشة خلال العصر الرومانى والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة
الغربية وصناعة النسيج التشيطة . ومنها أولبيا التى أثرت من أموال السياح
الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذى صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب
الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التى
كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى
عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة
والمؤرخون يقدون إليها كما كانوا يقدون فى أيام پروذكس وهيرودوت ليخطبوا
فى الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريسستم المؤلفين
وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون
أشعارهم ، والخطباء يملثون الهواء بصيخهم و « السوفسطائيين الكثيرى العدد
كانهم طواويس تزهو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا رايحهم على الجماهير (١٢) .
وقد برهن ديوكريسستم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين .
ويصور إبيكتنيس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظلة وهم يتصببون
عرقاً وتلفحهم الشمس أو يفرقهم المطر ، ولكنهم لا يعبثون بهذا ولا ذاك
فى غمرة من الضجيج والعجيج التى كان ينتهى بها كل دور فى اللعب

أوشوط في السباق^(١٣). وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التي أقامها هلريان ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات في الشعر أو الخطابة أو الموسيقى ، فيها هي ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة في الاحتفالات العظيمة ؟ »^(١٤) وأدخلت الجالية الرومانية التي استوطنت كورنثة قتال المجالدين في هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان - ديوكريستس ، ولوشيان ، وأفلو طرخس - على هذا التدنيس ، وتقديم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبي إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة في أثينة^(١٥) ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام في بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحي وكانت له السيادة في تلك البلاد .

وكانت اسبارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إيدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكليبيوس . ولم يكدهم يفضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن في بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان ، واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلق . وكان هيكل أفرديني بنديوس القديم سوقا ذات تجارة رائجة ومركزا للدعارة الكورنثية . ويصف أبوليوس Apuleius جفلة راقصة فخمة شهدها في كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريس و « ظهرت فيها فينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطي خصرها النحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

«الشمال» (١٦) . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منذ أيام أسبازيا .
فإذا انتقل الإنسان إلى أنكا عن طريق مجارا بدا الريف في فقر مدقع
اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتقطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ،
إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحالت في عصر
السلم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن في أنكا كلها إلا اثنتان من المدن
ذوات الرخاء : إليسير التي كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجاهل
الغنية في كل عام ، وأثينة المركز التعليمي والثقافي للعالم القديم . وكانت
معاهدها ونظمها القديمة — المجلس ، والجمعية ، والأركونية — لا تزال
تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريوييوس سلطته الأولى
فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحسن حقوق الملكية الحصين . وكان
الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهديان
ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أنكس Herodes Atticus في هباتهم
للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكذب يبق منه
شيئاً في بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى في أسفل الأكروبوليس . وتبرع
هديان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمبيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ،
وكان وقتئذ على حافة القبر (*) — بيتاً خليقاً به في عنفوان شبابه .

وفي هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة في الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ،
وعلم وجود مدن أخرى تنافسها في هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً
جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعتها تضم عشرة
كراسي للأساتذة يتفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار
من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلتقي فيها دروس ومحاضرات في
الأدب ، وفقه اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ،
والقانون . وكانت تلتقي عادة في مدارس التدريب الرياضي أو دور التمثيل ، وأحياناً

(*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن تحل محلها المسيحية . (المترجم)

في المعابد أو البيوت: ولم يكن يراعى في منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاقى . وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عددا كبيرا من قوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدلبيين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على تزقيهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاج على يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين في بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذى يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصي . وكان بعض الطلبة يحسبون أن في مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهم إلى مناقسين هن بلداء عاجزين (١٧) . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين في مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التى يؤديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درنجة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) في السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » — الذى عاد فيه إلى الظهور الخطيب — الفيلسوف الذى يتنقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعى

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويرافع في المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش في بيوت الأغنياء مستشاراً روحياً ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرماً لدولة — مدينته . وازدهرت هذه الحركة في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة في العالم اليوناني ، في خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادي ، وقد وصفهم ديونيقوس إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يلقون جدداً عن الأساكفة^(١٧) . ولم يكن لهؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم في عبارات بليغة ، ويحتذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون في كثير من الأحيان إلى مراكز عالية في المجتمع . وينالون رضاء الأباطرة ، ويمجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين في أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ، بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابي والحدق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التي زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوسترانس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين في ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلاً واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصوري يدرس البيان في أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتي إلى محاضراته راكباً عربية تجرها جياد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر ، ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة في موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هديران يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذاً للبيان في رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يوجلون جلساته وجمهور السكبان

يتكون دور العنيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية^(١٩) . وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل النيران ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكلبيين . ولقد وصفناهم في غير هذا المكان - وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحياتهم الكثة ، وجعبتهم وهكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش في بعض الأحيان ، وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، في ظل نظام كهنوتي فيه مبتدئون وروؤساء أعلن^(٢٠) ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبي المثقف الذي خرج عن كل ثروته ليعيش في فقر فلسفي ، والذي وهب حياته الطويلة التي دامت قرناً كاملاً (٥٠ - ١٥٠ م) لمساعدة غيره من الناس ، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمت أثنيته رغم أنها كانت تسخر من كل شيء . ولما اتهم أمام محكمة أثينية بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر في الخنوع على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية في نزاع حزبي كان ظهوره فيها كافياً لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من حادثه في شيخوخته أن يدخل أي بيت من غير دعوة ، ويطعم فيه ويتام . وكان كل بيت في أثينية يسعى لأن ينال هذا الشرف^(٢١) . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبين ، وندد برومة ، وحرص بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى لهيبها (١٦٥ م) (٢٢) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكليون يمهّدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ فسبازيان ، وهديان ، وماركس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطيلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيدبز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيوخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى (٧٩ ق . م) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله : وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراستس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، ولما كان أحد من الناس يجرؤ على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الملح والدنس (٢٣) .

وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمان طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خفت حدته على يدى پانيتيوس وهوسيدونيوس ، وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سيبو (١٢٩ ق . م) وأصبح

وقتشذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرف الله بأنه روح مادية أو نفّس مادي. (pneuma) ، بسرى فى الأشياء جميعها ، ويظهر فى النبات فى صورة قوة النماء ، وفى الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفى الإنسان على هيئة العقل logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفاسفة الدينية على أيدى خلفائه ، واقتربت نظرية التأديب الأخلاقى الرواقية من الزهد الكلبي حتى أضحت الكلبيّة فى القرن الثانى الميلادى وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا فى ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدى إپكتنوس وماركس أورليوس .

الفصل الثالث

إيكتنس

وُلد إيكتنس في هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠ م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعليم لأنه صار ينتقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإيفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة في بلاط نيرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ، ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التي يعيشها الرجل العادي . وقد سمح له إيفروديتس أن يستمع إلى محاضرات موسديوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . وما من شك في إن إيكتنس قد اشتغل معلماً في رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفي دومتيان الفلاسفة . ثم استقر في تقوپوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدي الذي أصبح فيما بعد حاكم كيدوكيا . وقد دَوّن أريان عبارات إيكتنس ، وأكبر الظن أنه دَوّنها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أي عبارات « ممسوحة » أو نسخ — وهي التي تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب في العالم بعنوان *أعاري Discourses* (*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة عملة بل هي حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف في وضوح عن خلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قوى صارم . وكان إيكتنس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر في طرح من أسلوبه الجاف الخالي من التجميل . ولم يشك قط حين سمع دمناسس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم *Enchelridion* أو « الموجز » لإيكتنس .

إليه بخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن في تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه في آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلب الجوّ . وذاع صيته في جميع أنحاء الإمبراطورية في تلك الأيام ، وكان هديران بعدة من بين أصدقائه .

وكان إيككتس شبيها بسقراط في هذا وفي نواح أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكري ، بل كان موضوعه الأوحّد الذي يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة لصالحه . ومن أقواله في هذا المعنى : « ماذا همنى من أن تكون الأشياء الموجودة . على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والتراب ؟ أليس يكفني أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ » (٢٥) . وليست الفلسفة في رأيه هي قراءة ما في الكتب من الحكمة ، بل هي تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثير . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ، والرجل الصالح يقوم بنصيبه في الشؤون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع صروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وألم ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر وينبذ » .

« لا تقل عن شيء ما » « إنني فقدته » بل قل فقط « إنني رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت مني مزرعتي » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسنى على أنني أعرج ! » أيها العبد !

أتوتب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ ... وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيًا ، فهل في مقدور أحد من الناس أن يمنعني أن أخرج مبتسماً هادئاً ؟ ... « سألتيك في السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمي ، وسأموت حتماً ، فهل يجب إذن أن أموت شاكياً ؟ ... تلك هي الدروس التي يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدوّنّها كل يوم ، وتمارسها : ... ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقي يجب أن يكون واحداً في كلتا الحالتين (٢٧) .

« وفي مقدور العبد أن يكون حر الروح كدييجين ، وفي وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون (٢٨) ، وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً في حياة الرجل الصالح ، في وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير (٢٩) . وخلق به على أية حال أن يستقبله في هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ ... إنني أحب أن تعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة ... إن السفينة تغرق ، فإذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل ... فساغرق دون أن أخشى شيئاً أو أن أحجم أو أجدف في حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أتى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . على أن أجىء كما تنجيء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى (٣٠) ... يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التي تتكون منها الثوب (٣١) ... لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة » (٣٢)

وكثيراً ما يتحدث إبيكتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه في كثير من الأحيان أيضاً يجعل لفكرته عن الطبيعة شخصية ،
 وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الديني الذي كان يسود عصره يغمر
 فلسفته ويحليها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذي قرأ فلسفته
 وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بايغاً رقيقاً عن
 النظام الفخم الذي يسود الزمان والمكان ، وعمّا في الطبيعة من خطط موضوعة ،
 ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكي يُؤكل ،
 وبعضها الآخر لكي يعمل في المزارع ، وبعضها لكي يخرج الجبن » (٣٣) ،
 وهو يعتقد أن العقل البشري نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجد لها إلا إله
 خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون في الواقع أجزاء من
 العقل العالَمي . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا
 أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفي للفظ الأبوة ، والناس
 كلهم إخوة (٣٤) .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم
 المجتمعات وأوسعها هو نظام (Systema أي الوقوف الإجماعي) الخلق
 والله ، وأن الله هو الذي انبعثت منه الأصول التي نشأت منها جميع الأشياء
 وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . .
 أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدأ بقلبه
 وروحه . . . فأكبر ظني أنه لن تتخالجه قط فكرة دينية أو غير شريفة . . .
 فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذي يأكل ، ومن هو الذي تغذية ؛
 وإذا ضاجعت النساء فاذكر من أنت الذي تفعل هذا . . . إنك تحمل الله
 منعك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لا تعرف ! (٣٥)

ويحث إبيكتس طلابه في فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن
 يسلموا إرادتهم لله في ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا
 فضلاً عن ذلك رسلاً لله بين بني الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس » (٣٦) . . . وفكروا فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله الى العالم لأكون جند من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حياً كافاً أو ميتاً . والله يعنى يوما هنا ويوما هناك ، ويؤدبني بالفقر وبالسجن لكى أكون شاهداً حقاً له بين الناس ، وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعينى أى مكان أكون فيه ، أو من يكون رفاقى ، أو ماذا يقال عني أجل ، ألا تكون فطرتي كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه (٣٧) . أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أروع الفقرات فى تاريخ الأديان : « أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفأنا كان خليفة بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله . والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلقها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ — وماذا بعد هذا ؟ — أما وقد أصبحت كثر تكلم الغالبة عمية ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ » (٣٨) .

إنا لنجد فى هذه الفقرات تشابها عجبياً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعاً إلى عقائد الرواقين والكليبيين . والحق أن إبيكتس ليتقدم أحيانا عل المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مريضى يحتاجون إلى العلاج (٣٩) . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم^(٤٠) ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سيئاً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »^(٤١) ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنساناً يتحدث عنك حديث سوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها »^(٤٢) . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شتموا ! »^(٤٣) ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »^(٤٤) . وتراه أحياناً يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذى يتحدث به عنه الناسك الذى لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقدر الأشياء جميعاً وأحبها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشيء ونؤذى له هذه الخدمات العجيبة فى كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »^(٤٥) .

ومن أقوال إبيكتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرف فى يارب كما تشاء ؛ إن عقلى منك وإليك ؛ وأنا مملك لك . ولست أطلب أن أعفى من شيء ترى أنت أنه خير . اهتدى إلى حيث تريد ، واكسنى بما تشاء من الثياب »^(٤٦) ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بالاهتمام بأمر غدا :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، وولينا - أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أطعم إذا لم يكن عندى ما أطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثنى عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموهبة » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء فى الأديرة ومرشداً لمن ؟^(٤٧) . ومن يدرى ، لعل إبيكتس قد قرأ أقوال عيسى فى صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

فصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك بروتجوراس ، وكان فيها لوشيان ، مسخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرسطس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أسلوب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بىرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية في القرن الأول الميلادى ، وذلك في « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التي تجعل المعرفة مستحيلة (*) . وفي أواخر القرن الثاني صاغ سكستس إمبركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً . فلسفة المتشككة في شكلها الأخير وضمها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدواً له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

(*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) في الحيوانات المختلفة ، بل وفي الآدميين المختلفين ، تختلف في شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألوان ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك في أن الصورة الذهنية التي تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بحالتنا الجسمية والمقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكرة أو الحب ، (٦) وأن مظهر الشيء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التي تحيط به - من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظهره هو الصحيح ؟ (٨) وأن لاشئ يمكن معرفته بنفسه أو معرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشئ آخر أى بوصفه جزءاً من كل (١٠) وأن عقائد الفرقة موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التي نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليفة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكئيبة .

ويقول سكستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن نجد في آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقرار الكامل ؛ ولكن الاستقرار الكامل مستحيل ، لأننا لا نستطيع أن نقين متى يظهر أمامنا « مثل سلبى »^(٥١) . وليست « العلة »^(٥٢) إلا سابقة منتظمة (كما يكرر هيوم Hume) ، والمعرفة كلها نسبية^(٥٣) . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعي ، فالبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد^(٥٤) ، وللفضيلة في كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها في كل جيل آخر . وإنك لتجد في أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التي أدلى بها في القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية^(٥٥) . ولكن سكستس أكل لأدرية من اللادريين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللادرية عقيدة^(٥٦) ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا في حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن في الترجيح ما يفي بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم في المسائل الفاسفية بدل لزجاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia)^(٥٧) ، وإذا لم يكن ثمة شيء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين^(٥٨) .

ولو أن لوشيان قد أوتي من الحق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها نكتير الذي يشبه في كل شيء إلا في عطف قلثير وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح جداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده في سموساتا Samosata من أعمال كمجيني Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد في هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : « أنا سوري من بلاد الفرات » . وكانت لغته الأصلية هي السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذي كان يجري في عروقه هو الدم السامي (٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام في أنطاكية يمارس صناعة الحمامة شرع يتجول في الطرقات كما يفعل « العالم المستقل » ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة في رومة وغالة ؛ ثم ألقي عصا التسيار في أثينة (عام ١٦٥) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر في آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم في منصب رسمي في مصر ، حيث مات في تاريخ غير معروف .

وقد أقيمت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جودة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان : وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه مجاورات الحظيات من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان في كتبه على الأقل أكثر انهماكاً في الآلهة منه في الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول في كتابه هذا على لسان منيپس Menippus : « كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة - الآلهة الزأنين ، الآلهة الجشعين النهابين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبي الفحشاء مع المحارم : ولم أكن أجدر في هذا كله مأخذاً ، بل إنني في واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنني حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب » .

وتحير منبس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيده إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بداً من أن يصنع له جناحين ، ويطيّر بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمبس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهي تأتي إليه من « صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخلق الذين يعملون في البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . ونخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير في أمره ، لا يعرف أى دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والالتزان ما هو خلاق ببيرو نفسه »^(٥٩) . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوديا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياتي ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكبلاً من البرد إلى كيدوكنا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغربية التي تسالت إلى مجمع آلهته ؛ فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمبس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذي نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التي هي دون غيرها الآلهة الحقّة ؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة ستشكل لتنظر في مطالب الآلهة .

وفي كتاب التحفيس مع زبوس يسأله فيلسوف أبيقورى : هل الآلهة هي الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب جوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القربان ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبنّى أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

«السوفسطائيين» (٦٠) ، وفي زنبوس تراجموس Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً في أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينما يؤكد ذلك تمكليز Temocles الرواقى . ثم ينهزم تمكليز ويقر من الميدان ، ويأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلة ، والبرابرة على بكرة أبيهم » (٦١) . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على تقرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . وفى إحدى محاورات الموتى يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباقي والمقابلة والعبارات المتوازنة » - وإلا غرق القارب حتماً (٦٢) . وفى هرمسوس Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعاض بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يضطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنيا وخاقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سابتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه (٦٣) . ويعترف لوشيان نفسه الفلاسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات » (٦٤) . وتبدوله الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد (٦٥) . ويصور

في « ملرويه » منظر البشر ، كما تراه عين فوق عين الآدميين من قبة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلألق يفلحون الأرض ، ويكدحون ، وبتنازعون ، ويتقاضون في المحاكم ، ويرابون ، ويغشون ويغشون ، ويمجرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحكم ، والكراهة ، ومن فوق هذه كلها تعزل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ، فلإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الخضم ، وكل إنسان يسحبه بنوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان في أرض البلوونيز ، فيعلق على قتالهم بقوله : « ما أشد حق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض » (٦٦) . ولوشيان لا يحابي أحداً شأنه في هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشرمهم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكمهم ، والآلهة لعدم وجودهم . وينغم حديثه في آخر الأمر بما ينجم به قلندر حديثه وهو أنه ينبغي للإنسان أن يزرع حديثه : فنفس Menippus يجد تيرسياس Teiesias في الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبي الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادي خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث في أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء في هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهي كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر في طريقك دون أن تنفعا ، قط وعلى فلك ابتسامة على الدوام (٦٧) .

وقصارى القول أن التفكير اليوناني في القرنين الأولين من التاريخ الميلادي تطفئ عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراغاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلاسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائي ، ثم انتقلت منه إلى تشكك السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كُفْر دمقريطس ، فداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين ، فنزعة أرسطو الطبيعية ، فعقيدة وحدة الله والكون التي كانت تنادى بها الاستولاء ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى . أما المجمع العلمى فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلو طرخس القائم على العلم . ولا يابث أن يبلغ الذروة في رؤى بلوتنس السماوية . لقد نسى الناس كشف فيثاغورس العالمية العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ نحيا حياة جديدة ، فكان الفيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوى عليه الأعداد من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنساني ، ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر — إن كان لا بد لهم أن يمروا به (٢٨) . وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً في عبد من العبيد . وكان إيمانها باللهيب الذى سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ، واستسلامها في خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحي والمبادئ الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج الشرقى كان وقتئذ يستحوذ على القلعة الأوربية .

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويه ، ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهي غنية بالحلب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات في العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلمهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كلهم »^(١) على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغزى بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين(*) .

(*) هذه إحدى الأكاذيب التي يرويها المؤرخون دون تحقيق والتي يكلها تاريخ مصر تكليفاً قاطعاً ، فلقد نعمت مصر في جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ، وإذا كانت قد خضعت في بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا بد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وقد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله في بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضاً أنهم مستسلمون إلى الحد الذي يصفه المؤرخ فلطالما نازروا في جميع أدوار التاريخ على الطغاة والعاصيين . (المترجم)

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة — مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية في ذلك العهد هي اللغة الرسمية — ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر في الإمبراطورية أن تكون المورد الذي تستمد منه رومة مايلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندريين ، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت في عهد البطالة ، وإن كانت في صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع في كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها في مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصّة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك في السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العطرية وزيت السنسم في الفيوم إن لم يكن في غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت في المدن — وكان قد مضى على قيامها في مصر من طويل ، فاشتهرت بهامدائن بطليموئيس Ptolemais ، ومنفيس ، ووطية ، وأكسبرهنتكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهلبوبوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات فى الإسكندرية المورد الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره (٣) . وكان الكهنة يقيمون المصانع فى حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من النيل ، يصنعون منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه فى الأسواق . وقلمما كان يوجد أرقاء فى مصر يعملون فى غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يوجهون أكثر مما يكفى لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) فى بعض الأحيان — فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور ، فترفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل : وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت فى الأغلب الأعم خاصة بالإنجار ومدبى الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها فى جباية الضرائب وفى تنظيم أعمال السخرة كإقامة السلود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة المباني العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛ وكانت وسائل النقل البرى هى الجمالين ، والحمير ، والجمال — التى حلت وقتئذ محل الخيل للجرو والحمل فى أفريقية . وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت فى عهد تراچان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى عن طريق النيل والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج فى كل يوم من الثغور الواتعة على هذا البحر مثل أرسنوتى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنليس فى طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرفى الذى يمول الإنتاج والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان فى حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية^(٤) . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ، وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء : وكانت البلاد - أو كان سادتها - من عهد أغسطس إلى تراچان في رخاء ، ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته في ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الحراج الذي لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب في موارد البلاد ، وما يؤدي إليه الاقتصاد المجد من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر في خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامئة ، وقلما اصطبغ فيها شيء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مصاب النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التي كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت في القرن الثاني بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية في أخلاق أهلها ولغاتهم وفي جوها الشرقى . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨٠٠٠٠٠^(٥) (وكان عدد سكانها في عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها في عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن في الإمبراطورية . وقد ورد في خطاب يعزى إلى هدریان - وإن كنا نشك في صحة نسبته إليه - أن كل شخص في الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملاً فيها^(٦) . وكان من بين مئات الصناعات القائمة في المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة في ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفئها العظيم تسعة أرصيفه ، يخرج منها أسطولها التجارى لمخر عباب عدة بحار . وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهيكل الفخمة فى طيبة . وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعة وستين قدماً ، وتقوم على جانبيه العمدة ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجمل التحف التى تنتجها الصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) — ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية Piazza ، والكلمتان الإنجليزيتان Place ، Plaza . وكانت مباني ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية — دارتمثيل كبرى ، ومصنفق ، وهايكل لپسیدن ، وقصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسراپيس ذاتع الصيت ، وطائفة من مباني الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف (الميزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة ، وحدائقهم ، ومباني الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطاً من اليونان ، والمصريين ، واليهود ، والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ، والليبيين ، والقلبيقيين والسكودزيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريباً . وكان يتألف منهم جميعاً خليط سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضاً ، متشاحن ، سبى النظام ، عظيم المهارة والدكاء ، فكاه غير محتشم ، لا يستحى من فحش القول ، متشكك ، مخزف ، غير مستمسك بالخلق الكريم ، مرح ، شديد الولع بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريسستوم

الحياة في المدينة بأنها « قصف دائم . . . للاقصات ، والمصفرين ، والقتلة »^(٨) . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمجى المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التي توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهي وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل لإثارة للمشاعر والتصفيق والضحج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو^(٩) فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون في المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل في الصناعة والتجارة ، وتعيش في فقر مدقع^(١٠) ، وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها في الحكومة ، وبعد أن كانوا في أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا في الوقت الذي نتحدث عنه يشغلون خمسها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدي كبارائهم ، وأيدت رومة الامتيازات التي منحها إياهم البطالمة والتي يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزي الفخم وهو باسلفا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون - لبعدهم عن المحراب - أن يسمعوا أصوات الخاخام^(١١) . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية لليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل في الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة^(١٢) . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية في ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد في النبذة التي كتبها يوسفوس ضد أيورود (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التي تعكر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى في

هذه الأيام . وقد حدث في عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا في كل منها تمثالا لكليجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الروماني اليهود من حق المواطنة الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودي الأصلي أن يعودوا إليه في خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمئة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودي ؛ وجلدوا علناً في إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حرّموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذي خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان - أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود - ليعرض كل منهما قضيته على كليجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحيبه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنيتهم في المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثانى

فيلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجيولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصفه يوسيبوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين^(١٢) . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدم القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدأ القائل إن جميع الحوادث ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فاسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته . وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية باغ من الجودة حدّاً جعل المعجبين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو »^(١٤)

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجلاً دين ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى پلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسّد ، أزلى سرمدى ، يحل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى . والله موجود فى كل مكان ؛
« وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يحده وليس الله فيه ؟ » (١٥) ولكنه
ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها
حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكى يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجد الصلات بينه وبين
الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة
ويسميها اليونان شياطين *diamones* ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو
إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص ، وإن كانت
فى واقع الأمر لا وجود لها إلا فى العقل الإلهى بوصفها أفكار الله وقواه (١٦).
وهى مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى خالق العالم
وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا
كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وفى ساعة من ساعات نشوته
الشعرية يسميه أول ما ولد الله (١٧) . وابن الله من الحكمة العذراء (١٨) ،
ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذا كانت
الروح فى رأيه جزءاً من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقل
فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان فى
وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير
الطويل ، أن نصبح فى ساعة من الساعات روحاً خالصة ، وأن نرى الله
نفسه فى لحظة من لحظات النشوة (١٩) .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهى » التى يقول بها فياو من الآراء ذات
الأثر الأكبر فى تازيخ التفكير البشرى . ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة
هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية
التي نشأت فى العصر القريب من عصره ، والتي جعلت من حكمة الله بوصفه
خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً ؛ وما من شك فى أنه قد انطبعت فى عقله

تلك العبارات الواردة في سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتي تقول فيها الحكمة : « الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن نحر أبدئت . إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقورت الجبال قبل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه في تكوين اللاهوت المسيحي . ولم يكن أحبار اليهود واضحين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لبند الطاعة الحرفية للشرعة اليهودية ، وكانوا يرتابون في عقيدة الكلمة ويعدون لها ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون في هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتتين في بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودي المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين(*) ورجال الأفلاطونية الحديثة في القول بأن رؤيا الله الصوفية هي أسنى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ، فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق في مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق الإيمان . (المترجم)

الفصل الثالث

تقدم العلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستى فى العلوم لا يتازعها فى هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها فى ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذى يعد بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوبرنيق يتكلم فى الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم فى بلدة بطليموثيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته فى الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرسطاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلسفة الخالدة فى كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضى Mathematiké Syntaxis للنجوم . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى المحسطى Al-megisté « الأعظم » . وخرف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوبرنيق العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأنقصهم بالذكر هباركس . وقد صور الكون فى شكل كبرى يدور مرة فى كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوبرنيق آخر فى المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون قد يسرت فى ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة في ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم^(٢٠). وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر بها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيفان(*) التي لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدّر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرنا الحاضر بوجه التقريب ، وإن كان بطليموس قد اتبع هيدونيوس في تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقي

وقد لخص بطليموس في كتابه الموجز الجغرافي جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص في نظامه الرياضي ما كانوا يعرفونه في الفلك وصاغه في صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه في أزياجه التي بذل فيها جهداً كبيراً ، والتي حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض ، وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير هيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التي نقلها عنه بطليموس هي التي يرجع إليها الفضل في اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند في وقت قصير بالسير في اتجاه الغرب^(٢١). وكان بطليموس أول من استعمل اللفظي « متوازيات » (Parallels) و « خطوط الزوال » meridians علم الجغرافية ، وقد نجح في أن يصور على خرائطه جسماً كروياً على سطح مستو . ولكنه كان في الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافياً ، وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع في كتاب النظام زيجاً دقيقاً

(*) Parallax ويسمى اسماعيل الفلكي اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسماً أولى صغيرة *Partes minutae primal* هي التي صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هي « الثواني » عندنا .

ووقع بطليموس في أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له يلارب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد في استنتاجاته على الأرصاد وقلماء كان هو صاحبها . وقد قام في أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووصف كتابه *البصريات Optica* — وهو دراسة في انكسار الضوء — بأنه « أعظم البحوث التجريبية في التاريخ القديم » (٢٢) . وما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذي يعد من أعظم العطاء في الفلك والجغرافية والرياضيات في عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » *Tetrabiblos* فيما للنجوم من سلطان على حياة بني الإنسان .

وفي هذه الأثناء كان أرخيديز أصغر يهي للعالم القديم فرصة ثانية لتقييم بانقلاب صناعي . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هرون *Heron* . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ (*) في الإسكندرية سلسلة من الرسائل في الرياضة والطبيعة ، بقي لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه في صراحة بأن النظريات والاختراعات التي يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنما قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف في كتابه الديوبترا *Dioptra* آلة شبيهة بالمزواة *theodolite* وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التي بين الإنسان وبين النقط التي لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث في كتابه الخيل *Mechanica* في طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف في تاريخ هذا العالم ، فيول — وسوفا *Pauly-Wissowa* يحدده بعام ٥٠ ق . م ، بينما يحدده هيربرج *Helberg* ، وديل *Diels* ، وهيث *Heath* بحوال ٢٢٥ م (٢٣) .

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ،
والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس في كتابه الهوائية Pneumatica ضغط
الهواء في سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب ؛ منها أنه عرض
كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة في
قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر في أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء
الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائي ، وآلة بخارية .
وفي هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من المساء المسخن ينتقل من
خلال أنبوبة إلى كرة تدور في اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد
حال إحساس هيرون الفكاهي الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى
يمكن الاستفادة منه في الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم
البخار لوقف كرة في الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلى يغرد ،
وتمثال ينفخ في بوق . ودرس في كتابه المرايا Catoptrica انعكاس الضوء ،
وشرح كيف تصنع المرايا التي يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر
فيها ورأسه إلى أسفل ، أوله ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين
كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج
من حوض إذا وضعت قطعة من النقود في فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة
تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بما يزيد من وزنه ،
وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع
هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من
طراز جيمس وات James Watt .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه
كانت في مرسليليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وپرجموم مدارس طب شهيرة ، ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إننا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus في القرن الرابع الميلادي ، حين أخذت مصر تسير في طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويعها بزماعته أن يقول إنه قد تعلم في الإسكندرية » (٢٤) . وكان التخصص في الطب يسير قدماً ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالي ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيباً لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون في الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل » (٢٥) . وكان تشريح الجثث الممنوعة يحدث في الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجري فيها أيضاً تشريح للأحياء (٢٦) :

ولم تكن الجراحة في القرن الأول الميلادي أقل رقياً في الإسكندرية . منها في أي مكان في أوروبا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة في أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم (٢٧) . ويزدان تاريخ الطب في هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسى الذى وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف . في الجراحة ، ومنها مريوس Marinus الإسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنطيلس Antylus أعظم الرمدين في عصره . وقد كتب ديوسكوريدس Dioscorides الفليقيانى (٤٠ - ٩٠ م) كتاباً في العقاقير وصف فيه وصفاً علمياً ستائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع في موضوعه حتى عصر النهضة الأوروبية . وقد أوصى في هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل (٢٨) . وقد استخدم للتخدير وصفه لنبيذ اليرواح mandragora . استخدماً ناجحاً في عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفسوسى حوالى عام ١١٦ م رسالة فى أمراض النساء ، وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس . ويصف المؤلف فيها منظراً مهلبيا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عيني الطفل الحديث الولادة بالزيت (٣٠) ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل (٣١) ، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط) (٣٢) .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائين فى طب النساء فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هذا العلم حتى جاء پاريه Paré بعده بخمسة عشر قرناً ، ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجوم ، وقد سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسالم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه (٣٣) . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطورة ؛ وفى السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفيثيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد ، وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحاً فى مدرسة المجالدين فى برجوم ، ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ - ١٦٨ م) فى رومة ، وفى هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى أنجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا جعل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسي ما كان

يلدور بخلفه حين اختار له اسمه قنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقا في كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرهم حتى اضطرب بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استدعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه في إحدى الحملات الماركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعا إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقي منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة ، تشمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية في هذه الأيام ، ولكنها تشتمل في مواضع منها متفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هي استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سببا في بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله في هذا المعنى : « إني لأعترف بذلك المرض الذى قاسيت منه الأمرين طوال حياتي - وهو أنى لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتي » (٣٤) . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام الآدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ، عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الأذى ما تسفر عنه دراسته للقرود ، والكلاب ، والبقر ، والخنازير .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مُشاهد آخر في التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقري ، والجهاز العضلي ، والأوعية اللبئية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض في خروجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دما لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مبدى أربعمائة عام) . ولكنه قد فاتته أن يسبق هارفى إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير في الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التي تختلط بهواء الرئتين تسير في الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها في الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسي ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال في الهواء الذى نستنشقهُ هو نفسه العنصر الفعال في الاحتراق (٣٥) ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائى (*) ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما في ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبي ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكي ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السميتاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثنى عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذى يصيب أحد نصفي المخ يحدث اختلالاً في النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوسطائى پوسنياس من خنجر في خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبيه الضفيرة العضدية التى يخرج منها العصب الزندى الذى يتحكم في هاتين الإصبعين (٣٦) . وقد برع في بحث أعراض الأمراض براعة أثر معها أن يشخص علّة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموى (قاموس
 الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة^(٣٧). وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً في العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . وتدد باستخدام البراز والبول في العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه^(٣٨) ، وأوصى باستعمال الكداس الحاف^(*) لعلاج المفاصل ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبناً طويلاً بالأمراض التي يمكن علاجها بالترياق^(**) — وهو دواء ذائع الصيت في ذلك الوقت صنع لثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعي^(٣٩).

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التي تعجل في وضعها . وكان يسخر من السحر والرق ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر في أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقرط عن الأخلاط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوي الأسود الأصفر)^(†) ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس في الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال في تلك الأخلاط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفس (pneuma) أو النفس الحيوى أو الروح تسرى في كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكليبياديز الذى كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانش الأجنحة .

(**) يسمى أيضاً اللرياق ، واللارياق ، والطرياق والملفظ يونانى مررب (شرف) .

(†) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدد

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوروبا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلتها ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكيمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال بلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء في الصحراء

تقع بلاد العرب في الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجز
الفراعنة ، والأكمينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك
الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب
البدو . لكن في جزئها الجنوبي الغربي سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية
فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب
السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها في هذه الأيام . وقد
قامت في خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التي ورد ذكرها في التوراة (*) ،
والتي يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنير) ، والقرقة ،
والصبر ، والزردين ، والسنا المكي ، والصمغ ، والحجارة الكريمة . وقد
استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزهو
بها كلها ، وقصورها ، وأروقتها المعقدة (١) . ولم يكتف تجار العرب بأن
يبيعوا محاصيل بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسرون فيها القوافل
التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع
مصر ، وبارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيليرس جالس في عام
٢٥ ق. م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه
عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة
وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير
مرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .
وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالى

(١) والقرآن . (المترجم) .

الغربي من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التي تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب في إطلاق هذا الاسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفي هذا الجزء أقام العرب في القرن الثاني مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م - ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يوناني ، وشوارعها في عظمة شوارع الإسكندرية . وتنتمي إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة في الصخور القائمة في خارج المدينة ، وهي ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها في بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراچان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العماثر التي ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقي عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت « مداود ليلية لقطعان البدو » (٤١) .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن في عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التي أنشئت بها في ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وبمبي ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الجديدة وبترزين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسقلان ، ويافا (جبا) ، وأبلونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها في فلسطين نصف يونانية في سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت — والحالة هذه — بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية في غزوها الوثني لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة في جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذي سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جميلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصورنا كثيرة من الحجر الأبيض « (٤٢) » . وأنشئت في داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية — ليفياس Livias ، وفلادلفيا ، وجراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفي جراسا مائة عمود هي كل ما بقي من العمد التي كانت قائمة على جانبي شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتتطرق بما كانت عليه المدينة من الثراء في القرن الثاني بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التي تتردد في خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش في القرن الثالث قبل الميلاد منيپس Menippus الفيلسوف والفكاهي الكلبي الذي يعلم بهجائه أن كل شيء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذي كان مثالا احتشاده لوسليوس ، وفارو ، وهوراس . وفي هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمائه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التي كان يتغزل فيها بجمال النساء والعلماء . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلَّ قلمه :

« ما أخلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم
زنوفيل Zenophila الجميل . وما أسعدني إذا وضعت شفثيها
الورديتين على شفثي ، وعبت روحى عباغنى عناق ظويل » (٤٣) .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الاوان ، يشتعل قويا في ذاكرته .
ذلك هو هليودورا Heliodora التي أحبها في صور .

سأجذل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجذل النرجس ،
والزنبق. اللامع ؛ سأجذل الزعفران الحلو ، والسنبيل البري
الأزرق ؛ وسأجذل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى
يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غداثر هليودورا
الحلوة^(٤٤) . والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها
الناصرة ، فإنى أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن نكون رحيمة
حين تضمينها إلى صدرك^(٤٥) .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع في « إكليل » (Sléphamos) ما قانه
شعراء اليونان في الرثاء من أيام سافو Sappho إلى أيام مليجر . ومن هذه
المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليوناني^(*) . وفيها نجد
أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فمنها ما هو مصقول كضقل الجواهر ،
ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار »
الأربعائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يحكي ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال ، ومنها
ما يخلد ذكراً عمائيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبرات
ذاتية ، إذا صح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهي تلد ثلاثة أطفال
في وقت واحد ، تقول تلك القالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر في القرن السادس الميلادي إلى ديوان شعر كله تغزل في
الفلمان جمعه استرابون السرديسي (٥٠ ق - م) . وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ،
معظمها من أشعار المسيحيين . وأخذ ديوان الشعر اليوناني شكله الذي هو عليه الآن في
القسطنطينية حوالي عام ٩٢٠ م .

الأبناء» (٤٦) . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صلب البخيل الذى أفاق من إعماء لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهر حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئاً آخر هو ذكر وأنثى معاً (٤٧) ؛ أو الملاكم المجترى الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكالت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له فى حلبة الملائكة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطوعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرايين للأرباب : فى واحدة منها تعلق ليس Lais مرأتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى فينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاماً . وتمجد بعض المقطوعات أثر النيبذ فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحد بين اثنتين والذى دفن تحت الأنقاض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مرثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد . ومعظمها ، بطبيعة الحال ، يمتدح جمال النساء والغلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجهة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملاً ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوادة له ، ويحملها رسالته إلى السيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وها هو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يسدى النصيح لشيشرون ، يغنى لخبوبته زنبو Xantho أغنية حزينة فيقول :

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر
الشجي ، والعينين اللتين تعشش فيهما ربات الفن ، والشفقتين
الحلوتين اللتين تقيضان بأكل اللذات . . . غنى لى أغنيتك .
يا زنثو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع
الموسيقى . أعيدى المنعمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومنى الوتر
بأصابعك العطرة ، يا بهجة الحب ، يا زنثو الشاحبة ، غنى (٤٨) .

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التي كانت هى وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية ؛ وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التي دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدين البارعين في الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذى جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان في صور مبان أعلى من مباني رومة (٤٩) . وأحياء أقدر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجوانى . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقشذ في صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برئيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أبيان وبانيان المشترعين العظميين قد تخرجا في جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة . ولم يكن في الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا في صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها في زمن تراچان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفهم من أسباب العيش (٥٠) . وكان في الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقي ، والحمامات العامة ، والحجارى الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضى ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهاكل ، والباسقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهى

المظاهر التي كانت تمتاز بها المدن الهلنستية في القرن الاول بعد الميلاد^(٥١) . وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة الصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك الجرى الذي سماه الأقدنون « نهر الذهب » اعترافاً منهم بفضله . وكانت تلتقي عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ في أسواقها غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر في هذه الأيام فعبّر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال في طرق متربة أدهشه أن يجد في قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم ، كانت في يوم من الأيام مما تفخر به هليوبوليس مدينة الشمس اليونانية - الرومانية - السورية . وأسكن أغسطس في ذلك المكان جالية رومانية صغيرة ، ثم تمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الزاهية إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون في مكان هيكل بعل الفينيقي القديم مزاراً فخماً لجوبيتر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من جدرانها من حجر واحد ضخّم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً في الطول وأربع عشرة في العرض ، وإحدى عشرة في الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية ما يكفي لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدي إلى المدخل الكورنثي العظيم ، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامي والبهو الذي يليه المعمرين وجد البناء الرئيسي للهيكل ، وقد بقي منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو في الجوانب اثنتين وستين قدماً . وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ، يقال أحياناً إنه كان هيكل فينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً ديمتر . وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمدته ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق هذه العمدة الفخمة المنعزلة في شمس السماء الصافية ، وهي من أجمل ما بقي من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أى أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد فى مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفتة العاصمة المزدحمة فى أى عصر من عصورها ..

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذى يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حصص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التى ترجم اليونان اسمها إلى پلميرا Palmyra أى المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الحصينة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حصص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا فى ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ، وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلى رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبي شارعها الأوسط الرئيسى أروقة ظليلة تحتوى على ٤٥٤ عموداً ، وفى مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقى منها واحد حتى الآن شاهداً على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مباني المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذى شيد فى عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الآشوريين فى الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء فى الإمبراطورية الرومانية ، يحتوى على صف من العمد لا مثيل له فى بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ، وكان الكثير منها عمداً كورنثية مرتبة صفوفاً فى كل منها أربعة . وكان فى داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقى منها على اقتراب تدمر من پارتيا فى الفن كقربهما فى المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسى يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا - أورپس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

حكاسهم مع الثالث التدمرى بأن شيدوا له . هيكلًا كان مزيجًا من الفن اليونانى والهندي ؛ وزين مصور شرقى جدرانه بمظلمات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى^(٥٢) . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين برين كبيرين وهما مدينتا ثيساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجه المسافر من ثيساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروثيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند الأوديسيا Laodicea — التى لا تزال تحتفظ باسمها القديم اللادقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغراً ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينما كانت سلويا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلاً من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بمحاصلات المغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يمر من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضلها أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكسبها بهجة وجمالاً ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ، وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعل ، ويقوم على جانبه صفان من العمدة المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلاً من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء البقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ ، والذين كانوا خليطاً من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين لجأوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيح لهم دافنى Darfne بستانهم الشهير القائم في ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفرديتى بنصيب فيها كلها . وفي عيد بروماليا Brumalia الذى كان يلوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغناء والقصف والمرح^(٥٣) . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هديران يضجى بهم قرباناً للآلهة^(٥٤) . وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد - وأهمها الآرامية - ظلت لغة التخاطب بين الأهلى . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوباترة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يشفق منه هرقل نفسه ، على حد قوله^(٥٥) . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصغرى

كان فى شمال سوريا مملكة كمجيني Commagene التى كانت فى أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التى قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، أهلة بالسكان . وكان فى الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهونى Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إدسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها فى عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونة) . وكانت هذه الولاية ، وهى ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبى لآسية الصغرى ، ولكنها فى جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية فى البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة فى استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجها الغنية ملكة لرومة تستغلها على أيدي الأرقاء . ويصف جالينوس فى أيامه منجما أنهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال - وتلك حادثة تتكرر آنأ بعد آن فى الأبنس . الخيولوجية لقوى الإنسان وأسباب راحته :

وكان إلى شمال قليقية ولاية كبدوكيا الجبلية القاحلة ، الغنية بمعادنها النفيسة ، والتي تنبت القمح وتربى الماشية والعبيد لتصديرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاونيا Lycaonia التي يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس للبرني Derbe ، وليسترا Lystra وأيكوتيوم iconium . وفي شمال هذا الإقليم نجد جلانيا Galatia التي استوطنتها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر بيسينس Pessinus الأسود الذي أرسل إلى رومة ليكون زمراً لسيدل ، وكانت أهم مدنها في ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra (أنقره) التي كانت عاصمة لحين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتي صلت عاصمة تركيا في هذه الأيام . وكان في ولاية بيسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زئوس التي كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل يروتس ، وأسپندس Aspendus التي احتضنت بملها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتلأ مرة أخرى ليستمتع إلى مثله أو يورديز .

وكان في شمال بيسيديا وغربها ولاية «آسية» بأقياما الأربعة : مغريجيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة في هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ، وقد استطاع فيلوسترانس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها في هذه الأيام . وكان فيها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلاً بعد جيل ، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية في إيطاليا ، وأفريقية ، وآسيا ، وغالة . لقد كانت فريجيا بلاداً جبلية ، ولكنها كانت ترهوبمدتها الكبيرة كأميا سيلتي Apamea Celaenae — التي يقول استرابون إنها لا يفرقها إلا إفسيس في «آسية» — ولوديسيا التي أبعدتها الحظ بفلاسقتها وأثريلتها المحسنين الآخرين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرق من ديونيشيس - وهى التى أنجبت هيرودوت - وكان ديونيشيس هذا ناقداً أدبياً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتحقيق . وكانت ميلتس قد جاوزت عهد شبابها ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ، وكان وحى أيلو فى دديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة لإجابات ملغزة ، وكان القصاصون فى هذا الإقليم ينسجون « القصص الميليكية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التى تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هى الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت پرينى Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون فى تجميلها بالمباني الفخمة . وفى هذه المدينة انتخبت فى القرن الأول الميلادى امرأة تسمى فيل Phile لتشغل أسمى المناصب فى البلدة وذلك لأن نفوذ رومة و ثراءها قد أخذوا يرفعان من منزلة المرأة فى الأراضى الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلًا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال - وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموجنيز Hermogenes أعظم مهندسى ذلك العصر . وكان العامة من أهل ميكالى لا يزالون يجتمعون فى كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس دينى لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير ومدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ، وكانت رودس (الوردة) حتى فى إبان خضمها أجمل مدائن العالم اليونانى . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ، وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالى لتجارة بحر إيجه ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذى ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الداعية الصيت . وفي هذه المدارس علم أبلوتيوس مولو قيصر ، وشيخرون تلك الأساليب الفنية التي أثرا مه في كل ما كتب بعدها من نثر لاتيني .

وكان أشهر عظماء رودس في ذلك العصر هو بريسيدونيوس صاحب أكبر عقل منشئ مبدع في التاريخ القديم كله . وكان مولده في إپاميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه في المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius في أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكماً وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته في الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال پمپي وشيخرون . وذهب في الثالثة والثمانين من عمره ليعيش في رومة ومات فيها في السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذي يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ، وكان العلماء القدماي يضعونه في منزلة كتاب پوليبوس . وكان وصفه لرحلاته في غالة ، ورسائله عن المحيط من المصادر التي استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض - ٥٢٠٠٠ ر ٥٢٠٠٠ - أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أي عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرس المد والجذر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطي بأقل من عرضه الحقيقي ، وتنبأ بأن في مقدور المسافرين من أسبانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة في عصره . - فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفجار ، بهبارة الروح على أن تروى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ؛ وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عدّه شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقين وكان في هذا مبالغاً في كرمه ، وفي وسعنا نحن أن نعهده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذياً ساحل آسية وميماً شطر الشمال من كاريا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت في أيام الرومان كما لم تزهّر من قبل . ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية «آسية» الرومانية فإن إفسوس أصبحت مقر الحاكم الروماني والموظفين التابعين له ؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطاً من أجناس مختلفة ، بلغ عددهم ٢٢٥٠٠٠ . ويختلفون من السوفسطائيين الخيرين الحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين . وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة ، وكانت لها بواك مظلمة تمتد أميالاً عدة . وكان فيها كثير من المباني العامة التي توجد في غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المباني «متحف» أو مركز علمي ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة في النقش والزينة ، وملهى يتسع لستة وخمسين ألفاً من النظارة . وهنا أنار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدى من أحد الملوك . وكان يقوم على خدمة كهنته الحصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجاً من الطقوس الشرقية واليونانية ؛ وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأنداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة ، ومرض ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب مر جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صينايى السمك : وقد وصفها أبولونيوس التياناى Apollonius of Tyana الذى كان نجواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس »^(٥٩) . وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيلبيوس أرسيتيديز Aelius Aristides (١١٧ — ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سرفها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى لآثر هيكل ، ومن تل فى لآثر تل ، محترقا شارعا أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حضنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواحي تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سرورا وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقعة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملاذ . . . وحمامات بلغت من الكثرة حدا لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدث عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والخداع^(٦٠) .

وكان إيلبيوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo رجلا بلغ من العظمة — كما يقول فيلوستراتس — « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلون عليه ، والآلهة أنداد له^(٦١) . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أنكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٥٠٠ ز ١٥٠٠ درنمة (٩٠٠٠ ريال أمريكى) نظير استمناعه بميزة الاستمناع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له پوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن المحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى ، قبلها پوليمو في هدوء على أنها حق له . وقد استخدم پوليمو ثروته في تزوين المدينة التي اتخذها وطناً له ؛ واشترك في حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاصل الذي كان مصاباً به ، فدفن نفسه في قبر أسلافه في لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً في سن السادسة والخمسين (٦٢) .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » في عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متليني وجمالها ووصفها لنجس Longus في القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية (٦٣) . وكانت برجوم يتلأأ فيها المذبح العظيم ، والمباني الفخمة التي شادها ملوكها من أسرة أنالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التي امتلأت بالمال من كدح العبيد في غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها ؛ وقد استبق أنالس الثالث التوسع الروماني والانقلاب الاجتماعي بأن أوصى بمملكته إلى رومة في عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرسنكس ابن الملك يؤمّنز الثاني من إحدى الحظيات نقض الوصية وقال إن أنالس أرغم عليها ، ثم خرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانياً (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسيوس Blossius معلم ابنى جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بيثينيا وبنّس المجاورتين لبرجوم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال في المدن المحتلة فأخذت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرسنكس في أحد السجون الرومانية . وعاشت الثورة والحروب المترداتية حياة برجوم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التي احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك في أن برجوم قد انتعشت قبيل عهد فسهازيان ، وشاهد ذلك أن بلني الأكثر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة ، ونشأت في الإسكلييوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليدأى أمراض العالم .

واستحالت اسكندرية ترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم : ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم في مطالبتها بجميع البلاد التى وصفناها فى هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم اليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه باريس هيرا ، وأفرديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفناً على البروبيتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هادريان هيكلًا لبرسفى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر (٦٤) . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيلايوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن . وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثر داتس العظيم

كانت بيثينيا وپنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الحثيين الأقدمين خليط من التراقيين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية - تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى يروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف إيرانى سى مثر داتس دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق . م شملت كپدوكيا وپنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر ملكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسية ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثر داتية التى سميت بهذا الاسم الموائم لها كل الموائمة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تقاريف أوربا تبديلا .

وكان مثر داتس السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتعجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد اله جوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق . م انقلاب سياسى مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرح قليلا من السم في كل يوم ، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المقرئين إليه . وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر بمجي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة ، وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابعة إلى دلفي ليشاهدها العابدون ، وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلاً في اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أي إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسي القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسبك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانية والفظاظة التي كان يمثل بها جوه النصف

(*) ما يؤسف له أن المؤلف ينسى من أن إلى آن صفة المؤرخ التزييه فيغمز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلنستعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفي التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل في قصور ملوك الغرب عنها في الشرق . (المترجم)

الهمجى ، وصدق خرافات أهل زمانه . ولم يكن يحمى نفسه من رومة بما كان خليفاً أن يقوم به التباؤد أو السياسى العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصرة وبعد النظر ، بل كان يحمى بالشجاعة الارتجالية التى يعمد إليها الحيوان إذا وقع فى المخطور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التى خلفتها له أمه . ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعيناً على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشمالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهى تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فلإنها قد استقبلت جيوش مثر داتس اليونانية استقبالات الحماة المنقذين .

وكانت من المدن التى خضعت له سينوب ، وطربزون ، وپنتيكيم Panticapæum (كرتش) ، وپزنطية . ولكن سيطرة پيثينيا على الهلسينت (الدردنيل) تركت تجارة پنتس فى البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات نيقوميديس الثانى ملك پيثينيا (٩٤ ق م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثانى وهو سقراط بملك پنتس . وانتهز مثر داتس فرصة النزاع الحزبى فى إيطاليا فغزا پيثينيا لكى يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور فى أيدى أعدائها فأمرت مثر داتس وسقراط أن يخرجوا من پيثينيا . وصدع مثر داتس بالأمر بما سقراط فرضه ، فلم يكن من حاكم آسية الرومانى إلا أن خلعه وتوج نيقوميديس الثالث . وغزا الحاكم الرومانى الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الرومانى ، وبدأت بذلك الحرب المثر داتية الأولى .

وأحس مثردانس أن الفرصة الوحيدة التي تتيح له البقاء هي إثارة الشرق الهليني على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية في آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال في المدن ولى وجهه شطر الأحزاب الديمقراطية ، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفي هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعائة سفينة قد دمر القسم المرباط في البحر الأسود من الأسطول الروماني وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠,٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيكوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراة الرومان ويخلعهم (٦٨) فصب الذهب المصهور في أفواه أكوليوس الأسير - ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية اللاتين إلا وقت قصر . ورأت المدن اليونانية في آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش مثردانس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التي نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت في يوم حدده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفي ذلك يقول أبيان :

«ومزق الإفوسيون أجسام الفارين الذين احتموا في هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجوم بالسهم الرومان الذين احتموا في معبد اسكليپوس Aesculpius . واقتنى أهل أدريميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة في البحر وقتلهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (في كاري) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم • ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثردانس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان» (٦٩) .

وما من شك في أن الطبقات الفقيرة التي قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الرومانى كانت لها اليد الطولى فى هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً فى أن طبقات الملاك التى ظلت زمناً طويلاً تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثردياتس أن يهدى نائرة الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، وبمنحها الاستقلال الذاتى التام ، لكنه « أعلن » فى الوقت نفسه ، كما يقول أبيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضى الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات^(٧١) على زمام السلطة فى كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسبارطة نفسها ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديولوس فى نشوة الحرية عشرين ألف إبطالى فى يوم واحد . واستولى أسطول مثردياتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتساليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً فى وقف الخراج الذى كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التى كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر فى الحركة الثورية التى قام بها سترنيئس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمينيين واللوكانيين عرضوا على ملك پنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الرومانى الحرب والثورة تواجهانه فى كل مكان ، فباع ما تجمع فى الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا . ولستأ نرى من واجبنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأتخذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثردياتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة پنتس ، يجهز فى هدوء جيشاً وأسطولاً جديدين .

وقرر مورينا Murena المبعوث الروماني في آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ، فلما أن هزم مورينا في هذه الحرب المثردياتية الثانية (٨٣ - ٨١) ، لامه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميديس الثالث ببيثينيا إلى رومة ، وأدرك مثرانيس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنيتس بعد أن سيطر على الهسفور . وبذل في الحرب المثردياتية الثالثة (٧٥ - ٦٣) آخر جهوده ، وحارب لوكلس وبمبي اثني عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ في التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويغزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ، وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذى تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يده أضعف من أن تضغط على النصل الذى أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسبيه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيفهم وحراهم .

الفصل الثامن

النشر

مما يذكر بالحمد للحكم الرومانى أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيشينيا — بنتس ، ثم أصبحت عاصمة الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان فى تشييد المباني منافسة اضطر معها نراجان أن يرسل بلنى الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلافيوس أريانس الذى سجل أحاديث إيكتمس ، كما سبق القول . وكان أريان هذا حاكما على كيدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعا من الوقت لكتابة عدة كتب فى التاريخ لم يبق منها إلا " وصف الإسكندر المذيل بالـ *Indica* " . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثالا فى أساوبه ، كما اتخذ مثالا له فى حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخرا به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ، ولهذا فلنى لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين فى اللغة اليونانية » (٧٢) .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائعى الصيت . كان منها ميرليا *Myrlea* التى يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ٣٢٠ (٧٣) وأمسارتس *Amsartis* (أمسرا *Amsara*) التى وصفها بلنى بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، التى اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التي كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه .
وأَمِيسُس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون
عيشهم بالتجارة مع سكوذيا (جنوبي روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ،
وأَمَاسِيا Amasea التي وُلِدَ وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين .

وكان استرابون ينتمي إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من
ملوك بنتس ؛ وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى
الآن (٧٤) . وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت في بعثات
دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية
والتاريخية . وكتب تاريخاً مكملًا لتاريخ پوليبوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج في
عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافية الذي حفظت لنا الأيام جميع أجزائه
السبعة عشر تقريباً . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إني أستسمح قرائي ، وأطلب إليهم ألا يلوموني لطول نجحي بدل أن
يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير
وقديم . . . ولا بد لي في هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ،
وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع
الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة
تمثال ضخم لا نبحث كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى
الأثر العام الذي ينطبع في أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابي
هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليك بأن يكون
عمل فيلسوف « (٧٥) .

وهو يعترف في صراحة بأنه يأخذ عن پوليبوس ، وبسليدونيوس ، لكنه
أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتستينز ، ويشدد عليهم جميعاً في نقد أخطائهم ،

ويقول إن أخطاه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم (٧٣) . وهو يعترف بالمراجع التي أخذ عنها في ضراحة نادرة ويختار هذه المراجع في العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة - وربما كانت هذه القارات في المحيط الأطلنطي - وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليوناني قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسبانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها في تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ، ويظن أن اضطراب بآطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصاً جريئاً لما يعرفه الناس في عصره عن الأرض ، وما من شك في أنه من جلائل الأعمال في العلم القديم .

وكان ديو كريستوم - ديو ذو الفم الذهبي - (٤٠ - ١٢٠ م) أعظم شهرة في عصره من استرابون . وكانت أسرته قد اشتهرت في بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد (٧٧) . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطائياً ؛ وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيشنيا في عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب في الأرض ثلاثة عشر عاماً وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأتي أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته في معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرفاً على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفى ديو تكريماً ، فقد اصطفاه نيرفاً وتراجان ووهبا مدينته هبات جمة لإجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصة أنفق معظم ثروته في تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه بلني ، ويلوح أنه بريء من هذه التهمة . وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا في هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

سجوفاء ليس فيها كثير من المعاني ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهي تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول : « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسنانك التي لا آخر لها » (٧٨) . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذي عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكي يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراچان في يوم من الأيام قولاً صادقاً صريحاً : « لست أفهم ما تقول ، ولكنني أحبك بقدر حبي لنفسى » (٧٩) . وكان البرابرة الضاربون على صفتي البورسثنيز Borysthenes (الدينير) يستمعون إليه في ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون في أولمبيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرقا ، فهدأت سورته بعد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذي أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليوناني الأتكي الجميل بل كان هو جرأته في التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد في اليهود الوثنية القديمة الذي ندد بالدعارة ، وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق يمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (يريد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبيده فروا منه) (٨٠) . وكانت خطبته في أهل الإسكندرية تنديداً عتيقاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوماً في اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجراً كاذب في التاريخ » ؛ ثم وقف يوماً آخر في قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً في أسلوب قصصي واضح جذاب ، وأندرمستمعيه أن الناس أخذوا يهيمون الأرض ، وأن

الأساس الزراعى للحضارة، قد انهار . ووقف مرة فى أولمبيا ليخطب فى جميع
كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك
العصر من الأبيقوريين والملخدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن
الصورة التى لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة ، ولكن الرجل
العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية .
والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ،
وحق التمثال الجليل الذى نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضاً مجسداً لا يليق
بمقامه كما لا يليق به تصوره نجماً أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف
حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شىء
مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحققة الوحيدة هى الحكمة — أى أن
يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى
السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحققة هى
الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما
ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى
قلب الإنسان (٨١) .

الفصل التاسع

التيار الشرقي الجارف

استعداد الدين في القرن الثاني بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان . وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوره . ويتربص الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ، فقد قبلت كثرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة (٨٢) . وكانت تقرب القرابين في خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبله في فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل في الزمن القديم . وذاقت سياسه الحزم الرومانيه نرحب بالعون الذى تلقاه من الكهنة الرسميين وتسمى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للإلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة في جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار وهيب في هيراپوليس ؛ وبقيت مدن سوريا نرحب ببعث الإله تموز وتنادى قائلة « لقد فام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل في آخر مناظر عيده بالارتفاعه إلى السماء (٨٣) . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كهدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون في نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدي ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها الخالصين^(٨٤) . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فآلهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطونيوس ، وكثيراً من العظماء المحليين في حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فزداد عددها ويعظم شأنها في كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا في النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جملة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها في بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبييل في ليديا وفريجييا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخصّصون أنفسهم كما فعل حبيها أتيس ؛ فلماذا أقبل عيدها الربيعي صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فلماذا كان اليوم الثاني ضجعت الشوارع بأصوات الفرع الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »^(٨٥) . وفي آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى في موكب للنصر ، ويحترق حاملوها صفوف الجماهير تحيها وتناديها في رومة باسم «أمنا»^(٨٦) (Nostra Domina) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبييل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحقل بهذا البعث السعيد في كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخي أروع احتفال وأفخمه ؛ وكان عباده المبهجون يتنادون : « لقد وجدنا أوزيريس من جديد »^(٨٧) . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتمثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهي ، ويسمونها في الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله » (٨٨). وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الخنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير (٨٩) ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية في القرن الثالث ، وإلى إيطاليا في القرن الثاني ، ثم انتشر بعدئذ في جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها في لندن (٩٠) .

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلقة ، وما ينصفن به من رعاية للأئمة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل في هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا في المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتي ابن أهورا - مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والطهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه هند أبيه ، ويحميهم ، ويشجعهم في كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود بمبي هذا الدين من

كهيدوكيا إلى أوربا صور فنان يوناني مئراس راكما على ظهر ثور بطعته
بخنجر في عنقه ، وأضحت هذه الصورة هي الرمز الرسمي لذلك الدين ،
وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوما مقدسا لإله الشمس ، وكان أتباعه
يحتفلون في الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مئراس « الشمس التي لا تغلب »
والإله الذي نال نصره السنوى على قوى الظلمة في يوم الانقلاب الشتائى ،
والذى بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياء يزداد يوما بعد يوم (٩١) .
ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مئراسيين على رأسهم « حبر أكبر »
وعن عزاب وعذارى في خدمة الإله « وكانت القرايين تقرب إليه على
مذبحه في كل يوم ، كما كان عباده يشتركون في تناول طعام مقدس من
الخبز والنبيد ، وكانت الإشارة التي يختتم بها عيده هي دقات ناقوس (٩٢) .
وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذى يمثل فيه الإله الشاب
يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المئراسى يحض على الخلق الكريم ،
ويطلب إلى « جنوده » ألا يقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع
أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مئراس
ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً
أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء
السما حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه (٩٣) . وانتشرت هذه الأساطير
التي تبعث في نفس أصحابها الأمل والقوة في القرنين الثانى والثالث من
التاريخ الميلادى في غربى آسية ، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد
اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان ،
وروع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المئراسية ،
وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها في المئراسية
حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة في جو بلاد الشرق .

وكانت في كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون في دين سبيل بوضعهم عراة في حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياهم وبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير في الثور ، وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع في إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة^(٩٤) . وكان في الميثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور . ويصف أبوليوس في عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خادماً لإيزيس — فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتقشف ، والتطهير بالانغماس في الماء المقدس ، ثم تظهر له في آخر الأمر الرونى الصوفية للألهة لتبته النعيم الأبدى . ويلتزم الطالب في إلوسس أن يعترف بخطاياهم (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم في الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحي ، ثم يقرب القربان ، وهو في العادة خنزير . وفي عيد دمتري كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون في أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفي الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث پرسفونى بعثاً جديداً^(٩٥) . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس في جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تحبس في طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبه ، وإن

فى مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثانى المشين بأن تسمو حتى تتحد
بالتحاداً هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون فى اجتماعهم يشربون دم
ثور يضحون به للمنقلد الميت الذى يكفر عن خطاياهم ويوجدون بينه وبين
هذا المنقلد . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين
من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً
ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس
قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله^(٩٦)

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المجوس فنهـم هذا
فى أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جليد ؛ وكان عالم البحر الأبيض
المتوسط غنياً بمن فيه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ،
والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل
حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهياً بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح
لفظ أسكيسز Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريباً
رياضياً ، يقصد به وقتل إخضاع الجسم لسلطان الروح ؛ فكان الناس
يضرّبون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضائهم ، ويبيعون أنفسهم ، أو يقيّدون
أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ، ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا
التعذيب أو الحرمان^(٩٧) . الذانى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالاً
ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى
صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجمعون
فى يوم السبت للصلاة الجامعة ويسمون أنفسهم معالجى النفوس
(Therapeutae)^(٩٨) . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى
أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها
أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحي قد
هبط عليهم من السماء يحبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينة ،

يعالجون الناس بما يبدو في نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأيونتيكى Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخفى رأسها تحت ذراعه ، وتقبل أن يثبت في ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هى الإله أسكليبيوس ، وأن هذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع في المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التى يضعها في رأسها المستعار^(٩٩).

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس في أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين في كتابه حياة أبولونيوس النيباتالى of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يخلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سنين كاملة^(١٠٠) ، ووزع المال الذى تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، في فارس ومصر ، وغرب آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ، وأتقن علوم الجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التى فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هوفلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبولونيوس . وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات : فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإياه رفع بنتا من بين الأموات^(١٠١) . لكنه كان في واقع الأمر فيلسوفاً أكثر منه ساحراً .

يعرف الأدب اليوناني ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علميني ألا يكون لى إلا القليل وألا أرغب فى شيء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه . أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز » (١٠٢) . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العداء ، واغتيال الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره . بنى جنسنا » (١٠٣) . ويقول فيلوستراتس إنه « كان فى بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجهم أن يعين بعضهم بعضاً » (١٠٤) . ولما اتهم بأنه يثير نفق الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالى سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء (١٠٥) .

ترى ما هى الصفات التى جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت أوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلائق من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلقى بالا إلى ما بين الناس من فروق فى الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تنسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد والإله المعبود . وكانت سيبييل وإيزيس لإلهتين أمين تاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقتهم ملايين الأمهات الناكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية — ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ في إيزيس وسيبيل ، بل إن العابد التقي في بلاد اليحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة المحببة التي يرددها أكثر من سائر الصلوات هي الصلاة التي لا يوجهها إلى العنراء بل إلى الأم التي بورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً في قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً في خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تنقل من الحزن إلى السرور ، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع في الخيال وتبعث الشجاعة من جديد في النفوس التي أثقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدون الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الديني الذي لا ينقطع عن مواسة الناس . وكان في مقدور الروح التي تدرك ما ارتكبته من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطيع في بعض الأحيان شفاء الجسم الذي أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التي يمارسونها ترمز إلى ما يتردد في صدور الناس من رجاء في أن يتغلبوا على كل شيء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس في وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون له من عظمة وخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التي كانت من صنعهم والتي هي نفوسهم مجتمعة . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تنوب في حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

بجماهير الشعب التي لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشراكه في أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية في أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما في الأديان الشرقية وما في المسيحية . التي أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصي ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والحن ، والكدر ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م - ١٣٥ م .

الفصل الاول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمطاء التي رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفي أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التي تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندوربي يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجييين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفسهم الأناضولى . وكانوا فى الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحذق الصناعات اليدوية ، ولا يجاريه شعب آخر فى براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضئيلة أحسن استغلال ، وأنجحوا من الثروة ما يكفى لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول فى نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم قداولتها أبدى پارثيا وزومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلى . وكان أشهر ملوكها ترجرانس Tirgranes الأكبر (٩٤ - ٥٦ ق . م) الذى فتح كهدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانية هى ترجانوسترا Triganocetra .

هوانضم إلى مترداتس في ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمجي عذره ، أهدى إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٢١٦٠٠٠ ربال أمريكي) ، و١٠٠٠٠ درخة (٦٠٠٠ ربال أمريكي) لكل قائد مائة ، وخمسين درخة لكل جندي في الجيش الروماني . واعتبرت أرمينية بسيادة رومة في عهد قيصر وأغسطس ونبيرون وأصبحت في فترة من الزمان في عهد تراچان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها في العادة نحو پارثيا .

وكان البارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء البارثيون من العنصر السكودى - التوراني أى أنهم من جنس الشعوب الضاربة في الجنوب الشرقى من روسيا وفي بلاد التركستان . وفي عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكودى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، وجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك السلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنديخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من البارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكذبختتم القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية البارثية الجديدة . وكان للملوك البارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها في فصول السنة المختلفة : هكتومبيلس Hecatompylus في بارثيا ، وإكبتانا (محل همذان) في ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهى مدينة سلوقيا التى ظلت عدة قرون مدينة يونانية في مملكة بارثية . وقد احتفظ الحكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشعب تتألف من أقنان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد البارثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة الخمر تدر أرباحاً طائلة » (٢) : وكان جزء من ثروة البلاد يأتي عن التجارة التي تنقل في الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها في طرق القوافل التي تجتاز باريثا في طريقها بين أقاصى آسية وبلاد الغرب . واشتبكت رومة مع باريثا في حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus في كاري Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكريئس Macrinus الصلح من أرتبانوس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم في كل العصور ؛ وكان أقتان الأرض- أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين في عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجاريتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهليون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الآرامية قد حلت وتشتد على الكتابة المسارية : ولم تبق لنا الأيام سطوراً واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل في طشقونة كما كانت تمثل في سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر في أحد أدوار الماخيين ليورپديز . أما الصور والتماثيل التي كشفت في تدمر ، ودور - أورپس ، وأشور فكانت في أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليوناني والشرقي ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر في فن العصور التي تلت ذلك العصر في جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقي لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهم على ظهر جواد ، ويوحى بأنه لو بقي لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهذا الفن أعلى من تقديرنا الحالي (٣) .

وقد شاد أمير إقطاعي عرنى من أتباع ملك باريثا قصراً من حجير الجير في حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوي على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوى ولكنه همجي . غير أن

أعمالا فيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا في الأدوات الفضية وفي الحلى . لكن البارثيين نبغوا في الفن المحبب إلى بنى الإنسان — ونعنى به زينة الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم ، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجددة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم قيصا وسروالا منتفخا يعلوهما في العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء فكانن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار . وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون الأجانب في المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا في بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ، ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عادتهم تعدد الزوجات . إذا أمكنتهم موارد من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقصى العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون في سبيله عقبة ما^(٣) . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثي بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتي حظية وألف بعير محملة بلوازمه^(٤) ، والصورة التي تنطبع في أذهاننا عن البارثيين في جملتهم هي أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمينيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان . فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم في الدين ، يجيزون لليونان ، واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا في شؤونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مئراس عن أهورا — مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين .

إلى يفضلون المسيح على يهود . وقد كان لكهنة المجوس يد في القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية .

ولما توفي ملكهم فلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه فلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس في هذا النزاع . ثم هزم الرومان في نزيب Nisibis . ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت ثوائم خيالة البارثيين أكثر مما ثوائم فيالق الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ في حرب داخلية لقي فيها حتفه وأعلن أردشير أو أرتخشتر الشريف الإقطاعي في بلاد الفرس والذي غلبه على أمره حاكم الملوك (٢٢٧ م) وأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتي إلى سابق عهده ، وبدأ في بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التي مرت بها في تاريخها الطويل .

الفصل الثمانى

الهسمونيون

انتهر سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدي الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهنا أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م — ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثيا فى أسرته الهسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة — الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده ؛

وأدرك الهسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة ففقضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يحل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، ومواب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وبلا ، وجراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعا عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف^(٥) . وفقد الهسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئا فشيئا لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين^(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرية

(*) شعبة يهودية تمتاز بتمسكها الشديد بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المرافى .
(المترجم)

(٧٨ - ٦٩ ق . م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستوبولس الثانى أخذتا يتنازعا عا العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على يمي ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر يمي لهركانس تحصن أرستوبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر يمي تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستوبولس احتسوا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون يمي ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت يمي على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سىستخدامها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفا ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم^(٦) . وأمر يمي رجاله بالألأ يمسوا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٠٠٠ر٣٦٠ريال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان الهسمنونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاكما أعظم ، وحاكما بالأسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنبئاتر الإيدومينى الذى أعان رومة فى هذه الحزب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءا من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٤٥ ق . م - وهى الحملة التى قطع فى رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك البارثيين دور پنثوس فى مسرحية الباخين - نهب ما أبقى عليه يمي من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقداراها عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتنم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنجيس الذي عين
واليا على سوريا بعد كراسس أخذه الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود ~~في~~
أسواق الرقيق (٤٣ ق . م) (٧) . ومات أنتباتر في تلك السنة ، وزحف
البارثيون على بلاد اليهود فخرقوا الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الهسبونيين
ملكاً على البلاد يآتمر بأمرهم ويخضع لمشيتهم . وقابل أنطونيوس وأكتافيان
هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكاً على بلاد اليهود وأعانوا جيشه
اليهودى بالأموال الرومانية . فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحى أورشليم
من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه ، وذبح جميع
زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهيأت له بذلك أسباب حكم
يعد من أكثر العهود إثراقاً في التاريخ (٣٧ - ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكىاء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجعل عاصمته بالمباني والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالخلل والسياسة أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيح له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع رعى السهام والخراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع لإنسان أن يقف فى وجهه » (٨) . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشاة على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوباترة ، أو أكتافيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكاً مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « رومة أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهاشمونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه (٩) . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلاً كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضره له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب الممتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عدااء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأموالها ، وبقي إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يأتمر بالليل والنهار ليعطى عنه نيرها ويسترد حرته منها . وقد ثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها منهاجه الضخم في البناء الذي لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ نائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفيض مقدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلاً من القحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء في الخارج ، ونمي موارد البلاد الطبيعية . وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب ديب الحياة في الأسواق والثغور . لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرسطوبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريقاً « مصادفة » في الحمام ، وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هوروشاءهم ، يأتمرون به ، وحشد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعززم صبغ بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية . سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنكية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو مؤتماً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار ،

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد إليهم الإشراف على الشؤون العليا في الدولة ، وعين نقولاس الدمشقي ، وهو رجل يوناني ، مستشاره ومؤرخه الرسمي . وقد أنشأ في أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً وزينهما بتمائيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق في ذلك أموالاً طائلة ، وأدخل في بلاده الألعاب الرياضية والمباريات الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتلدين الروماني^(١) ، وجعل أورشليم بمبان أخرى على طراز معماري بدا للشعب أنه طراز أجنبي ، وأقام في الأماكن العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى المصارعين في الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصرأ أقامه بلا ريب على الطراز اليوناني وملاؤه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بمحاث واسعة محتدياً في ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذي شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقم في مكانه هيكلأ أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذي دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز « ذات نقوش عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان في هذا البهو الرئيسي مظلات للصرافين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التي تقبل في الهيكل . وكان فيها أيضاً المرائب التي يستطيع الإنسان أن يشتري منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التي يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصمخابون الذين لا مفر من وجودهم في كل مكان . ومن هذا « الهيكل الخارجي » يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلي مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

فى هذا الفضاء « بهو النساء » الذى « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم » (١١) . ومن هذا الحرم الثانى يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم الهواء الطلق المذبح الذى تقرب فيه المحرقات إلى يهوه . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعاً وعشرين ، تعلوها كرامة ذهبية ذاتة الصيت ، وتؤدي إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى . وأمام هذا الستار كانت المائدة (*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شئ قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام وذلك فى يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تم إلا قبيل مجيء فيالق تيتس (١٢) .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذى كان يعد من عجائب العالم فى عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبى الذى يتحدى عقيدة اليهود

(*) المائدة منارة المسرجة وقد استمرقاها للشعبدان (المترجم)

في تحريم الصور المذحوتة ، والذي كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة
عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مداثن فلسطين يتقلون
أنباء العائر اليونانية الخالصة التي كان هيرودس يحدد بها تلك المدائن ، وكيف
ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذي كان مخبواً في قبر
دواد (١٣) في إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفي إهدائه بسخاء للمدن
الأجنبية أمثال دمشق ، وبيلوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ،
وأنتاكية ، ورودس ، وبرجوم ، وأسبارطة ، وأثينة . واتفق لهم أن
هيرودس يريد أن يكون معبود العالم اليوناني لا ملك اليهود فحسب ، لكن
اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم
في يوم من الأيام ، ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح
العبرانية في شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدممة لا تقل عما حل بهم من
الاضطهاد على يدي أنطيخس . ولذلك أخذوا يحكيون المؤامرات لقتل
هيرودس ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم
وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها في بعض
الآحيان (١٤) . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ،
وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداوة له (١٥) .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه في نخورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه .
وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع في وقت واحد ، أما الأبناء
فكان له منهم أربعون . وكانت مريمي Mariamne زوجته الثانية حفيدة
هركانس الثاني وأخت أرسنبولس اللذين قتلها هيرودس . ويصفها
يوسيفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظ بغريزتها ،
تعامل زوجها بغيرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها
كأنه ملك يمينها وكانت فضلاً عن فظاظها تشهر بأمة وأخته
علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل في عرضهما إلى حد « امتلأت
معه القلوب » في بيت الملك « بفضاً وحقداً » . واستطاعت أخت

هيرود أن تقنعه بأن مريمى تأتمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموا عليها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريمتها ، فعجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهره ، ويرسل خدامها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جىء به إلى قصره محمومًا شارد العقل ، واشتركت أم مريمى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجأة ، وأعدم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنقباتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولدها من مريمى ألكسندر وأرستوبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلا حكموا على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يعض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنقباتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجىء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدي أبنائه » (١٦) وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكرية الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتياله ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنقباتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروها من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياءها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقي المعروف باسم بنتانيا Bantanea ، الذي يحتوى على مدائن بيت سيدة ، وكبتولياس ، وجراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتياس پيريا Perea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل في الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان في هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحبرون ، وبيبر سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ، وقيصرية ، وأريجة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير في جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة في المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا في « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما في الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير المحجب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلىنا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمين في إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ، ودولتهم ، وآمالهم ، وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين في نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ، ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التي جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها في نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، تخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتأهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينما كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا في شرك الشريعة . هذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختار صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع في بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة (١٥) . وكان الذي يجمع بين هذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التي كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحبة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم في أورشليم وحدها نحو مائة ألف (١٩) . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلمائهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين في حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفي أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج (٢٠) . وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيذها ، وزيتها غالبية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذي يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً في السنة السبتية (*) . وكانت الصناعات اليدوية وراثية في أغلب الأحيان ، وكان الصانع ينظمون عادة في طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بالسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم في أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى في البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلاً فيها .

(*) أى السنة السابعة التي تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفي ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش في بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) » (٢٢) . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هيل Hillel القانون الوارد في سفر تثنية الاشتراع (الأصحاح الخامس عشر ١ - ١١) والذي يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومى .

وكان في داخل الهيكل هو الجازيث ، ملتحق السنهدين أو المجلس الأعظم المكون من كبار إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ في أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره في سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذي يسدى فيه النصح لموسى . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار في بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه في عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عدداً متزايداً من الفريسيين ، وعدداً قليلاً من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين (٢٣) . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم في كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ، أما الهسمونيين ، وهيرود ، ورومة فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان في وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينية ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية (٢٤) .

وكان في الجمعية حزبان يتنازعان السيطرة عليها ، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون (*) ، والذين سموا بهذا نسبة إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة

(*) شيمة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت في أيام العهد الجديد لا تمتنع بالبحث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين في مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التي يتناقلها رجال الدين ، ولتفاسير الطليقة التي يقول بها الفريسيون . وكانوا ييرتابون في خلود الروح ، ويمتنعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفريسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير (٢٥) . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابي الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسفوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم في تفسير شرائعهم » (٢٦) . ولكي يصلوا إلى ما يبغيه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التي وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفريسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما في قوانين موسى من غموض ، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها في بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة في بعض المواضع كما فعلوا في أوامر هلال الحاشية بالربا ، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفرسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى. فيما يأملونه من الخلود الجثمانى والروحى : وكانوا يحيون حياة بسيطة ، يبتعدون فيها عن الترف وينددون به ، ويكثر من الصوم ، ويعنون بالاعتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباهاة تضايق السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعف حين ألت بهم المصائب : ولما أن خرب الهيكل (٧٠ م) فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفرسيون عن طريق الأحبار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود نظرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تنواها عن الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدانى اسشاي Aschai (المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح : ولعلمهم لقد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ، والفيثاغوريين ، والكليبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية فى غرب آسيا . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ، وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة انعزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تملكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويختلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك » (٢٧) :

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

مفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة (٢٨) . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج النيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليعطى بها فضلاته ، ويقتل بعدها كما يقتل البrahمة ، ويرى أن التبرز في يوم السبب من أعظم الكبائر (٢٩) .

وكانت قلة منهم تزوج وتعيش في المدن العامرة ولكنهم كانوا يسرون على القاعدة التي وضعها تولاستوى وهي أنهم لا يضاعجون أزواجهم إلا يقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الصوفي بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا يتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم في التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاون السحري . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلية » (*) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمام) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته تقية طاهرة (٣١) . وكانوا شديدي التحمس في الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب ، غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية في الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجت فيلق تيتس بيت المقدس والهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكذب يبق منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عذبوا ، وحرقوا ، وقُطعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكي يرغبوا على التجديف في حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

(*) تعليم تصوفي عند اليهود .

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمة واحدة ، بل إنهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المبرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٢٢) .

أولئك هم الصمدوقيون ، والفرسيون ، والإسينيون ، أشهر الشيع الدينية اليهودية في الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمنهم يسوع إلى الفرسيين في كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقيين في الشريعة ، يحاضرون فيها في البيع ، ويعلمونها في المدارس ، ويناقشونها في المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبقونها على الأحكام في القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أجباراً ، وبعضهم صمدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا في القرنين السابقين لهلل كما كان الأخبار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون في بلاد اليهود ، وقد صارت فتاواهم القانونية ، التي صفاها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسمع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التي كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة . وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافاً من التعاليم المفصلة التي تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمي القانون من غير رجال الدين هي شخصية هلل . ، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها في ذلك النسيج الواهي من الخرافات التي حاكها حول اسمه الخلف المفتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد في مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أختي عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل البدوي . وكان يؤدي نصف أجره اليومي ثمناً لقبوله في المدرسة التي كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوماً من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكي يستمع إلى ألفاظ الإله الحي » . وتقول القصة إن جسمه تجدد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه في صباح اليوم الثاني وهو بين الحياة والموت (٣٣) . وصار هو فيما بعد حراً محترماً ، اشتهر بتواضعه ، وجلده ، ودماثة أخلاقه . وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يغضب هال وإنه خسر الرهان (٣٤) . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس في حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذي يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك » (٣٥) (*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التي صاغها اللاويون في صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هال الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت في مكانه » (٣٧) . وقد حاول أن يهدئ نائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هي نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان التأثيرين في عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعيّن في عهده رئيساً للسندرين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاها رئيساً للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هال ، العبارة الآتية : هذه هي الشريعة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها (٣٦) .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً في أسرته مدى أربعمائة عام تعظيماً لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثاني فيه لمنافسي هلال ، وهو الحبر شماي المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلال ، ولا يجوز الطلاق ، وبطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفياً ، لا يراعى فيه تغيير الظروف . وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائماً قبل هلال بمائة عام وظل قائماً حتى خرب الهيكل .

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التي وصفت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودى المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب في الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائى من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزين الهيكل بالفنون التشكيفية إتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلاً لها . وغلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة انهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال في مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذى نسميه سفر الحكمة مما كتب في ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأپوكريفا — أى « الخفية » أو غير الموثوق بها والتي لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهى ملأى بالجمال والحكمة ، ومن أجل هذا فهم غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد في أصحابها الأربعة والعشرين ما نجده في الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسدة : « الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامى ١٣٠ ق . م ، ٤٠ م نشر يهودى إسكندرى — أو عدد من اليهود الهلنستيين — سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج في الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا في نثر لا يقل في جزالته وقوته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعيا . وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سيفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل في النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى في كل ما كتب في هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب في عام ١٦٥ ق . م ليشرح لإسرائيل على الوقوف في وجه أنتيخس إيفانيس ، لا يزال ذاثا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلا تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو في أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » في سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم في حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبلية صور فيها نبيات تنصير لليهودية على الوثنية ، وتنبأ بفوز اليهود النهاى على أعدائهم .

والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل (٣٨) . فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوّرا في الديانة الزرادشتية في صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ، ثم يأتى في آخر الأمر منقذ — شومسانت أو مئراس — ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا ينددون بما في حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما في العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهورات . وقد جاء في سفر الحكمة أن المنافقين قالوا في أنفسهم مفنكرين
افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، و وفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف
قط المحلول من الجحيم ، لأننا ولدنا من لأشياء ، وبعد هذه نكون كأننا
لم نكن لأن النسمة دخان في أنوفنا ، والنطق شرارة في تحريك قلوبنا ،
وإذا أطفئت بصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبعوث . واسمنا
سينسى في الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر
الغمام ، ويضمحل كالضباب الذي بدده شعاع الشمس وتنقله حرارتها ،
لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يردده أحد .
فهلهم إذن نتمتع بالخيرات الموجودة ، ونستعمل الملذات في البرية ما دام
زمان الشبوبة ، فنمتلئ من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر
الربيع . نتكلم بفتاح الورد قبل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز
عليه تنعمنا » (٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يدلون بحجج
باطلة . ولأنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شيء باطل زائل :
« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكبرغوة رقيقة تفدها الزوبعة ،
وكدخان ينحل في الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوماً واحداً وارتحل : أما
الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم .
فلهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب » (٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله
نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو مثله المسيح (*) . أو لم ينبئ به النبي إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهي بالعبرية مسيح) في كثير من المواضع في العهد
القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوال ٢٨ ق . م)
باللفظ اليوناني christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو منحه به .

قبل ذلك ذلك العهد بمائة عامٍ إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطي لبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبةً مشيراً ، لها قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام » (١١) .

وكان كيثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصورونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صانتخب بنهر الأمثال والشاعر صاحب الحكمة سليمان (١٢) فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شىء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فترة من أروع فقراته بأنه : محترق ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزانتنا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . . . ويجبره شفيئنا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من النضغة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين » (١٣)

يبد أنهم جميعاً متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل (١٤) ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعاً ليؤمنوا بهوه والشرعة الموسوية (١٥) . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمل ألف مرة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أخصاء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصدقة والسلام فى الأرض (١٦)

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستخلله عهود غير صالحة :

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق في الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموق في « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام « قديم الأيام » (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدي على العالم بعد أن تجدد وصالح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « في الجحيم » ، أما الأخيار فسيُستقبلون في دار النعيم الأبدي .

ولقد كانت الحركة الفكرية في بلاد اليهود في جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر في المستقبل يحرص تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومى ، ثم فقد الآن ثقته بالدولة التي ينتمى إليها ، وأخذ يفكر في النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل في صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفي بلاد الشرق الهلنستى وإيطاليا ، ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا في بلد من البلاد أقوى مما كان في بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحتقرون في هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب . وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين يفتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم في القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم المزمع . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلال السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا في خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع في عيد العنصرة وتعرضوا في هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين في الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الجولوني استولت على صفيرة عاصمة الجليل : وزحف قارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصاب ألفين من الثوار ، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية في بلاد اليهود : فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكماً مستولاً أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام في عهد تيبيريوس ، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل .

وكان اليهود في عهد أغسطس وتيبيريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثني في هيكلهم . وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم - على حد قول الرواية الماثورة - إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم^(٤٩) . وحلّ كلجيولا هذا المشكل بموته . وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١) ، فلما مات أجريا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقابها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه في عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قبيل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذى عينه أخوه پلاس Pallas والذى « حكم بلاد اليهود » - كما يقول تاستس - « بقوة الملك وروح الرقيق »^(٥٠) . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفى في أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus - إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس - في النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد في السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »^(٥١) . وسلك فلورس Florus - كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم - مسلك « الجلاد لا مملك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره . إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك في أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « الفدائيين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يقاتلوا كل يهودى خائن ، فكانوا يتعمسون وسط الجماعات في الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون

بين الجاهل في الفوضى التي تعقب عملهم هذا^(٥٢) . ولما أن اغتصب فاورس سبع عشرة وزنة (٢٠٠٠ ر ٦١ ريال أمريكي) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ، وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعاني مرارة الفقر . لكن فيالقي فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئآت من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودي قتلوا في ذلك اليوم^(٥٣) . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثريائهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجّتهم في هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخون العزيمة ومحاباة الظالمين .

• وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر في عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢ و ١٠٠٠ يهودي من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً^(٥٤) ، وهكذا استعالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة في منادا Massada ، وأقنعتها بأن تلقى سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفي ذلك اليوم نفسه حدثت في قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم ببيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودي في يوم واحد^(٥٥) . وقام اليهود المختفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية في فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ، ويقول يوسفوس في هذا : « وكان من المناظر المألوفة في ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة يبحث الموق ... ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء^(٥٦) . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد استولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ، وحل حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شاباً في الثلاثين من عمره ، نشيطاً ، ناهياً ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصيل الجليل ، فدافع عن حصنها جوتوباتا ضد قوات فسبازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيد الحياة غير أربعين جندياً اختبئوا معه في كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم للجنود فسبازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذا كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذي يقتل به كل منهم على يد من يليه : ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه في الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسل إلى رومة مكبلين بالأغلال تذباً يوسفوس أن فسبازيان سيصبح إمبراطوراً ، فأطلقه فسبازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحاً أميناً له في حربه ضد اليهود . ولما سافر فسبازيان إلى الإسكندرية صاحب يوسفوس تيتس في حصار أورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية لإيداننا بضم صفوف اليهود . وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاسيتس إن ٦٠.٠٠٠ من الثوار تجمعوا في المدينة ، وإن كل من يستطيع الانخراط في سلك الجندي قد تسليح ونزل إلى الميدان ، وإن الروح العسكرية في النساء لم تكن أقل منها في الرجال^(٥٧) . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة بالمحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفذت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . قأسر الرومان آلافاً منهم وصلبواهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حداً لم تتسع معه الأرض لإقامة الصليبان » ، ولم يوجد من الصليبان ما يكفي لأجسامهم » . وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى في المراحل الأخيرة من الحصار الذي دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب ما لهم ، ويقال إن ١١٦,٠٠٠ رطل من الذهب أُلقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعاً من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا في برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب (٥٨) . ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطاً ظنّها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار في الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديوبموتهم في حرمه (٥٩) . فثمنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألغوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا في اللهب . ولم يرحم المتصرون أحدًا ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧,٠٠٠ وبيعوا في أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم في المجتلاب بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التي أقيمت ضمن احتفالات النصر في بيروت . وقيصرية ، وفلپاي ، ورومة . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود في هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما ناستس فيقدرهم بستائة ألف (٧٠ م (٦٠) .

ودامت المقاومة في أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان في واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلص من اليهود .

وعاش من بقي منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم يرغم على أن
يؤدى للهيكل الوثني في رومة نصف الشاغل الذى كان العبرانيون الصالحون
يؤدونه في كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة
والسندرين : واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها إلى أيامنا هذه :
صورة دين بلا معبد مركزي ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين .
واختفت طائفة الصمدوقيين ، وأصبح الفريسيون والأخبار زعماء شعب
لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ومن أجل هذا أرخ علماءهم تشتيتهم من الوقت الذي دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبي أو الأسر البابلي قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم في الإسكندرية . وإذا كانت كثرة التناسل مما يحتضنه الدين اليهودي والشرعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذا كان وأد الأطفال محرماً عليهم . فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضلاً عن الأسباب الاقتصادية ، وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل في تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولاً لا يخلو من المغالاة التي أملت عليها زرعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد في العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هذا الجنس من الناس ، أو غير مملوك له » (١) . ووصف فيلوق قبل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . المأوى بالخلوات اليهودية ومثلها . . . الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً » (٢) . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود في سلوقية على نهر دجلة وفي غيرها من مدائن باوثيا . وكانوا كثيرى العدد في بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا في سوريا وفيقية وكانت لهم جالية كبيرة في طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشيء في ديلوس ، وكورنثة ، وأثينة وفلپاي وبيريه ، وسلانيك . أما في غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود في قرطاجنة ، وسرقوسة ، ونابولي ، وكبوا ، وبمبي ، ورومه ، وحتى

فَنُوزِيَا مَوْطَن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفي وسعنا أن نقدر عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية إجمالاً بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضعفى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأيام (٦٣) .

وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وخطابهم ، وفقرهم ، وطمعهم ، ورخائهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، وفقرهم من الصور وتشددهم في مراعاة السبب رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عدا للسامية تختلف من المزاج في الملامى ، والسخرية بهم في أقوال جوفثال وتأسس ، إلى ذبحهم فرادى في الشوارع ، وقتلهم زرافات في المذابح المدبرة . وقد نصب أيبون الإسكندرية نفسه مدافعاً عن هذه الهجمات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة (*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه في موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمقامم اليهودية . ومنحه فسبازيان حق المواطنة الرومانية ، ووظف له معاشاً وخصص له مسكناً في قصره وأقطعته أرضاً خصبة في بلاد اليهود (٦٤) . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم آسره فسبازيان ، وهو فلافيوس ، وكتب تاريخ صرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس في فلسطين . ويبرر انشقاقه على بنى جنسه ، ويشبط عزائم اليهود إذا ما فكروا في الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزله في شيخوخته فألف كتاباً في قدمم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه في هذا الكتاب واضح قوى ،

(٥) وقد انتهج يوسفوس حين علم أن قرعة قد اضطرت أيبون إلى الاعتنان .

ووصفه لهرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلو طرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب قدم اليهود عدة سنين وأنهك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمعاء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته^(٦٦) . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجلد ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينما كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلال يدعى يوهنان بن زكاى لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبقى من ينقد الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند بينى أو يمينا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهدينناً جديداً فى يمينا ، ولم يؤلفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفريسيين والأحبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم بيت الربيع أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الحاخام الذى يختاره المجلس رئيساً له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الحاخام جباليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولاً ، ثم بين يهود يمينا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلال وشماى ، ثم أخذ الراى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم

تفسيرات همل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .

وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التي لا غنى عنها والتي تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس في جميع البلاد التي شنت فيها اليهود . وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) ، وكانوا يؤيدون شروحهم في العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصا وعظات أو غيرها من المواد (هجادا) ويوضحونها بها في بعض الأحيان . وأشهر هؤلاء اثنان هما الربان عكيبا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو في سن الأربعين ، إلى ابنه البالغ من العمر خمس سنين ، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع في زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاماً افتتح له مدرسة تحت شجرة تين في قرية قريبة من يمينيا . وقد كانت حماسه ، ومثاليته ، وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً في التفاف كثيرين من الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء في عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ لإجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبا وجماليل واثنا عشر آخران من اليهود ليمتصلا اتصالاً شخصياً بالإمبراطور . وبينما هم في رومة إذ توفى دومتيان . واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألقى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبا إلى يمينيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك للعمل الشاق الذي قضى فيه بقية حياته ونعنى به تقنين الهلاكا ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالي ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاكا حتى في هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلاً بعد جيل - فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان في الطرق التي جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما في النتائج التي وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيباً إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفياً ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ، ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظته من أن الناس لا يقبلون الشيء المعقول إلا إذا كان في صورة غامضة خفية . وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذلك العرض لعلمى الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسين .

ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألنى نفسه ، كما كان في أيام شبابه ، محوطاً بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على رومة مرة أخرى في عامى ١١٥ - ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة في تلك الأيام . ويقول ديونان ٢٢٠.٠٠٠ قتلوا في قورينة ، و ٢٤٠.٠٠٠ في قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكننا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخذت الفتن ، ولكن من بقى من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوى في ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهمتهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هديران أعلن في عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوهر في مكان الهيكل ، ثم أصدر في عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علناً (٦٧) . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم في عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيا الذى ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيا أنه هو المنتقد .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين في قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفذ طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة في فلسطين وذبحوا ٥٨٠,٠٠٠ يهودي ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّ باركوشيا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيتار . وكان الذين بيعوا من اليهود في أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم في سرايب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى (٦٨) .

وأراد هديران أن يقضى على ما في اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتجريم الختان بل حرم معه الإنسيات والاحتفال بأي عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علناً (٦٩) . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول تريت المقدس إلا في يوم واحد محدد في العام يسمح لهم فيه بالهجرة إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت في مواضع أورشليم مدينة إيليا كيتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوهر وفينوس ، وساحات للرياضة وملأه حمامات ، وحل مجلس يمينيا وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجبر المجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع في Lydda . أما تعليم الشريعة فجهدت منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأجبار الذين خالفوا . وأصر أكيبا ، وكان وقتئذ الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج في السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم في سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمع ، يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد » (٧٠) .

وظل اليهود قرونًا عدة يعانون آثار النكبة التي حلت بهم بعد ثورة

پاركوشيا ، وإن كان أنطونينس پيوس قد خفف من صرامة مراسيم هديران ، ودخلوا من هذه اللحظة في دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفي اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا في كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا في عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر في تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية في ظلمات الخوف والفرع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق. م إلى ٣٢٥ م

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها
قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

٤. ق. م : مولد المسيح .
٦٠ م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ - ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ - ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس في أثينة .
٥٣ - ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ - ٦٠ : فلкс يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد ثيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ - ١٠٠ : الأناجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفوس أسقف رومة .
١٣٧ : هيچينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة جستين الأولى .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد دپوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أرينايس أسقف ليون .
١٩٠ : فكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

- ١٩٣ : پرتناكس وددبوس چيلانس ، إمبراطوران .
- ١٩٣ - ٢١١ : سبتمبوس سفيرس ، إمبراطور .
- ١٩٤ : متانس ؛ كلمنت الإسكندري .
- ٢٠٠ : ليبر أبولوچتكنس لوتيليان .
- ٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .
- ٢٠٣ : قوس سبتمبوس سفيرس ؛ أورجن .
- ٢٧٠ - ٢٧٥ : بلوتينس .
- ٢١١ - ٢١٧ : كركلا .
- ٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنة .
- ٢١٥ : حمامات كركلا ، ماني .
- ٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .
- ٢١٨ - ٢٢٢ : إلاباليس ، إمبراطور .
- ٢٢٢ : إريان الأول : أسقف رومة .
- ٢٢٢ - ٢٣٥ : الكسندر سفيرس ، إمبراطور .
- ٢٢٨ : اغتيال أليان .
- ٢٣٥ - ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .
- ٢٣٦ : فابيان ، أسقف رومة .
- ٢٣٨ - ٢٤٤ : جورديانس الأول ، والثاني والثالث ، أباطرة .
- ٢٤٠ - ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .
- ٢٤٤ - ٢٤٩ : فليب العربي ، إمبراطور .
- ٢٤٨ : سريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلم لأورجن .
- ٢٤٩ - ٢٥١ : ديسبوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضي .
- ٢٥١ : كورنيليوس ، أسقف رومة .
- ٢٥١ - ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .
- ٢٥٣ - ٢٦٠ : فلريانس ، إمبراطور .
- ٢٥٣ - ٢٦٨ : جليينس ، إمبراطور .
- ٢٥٤ : المركانتيون يفيرون على شبالي إيطاليا .
- ٢٥٥ : شابور يفتزو سوريا .
- ٢٥٧ : مرسوم فلريان ضد المسيحية .
- ٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .
- ٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول
- ٢٦٠ - ٢٦٦ : أدنائس في تدمر .
- ٢٦٦ - ٢٧٣ : زفوبيا ولنچينس في تدمر .
- ٢٦٨ - ٢٧٠ : كلوديوس الثاني ، إمبراطور .

ق . م

- ٢٧٠ - ٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .
٢٧١ : البرابرة ينيرون على إيطاليا .
٢٧٥ - ٢٧٦ : تاكثس ، إمبراطور .
٢٧٦ - ٢٨٢ : بروبس ، إمبراطور .
٢٨٢ - ٢٨٣ : كارس ، كرميس ، نمرانس ، أباطرة .
٢٨٤ - ٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .
٢٨٦ - ٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .
٢٩٢ : جلريوس ، وقنسططيوس ، قيصران .
٢٩٥ : حمامات ، دقلديانوس .
٢٩٦ : مرسينس ، أسقف رومة .
٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .
٣٠٣ - ٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .
٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصرًا .
٣٠٧ : مكنتيوس ومسكيان كلاهما أغسطس ؛ بإسلفا مكستيتيوس .
٣٠٧ - ٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .
٣٠٧ - ٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .
٣١٢ : واقعة جسر ملثي ، مرسوم ميلان .
٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .
٣١٣ - ٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .
٣١٤ : مجلس أريلس .
٣١٤ - ٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .
٣١٥ : قوس قسطنطين .
٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .
٣٢٤ - ٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .
٣٢٥ : مجلس نيقية .
٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .
٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .
٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق م - ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمره
أحزان البشرية ، وخيالاتها ، وآمالها - أسطورة من الأساطير شبيهة
بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدريس ، وديونيشس ،
ومثراس ؟ لقد كان بولنجر ك والمثقفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم
فلتير نفسه ، يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له
وجود على الإطلاق ، وجهر فلني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه
مخرائب الإمبراطورية الذي نشره في عام ١٧٩١ ؛ ولما التقى نابليون في عام
١٨٠٨ بفييلاند Wieland العالم الألماني لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها في
السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها
أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس - التهجم الشديد على صحته وصدق
روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي ؛ وربما
أدت هذه البحوث عل مر الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأنًا عن الثورة

التي أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك في هذه الحرب التي دامت مائتي عام كاملة في صمت وسكون ، وكان الذي أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية في جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته في عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره في أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه في هذا النشر ، وسماه هتامت ولضبتل Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية في جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر في إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر في تهية الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذي يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر . وفي عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين المسيح متى ، ومرقس ، ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها ، وفي عام ١٨٢٨ نلص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح في ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أي أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء دافد استروس David Strauss (١٨٣٥ - ١٨٣٦) في كتابه عن حياة المسيح - وهو كتاب عظيم الأثر في التاريخ - فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما في الإنجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . رقد أثارث مجلدات استروس الضمخة عاصفة قوية في التفكير الألماني دامت جيلا من الزمان . وفي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرسيتيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل پولس وقال إنها كلها ممدوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفي عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغي بها أن يثبت أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، وأنجسيدا لطقس من الطقوس نشأ في القرن الثاني من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفي عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan **مباة يسوع** الذي روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان في هذا الكتاب نتائج النقد الألماني ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازي Loisy الذي حلل نصوص العهد الجديد تحليلاً بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرقه هو وغيره من « المحدثين » . وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة بيرسن Pierson ونابر Naber ، ومثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضمينة حقيقة المسيح التاريخية . وفي ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفي إنجلترا أدلى و . ب . اسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتنس J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح . وهكذا بدا أن الجدل الذي دام مائتي عام سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً : وبعد فإلى الأدلة التي تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هي التي وردت في كتاب قدم اليهود ليوسفوس (٩٣ م) :

« وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذا

جاز أن نسميه رجلاً ، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود - وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت - ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها ممدوسة على يوسفوس^(٣) . وفى التامود إشارات إلى يسوع الناصرى ، ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية^(٤) . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه بلنى الأصغر (حوالى ١١٠) ^(٥) ، يستشير فيه تراجان عما يعامل به المسيحيين^(*) وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاسيتس^(٦) اضطهاد نيرون للكركسياني Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوروبا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاسيتس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورهما من هذا الكاتب^(٧) . ويذكر سوتونيوس (حوالى ١٢٥) خبر هذا الاضطهاد نفسه^(٨) ، كما يذكر نقي كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهود الذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح impulsore »^(٩) . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاب أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوماً أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »^(١٠) . وهذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ ونجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر

الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعاً في جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أن نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت رومة قبل عام ٥٢ ببطرس ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطوري . ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثني عاش في منتصف ذلك القرن الأول في هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس^(١١) إن الظلمة العجيبة التي يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة في ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل - تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت في الحقيقة بعد ذلك التاريخ - لا يكاد يختلف الباحثون في أنها في جوهرها من كتابات بولس . ولم يشك أحد قط في وجود بولس نفسه أو في لقائه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح في أثناء حياته ويحسداهم على هذه المعرفة^(١٢) . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير^(١٣) وإلى حادث الصلب^(١٤) .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الانجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الانجيل التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو في اللغة الإنجليزية القديمة *godspel* أى أخبار طيبة) - ترجمة للفظ اليوناني *euangelion* والذي يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هي أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المثل ، وأنجيل منى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحواو فى الصقل الأدبى . بيد أن ما فى أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الإحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى تروىها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتى وضعت للملك جيمس .

وترجع أقدم النسخ التى لدينا من الأنجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء فى النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلوه مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا فى كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس^(١٥) .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد منى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقات بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس في الزمن على سائر الأناجيل ، وفي تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً في عدة صور^(١٦) فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هي الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن لإنجيل مرقس كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال^(١٧) . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتز Schwyter ذلك العالم النابه الحكيم بأن لإنجيل مرقس في جوهره « تاريخ صحيح »^(١٨) .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن لإنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرينيوس Irenaeus أنه كتب في الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . وإذ كان يبدو لنا إنه في هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس ، وأنه ينقل في أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها . فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م^(٢٠) . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt في خرائب إحدى المدن القديمة في مصر في عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها في الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدي المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً في النفس وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعهده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذي يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب في تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ، وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأنه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل (٢١) . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى (٢٢) . فإنك لتجد في إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التي يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقس ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين في إنجيل لوقا تكاد أن تكون هي بنصها (٢٣) . وفي إنجيل متى كثير من الفقرات التي توجد في لوقا ولا توجد في إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هي بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذوها عن أصل مشترك ، لم نعر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لبنان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح (٢٥) . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قربية من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية ، قد جعل الكثيرين من الباحثين في الدين المسيحي يشكون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا (٢٦) . بيد أن التجارب توحى إلينا ألا نعجل في تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . ويتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات الماثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فلذا سلمنا بهذا كله بقي الشيء الكثير . إن ما في الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجبياً ، وتعرض في مجموعها صورة منسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حمورابي ، وداود ، وسقراط - لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحوادث التي يعتمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها - كتنافس الرسل على المنازل العليا في مملكة كوت الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى ما ينبغي : « لو كانت لنا في تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها في الأناجيل لما خالطنا أقل الشك في أمرهما » - ج . - كلوزنر J. Klausner في كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إثبات المعجزات في الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشككه الأول في رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التي رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط في أن وراءها شخصية تاريخية حققة . ولو أن عدداً قليلاً من الرجال السذج قد اخترعوا في مدى جيل واحد هذه الشخصية الجلداية ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمه ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية في سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة في تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب :

الفصل الثانى

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى « الأيام التى كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود » (٢٧) - أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس (١٣٧) ، أى فى عام ٢٨ - ٢٩ م « وهذا يجعل ميلاد المسيح فى عام ٢ - ١ ق . م . وبضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفى تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرنيوس Quirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامى ٦ - ١٢ م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء فى بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان فى عام ٦ - ٧ م (٢٨) ، . ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان (٢٩) إحصاء ابلاد اليهود قام به سترنيس حاكم سوريا فى عام ٨ - ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذى يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولسنا نعرف اليوم الذى ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة فى هذا الموضوع كانت منتشرة فى أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد - وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثانى بعد الميلاد . وفى عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائى الذى تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من يناير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وعبادة الشمس ، ولكن لم يكند يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد فى الشرق أيضاً (٣٠) (*) .

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع الناصرى » (**) . وقد سمي بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus .

ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أئى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ » (٣١) . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم - مارية - بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيته وتتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقروا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود - كما تتطلب ذلك النبوة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكننا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب في أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافي (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقى جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلوات الآباء والأبناء تولف مسرحيات أعمق مما تولفه عاطفة الحب الجنسي . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى روماني فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف » (٣٢) . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحه الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبي . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل بما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين .

(المترجم)

ذًا عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعليماً منظماً ، وشاهد ذلك أن جبرته كانوا يتساءلون : « كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ » (٣٣) . وكان يتردد على المجمع الديني ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير في تشكيله . وامله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأننا نجد في تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، ومملكة السماء .

وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحفاصة الدينية ، وكان آلاف من اليهود يفتظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ إسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين في أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجم ، كانت كل هذه عقائد مسلماً بها في كل مكان . ولعل قصة الجوسى كانت تسليماً لا بد منه لعقائد المنجمين في ذلك العصر (٣٤) ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ، وما من شك في أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين (*) ، وذلك في خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس في أثناء عيد الفصح . ولعله قد سماع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة Mazaranes » كان المنتمون إليها يعيشون في بيرييه في الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا يرفضون التعبد في الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس (٣٥) . ولكن الذى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيرييه البوذيين حتى بلغوا مصر وقوريني غرباً (٢٣) ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسه الدينية هو عظات يوحنا ابن البصابت قريية مريم .

ويروى يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل (٣٧) . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً في السن ، أما الحقيقة فهي عكس هذا ، فهو في الوقت الذي نتحدث عنه في سن عيسى أو قريب منه ، ويصفه مرقس ومتى بأنه كان يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل ، ويقف بجوار نهر الأردن ، ويدعو الناس إلى التوبة . وكان يماثل الإسينيين في الزهد ، ولكنه يخالفهم في اعتقاده أن التعميد يكفي أن يكون مرة واحدة ؛ وقد يكون اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ اليوناني « إسين » أى الاستحمام (٣٨) ، وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزي تنديده الشديد بالفساق ، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة ، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء (٣٩) . وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور .

ويقول لوقا إنه في « السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس » أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليُعَمِّدَ على يديه . وهذا القرار الذي اتخذته رجل « يقرب من سن الثلاثين » (٤٠) شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا ؛ وأن تعاليمه هو لن تفرق في جوهرها عن تلك التعاليم . أما أساليبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا : فهو لم يعمد أحداً (٤١) ، ولم يعيش في البدياء ، بل عاش العالم . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتipas « صاحب المدن الأربع » في الجليل بسجن يوحنا . ونقول. الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيرودياس وهي لا تزال زوجة لفيلب أخيه غير الشقيق . أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن

يكون يوحنا يستتر بستانر الإصلاح الدينى لينثر القلاقل السياسية فى البلاد(٤٢) .
ويروى مرقس(٤٣) ومتى(٤٤) فى هذا المجال قصة سالوم ابنة هوردياس ،
التي فتنى هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة
تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن
الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس فى الأناجيل شىء عن حب
سالوم ليوحنا ، وليس فى يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد فى موته .

الفصل الثالث

الرسالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب في الناس مبشراً بملكوت الله^(٤٥) ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم في مجامعهم »^(٤٦) . وليست لدينا صورة مطبوعة في أذهاننا عن ذلك الشاب المثالي ، وهو يقيم بدوره في قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين .
الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب علىَّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب منكسري القلب ، لأنادي للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق »^(٤٧) وللعلمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين في الحرية^(*) ، ويضيف لوقا « وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه »^(٤٨) . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولاً في حذر وحيلة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجدل السيامي ، ثم أصبح في كل يوم أعظم جراً في إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى^(٤٩) .

وإننا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاقي ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإننا نحس بما بصيبننا من أذى إذا وجدنا عيباً في أخلاقه .
لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه
في آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان : وإن الإنسان ليجد في
الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع
أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه
عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى
لا تنطفئ أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم^(٥٠) . وهو يقول
دون أن يحتج عليه أحد إن رجلاً فقيراً فى الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة
واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى فى الجحيم^(٥١) . وينصحنا بنبل
وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن
برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً^(٥٢) . ولعله كان قاسياً
بعض القسوة على أمه^(٥٣) . وكان يتصف بحماسة النبی العبرانى المتزمت أكثر
من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكيم اليونانى وكانت عقائده
القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم
إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان
القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب
الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه
وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيماً بعض الوسامة ، كما كان
ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين
من الرجال : وفى وسطنا أن نستدل من بعض العبارات المنفرقة^(٥٤) ، على أنه كان
يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين فى قدميه ،
ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس^(٥٥) . وكانت
كثيرات من النساء يجدن عنده شيئاً من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصاً
عامراً تفيض به قلوبهن ، وليس انفراداً يوجنا بذكر المرأة التى ضببطت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ،
وهي فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقل "جمالاً"
عن هذه القصة قصة أخرى ليس في طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهي قصة
العاشر التي أثرت في قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راحة بين
يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما
بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحببت
كثيراً » (٥٧) . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ،
وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم » (٥٨) .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسماعيليون
والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر في حفل للزواج ، وأنه
كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قبّل عاهراً تائبة ضمن
أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا
قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهي فتاة . وكان في بعض الأحيان يقبل
الدعوة إلى الولائم في بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان في العادة يختلط
بالفقراء ، وإن كانوا من الأمحاريين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين
كان الفريسيون الصديقون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن
الأغنياء لن يؤمنوا برسالاته ، فكان لذلك يبنى آماله على ما عساه يحدث
من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلى في ملكوت الله . ولم يكن
يشبه قيصر إلا في وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفي اتصافه بالرحمة ،
أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين في أخلاقهما ، ونظرتهما إلى
الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٢ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً في نسخ خطية قديمة
من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيحي المتأخرين ، وليس سبب حذفها
خوف الناشئين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

تنظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب في أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قصير هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ، ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن في وسع أحد أن يربكه ولو هدهد بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شيء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التي لا ينتظر وقوعها ، وكان الذي يحمله على المغالاة في تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث في الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذي يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الإيحاء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، في روح قابلة للتأثير . ولقد كان وجوده في حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المباشرة بالخير تشفي المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس في الخرافات والتاريخ^(٥٩) دليلاً على أن معجزات المسيح هي الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدق العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها في كل يوم تقريباً في لورد Lourdes ، وما من شك في أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح في إبيدروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفساني في العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم ، وثانيهما عجزه عن القيام

بمعجزات في الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ من ثم كان قولهم إنه « ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته » (٦٠) . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخفّ حداثتها في حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها في صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة — ولعلها كانت مصابة بالشخص (*) . ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الأمر القوية : « طليثا قوى » (أى يا صبية قوى) (٦١) . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتي بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئاً في اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما في تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَوَر نفساني بهد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التي دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليدلوا أقوال العالم . فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعي ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبي المركزي (شرف) .

عيسى أن يهتدى من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون في يوم الحساب . على اثني عشر كرسيًا يدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر^(٦٢) . ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذى سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ، كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجمل فى بعض الأحيان إلى حد الحبس الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح . وكان متّى جاييا فى مدينة كبرنوم القائمة على الحدود ؛ أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان فى منصبه هذا يخدم رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوق إلى الحرية . وكان يهوذا الكريوتى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائباً عنهم ؛ وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ، ويأخذون طعامهم آنا بعد آنا مما يمرون به من الحقول ، ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى الاثني عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ، ولا أحذية »^(٦٣) . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى لا غنى عنها ، واتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيل

وكان يعلم الناس بالبساطة التي تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هتفه
التعاليم بالقصص الطريفة التي تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحكم
والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التي
لا تقل روعة عن أمثالها في أى أدب من آداب العالم . وكانت طريقة
القصص الرمزية التي يلجأ إليها مألوفة في بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض
تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بنى إسرائيل ،
وكتاب المزامير ، وأخبار اليهود^(٦٤) . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى
هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوّته ، وإخلاصه العظيم ، قد دفعت
أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض
أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتجافى مع العدالة^(٥٦) ، وأن منها
ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحق المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج
في الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هي لإنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه
يرجع إلى دانيال وأنخوخ ، إذ ليس في التاريخ طفرات . ومن أقواله أن
ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضي عما قريب على عهد الشر
والخباثات ، وأن ابن الإنسان سيأتي « على سحب السماء » ليحاسب جميع
البشر الأحياء منهم والأموات^(٦٦) . ومن أقواله إن الوقت الذي يجب أن
يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمرّ مسرعا ، فأما من تاب وأتاب ، وسلك
سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ،
ويسمو إلى القوة والمجد في عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور
والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحاً ، ومن ثم نشأت في وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما في هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ أهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك » ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .

ولم يُنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « ملكتى ليست من هذا العالم » (٦٧) إلا بعد أن نخبها هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبروثون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم » (٦٩) ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكماء هم الرسل ، ويأخذ من أعطى أو أودى فى سبيل المسيح مائة ضعف (٧٠) . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت . وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحققت (٧١) .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريباً . « الحق أقول لكم إن لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان » (٧٣) . ثم أخره قليلاً فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً فى ملكوته » (٧٤) ؛ « لا يعصى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله» (٧٥). ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن إلا الأب » (٧٦). وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن . . . يعثر كثيرون و . . . يبغض بعضهم بعضا . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرون ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين » (٧٧). وفي بعض الساعات جعل يسوع مجيء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلا كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملا من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعياً (٧٨). ولنا لرى في الأنجيل بعض الشواهد التي تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه في الحياة جمع المال والانغماس في الترف (٧٩) ، فهو يتوعد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويات التي ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، و... اتبعنى » (٨٠).

ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شئ مشتركاً » (٨١). وكانت التهمة التي أدين من أجلها عيسى هي أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن في وسع الرجل المحافظ أن يجد في العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقاً له ، ومتّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب في الحركة اليهودية التي تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »^(٨٢) . ولسنا نجد في قصة الرجل الذي « دعا عبده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »^(٨٣) أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التي لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذي استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكي) التي عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذي تركت له منها واحدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنتق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه »^(٨٤) ، وهي خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفي قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذي يوجب من عمل ساعة بقدْر ما يوجب الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينتق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي ؟ »^(٨٥) . ويبدو أن المسيح لم يفكر في القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذي إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »^(٨٦) أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة في وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس النافرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات^(٨٧) . أما الثورة التي كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثرا ، فهي ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يظهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التي إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أى محدثي الانقلابات في تاريخ العالم .

وليس أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هي التي تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله (٨٨) ، والتي كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول في هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقعة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثاني ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لا مثلاً علياً للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاماً يكاد يماثل نظام الإدارة يهيئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله للمملكة مرتبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولا فقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات » (٨٩) . وما من شك في أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لاجتماع دائم . لقد كانت هذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة في أغراضها ، ولكنها عامة في مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله في الهياكل ، بل يعملونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات المسيح - فكرة يوم الحساب وملكوت الله - لهى من الأفكار التي وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادى الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء فى سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و« كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك » (٩٠) . وكان اليهود قد أمرُوا فى سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم (٩١) ، وكان لإرميا (٩٢) وإشعيا (٩٣) ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدوم لمن يطمعهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا (٩٤) وهوشع (٩٥) ، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التي كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم ، فلا يخاطب إلا فى اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أُم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا » (٩٦) ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته فى أن يحملوا « الأنبياء الطيبة » إلى عالم « الكفرة » (٩٧) ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص هو من اليهود » (٩٨) ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقوها عليه إنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التي قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها ألبى فى أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٩٩) . وقال للأبرص الذى شفاه من عاته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى » (١٠٠) : « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا» (١٠١) ، ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر في أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (١٠٢) «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (١٠٣) (*) .

لكنه مع هذا قد بدل كل شيء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول في الملكوت بأن يحيا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة في مسائل الجلس والطلاق (١٠٥) ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو (١٠٦) ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان (١٠٧) ، وخفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، وندد بالجهل بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالحنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت (١٠٨) .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسمينيين ، وكان الذي أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالمهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، والنساء ذوات السمعة السيئة : وكان كهنة الهيكل وأعضاء السهدين يرقبون نشاطه بعين الرية ، ويرون في هذا النشاط ما كان يراه هيرو دس في نشاط يوحنا وهو أنه ستر يخفي تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الروماني بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعي .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس (١٠٤) ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا في نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لا يقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويجبون المتكأ الأول في الولاثم والمجالس الأولى في المجمع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! : تركتم أثقل الزاموس - الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا . . . لأنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملاؤا أنتم مكياك آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ : : إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (١٠٩) .

ترى هل كان يوحنا عادلا في حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس بمظاهر التقى الخارجية : غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هي (١١٠) . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالا مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التي أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التي ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغيهم ويعاديهم : وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التي كانت تدبر لاغتياله (١١١) ، ولقد كان نقوميديس Nicomedus أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا في صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه في أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذي سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ » (١١٢) لم يجبه إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الرب في سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب في غموضه حين سألته رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؟ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسي فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود (١١٣) . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقنعه تدريجاً بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله في الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية ، ولم يقل (في الأنجيل الثلاثة المتشابهة - متى ، ومرقس ، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أويسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله » (١١٤) وقال وهو يصلي في جتسماني : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت » (١١٥) . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذي جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله في بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه في وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه في مثل قوله : « فلان ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً » (١١٦) - وهي عبارة رآها الفريسيون تجديفاً في حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا في بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحياناً أخرى يقول : « أبي » . ويبدو أنه يقصد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة (١١٨) . وقد ظل وقتاً طويلاً ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه في قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحي » (١١٩) . ولما اقترب من أورشليم في آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « إنه لو سكنت هؤلاء فالحجارة تصرخ » (١٢٠) . وقد جاء في الإنجيل الرابع أن الجاهير حيمته بقولها إنه « ملك إسرائيل » (١٢١) . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقرب عيد الفصح واجتمع في أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرايين للهيكمل . وكان البهو الخارجى يضيح بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا ؛ والصيارفة يعرضون النقود المتداولة في هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة في الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكمل في اليوم الثاني بعد دخوله المدينة هاله بما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصي . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم في الهيكمل دون أن يتعرض له أحد (١٢٢) . ولكنه كان يخرج منه ليلا ويبيت في جبل الزيتون لخوفه أن يقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة — المدينون منهم والدينيون ، الرومان واليهود — يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان في دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسي الذي استقبل به في أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلهب حماسة هذه الجماعات التي اجتمعت في عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتي وحرية دينية . ومن أجل هذا دعا الخاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها » (١٢٣) ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السنهالدين نفسه . فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال (*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، ورضى بما قُدِّرَ له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته عل أنه تضحية يكفّر بها عن ذنوب شعبه (١٢٤) . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخربوطى (**). وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ايشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية (١٢٧) . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلاً بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً ... لا تضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعدّ لكم مكاناً » (١٢٨) .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، لإحياء لذكراه ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرفه والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ - ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن موته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين . (***) لقد قيلت حجج كثيرة فى تفنيد قصة يهوذا (١٢٥) ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل (١٢٦) .

الوثاب ، قد سألهم أن يتصوروا أن العيش الذى يأكلونه هو جسمه ، وأن الخمر التى يشربونها هى دمه .

ويقال إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة فى حديقة جنسيمانى فى خارج أورشليم : وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل (١٢٩) وقبضت على يسوع : وسبق أولا إلى بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين ، ثم نقل منه إلى بيت قيافا : ويقول مرقس إن « المجلس » — ولعل الأصح أن لجنة من أعضاء السنهدرين — اجتمعت فى ذلك المكان . وشهد عليه شهود كثيرون ، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل . ولما سأله قيافا هل هو « المسيح ابن الله ؟ » أجابه كما تقول الرواية « أنا هو » (١٣٠) . واجتمع السنهدرين فى صباح اليوم التالى وأثبت عليه جريمة التجديف (وكان عقابها الإعدام فى تلك الأيام) وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الرومانى ، وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المحتفلة بعيد الفصح .

وكان بيلاطس البنطى رجلا قاسيا ، استدعى إلى رومة بعد وقت ما من هذه الحادثة متهماً بابتزاز المال واستخدام القسوة (١٣١) ، وعزل من منصبه . على أنه لم يبد له وقتئذ أن هذا الواعظ الوديع الخلق خطر حقيقى على الدولة : وسأل الرجل يسوع سوألا يكاد يكون من قبيل المداعبة : « أنت ملك اليهود ؟ » فأجاب يسوع ، حسب رواية متى بقوله « نعم » . ولا يسع الإنسان إلا أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الظن ، ثم دونوها بعد وقوعها بزمان طويل . فلماذا أخذنا بهذا النص وجب علينا أن نجزم بأن يسوع كان قد قرر أن يموت ، وأن نظرية بولس عن التكفير تجد ما يؤيدها فى عمل المسيح نفسه . وينقل يوحنا عن يسوع أنه أضاف إلى جوابه السابق قوله : « لهذا قد ولدت أنا . . . لأشهد للحق » . وسأله بيلاطى « ما هو الحق ؟ » — وهو سؤال لعل الباعث عليه نزعة الإنجيل الرابع الميتافيزيقية ، ولكنه يدل بأجلى بيان على ما هنالك

من فروق بين ثقافة الرومان السوفسطائية الساخرة ومثالية اليهودى الواقفة المتحمسة . ومهما يكن من شىء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه ، وبناء على هذا أصدر پيلاطى وهو كاره حكمه بالإعدام . وكان الصليب من طرق العقاب الرومانية اليهودية . وكان الجلد يسبقه عادة ، فإذا ما جلد المذنب بقسوة أصبح جسمه كتلة من اللحم المتورم الدامى . ووضع الجنود الرومان تاجا من الشوك على رأس المسيح يسخرون بذلك من تلقبيه « ملك اليهود » ، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية « عيسى الناصرى هو ملك اليهود » Nazarithaeus Rex Joudeorum . وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعائها فليس ثمة ريب فى أن رومة قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة ، وكذلك فهم تاستس الأمر على هذا النحو^(١٣٤) . وكانت جماعة صغيرة ، لا يزيد عددها على ما يتسع له فناء بيت پيلاطس ، قد طالبت بإعدام المسيح ؛ فلما أن أخذ يصعد تل جمجمة « تبعه جمهور كبير من الشعب » كما يقول لوقا^(١٣٥) ، والنساء اللواتى كن يلطن وينحن عليه . وما من شك فى أن هذا الحكم لم يرق فى عين الشعب اليهودى .

وقد أذن لكل من يريد أن يشهد هذا المنظر الرهيب أن يشهده . وكان الرومان الذين يرون أن لا بد لهم أن يحكموا الناس بالإرهاب يختارون لتنفيذ حكم الإعدام فيمن يرتكبون الجرائم التى يحدد لها القانون هذه العقوبة الطريقة التى يسميها شيشرون « أقسى أنواع التعذيب وأبشعها »^(١٣٦) . فكانت يد المذنب وقدماه تُدَق (أو تربط فى حالات نادرة) إلى الخشبة ، وكانت فيها قطعة بارزة تسند العمود الفقرى أو القدمين . وإذا لم يُرحم المذنب فيُقتل فإنه يبقى على هذه الحال يومين أو ثلاثة أيام ، يقاسى فيها آلام عدم الحركة ، وهو عاجز عن طرد الحشرات التى تتغذى من لحمه العارى ، فتخور قواه ببطء حتى يقف القلب عن الحركة ويضع حدا لهذا العذاب الأليم .

وكان الرومان أنفسهم يشفقون على ضحايا هذا التعذيب في بعض الأحيان ، ويقدمون لهم شراباً فيفقدونهم وعيهم . ويقال إن الصليب كان يرفع « عند الساعة الثالثة أى في الساعة التاسعة صباحاً . ويقول مرقس إن لصين صلبا مع يسوع وإنما كانا يسبانه . ويؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له (١٣٨) . ولم يكن مع عيسى أحد من الرسل إلا يوحنا وحده ، وكان معه ثلاث نساء تسمى كل واحدة منهن مريم ، أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية (وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد) (١٣٩) . واقتسم الجند ثياب الميت كعادة الرومان ؛ وإذ لم يكن للمسيح إلا ثوب واحد فلزمهم أخذوا يلقون القرعة ليروا من يأخذ الثوب . ولعلنا نقرأ في هذا المعنى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثاني والعشرين منسوبة إلى المسيح : « يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقرعون » : ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات : « إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ؟ » . وذلك هو نداء اليأس البشري الذي يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يختصر . فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذي أعانه في موقفه أمام پيلاطس قد انقلب في تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود ؟ ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية فبدلها بقوله : « يا أبتاه في يديك أستودع روحي » — وهي عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادى والثلاثين ترديداً يثير الرعب لما فيه من دقة .

وأشفق جندي على المسيح الظمآن ، فجاء بإسفنجة مغموسة في الخل وقربها من فيه ، فشرب عيسى وقال : « قد أكمل » . وفي الساعة التاسعة — الثالثة بعد الظهر — « نادى يسوع بصوت عظيم . . . وأسلم الروح » . ويضيف لوقا إلى هذا — ويدل بقوله على عطف اليهود — « وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر . . . رجعوا وهم يقرعون صدورهم » (١٤١) . واستطاع اثنان من اليهود

الرحماء ذوى النفوذ أن يحصلوا على إذن من پيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلوها وحفظوها بالنبد والمر ووارياها التراب .

ترى هل مات حقاً ؟ لقد كان اللسان اللدان إلى جانبه لا يزالان على قيد الحياة ، وقد كسر الجنود ساقهما حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما ، فيؤثر ذلك في حركة الدم ويقف القلب بعد قليل . غير أن هذا لم يحدث في حالة عيسى ، وإن كان قد قيل إن جندياً طعنه في قلبه بحربة ، فانبثق الدم من الجرح أولاً ثم خرج بعده مصل الدم . وأبدى پيلاطس ددشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه ، ولم يوافق على أن يرفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعد أن أكد له قائد المائة المكلف به أنه قد مات .

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية - وكان حبها ليسوع متمزج به تلك النشوة العصبية التي تمتاز بها عواطفها كلها - قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وبسالومة فوجدنه فارغاً : فامتلات قلوبهن خوفاً وسروراً معاً ، وجريئتين لينقلن ذلك النبأ إلى تلاميذه : والتقيين في الطريق برجل حسبته يسوع ، فأنحنين احتراماً له ، وأمسكن بقدميه : وفي وسعنا أن نتصور الأمل الذي انبعث في النفوس الساذجة من هذا النبأ وما لقيه من ترحيب ، لقد قهر يسوع الموت وأثبت أنه هو المسيح المنتظر ابن الله ، وملأ ذلك النبأ قلوب « أهل الجليل » بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأى وحى . ويروى الرواة أن المسيح ظهر في ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه في الطريق الموصل إلى عمواس ، وتحدث إليهم ، وأكل معهم ، ولكن « أمسكت أعينهما عن معرفته » ثم « أخذ خبزاً وبارك وكسر : : فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما » (١٤٢) . ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما « رأوه » بعد قليل « سجدوا له ، ولكن بعضهم شكوا » (١٤٣) . وبينما كانوا يصطادون السمك

رأوا المسيح ينضم إليهم ؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك (١٤٤) .

وجاء في سفر أعمال الرسل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره إلى مريم المجدلية . لقد كانت فكرة « انتقال » القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رووها عن موسى ، وأخنوخ ، وإليشع ، وإشعيا . وهكذا اختفى السيد المسيح بنفس الطريقة ، التي ظهر بها . ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وجد معهم بجسمه بعد صلبه . وفي ذلك يقول لوقا : « ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله » (١٤٥) (*) .

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أننا ننقل أقوال المؤلف بنصها ، وأنه ليس لنا أن نعلق عليها أو نبذل فيها . (المترجم) .

الباب السابع والعشرون

الرسل

٣٠ - ٩٥ م

الفصل الأول

بطرس (*)

نشأت المسيحية من الإيحاء الغامض العجيب الخاص بحلول الملكوت ، واستمدت دوافعها من شخصية المسيح نفسه وتجلياته ، كما استمدت قوتها

(*) إن أهم المراجع التي نعتمد عليها في كتابة تاريخ هذه الفترة هي « أعمال الرسل » . والمتفق عليه بوجه عام أن هذا السفر هو الإنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد ، ولكن ليس ثمة ما يماثل هذا الإجماع على أن كاتب السفرين هو لوقا ، صديق بطرس الذي لم يكن من اليهود . وإذا كان سفر الأمثال لم يرد فيه شيء عن موت بولس ، فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالي عام ٦٣ ليحاول بها صاحبها تسكين عداء الرومان للمسيحية ولبولس ؛ ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء أخرى كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول . ويكثر في هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة ، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخاً صحيحاً (١) . وقد ضمت في القرن الثاني عدة « أعمال » و « رسائل » مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوي على عدد من القصص الخرافية تروى حياة الرسل بعد المسيح . وكانت هذه « الأعمال » بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر ، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتويه . وقد رفضتها الكنيسة المسيحية ، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها ، وخلطوها خطأً متزايداً بالتاريخ الصحيح .

وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء في رسالة بطرس الأولى وهي إحدى الرسائل السبع الواردة في العهد الجديد معزوة إلى الرسل الاثني عشر ، ونزاع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مؤلفه مثاراً للزاع . أما باقي الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً في صحتها .

من عقيدة البعث والحساب ، والوعد بحياة الخلود ، واتخذت صورة العقائد الثابتة في لاهوت بولس ، ثم نمت باستيعابها العقائد والطقوس الوثنية ؛ وأصبحت كنيسة ظافرة منتصرة ، بعد أن ورثت ما امتازت به رومة من أنماط وعبقرية منظمة .

ويبدو أن الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض . انظر إلى قول بطرس في رسالته الأولى : « نهاية كل شيء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات »^(٣) . وتقول رسالة يوحنا الأولى : « أيها الأولاد ، هي الساعة الأخيرة ، وكما سمعتم أن ضده المسيح يأتي قد صار الآن أضداد كثيرون (نرون ، فسپازيان ، دومتيان) . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة »^(٤) . وكان الاعتقاد بنزول المسيح ليظهر الأرض ويقيم ملكوت الله ، ويبعث الناس بأجسامهم ، وبعودته إلى الأرض ، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحي في أوائل عهده . على أن هذه العقائد لم تحمل بين الرسل وبين استمرارهم في التمسك بالدين اليهودي . وشاهد ذلك ما جاء في أعمال الرسل : « وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة »^(٥) وأطاعوا قوانين التغذية والحفلات^(٦) ، واقتصروا في أول الأمر على دعوة اليهود وحدهم إلى دينهم ، وكثيراً ما كانوا يخطبون فيهم في الهيكل^(٧) .

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام ، وشفاء الأمراض والأقوال . وأقل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة ، ويقول مرقس^(٨) إن بعضهم شفوا حين مسحوا بالزيت — وكان هذا المسح على الدوام من وسائل العلاج المنتشرة في بلاد الشرق . ويصور مؤلف سِفر أعمال الرسل صورة مؤثرة للاشتراكية القائمة على الثقة المتبادلة التي كانت سائدة بين هؤلاء المسيحيين الأولين إذ يقول : « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد

يقول إن شئنا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . . . لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج» (٩) .

ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت أيدي الرسل من الأموال عينوا سبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على شئون هذه الجماعة ؛ وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد « الناصريين » (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠ (*) استولى الرعب على قلب الكهنة ، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام السنهدرين لمحاكمتهم . وكان السنهدرين يريد أن يحكم بإعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى غملائيل - أكبر الظن أنه معلم بولس - أشار على المجلس أن يؤجل الحكم ؛ ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم وأطلق سراحهم وحدث بعد ذلك بزمان قليل (٣٠ ؟ م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس (أو استيفن) للمثول أمام السنهدرين واتهم بأنه « يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله » (١٤) ، فدافع الرجل عن نفسه دفاعاً قوياً غير مبال بما يتهده من أخطار :

« يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والآذان ، أنتم دائماً تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم ! أى الأنبياء لم يضطهدوه آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجىء البار الذى أنتم الآن صبرتم

(*) فى المرجع الذى يشير إليه المؤلف وهو أعمال الرسل ٤ : ٤ أن عددهم كان خمسة آلاف . (المترجم)

مسلميه وقتليه ، الذين أخذتم الناموس بترتيت ملائكة ولم تحفظوه « (١٢) (*) .
وأثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدين فأمر بأن يجرألى خارج المدينة
ويبرجم بالحجارة . وكان شاب فارسي يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم ؛
وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت في أورشليم ويقبض
على أتباع « الكنيسة » ويزجهم في السجن (١٣) .

وفرّ اليهود المهتدون ذوو الأسماء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم
اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية . أما
معظم الرسل الذين يبدو أنهم سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون
الناموس ، فقد بقوا في أورشليم مع المسيحيين اليهوديين . وبينما كان بطرس
يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب « العادل » « أخو الرب »
رئيس الجماعة المقيمة في أورشليم بعد أن قلّ عددها ونقصت مواردها . وكان
يعقوب يبشر بالناموس بكلّ ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقلّ عن الإسنين
تقشفاً وزهداً ، فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له إلا
ثوب واحد ، ولم يقصّ شعره أو يخلق لحيته قط . وظل المسيحيون تحت
قيادته سبعة أعوام لايمسهم أذى . ثم خدث حوالى عام ٤١ أن قُتل
رجل يدعى يعقوب بن زبيدي ، فقُبض على بطرس ولكنه فر . ثم
قُتل يعقوب العادل نفسه في عام ٦٢ . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت
ثار اليهود على رومة . وأيقن المسيحيون المقيمون في أورشليم أن « نهاية
العالم » قد دنت ، فلم يأبهوا بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة
وأقاموا في بلاد الوثنية الضالعة مع رومة والقائمة على الضفة البعيدة من نهر
الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة ، فاتهم اليهود

(*) لايمد أن تكون خطب اصطفانوس ، وپطرس ، وپولس وغيرهم كما وردت في سفر
أعمال الرسل من اختراع مؤلف هذا السفر كما جرت بذلك عادة المؤرخين الأقدمين .

المسيحيين بالحياة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على
يد تيطس تحقيقاً لنبوء المسيح . واتقدت نار الحقد في قلوب أتباع كلا
الدينين ، وأملت عليهم بعض ما كتبوا من أعظم آدابهم بقي وصلاً .

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف
قوتها وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها : وأصبحت
الجليل ، التي قضى فيها المسيح كل حياته تقريباً ، والتي عفت منها ذكرى
المجدلية وغيرها من النساء اللاتي كن من بين أتباعه الأولين ، أصمت أذنهما
عن سماع الوعاظ الذين جاءوها يدعون أهلها للدخول في دين الناصري
ابن الله . ذلك أن اليهود المتعطشين إلى الحرية ، والذين كانوا يذكرون
كل يوم في صلواتهم أن « الله واحد » لم يستسيغوا فكرة « المسيح » المنتظر
الذي لا يآبه بكفاحهم في سبيل الاستقلال ، ورأوا أن من العار أن يقال
إن إلهاً قد ولد في كهف أو اصطبل في إحدى قرأهم . وظلت المسيحية
اليهودية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين
بالإبيونيم (« الفقراء ») الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحي والناموس
اليهودي الكامل ؛ فلما كان آخر القرن الثاني الميلادي حكمت عليهم الكنيسة
المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها .

وكان الرسل والتلاميذ في هذه الأثناء قد نشروا الإنجيل بين اليهود
المشتتين^(١٤) بنوع خاص وهم المنتشرون فيما بين دمشق ورومة . فهدى فليب
عددًا من أهل السامرة وقيصرية ، وأوجد يوحنا جالية مسيحية قوية في إفسوس
وأخذ بطرس يعظ في مدن سوريا . وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل
فاصطحب معه في أثناء تجواله « أختاً » لتكون بمثابة زوجة له ومعينة^(١٥) . وبلغ
نجاحه في شفاء المرضى حدًّا أغرى ساحراً يدعى سمعان المجوسى أن يعرض عليه
مالاً ليشركه معه في قواه العجيبة . ففي يافا أقام تابيثة وكان يبدو أنها قد

ماتت ، وفي قيصرية هدى إلى المسيحية قائداً رومانياً على مائة . وجاء في سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء ، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعميد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختنهم معا ، وذلك إذا استثنينا بعض حالات طريفة . وفي وسعنا أن نحس بما كان يعمر قلوب هؤلاء المبشرين الأولين من حماسة إذا أطلعنا على رسالة بطرس الأولى :

« بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتقربين من شتات بنتس ، وغلاطية ، وكيلدوكية وآسيا ، وبيثينية المختارين . . . لتكثر لكم النعمة والسلام . . . أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء . . . أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكي . . . يمجدوا الله في يوم الافتقاد من أجل أعمالكم الحسنة التي يلاحظونها . . . فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب . . . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم ستره للشر . . . أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة ، ليس للصالحين المترفين فقط بل للعتقاء أيضاً . . . كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يرجون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينة الزينة الخارجية من ضمير الشعر والتحلل بالذهب ولبس الثياب ، بل . . . زينة الروح الوديع الهادئ . . . كذلك أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحياة . . . غير مجازين عن شر بشر . . . ولكن قبل كل شيء لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا » (١٦) .

ولسنا نعرف متى شق بطرس طريقه إلى رومة أو المراحل التي وصل بها إلى تلك المدينة . فأما جيروم (حوالي ٣٩٠) فيؤرخ وصوله إليها بعام ٤١ م . وقد بقيت الرواية القائلة بأنه كانت له اليد الطولى في إنشاء الجالية المسيحية

في عاصمة الدولة الرومانية صامدة للنقد^(١٧) : ويحدثنا لكتانتوس Lactantius عن قدوم بطرس إلى رومة في عهد نيرون^(١٨) ، وأكبر الظن أن الرسول زار رومة عدة مرات . وكان وهو طليق ، وبولس وهو سجين ، يبذلان ما وسعهما من جهد ويتنافسان لهداية أهلها حتى استشهد كلاهما في سبيل هذه الغاية ، ولعل استشهادهما كان في عام واحد هو عام ٦٤^(١٩) . ويرى أرجن أن بطرس « صلب ورأسه . مدلى إلى أسفل ، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة »^(٢٠) ، ولعله كان يأمل أن يكون الموت بها أسرع إليه أو (كما يقول المؤمنون) لأنه يرى أنه غير خليك بأن يموت بالطريقة التي مات بها المسيح . وتقول النصوص القديمة إن زوجته قتلت معه ، وأنه أرغم على أن يراها تساق للقتل^(٢١) . وتحدد إحدى القصص المتأخرة حلبة نيرون ، القائمة في ميدان الفاتكان ، موضعاً لمقتله . وفي هذا المكان شيدت كنيسة القديس بطرس ، وقيل إنها تضم عظامه .

وما من شك في أن تجواله في آسية الصغرى ورومة قد ساعد على الاحتفاظ بكثير من العناصر اليهودية في الدين المسيحي . فقد ورث هذا الدين عنه وعن غيره من الرسل ما في الدين اليهودي من توحيد ، وتزمت ، واعتقاد في البعث والنشور ؛ وهذه الرحلات ورحلات بولس هي التي جعلت العهد القديم الكتاب المقدس الوحيد الذي عرفته المسيحية في القرن الأول ؛ وظلت الجماع اليهودية أهم الأماكن التي تبث فيها الدعوة للمسيحية كما ظل اليهود أهم الجماعات التي تبث بينهم هذه الدعوة حتى عام ٧٠ م . ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملابسها . وتسمى تحمل بسكال فصار هو حمل الله المكفر عن الخطايا في القداس الكاثوليكي . كذلك أخذت المسيحية عن أساليب اليهود في إدارة الجماع تنصيب جماعة من الكهراء (أبرز بشيرى أى قساوسة) لتولى شئون الكنائس . وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة ، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتوارى عنها : وقد ساعد تشتت اليهود

فى أقطار العالم هلى انتشار المسيحية ، وكان مما مهد السبيل لهذا الانتشار كثرة انتقال اليهود من مدينة إلى مدينة ، والصلات القائمة بينهم فى جميع أنحاء أوربا ، وتجارهم الواسعة ، والطرق الرومانية المعبدة ، والسلم الرومانية . وكانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ، ثم أصبحت فى تعاليم بولس نصف يونانية ، وأضحت فى المذهب الكاثوليكي نصف رومانية ، ثم عاد إليها العنصر اليهودى والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتى .

الفصل الثانى

بولس

١ - المضطهد

ولد واضع اللاهوت المسيحى فى طرسوس من أعمال كلبيكيا حوالى السنة العاشرة من التاريخ الميلادى . وكان أبوه من الفريسيين ، ونشأ ابنه على مبادئ هذه الشيعة الدينية المتحمسة ؛ وظل رسول الأمم طوال حياته يعد نفسه فريسياً حتى بعد أن نبذ الشريعة اليهودية . كذلك كان والده مواطناً رومانياً ، أورث ابنه هذا الحق الثمين . وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ. اليونانى المرادف للاسم العبرى شاول ، ولهذا ظل الاسمان يطلقان على هذا الرسول منذ طفولته^(٢٣) . ولم يتلق تعليماً راقياً ولم يدرس الكتب اليونانية لأن الفريسيين على بكرة أبيهم لم يكونوا يسمعون بأن يتأدب أبناءهم بهذا الأدب اليونانى الخالص ، ولو أن كاتب الرسائل درس اليونانية لما كتبها بهذا الأسلوب اليونانى الركيك . على أنه عرف كيف يتحدث بهذه اللغة بطلاقة تمكنه من أن يخاطب بها المستمعين له من الأثينيين ، وأن يشير أحياناً إلى بعض الفقرات المشهورة فى الأدب اليونانى . ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية فى طرسوس إلى مسيحية بولس . فهو يستعمل اللفظ الرواقى نيوما (neuma) أى النَّفَس للدلالة على المعنى الذى يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ Spirit (الروح) . وكان فى طرسوس كما كان فى معظم المدن اليونانية أتباع للأفريقية ، وغيرها من العقائد الخفية ، يعتقدون أن الله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق ،

وصاحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأنكرهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة (٢٣) . وهذه الأديان الغامضة الخفية هي التي أعدت اليونان لاستقبال بولس ، وأعدت بولس لدعوة اليونان .

وبعد أن تعلم الشاب حرفة صنع الخيام ، وتلقى العلم في المجمع الديني القائم في المدينة ، أرسله أبوه إلى أورشليم وهناك كما بقول بولس نفسه : « تعلم عند قدمي غملائييل على طريقة الناموس الدقيقة » (٢٤) . وكان المشهور عن غملائييل أنه حفيد هليل ، وقد خلفه في رئاسة السهندرين . وواصل السنة القديمة سنة تفسير الناموس تفسيراً ليناً راعى فيه ضعف النفس البشرية . غير أن الفريسيين الذين كانوا أكثر منه تزمناً هالمهم أن يجدوه ينظر نظرة الإعجاب والتقدير للنساء الوثنيات أنفسهن (٢٥) . وقد بلغ من علمه أن اليهود ، الذين يحلون العلماء أعظم الإجلال ، أطلقوا عليه اسم « جمال الناموس » ، ولقبوه بما لم يلقب به إلا ستة رجال من بعده وهو « الربان » أي سيدنا . واتخذ بولس عنه وعن غيره تلك الطريقة الحصرية ، والجدلية السوفسطائية في بعض الأحيان ، في تفسير الكتاب المقدس ، وهي التي ترى واضحة في التلمود . وقد بقي بولس إلى آخر أيامه يهودياً في عقله وخلقه على الرغم من تعلمه أوليات الهلنية ، ولم ينطق بكلمة يشتم منها أنه يشك في أن شرائع موسى موحى بها من عند الله ، وظل يعتقد في عزة وفخار كما يعتقد اليهود أن اختيار الله وحده هو طريق النجاة .

وهو يصف نفسه بقوله : « في الحضرة ذليل بينكم » (٢٦) . ويزيد على ذلك : « ولثلاً أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليطمئني لثلاً أرتفع » (٢٧) . ولا يزيد في وصف نفسه على هذا . وتصوره الروايات المأثورة وهو في سن الخمسين رجلاً زاهداً متقشفاً مقوس الجسم ، أصلع الرأس ، ملتجئاً عريض الجبهة ، أصفر الوجه صارمه ، نفاذ العينين . وعلى هذا النحو تخيله درور

في صورة تعد من أروع آيات الفن في العالم كله ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الصور التي تمثلها أدب وفن لا تاريخ .

أما عقله فكان من طراز شائع كثيراً بين اليهود : كان فيه من نفاذ البصيرة وبشدة الانفعال أكثر مما فيه من الدماثة والظرف ؛ وكان فيه من الإحساس القوي والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء . وكان قوياً في العمل لأنه كان ضيق التفكير . وكان رجلاً « أسكرته النشوة الإلهية » أكثر مما أسكرت أسبنوزا نفسه ، يلهب صدره بالحاسة الدينية بالمعنى الحرفي للفظ الالتهاج - لقد كان صدره ينطوى « في داخله على الإله » نفسه .

وكان يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات . وكان إلى هذا ذا طبيعة عملية ، قادراً على الجهد والتنظيم ، صبوراً إلى أقصى حد في تأسيس العشيرة المسيحية والحفاظ عليها . وكانت عيوبه وفضائله شديدة الصلة بعضها ببعض لا غنى لكليتهما عن الأخرى شأنه في هذا شأن الكثيرين من الرجال . فقد كان شجاعاً مندفعاً ، متعسفا حاسماً في أحكامه ، مسيطراً مجبداً ، متعصباً مبتدعاً ، فخوراً أمام الناس متواضعاً لله ، عنيفاً في غضبه قادراً على أن يستشعر أرق الحب والرحمة ، يشير على أتباعه أن يباركوا من يضطهدونهم ، ولكنه يتمنى لأعدائه الذين يخننون أن « يُقَطَّعُوا أيضاً » (٢٨) . وكان يدرك أسباب ضعفه ، ويحاول الخلاص منها ، ويقول لمن هداهم « ليتكم تحتملون غباوتي قليلاً » (٢٩) . وتلخص الحاشية التي كتبت على رسالته الأولى لأهل كورنثوس أخلاقه حين تقول : « السلام بيدي أنا بولس ، إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أنا ثيما ! ماران أثا ! نعمة الرب يسوع المسيح معكم ، محبتي مع جميعكم » . لقد كان الرجل ما لا بد أن يكون لكي يستطيع أن يفعل ما فعل .

وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعاً عن اليهودية ، وانتهى بنقد اليهودية دفاعاً عن المسيح ، وكان في كل لحظة من لحظاته داعياً ورسولاً . فلما هاله احتقار اصطفا نوس

للناموس انضم إلى قتلته ، وتزعم الاضطهاد الأول للمسيحين في أورشليم ؛ ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له في دمشق أتباع كثيرون « تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناس من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » (٣١ م) (٣٠) ؛ ولربما كان تحمسه لاضطهادهم ناشئاً من شكوك خفية سرت وقتئذ في نفسه ؛ وكان في مقدوره أن يقسو ، ولكن هذه القسوة لم تكن من النوع الذي لا يعقبه ندم . ولعل منظر اصطفانوس وهو يرحم بالججارة حتى يموت ، ولعل لحات من ذكريات الشباب - ذكريات صلب المسيح - كانت تعود إلى خياله فتضطرب بها ذاكرته وتثقل عليه في سفره ، وتهيج خياله . ولما اقتربت جماعته من دمشق ، كما جاء في سفر أعمال الرسل :

« فبغته أ برق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاول ، شاول ، لماذا تضطهدينى ؟ فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب (*) أنا يسوع الذى أنت تضطهده وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً . فنهض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق ، وبقي ثلاثة أيام لا يبصر . وليس في وسع أحد أن يعرف العوامل التى أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسى في طبيعة الرجل . ولعل ما قاساه من التعب في سفره الشاق الطويل في شمس الصحراء اللافتحة ، أو لعل ومضة برق في السماء ناشئة من شدة الحرارة ، لعل شيئاً من هذا أو ذاك كله قد أثر في جسم ضعيف ربما كان مصاباً بالصرع ، وفي عقل يعذبه الشك والإجرام ، فدفع بالعملية التى كانت تجرى في عقله الباطن إلى غايتها ، وأصبح ذلك المنكر الشديد الانفعال

(*) في الأصل الإنجليزى « الصوت » ولكن لفظ « الرب » هو الوارد في الترجمة

العربية . (المترجم)

أقدر الداعين إلى مسيح اصطفانوس . وكان الجو اليونانى الذى يحيط به فى طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية ؛ كما كانت علوم بنى جنسة من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر ، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة ، الذى لا يتردد الناس فى استقبال الموت من أجله ، هو ذلك المسيح المنتظر ؟ فلما أحس فى آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدى يهودى مهتد ، رحيمتين ، تلمستان وجهه وتسكنان أله « فلوقت وقع من عينيه شئ كأنه قشور ، فأبصر فى الحال وقام واعتمد ، وتناول طعاماً فتقوى » (٣٢) . وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله .

٢ - المبشر

وأصدر جاكم دمشق ، بإيعاز اليهود الذين ساءهم ما فعل بولس ، أمراً بالقبض عليه ، فما كان من أصدقائه الجدد إلا أن أنزلوه فى سلة من فوق أسوار المدينة . ويقول هو إنه ظل ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح فى قرى بلاد العرب ، ولما عاد إلى أورشليم عفا عنه بطرس ، وأتخذ صديقاً له ، وعاش معه فترة من الزمان . وكان معظم الرسل يرتابون فيه ، ولكن برنابا ، وهو مهتد حديث ، رحب به وقدم له كثيراً من المعونة ، وأقع كنيسة أورشليم أن تحمل مضطهدها القديم بشرى مجيء المسيح الذى سيقم عما قريب ملكوت الله . وحاول اليهود ، الذين يتكلمون اللغة اليونانية والذى جاءهم بالإنجيل ، أن يقتلوه ، ولعل الرسل خشوا أن تعرضهم حماسه الشديدة للخطر فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً ، ولعله شعر مرة أخرى بأثر التصوف الدينى المنتشر بين اليونان وما فيه من تبشير بمجيء المنقذ . ثم أقبل عليه برنابا وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية .

وأخذ الرجلان يعملان معاً (٤٣ - ٤٤) فهلبيا كثيراً من الناس ، فلم تلبث أنطاكية أن فاقت سائر المدن في عدد من بها من المسيحيين . وفيها أطلق الوثنيون على « المؤمنين » ، أو « التلاميذ » أو « القديسين » كما كانوا يسمون أنفسهم اسم الكرمستينائي أي أتباع المسيح أي الإنسان الممسوح . وهنا أيضاً انضمت « الأمم » أي غير اليهود إلى الدين الجديد . وكان معظم هؤلاء ممن « يخشون الله » . وكانت كثرتهم من النساء اللاتي آمن ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدةانية .

ولم يكن الإخوة في أنطاكية فقراء كأمثالهم في أورشليم ، فقد كانت فيهم أقلية لا بأس بها من طبقة التجار ، فاندفعوا بقوة هذه الحركة الفتية الناشئة إلى جمع قدر من المال ليستعينوا به على نشر الإنجيل ، « فوضع » رؤساء الكنيسة « أيديهم » على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ « رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى » (٤٥ - ٤٧) وهي تسمية تستخف بشأن برنابا . وأبحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحاً مشجعاً بين اليهود الكثيرين المقيمين في تلك الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا في بيمفيلية واجتازا طرقاً جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى أنطاكية في پسيديا Pisidia . واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما فلما بدأ يعظان « الأمم » كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفي البلدية على إخراج المبشرين من المدينة . ونشأت هذه الصعاب نفسها في إقونيوم Iconium ، ورجم بولس في لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ، وترك في الغراء ظناً من أعدائه أنه مات . بيد أن قلبى بولس وبرنابا كانا لا يزالان يفيضان غبطة بروح القدس فحملا الإنجيل إلى دوربي Derbe ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية ، وفيها واجهتهما أعقد مشكلة في تاريخ المسيحية .

ذلك أن بعض التابعين الممتازين في دمشق سمعوا أن المبشرين كانا يقبلان

المهتدين من « الأمم » دون أن يحتما عليهم الختان ، فجاءوا إلى أنطاكية « يعلمون الإخوة أنه إن لم تختنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا » (٣٣) . ولم يكن الختان عند اليهودى من الطقوس التى توجبها صحة الجسـم ، بقدر ما كان رمزاً مقدساً لعهد القديم الذى عاهد عليه الله ، ولهذا روع اليهودى المسيحى حين فكر فى نكث ذلك العهد . وأدرك بولس وبرنابا أنه إذا نال هؤلاء المبعوثون بغيتهم فإن المسيحية لن يقبلها إلا عدد قليل من غير اليهود ، وأنها ستبقى « بدعة يهودية » (كما سماها هينى فيما بعد) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمان . ومن أجل هذا سافرا إلى أورشليم (٥٠ ؟) وعرضا المسألة على بساط البحث مع سائر الرسل ، وكانوا كلهم تقريباً لا يزالون يتعبدون مخلصين فى الهيكل . فأما يعقوب فقد تردد كثيراً فى قبول رأيهما ، وأما بطرس فقد دافع عن المبشرين ، واتفق الجميع آخر الأمر على ألا يطلب إلى المهتدين الوثنيين أكثر من أن يقلعوا عن الزنى ، وعن أكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب (٣٤) . ويبدو أن بولس يسر الأمر بأن وعد العشيرة المسيحية المعتمدة فى دمشق بشيء من المال المطرد الزيادة فى كنيسة أنطاكية (٣٥) .

لكن هذه النتيجة كان لها من الخطر ما يحول دون البت فيها بهذه السهولة . فقد جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم ، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختنين ، ولسنا نعرف رأى بطرس فى هذه المسألة ، ولكن بولس يخبرنا أنه « قاوم بطرس مواجهة » فى أنطاكية (٣٦) ، واتهمه بالرياء ؛ ولعل بطرس لم يرغب ، كما لم يرغب بولس ، فى أكثر من أن تكون « كل الأشياء لكل الناس » .

والراجح أن بولس قام برحلته التبشيرية الثانية فى عام ٥٠ من التاريخ الميلادى . وكان قد اختلف مع برنابا الذى اختفى وقتئذ فى موطنه بجزيرة قبرص

ولم يعد له ذكر في التاريخ . وعاد بولس يزور مرة أخرى بني ملته في آسية الصغرى ، وضم إليه في لسترا تلميذاً يدعى تيموثاوس أحبه من كل قلبه الذى ظل منذ زمن طويل متعطشا إلى من يحب . وسافرا معا واجتازا فريجيا وغلاطية حتى وصلا شمالا إلى اسكندرية ترواس ؛ وفيها تعرف بولس بلوقا وهو ممن اعتنقوا اليهودية من غير المختلطين ؛ وكان لوقا رجلا طيب القلب كبير العقل وهو في أكبر الظن صاحب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل - وهما السفران اللذان خففا من حدة النزاع الذى امتار به تاريخ المسيحية منذ بدايته . ثم أبحر بولس وتيموثاوس ومساعد آخر يدعى سيلاس من ترواس إلى مقدونية ، ووطئت أقدامهم لأول مرة أرضا أوربية . فلما وصلا إلى فلبي ، وهى المكان الذى هزم فيه أنطونيوس بروتس قبض عليهما بتهمة تكدير السلام ، وجلدا ، وزجا فى السجن ، ثم أطلق سراحهما حين عرف أنهما مواطنان رومانيان . وانتقلا من فلبي إلى تسالونيكي (سالونيك) ، وفيها دخل بولس الحُجُج وظل ثلاثة أسبات يخطب فى اليهود ، فأمن بدعوته عدد قليل منهم ، وأسسوا فيها كنيسة لهم ، وأثار غيرهم أهل المدينة عليه واتهموه بأنه يدعو للملك الجديد ، واضطر أصدقاؤه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل . وهناك تقبل اليهود الدعوة بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيكي جاءوا يتهمون بولس بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة على ظهر سفينة (١٥١ ؟) وحيداً كسير القلب كاسف البال .

وهنا فى قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فى هذا البلد إلا عدد قليل من اليهود الذين يستمعون إلى مواعظه . وكان عليه أن يقف بين الناس فى السوق العامة كما يفعل أى خطيب حديث يريد أن يتحدث إلى الجماهير ، وينافس عشرات الخطباء فى إيصال دعوته إلى آذان المارة . وكان بعض من يستمعون إليه يناقشونه فيما يقول ، وبعضهم الآخر يسخرون منه ويسألون : « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟ » (٢٧) : وأظهر عدد من

الناس اهتماما بقوله ، وأخذوه إلى الأريوبجس أو أكمة المريخ ليجد مكانا
أهدأ من السوق العامة يسمع الناس فيه صوته . وقال لهم إنه رأى في أثينة
مذبحا نقش عليه « لإله مجهول » . وأكبر الظن أن هذا النقش كان يعبر
عن رغبة من نقشوه في التسبيح بحمد إله لا يعرفون اسمه على وجه
التحقيق ، أو في استرضاء هذا الإله ، أو طلب معونته ؛ ولكن بولس
فسره بأنه اعتراف منهم بجهلهم كنه الله ، ثم أضاف إلى ذلك هذه الأقوال
البليغة : « فالذى تتقونه وأنتم تجهلون ، هذا أنا أنادى لكم به ، الإله الذى
خاق العالم وكل ما فيه ، هذا إذاً هو رب السماء والأرض لا يسكن فى
هياكل مصنوعة بالأيدى . . . هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء . . .
وصنع من دم واحد كل أمة من الناس . . . لكنى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه
فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك
ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضاً(*)» ، لأننا أيضا ذريته ، فإذا نحن
ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش
صناعة واختراع لإنسان . فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا
متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مز مع أن يدين المسكونة
بالعدل برجل قد عينه مقدما للجميع لإيماننا إذ أقامه من الأموات «(٢٨) :

ولقد كانت جرأة منه أن يحاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة
اليونانية(**) ومع هذا فإنه لم يتأثر بهذه المحاولة إلا عدد قليل ، ذلك أن
ما سمعه الآثينيون من الآراء قبل ذلك الوقت قد بلغ من الكثرة ما يحول
بينهم وبين التحمس لما يلقى إليهم منها أيا كان شأنه . وغادر بولس المدينة
يائسا وذهب إلى كورنثة ، وكانت التجارة قد جمعت فيها جمالية كبيرة من

(*) يتقل بولس هذه العبارة من « ترثيمة زيوس » لكلينثيز أو من فيثومينا لأراتس

Aratus' phainom'na

(**) لعل من واجبا أن نمزو هذه الخطبة إلى مؤلف سفر أعمال الرسل المتأدب

بأدب اليونان .

اليهود . وأقام في هذه المدينة ثمانية عشر شهراً (٥١ - ٥٢ م) يكسب فيها قوته بصنع الخيام ويخطب كل سبت في كنيسها . وأفلح في هداية رئيس الكنيس ، وعدد غيره من الأفراد بلغ من الكثرة حداً ارتاع له اليهود فاتهموا بولس أمام غالليون Gallio الحاكم الرومانى بأنه يستميل « الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس » . فأجابهم غالليون بقوله : « إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء ، وناموسكم ، فتبصرون أنتم ، لأنى لست أشاء أن أكون قاضياً لهذه الأمور » ، ثم طردهم من المحكمة . وأخذت الطائفتان تتضاربان « ولكن لم يهم غالليون شئ من ذلك » (٢٩) . وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل كورنثة ودخل كثيرون منهم في دينه ، ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية ، التى طالما تحدثهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم ، ولعلمهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة ، وأثروا في بولس فجعله يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستى .

ثم انتقل بولس من كورنثة إلى أورشليم (٥٣ م) ليسلم على الإخوة . ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى بدأ سفرته التبشيرية الثالثة ، وزار فيها الجاليات المسيحية في أنطاكية وآسية الصغرى ، وبعث فيهم القوة والعزيمة بحماسة وثقته . وقضى في إفسوس عامين ، وأتى فيها بأمثال عجيبة جعلت كثيرين من الناس يعتقدون أنه صانع معجزات ، وحاولوا أن يشفوا مرضاهم بلمس الأثواب التى لبسها ، ووجد صانعو التماثيل التى كان عابدين الأوثان يضعونها في هيكل أرطيس أن تجارتهم كسدت ، ولعل بولس قد أعاد هنا ما أعلنه في أثينة من تشهير بعابدى الصور أو الوثنيين . وقام رجل يدعى دمتريوس ممن كانوا يصنعون تماذج من فضة للضريح العظيم لتيبرك فيها الحجاج الصالحون ، قام هذا الرجل بتنظيم مظاهرة احتجاج على بولس والدين الجديد ، وسار على رأس جماعة من اليونان إلى ملهى

المدينة ، وظلوا ساعتين كاملتين نادون : « عظيمة هي أرتطيس الإفسيسيين ! » وأفلح أحد موظفي المدينة في تفريق هذا الجمع الحاشد ، ولكن بولس رأى من الحكمة أن يغادرها إلى مقدونية

وقضى بضعة أشهر سعيداً وسط الجماعات التي أوجدها في فليبي ، وتسالونيكي وبريه . ولما سمع أن الانشقاق والفساد أخذتا يفتتان في عضد الإخوة في كورنثة لم يكتف بلومهم الشديد في عدة رسائل بعث بها إليهم ، بل انتقل إليهم بنفسه (٢٥٦) لمواجهة من كانوا يذمونهم ويفترون عليه . وكانوا قد ادعوا أنه يستفيد مادياً من عظاته ، ويسخرون من الروى التي كان يحدّثهم عنها ، وطلبوا من جديد أن يتمسك المسيحيون جميعاً بالشرعة اليهودية . فأخذ بولس يذكر الإخوة النافرين أنه كان حينما حل يكسب قوته بعمل يديه ، وبأنما الكسب المادى فقد سألهم هل يعرفون ما عاد عليه من أسفاره — لقد جلد مبيع مرات ، ووجم مرة ، وتحطمت به السفينة ثلاث مرات ، وتعرض لمئات الأخطار من اللصوص ، والوطنيين المتحمسين ، والفرق في الأنهار^(١) . وتراعى إليه وهو في هذه الحنة أن « جماعة المختنين » قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أن يطيعوا الشرعة اليهودية لإطاعة كاملة . فما كان منه إلا أن كتب إلى أهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها نهائياً عن المسيحيين المتهودين ، وأعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشرعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المتقد ابن الله . ثم سافر إلى أورشليم وهو لا يعلم ماذا ينتظره فيها من محن وبلايا أشد ، ليدفع عن نفسه أمام الرسل ، وايحتمل في المدينة المقدسة بعيد العنصرة القديم . وكان يرجو أن يسافر من أورشليم إلى رومة ، وإلى أسبانيا نفسها ، ولا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الإمبراطورية بأخبار المسيح الذي قام من بين الموتى وبما وعد به أتباعه الصالحين .

٣ - العالم الديني

واستقبله زعماء الكنيسة الكبرى «أحسن استقبال» (٥٧ ؟) ولكنهم حين اختلوا به حذروه بأن قالوا له : « أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيرون للناموس ، وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً ألا يخنون أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . . . سيسمعون أنك قد جئت ، فافعل هذا الذي نقول لك . عندنا أربعة رجال عليهم نذر . نخذ هؤلاء وتطهر معهم وأنفق عليهم ، فسيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك . بل تسلك أنت أيضاً حافظاً للناموس » (٤١) .

وتقبل بولس النصيحة راضياً ، وأجرى طقوس التطهير ، ولكن بعض اليهود رأوه في الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين إنه « هو الرجل الذي يعلم الجميع في كل مكان ضداً للشعب والناموس » . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجروه خارج الهيكل « وبينما هم يطلبون أن يقتلوه » إذ أقبلت كتيبة رومانية وأنقلته من القتل بأن قبضت عايه . والتفت بولس ليتحدث إلى الجماهير وأكد لهم أنه يهودى ومسيحي . فنادوا بقتله ، فأمر الضابط الروماني بجلده ، ولكنه ألغى الأمر حين علم أن بولس يتمتع بحق المواطنة الرومانية . وحى بالسجين في اليوم الثاني أمام السندرين ، فخطب بولس المجلس وأعلن أنه فريسي ، ونال بذلك بعض التأييد ، ولكن أعداءه المهتاجين حاولوا مرة أخرى أن يعتدوا عليه ، فأخذ الضابط إلى الثكنات . وجاء في تلك الليلة ابن أخت له يحذره ويقول له إن أربعين من اليهود قد أقسموا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه . وخشى الضابط أن يحدث في المدينة اضطراب يضر به ، فأرسل بولس ليلاً إلى فيليكس وإلى قيصرية .

وجاء رئيس الكهنة ومعه بعض الشيوخ من بيت المقدس إلى قيصرية بعد

خمسـة أيام من ذلك الوقت وقالوا لهم وجدوا بولس « مفسداً وللهيب فتنـة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » . وأقر بولس أنه يدعو إلى دين جديد ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يؤمن « بكل ما هو مكتوب فى التاموسن » . فلما كان من فيليكس إلا أن طرد الشاكين ، ولكنه مع ذلك أبى بولس تحت الحراسة ومنع أحداً من أصحابه أن يأتى إليه . وبقي بولس على هذه الحال عامين كاملين (٥٨ - ٦٠ ق) ، ولعل فيليكس كان يرجو أن يحصل على رشوة طيبة .

ولما عين فستوس والياً بعد فيليكس عرض أن يحاكم بولس أمامه فى دمشق ، ولكن بولس خشى هذا الجور المهتاج فلجأ إلى ماله من حق بوهضفه مواطناً رومانياً ، وطلب أن يحاكم أمام الإمبراطور نفسه . وبينما كان الملك أغرباس (أجربا) ماراً بقيصرية أذن له بالمثل بين يديه مرة أخرى وحكم عليه بأن علمه الكثير قد جعله يهذى ولكنه فيما عدا هذا برىء . وقال أغرباس إنه « كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر » . وأركب بولس سفينة تجارية سافرت به على مهل ، وقضت فى البحر زمناً طويلاً صادفتها فى أثناءه عاصفة شتوية قبل أن تصل إلى إيطاليا . ويقال إن العاصفة دامت أربعة عشر يوماً ضرب فيها بولس للبحارة والمسافرين مثلاً طيباً مشجعاً للرجل الذى يسمو على الموت ، الواصل من النجاة . وتحطمت السفينة على صخور مالطة ، ولكن من عليها جميعاً نجوا بالسباحة إلى الشاطئ . وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل بولس إلى إيطاليا .

وعامله ولاية الأمور الرومان برفق ، وانتظروا حتى يأتى الشاكون من فلسطين ، وحتى يجد نيرون متسعاً من الوقت يستمع فيه إلى قضيتـه . وتسمح له أن يعيش فى بيت يختاره هو لنفسه ، وأن يوكل جندي بحراسته . ولم يكن فى مقدوره أن يتنقل فى المدينة بكامل حريته ، ولكنه كان يستطيع استقبال كل من يشاء . ولهذا دعا زعماء اليهود فى رومة أن يوافوه فى المنزل الذى يقيم فيه ، فجاءوا

وَاسْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَهُمْ صَابِرُونَ ، وَلَكِنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ بِأَنْ مَرَاعَاةَ
النَّامُوسِ الْيَهُودِيَّ ضَرُورِيَّةً لِلنَّجَاةِ ، تَوَلَّوْا عَنْهُ ، فَقَدْ كَانَ يَبْدُو لَهُمْ أَنَّ
النَّامُوسَ هُوَ عِمَادُ الْحَيَاةِ الْيَهُودِيَّةِ وَسُلُوكِهَا اللَّذَانِ لَا غِنَى لَهَا عَنْهُمَا . وَنَادَاهُمْ
بُولُسُ قَائِلًا : « فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَكُمْ أَنَّ خِلَاصَ اللَّهِ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى الْإِنْسَانِ
وَهُمْ سَيَسْمَعُونَ ! » (٢٢) وَغَضِبَتْ الْجَمَاعَةُ الْمَسِيحِيَّةُ الَّتِي وَجَدَهَا فِي رُومَةِ مَنْ
مَوْقِفُهُ هَذَا كَمَا غَضِبَ مِنْهُ الْيَهُودُ . ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَانَ وَجَلَّهُمْ مِنْ
الْيَهُودِ كَانُوا يَفْضَلُونَ الْمَسِيحِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أُورُشَلِيمَ ، فَكَانُوا
يَخْتَنِنُونَ ، وَكَانَتْ رُومَةُ لَا تَكَادُ تَفْرُقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ الْأَصْلِيِّينَ . وَرَحِبَ
هَؤُلَاءِ بِيَطْرُسَ وَلَكِنْهُمْ قَابَلُوا بُولُسَ بِفَتُورٍ ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَهْدِيَ
بَعْضَ سُكَّانِ رُومَةِ مِنْ غَيْرِ الْيَهُودِ ، وَمِنْ بَيْنَهُمْ بَعْضُ ذَوِي الْمَنَاصِبِ
الْكُبْرَى ، وَلَكِنَّهُ ضَاقَ ذَرْعًا بِوَحْدَتِهِ فِي سَجْنِهِ وَأَحْسَ بَوَاطَةَ الْقِيُودِ
الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِ .

وَكَانَ يَجِدُ بَعْضَ السَّلَوى فِيهَا يَبْعَثُ بِهِ مِنْ رِسَائِلٍ طَوِيلَةٍ رَقِيقَةٍ إِلَى أَتْبَاعِهِ
الْبَعِيدِينَ عَنْهُ ، وَكَانَ قَدْ قَضَى عَشْرَ سَنِينَ يَكْتُبُ مِثْلَ هَذِهِ الرِّسَائِلِ ، وَمَا مِنْ
شَيْءٍ فِي أَنَّ مَجْمُوعَهَا يَزِيدُ كَثِيرًا عَلَى الْعَشْرِ الَّتِي وَصَلْتُنَا مَنَسُوبَةً إِلَيْهِ (٢٣) .
وَلَمْ يَكُنْ يَكْتُبُهَا هُوَ بِقَلَمِهِ ، بَلْ كَانَ يَمْلِكُهَا ، وَكَثِيرًا مَا يَضْمِيغُ إِلَيْهَا حَاشِيَةً
يَخْطُ يَدَهُ غَيْرَ الْأَثِيْقِ وَيَبْدُو أَنَّهُ تَرَكَهَا دُونَ أَنْ يَرَا جَمْعَهَا ، تَرَكَهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا
مِنْ تَكَرُّارٍ وَغَمُوضٍ وَخَطَأٍ نَحْوِي . وَلَكِنْ مَا فِيهَا مِنْ شَعُورٍ عَمِيقٍ يَفِضُّ
بِالْإِخْلَاصِ ، وَغَيْرَةِ وَغَضَبَةٍ قَوِيَّةٍ لِلْقَضِيَّةِ الْكُبْرَى الَّتِي وَهَبَ حَيَاتَهُ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا ،
وَكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنْ أَقْوَالٍ نَبِيلَةٍ رَائِعَةٍ ، كُلُّ هَذَا قَدْ جَمَعَهَا أَقْوَى وَأَبْلَغُ مَا كَتَبَ مِنْ
الرِّسَائِلِ فِي أَدَبِ الْعَالَمِ كُلِّهِ ؛ وَإِنْ مَا فِي أَدَبِ شَيْشِرُونَ مِنْ سِحْرِ لِيَبْدُو ضَئِيلًا
إِذَا قِيسَ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ إِيمَانٍ قَوِيٍّ فَيَاضُ . فَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفَاظٍ حَبِّ قَوِيَّةٍ

(*) وَفِي وَسْمَانَا أَنَّ نَعْدَ الرِّسَائِلِ الْمَوْجُوهَةِ إِلَى أَهْلِ غَلَاطِيَّةٍ ، وَكُورِنْثُوسَ ، وَرُومِيَّةٍ مِنْ
وَسَائِلِهِ يَحَقُّ ؛ وَأَنْ نَرْجِعَ أَنَّ الرِّسَائِلِ الْمَوْجُوهَةِ إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِيٍّ ، وَفِيلِيبِّيٍّ ، وَكُولُوسِيٍّ ،
وَفَلِيمُونِ هِيَ أَيْضًا لَهُ ؛ بَلْ إِنَّ الرِّسَالَةَ الْمَوْجُوهَةَ إِلَى أَهْلِ إِفَسُوسَ نَفْسَهَا قَدْ تَكُونُ أَيْضًا مِنْ رِسَائِلِهِ .

ينطق بها رجل كانت كنائسه في منزلة أبنائه الذين يحميم ويرد عنهم الأذى بأعظم ما يستطيع من قوة ، وفيها هجوم عنيف على أعدائه الذين لا حصر لهم ، وتأنيب شديد للمذنبين والمارقين ، والخصيمين الساعين إلى التفرقة ، ولا يخلو جزء منها من إنذار ونصح رحيم رقيق « وكونوا شاكرين ، لتكون فيكم كلمة المسيح بغنى » وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضهم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب » (٤٤) وهامى ذى كلمات كبيرة يرددها العالم المسيحي كله ويعزها : « الحرف يقتل » ، ولكن الروح يحيى » (٤٥) ، « المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة » (٤٦) ، « كل شيء طاهر للطاهرين » (٤٧) . محبة المال أصل لكل الشرور » (٤٨) . وهامى ذى اعترافات صريحة منه بعيوبه بل بربائه الشبيه برباء رجال السياسة :

« استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلاناموس . . . لأربح الذين بلا ناموس . . . صرت لكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه » (٤٩) .

وقد احتفظت بهذه الرسائل الجاعاب التى وجهت إليها وكثيراً ما كانت تتلوها على الناس جهرة ، ولم يكدها يخنم القرن الأول حتى كان الكثير منها معروفاً واسع الانتشار ؛ فهاهو ذا كلمت الرومانى يشير إليها فى عام ٩٧ ، ويشير إليها أيضاً بعد قليل من ذلك الوقت كل من أجناسيوس Ignatius وبوليكارب Polycarp ، ولم تلبث أن دخلت فى أخص خصائص اللاهوت المسيحى . ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لانهج له إلا أساسين غامضة أشد الغموض فى أقوال المسيح . وكانت العوامل التى أوحى إليه بالأسس التى أقام عليها ذلك اللاهوت هى انقباض نفسه ، وندمه ، والصورة التى استحال إليها المسيح فى خياله ، ولعله قد

تأثر بنيد الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شراً وخبثاً ؛ ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية القدائية للتكفير عن خطايا الناس : أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم ، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله لينكفر بموته عن خطيئته(*) (٥٠) . وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود . ولقد كانت مصر ، وآسية الصغرى ، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد — تؤمن بأوزيريس ، وأثيس وديونيشس — التي ماتت لتفتدى بموتها بنى الإنسان . وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثوريوس Eleutherios (المنجى) تطلق على هذه الآلهة ، وكان لفظ كريوس Kyrios (الرب) الذى سُمي به بولس المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية . — السورية على ديونيشس الميت المفتدى (٥٢) ، ولم يكن فى وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية ، الذين لم يعرفوا عيسى بحسبه ، أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بألهتهم المنقذين ، ولهذا ناداهم بولس بقوله : « هو ذا سر أقوله لكم » (٥٣) .

وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت الشعبى المسمى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار سفر الحكمة ، وفلسفة فليمون . من ذلك قول بولس إن المسيح هو « حكمة الله » (٥٤) و « ابن الله الأول » بكر كل خليقة ،

(*) لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين ، والموابيين ، والفيلقيين ، والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب ، لاسترضاء السماء الغضبية . ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام . وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثوابا ملكية ، لكى يمثل بها ابن الملك ، ثم تجلد وتشتق . وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس . وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاء تقدم المدنية . وفى ذلك يقول فريزر Frazer « وفى يوم الكفارة كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى ، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ، حتى إذا ماحل الحيوان خطايا الشعب على هذا النحو أطلقه فى البرية » (٥١) .

فإنه فيه خلق الكل . . . الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شئ .
وفيه يقوم الكل » (٥٥) ، وليس هو المسيح المنتظر (المسيا) اليهودى ، الذى
سينجى إسرائيل من الأسر ، بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته .
وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع
الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، واستطاع بذلك أن يقف
على قدم المساواة مع الرسل الأولين ، الذين لم يكونوا يجارونه فى آرائه
الميتافيزيقية . لقد كان فى وسعه أن يخلق على حياة المسيح وعلى حياة
الإنسان نفسه أدوارا عليا فى مسرحية فخمة تشمل النفوس على بكرة
أبيها والأبدية بأجمعها . وكان فى وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة
المربكة أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح لها حقاً فلم يرضى أن يقتل
فقال : إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان
بسبب خطيئة آدم . فكان لابد أن يموت ليحطم أغلال الموت ، ويفتح
أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

ويقول بولس إن عاملين اثنين يقرران من سوف ينجيهم موت المسيح
وهما اختبار الله والإيمان المصحوب بالتواضع . فالله يختار من بداية العالم
إلى نهايته من ينالون نعمته ورضوانه ومن تحل بهم نعمته (٥٦) . ومع هذا
فقد نشط بولس فى تقوية إيمان الناس حتى يكون إيمانهم هذا سبيلا إلى
نيل رضا الله . وقال : إن الروح لا تستطيع أن تحس بذلك التبدل العميق
الذى يخلق صاحبها خلقةً جديدةً ، ويوحد بين المؤمن وبين المسيح ، ويمكنه
من الاشتراك فى ثمار موته . ويقول بولس إن الأعمال الطيبة ، وإطاعة كل
ما جاء فى أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها ٦١٣ أمراً ، لا يكفيان
للنجاة ، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لا تستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان
أو أن تطهر النفس من الذنوب . لقد اختتم عهد الناموس بموت المسيح ،
ووجب ألا يكون الآن يهودى ويونانى ، أو عبد وحر ، أو ذكر وأنثى
« لأنكم جميعاً واحد فى المسيح » (٥٨) . لكن بولس لم يمل قط من أن يغرس

فى قلوب الناس فائدة العمل الطيب مقترناً بالإيمان ؛ وإن أشهر ما قيل من العبارات عن الحب نفسه لى الفاظه هو :

إن كنت أتكلم بالسنة الناس والملائكة ولكن لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا ىرن ، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ، ولكن لى محبة غلست شيئاً ، وإن أطعمت كل أموالى ، وإن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن لى محبة فلا أنتفع شيئاً ، المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تتفاخر . . . ولا تطلب ما لنفسها . . . وتحتمل كل شىء . . . أما الآن فثبت الإيمان والرخاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة « (٥٩) » .

أما الحب الجنى فى جيزه بولس ، ولكنه لا يشجعه مطلقاً . ومن أقواله فقرة توصى (٦٠) . ولكنها لا تثبت ، أنه قد تزوج : « أَلْعَلَّنا (هو وبرنابا) لى لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباى الرسل وإخوة الرب وصفا ؟ ، ولكنه فى فقرة أخرى ىسمى نفسه عزباً (٦١) . وكان يشبه ىسوع فى تجرده من الشهوات الجسمية (٦٢) ، ولقد روع حى سمع بالشذوذ الجنى بين الإناث والذكور (٦٣) . وسأل أهل كورنثى قائلا : « أولستم تعلمون أن جسدكم هو هكل للروح القدس الذى فىكم . . فمجدوا الله فى أجسادكم » (٦٤) ، وعنده أن بقاء البنات عذارى خىر من الزواج ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن الزواج أصلخ من التحرق « وزواج المطلقى والمطلقات حرام ، إلا إذا كان المطلق زوجاً لامرأة غير مؤمنة أو كانت المطلقة زوجة كغير مؤمن فإن لها بعد الطلاق أن يتزوجا . وعلى المرأة أن تطىع زوجها ، وعلى العبد أن يطىع سىده « الدعوة التى دعى فيها كل واحد (أى اعتنق المسيحية) فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهلك ، بل وإن استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحرى ، لأن من دعى فى الرب هو عبد فهو عقيق الرب ، كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح » (٦٥) .

خلك أن الحرية والاسترقاق لم يكن لهما شأن يذكر إذا كان العالم قريبا من
تهافته . ولهذا السبب عيته لم يكن للحرية القومية شأن كبير « لتخضع كل
تنفس للسلطين الفاتقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلطين الكائنة
هى مرتبة من الله » (٦٠) . لقد كان خليفاً برومة ألا تقضى على فيلسوف
مجامل طبع إلى هذا الحد .

٤ - الشهيد

تقول للرسالة الثانية المشكوك فيها والمرجحة إلى تيموثاوس : « بادر أن
تجىء إلى سريعا لأن ديماس قد تركنى ، إذ أحب العالم الحاضر . . .
وكريسكىس ونيطس . . . لوقا وحده معى . . . فى احتجاجى الأول لم يحضر
أحد معى ، بل الجميع تركونى . . . ولكن الرب وقف معى وقواتى لكى
تتم بى الكرازة ويسمع جميع الأمم ، فأنقذت من فم الأسد . . . فإنى أنا الآن
أسكب سكييا ووقت انحلالى قد حضر : قد جاهدت الجهاد الحسن ،
أكملت السعى ، حفظت الإيمان » (٦١) ؟

لقد كان فى حديثه شجاعاً جريئاً . وتقول إحدى الروايات القديمة إنه
أطلق من السجن ، وإنه سافر إلى آسية وأسبانيا ، وعاد منها إلى الدعوة ،
والذى نفسه مرة أخرى سجيناً فى رومة . ولكن أكبر الظن أنه لم يجرر .
لقد كان بلا زوجة نونسه أو ولد يسليه ، وقد فارقه جميع أصدقائه إلا واحداً
منهم ، فلم يبق له نصير إلا لإيمانه القوى ، ولعل هذا الإيمان أيضاً قد
تزعزع . ولقد كان يعيش كما يعيش غيره من المسيحيين فى ذلك العصر
موثلاً أن يشهد حودة المسيح ، وكان قد كتب إلى أهل فلبي يقول :
« ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح . . . الرب قريب » ، وقال إلى
أهل كورنثة : « الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لم نساء كان
ليس لهم . . . والذين يشتركون كأنهم لا يملكون . . . لأن هيئة هذا العالم
تقول : « ماران أثا ، المسيح معكم » (٦٢) . لكنه فى رسالته الثانية لأهل

تسالونيكى لامهم لأنهم يهملون شئون العالم انتظاراً لقرب مجيء المسيح ، وقال إنه « لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولاً ويُسْتَعْلَنَ إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله » (٦٩) .

ويبدو لنا من رسائله الأخيرة أنه حاول فى أثناء سجنه أن يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجيء المسيح للمرة الثانية ، وأخذ يضع أمله فى أن يراه بعد أن يموت ، وجعل سلواه ذلك التوفيق العظيم بين العقيدتين الذى أنجى المسيحية — وهو استبدال الأمل فى الاتحاد بالمسيح فى السماء بعد الموت بالعقيدة الأولى عقيدة عودة المسيح إلى هذه الأرض . ويبدو أنه حوكم مرة أخرى وأدين ؛ وأن الحاكم السياسى وقف مع الرسول الدينى وجهاً لوجه ، وتغلب أولهما على الثانى . ولسنا نعرف حقيقة التهمة التى وجهت إليه ، وأكبر الظن أنه اتهم فى هذه المرة بما اتهم به هو وزملاؤه فى تسالونيكى وهو أنهم « يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع » (٧٠) ؛ وكانت هذه جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وليس لدينا سجل قديم لهذه المحاكمة ، ولكن ترتليان — وقد كتب بعد مائتى عام من وقوعها — يقول إن « بولس استشهد فى رومة فى عهد نيرون » (٧١) . ونرجح أنه وهو مواطن رومانى قد كرم بأن قتل بمفرده ، فلم يختلط بالمسيحيين الذين صلبوا بعد حريق عام ٦٤ :

وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا فى وقت واحد وإن كان كلاهما قد اشتشهد منفرداً ، وتصور إحدى القصص المؤثرة هذين الرجلين المتنافسين يرتبطان برباط الصداقة حين يلتقيان فى طريقهما إلى الموت . وقد شيد له فى القرن الثالث ضريح فى موضع على طريق أستييا Ostia يعتقد رجال الدين أن بولس أسلم فيه الروح . وجدد هذا الضريح أكثر من مرة بعد ذلك الوقت ، وكان كلما جدد يزداد رونقاً وفخامة حتى أصبح الآن هو الباسلقا الشهيرة المعروفة باسم « القديس بولس وراء الجدران » San Paols fuori le Mura .

ذلك رمز تخليق بنصره . لقد مات الإمبراطور الذي قضى بإعدامه
حيطة الجبناء ، ومرعان ما زال من الوجود كل أثر لأعماله التي أسرف في
إقامتها أيما إسراف ، أما بولس المغلوب على أمره فهو الذي شاد صرح
المسيحية الديني ، كما أنه هو وبطرس وضعاً نظام الكنيسة العجيب . لقد
عثر بولس في خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصور لليهود فلسفة الحشر
والنشر ، فحرره ووسّع نطاقه ، وجعله عميدة ذات قوة تستطيع أن تحرك
العالم بأسره ، واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادئ
اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ، وأوجد طقوساً خفية
جديدة ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات
تصور هذه العقيدة ، وعاشت بعدها كلها ، وأحل العقيدة محل العمل في
اختيار الفضيلة ، وكان من هذه الناحية بداية العصور الوسطى . ولنا
ننكر أن هذا كان تغييراً يوسف له كل الأسف ، ولكن لعل الإنسانية هي
التي شاءت أن يكون ، ذلك أن الذين يستطيعون أن يحدوا حدو المسيح هم
أقلية من القديسين . ولكن نفوساً كثيرة قد تستطيع أن تسمو بآمالها في
الحياة الجليلة إلى مستوى رفيع من الإيمان والشجاعة .

ولم يشعر معاصرو بولس بأثره في التو والساعة ، لأن الجماعات التي
أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى في بحر الوثنية الواسع الخضم ، ولأن كنيسة
رومة كانت من صنع بطرس وبقية وفية لذكراه ، ومن أجل هذا ظل
بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان . فلما انقضت
الأجيال الأولى من المسيحيين ، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف
ذكرها في الأذهان ، وأخذ العقل المسيحي يضطرب بمئات من عقائد الزيف
والضلال ، لما حدث هذا أضحت رسائل بولس لإطاراً لمجموعة من العقائد
أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية .

ومع هذا كله بقي الرجل الذي فصل المسيحية عن اليهودية من حيث

الجوهر والأساس يهوديا في قوة خلقه ، وصرامة مبادئه ؛ ولما أن أراد رجال العصور الوسطى الدينيون أن يجعلوا الوثنية كثلثة براءة لم يجدوا ما يتفق مع هذه النزعة ، فلم يقيموا له إلا قليلا من الكنائس ، وقلما كانوا يقيمون له تمثالا أو ينطقون باسمه ؛ ومرت خمسة عشر قرنا من الزمان قبل أن يجعل لوثر بولس رسول الإصلاح الديني ، ويجد فيه كلفن Calvin النصوص القائمة التي أخذ عنها عقيدته الجبرية . وبهذا كانت البروتستانتية نصراً لبولس على بطرس ، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح .

الفصل الثالث

يوحنا

لقد شاءت أحداث التاريخ المفاجئة أن تنقل إلينا بولس في صورة واضحة جليلة إذا قيست إلى صورة غيره من رسل المسيح ، وأن تترك صورة يوحنا في خفاء وغموض . ولقد انحدر إلينا مؤلفان كبيران مقرونان باسمه فضلاً عن رسائل ثلاث . ويحاول النقاد أن يرجعوا سفر الرؤيا إلى عام ٦٩ - ٧٠ (٧٢) ؛ ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا « اللاهوتي » الذي ذكره بيباس Papias (١٣٥) (٧٣) . أما جستن مارتن Justin Martin (١٣٥) فيعزو هذا السفر القوي إلى الرسول « المحبوب » (٧٤) . لكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون في صحة نسبته إليه : وما من شك في أن صاحب هذا السفر كان رجلاً ذا مكانة عظيمة لأنه يخاطب كنائس آسية بلهجة المهذب صاحب السلطان . فإذا كان كاتبه هو الرسول نفسه (وسنظل نفترض مؤقتاً أنه هو) ، فإن في مقدورنا أن نفهم سبب تسميته : كما سمي أخوه يعقوب ، باسم بوانرجس Boanerges أى ابن الرعد . وكانت إفسوس ، وأزمير ، وپرغامس ، وسبارديس وغيرها من مدن آسية الصغرى تنظر إلى يوحنا لا إلى بطرس أو بولس على أنه رئيس الكنيسة الأعلى . وتقول الروايات التي ينقلها يوزبيوس (٧٤) إن دومتيان نفي يوحنا إلى بطمس Patmos وإنه كتب في هذه الجزيرة من جزائر بحر إيجه الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا . وقد عمر يوحنا طويلاً حتى قال الناس إنه مخلد .

ويشبه سفر الرؤيا سفرى دانيال وأخنوخ من حيث الشكل . ولقد كانت رؤى النبوءات الرمزية أحد الأساليب التي يلجأ إليها يهود ذلك العصر في كثير من الأحوال ؛ ووجدت رؤى أخرى غير رؤى يوحنا ، ولكن

هذا السفر سما عليها جميعاً في بلاغته الجذابة . ويستند الكاتب إلى العقيدة الشائعة التي تقول إن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان ، وانتشار الشرور والآثام ، فيصف حكم نبيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان ، ويقول إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة جيوش ميخائيل ، وقذفت بهم إلى الأرض فقادت العالم الوثني في هجومه على المسيحية . ونبيرون هو الوحش وعدو المسيح في هذا الكتاب فهو مسيح من عند الشيطان ، كما أن يسوع مسيح من قبل الله . ويصف رومة بأنها « الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التي زنى معها ملوك الأرض » ، « وسكر سكان الأرض من خمر زناها » وهي « زانية بابل » مصدر جميع الظلم والفساد ، والفسق والوثنية ، ومركزها وقتها . هنالك ترى القياصرة المجذفين المتعطشين للدماء ، يطلبون إلى الناس أن يخضوعهم بالعبادة التي يحتفظ بها المسيحيون للمسيح .

وببصر المؤلف في عدة رؤى متتابعة ما سوف يحل برومة وبالإمبراطورية من ضروب العقاب . سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفاً من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية (٧٧) . وتأتي ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض ، فيصاب الناس بقروح شديدة ، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت يموت منه كل ما في البحر من الكائنات الحية . ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا ، ويلف ملك غيره الأرض في ظلام دامس ، ويقود أربعة من الملائكة ضعف عشرة آلاف مرة عشرة آلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأرض ، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس « بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض » (٧٨) . ويحدث زلزال تندك منه الأرض ، وتسقط قطع ضخمة من البرد على من بقى من الكفار ، وتدمر رومة تدميراً تاماً . ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقفهم الأخيرة في وجه الله ،

ولكنهم يموتون عن آخرهم ، ويلقى بالشيطان وأتباعه إلى الجحيم بعد أن يمنوا بالهزيمة في كل مكان . ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون ، والذين عذبوا من أجل المسيح ، والذين غسلوا في دم الحروف^(٧٩) سيجزون الجزاء الأوفى .

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بني الإنسان ، وتعود الخطيئة فتفشو مرة أخرى في عالم خال من الإيمان ، وتبذل قوى الشر آخر جهدها لتفسد عمل الله . ولكنها تغلب مرة أخرى ، ويلقى بالشيطان وأتباعه هذه المرة في الجحيم حيث يبقون جميعاً إلى أبد الدهر . ثم يحل يوم الحساب الأخير فيقوم الموتى جميعاً من القبور ، ويخرج الغرقى من البحار . وفي ذلك اليوم الرهيب « يلقى في البحيرة المتقدة بنار كبريت » كل « من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة »^(٨٠) ، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا « لحوم ملوك ، ولحوم قواد ، ولحوم أقوياء ... ولحوم الكل حراً وعبدًا ، صغيراً وكبيراً »^(٨١) ، بمن لم يبالوا بدعوة المسيح . وستقوم سماء الله مهياة لتكون جنة على الأرض ، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة ، ومبانيها من فضة أو ذهب شبه زجاج نقي ، وسورها يشب ، وكل باب من أبوابها الاثني عشر لؤلؤة واحدة ، وسيجرى فيها نهر صاف من ماء حياة تنمو على ضفته « شجرة حياة » . ويقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر ، ويرث الأرض من يؤمنون بالمسيح ، « والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ، ولا صراخ ، ولا وجع فيما بعد »^(٨٢) .

وقد كان لسفر الرؤيا أثر عاجل عميق دائم ، وكان ما تنبأ به من نجاة للمؤمنين الصادقين ومن عذاب لأعدائهم هو الدعامة القوية التي حفظت حياة الكنيسة في عصور الاضطهاد . كذلك كانت فكرة العهد اسعيد سلوى أولئك الذين أحزنهم طول انتظارهم عودة المسيح وسرى ما فيه من صور واضحة وعبارات مشرقة في أقوال العالم المسيحي المعينة والأدبية ، وظل الناس تسعة عشر قرناً

يفسرون حوادث التاريخ على أنها تحقيق لما فيه من رؤى ، ولا يزال يضاف لونه القائم ومذاقه المرّ على عقيدة المسيح في بعض البقاع النائية عن عالم الرجل الأبيض .

وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع . ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودى وأن الإنجيل فلسفة يونانية ؛ ولعل الرسول كتب تلك الرؤى في سورة الغضب التي أعقبت اضطهاد نبرون وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها ، ثم كتب الإنجيل في أيام نضجه وشيخوخته ونزعتة الميتافيزيقية (٩٠ م) . وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح قد ذهب بعضها إن كان في وسع الإنسان أن يفسى ذكريات المسيح ؛ وما من شك في أنه قد سمع في الجزائر والمداين الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليوناني والفلسفة اليونانية . وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن « أفكار الله » هي النمط الذي شكلت بمقتضاه الأشياء كلها ؛ ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار في عبارتهم المعروفة فكرة الله المحصنة . ثم جسد الفيثاغوريون الجسد هذه الأفكار فجعلوها شخصا قدسيا ، ثم استحالت على يد فيلون إلى عقل الله أى إلى عنصر قدسى ثان ، به يخلق الله الخلق ويتصل بالعالم .

وإذا ما ذكرنا كل هذا ونحن نقرأ بداية الإنجيل الرابع الذائعة الصيت ، واستبقينا لفظ Logos اليوناني بدل ترجمته الإنجليزية Word (أو العربية كلمة) أدركنا من فورنا أن يوحنا قد انضم إلى الفلاسفة :

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . . كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ؛ فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » .

ولذا كان يوحنا قد عاش مدى جيلين في بيئة هلنستية فقد بذل جهده

لكى يصبغ بالمصبغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً^(٨٣). والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع في البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد كي توأم عقلية اليونان ذوى النزعة الفلسفية، ولقد واصل يوحنا، عرف أو لم يعرف، ما بدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية فلم يعرض المسيح على العالم، كما كان يعرض عليه من قبل، بوصفه يهودياً يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما، قل: ذلك أو أكثر؛ بل أنطقه في خطابه لليهود بقوله «أنتم» وبحديثه عن الناهوس بقوله «ناموسكم». ولم يكن «مسيحاً منتظراً» أرسل لينجى خيراً لإسرائيل الضالة، بل كان ابن الله الخالد معه؛ ولم يكن المحكم بين الناس في المستقبل فحسب، بل كان هو الخالق الأول للكون. فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة، كان في وسعنا أن نغفل إلى حد ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوى ويذهب سناها كما يذهب عند الطائفة اللاأدرية غير المؤمنة؛ أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستي الدينية والفلسفية، ومن ثم كان في وسع العالم الوثني — بل وفي وسع العالم المضاد للسامية — أن يحتضنها ويرضى بها.

إن المسيحية لم تقض على الوثنية، بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني التضرع إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على سياسته أداة الآداب، والطقوس المسيحية، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة؛ وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف. فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب، وغلود الإنسان في هذا أو ذاك؛ ومنها جاءت عبادة أم الطفل، والاتصال الصوفي

بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التى نسجت على منوالها : ومن فريجييا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس . وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس ، وموت الإله ونجاته . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ، وعصور الأرض ، واللهب الأخير الذى سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور . فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً « يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه » (٨١) ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المتراسية والقربان المقدس فى القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول (٨٢) .

وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم .

الباب الثاني والعشرون

نمو الكنيسة

من ٩٦ إلى ٣٠٩ م

الفصل الاول

المسيحيون

كانوا يمتنعون في حجراتهم الخاصة أو في معابد صغيرة ، وقد نظموا أنفسهم على مثال المجامع اليهودية . وأطلقوا على كل جماعة منهم اسم « الإكليزيا » Ekklesia - وهو اللفظ اليوناني الذي كان يطلق على الجمعية الشعبية في حكومات البلديات - وكانوا يرحبون بالعبيد كما كان يرحب بهم في عبادات إيزيس ومثراس ، ولم تبدل أية جهود لتحريرهم ، ولكنهم كانوا يواسون بأن يقال لهم إنهم سيعيشون في ملكوت يكون الناس فيه جميعاً أحراراً . وكان معظم الذين اعتنقوا الدين الجديد في أول الأمر من الطبقات الدنيا بينهم عدد قليل من الطبقات الوسطى - الدنيا وعدد أقل من الأغنياء ، ولكنهم مع هذا لم يكونوا من « سفلة الناس » كما يدعى سِلْسُس Celsus ، بل كانوا يعيشون في الغالب حياة نظام وجد ، بمدون بعثات التبشير بالمال ، ويجمعون الأموال لمساعدة الجماعات المسيحية الفقيرة . وقبلها كانت تبدل في ذلك الوقت جهود لكسب سكان الريف ، فلم يعتنق هؤلاء الدين

الجديد إلا آخر الأمر ؛ وكانت هذه الطريقة العجيبة هى السبب فى أن أطلق لفظ البيجانيين Pagani (أى القرويين أو الفلاحين) على سكان دول البحر الأبيض المتوسط قبل اعتناقهم المسيحية .

وكان يسمح للنساء بالدخول فى المجمع الدينية ، وكان لهن بعض الشأن فى أداء الواجبات الصغرى ، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يحيين حياة التواضع والخضوع والعزلة حتى تستحى غير المسيحيات من حياتهن ؛ فكان يؤمنون بأن يأتين للصلاة والعبادة محجبات ، لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات ، وكان يخشى أن يفتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة (٢) ، بل إن القديس جيروم كان يرى أن يقص هذا الشعر كله (٣) . كذلك كان يطلب إلى النساء المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلى ، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوع خاص ، لأن بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس غير رأس لابس صعب عليها أن تعرف أى رأس تباركه (٤) . وقد أصدر بولس أوامر صارمة لاتباعه فقال :

« لتصمت نسائكم فى الكنائس لأنه ليس مآذونا لهن أن يتكلمن . . . ولكن إذا كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسلأن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » .

« فلأن الرجل لا ينبغي أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فهى مجد الرجل ، لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل ، لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة » .

هذه هى النظرة اليهودية واليونانية لا النظرة الرومانية للمرأة ، ولعلها كانت ثورة على الإباحية التى انزلت إليها بعض النساء بإساءة استعمال ما أوتين من حرية ، ومن حقنا حين نقرأ هذه النور أن نعتقد أن النساء المسيحيات قد أفلحن فى أن يكن فائزات مغريات على الرغم من عطلهن من الحلى والعطور ،

وبمعونته براقعهم ، فمارس بدهائهن ما كان لهن من سلطان في الزمن القديم . وقد وجدت الكنيسة للأرامل وغير المتزوجات من النساء أعمالاً كثيرة نافعة ، فقد نظمتن في جماعات « الأخوات » ، وعهدت إليهن القيام ببعض أعمال الإدارة أو الصدقات ، وأنشأت على توالى الزمن طبقات مختلفة من الراهبات كانت أعمالهن الرحمة أنبل ما تمثلت فيه المسيحية .

وقد وصف لوشيان حوالى عام ١٦٠ « أولئك البلهاء » ، المسيحيين ، الذين يزدرون الأشياء الدنيوية ويرون أنها ملك مشترك بينهم جميعاً »^(٦) : وجاء ترتليان بعد جيل واحد فأعلن أننا « نحن » (المسيحيين) « نشترك جميعاً في كل شيء عدا زوجاتنا » ، وأضاف إلى ذلك قوله بتهكم اللاذع : « فإذا وصلنا إلى هذه النقطة حللنا شركتنا ، حللناها بالضبط عند النقطة التي يجعل غيرنا من الرجال اشتراكهم قويا فعلاً »^(٧) : وليس من حقنا أن نأخذ هذه الأقوال بحرفيتها ؛ ذلك أن الشركة ، كما يفهم من فقرة أخرى في أقوال ترتليان ، لا تعنى أكثر من أن كل مسيحي يجب عليه أن يسهم في رصيد الجماعة المشتركة بقدر ما تمكنه موارده ، وما من شك في أن الاعتقاد السائد بأن النظام القائم في العالم سيقضى عليه بعد قليل قد جعل هذا التبرع سهلاً على المسيحيين ، ولعل الأغنياء منهم قد اقتنعوا بأنهم يجب ألا يفاجأوا يوم القيامة وهم ملقون في أحضان المال . وكان بعض المسيحيين الأولين يعتقدون كما يعتقد الإسمينيون أن الرجل الغنى الذى لا يشرك الناس فيما لا حاجة له به من ماله لص^(٨) . وقد هاجم يعقوب « أخو الرب » الثروة بألفاظ تنم عن ثورة نفسية مريرة :

« هلم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ، غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدنا . وصدأهما ... يأكل لحومكم كنار ، قد كثرت في الأيام الأخيرة ، هوذا أجرة الفعلة الذين حصلوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذنى

رب الجنود ... أما اختار الله فقراء هذا العالم ... ورثة المملوكوت ؟ » (١٠) .
ويضيف إلى هذا أن الغنى سيدبل كما تذبل الأزهار في حر
الشمس اللافت (١١) .

وسرى فيما اعتاده المسيحيون من تناول وجبة الطعام المشتركة عنصر
من عناصر الشيوعية ، فقد كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً في
عيد الحب Agapé ويكون ذلك عادة في مساء يوم أحد السبت . وكان
العشاء يبدأ وينتهي بالصلاة وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس ،
وكان القس يبارك الخبز والخمر . ويبدو أن المؤمنين كانوا يعتقدون أن
الخبز والخمر كانا هما لحم المسيح ودمه ، أو أنهما يمثلان لحمه ودمه (١٢) .
وكان عباد ديونيشس ، وأثيس ، ومثراس يؤمنون بما يشبه هذه العقائد
في المآدب التي يأكلون فيها الأجساد المسحورة لأهلهم أو رموز هذه
الأجساد (١٣) . وكانت آخر مراسم عيد الحب هذا هي « قبة الحب »
وكانت هذه القبة في بعض المجتمعات يتبادلها الرجال فيما بينهم أو النساء فيما
بينهن ، لكن هذا القيد الثقيل لم يكن يراعى في البعض الآخر ، ثم وجد
كثيرون من المشتركين في هذا الحفل البهيج أن فيه من الملذات ما يأباه الدين ،
وندد ترتليان وغيره بما أدى إليه من الإباحية الجنسية (١٤) . وكانت الكنيسة
توصي ألا تفتح الشفاه في أثناء الثقيل ، وألا تتكرر القبة إذا أعقبتها لذة (١٥) .
ثم أخذ عيد الحب يحتق تدريجاً في القرن الثالث .

وفي وسعنا أن نصدق ما كان يعتقد الأقدمون من أن أخلاق المسيحيين
الأولين كانت مثلاً يزدجر به العالم الوثني على الرغم من هذا الحادث السالف
الذكر وأمثاله ، وعلى الرغم من تشهير الوعاظ الذين كانوا يطلبون إلى المؤمنين أن
يفسدوا الكمال . لقد استطاعت هذه المبادئ الأخلاقية السماوية أن تهذب ما في
الإنسان من غرائز حيوانية ، وتضع له قانوناً أخلاقياً صالحاً للحياة مهما يكن
الثن الذي تقاضته من حرية العقل والتفكير ، وذلك بعد أن ضعفت الأديان

الأديان القديمة وزال ما كان لها من أثر ضئيل في تدعيم الحياة الخلقية ، وبعد أن أخفقت المحاولات التي بذلتها الرواقية لإيجاد قانون أخلاقي قريب من القانون الطبيعي ، فلم يكن لها أثر إلا في الصفوة المختارة من الناس . لقد كان الاعتقاد بحلول ملكوت الله ينطوى كذلك على الاعتقاد بوجود حاكم عدل مطلع على جميع أعمال البشر ، يعلم ما تخبئه الصدور ، لا يغرب عنه مثقال ذرة ، ولا يستطيع أحد أن يفر منه أو يخدعه : يضاف إلى هذه الرقابة القدسية رقابة أخرى من الناس بعضهم على بعض . ذلك أن الذنوب لم يكن من السهل إخفاؤها في هذه الجماعات الصغيرة ، وأن المجتمع كان يوجه أشد اللوم علناً لمن يكشف أمرهم ممن يخالفون من أعضائه القانون الأخلاقي الجديد . وقد حرم على المسيحيين الإجهاض ووآد الأطفال وهما اللذان كانا يقضيان على عدد كبير من أفراد المجتمعات الوثنية ، وسوى بينهما وبين القتل العمد^(١٦) . وكثيراً ما أنقذ المسيحيون الأطفال الذين تركوا في العراء ليقضوا نجسهم ، وعمدوهم ، وربوهم مستعنين بما كان يقدم لهم من عون من مال الجماعة العام^(١٧) . كذلك حرمت الكنيسة على المسيحيين الذهاب إلى القمار ، أو مشاهدة الألعاب العامة ، أو الاشتراك في الحفلات التي تقام في الأعياد الوثنية ، وإن لم تفلح في هذا بقدر ما أفلحت في تحريم الإجهاض ووآد الأطفال^(١٨) . وقصارى القول أن المسيحية أبدت وشددت ما كان لدى اليهود المتأهبين للقتال من صرامة أخلاقية . وكانت توصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكاراً وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية ، ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . ولكن الزوج والزوجة كانا بشجمان على الامتناع عن العلاقات الجنسية^(١٩) . أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنياً وأراد أن يلغى زواجه بمن اعتنق المسيحية . وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال ، وقد حرم اللواط وادم ذماً قل أن

يكون له مثل في شدته في التاريخ القديم . وفي ذلك يقول ترتليان :
« أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحي يقنع بالمرأة » (٢٠)

وكان كثير مما ورد في هذا القانون الأخلاق الصارم يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض ، فلما أن بدأ هذا الأمل يضمحل ، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى ، وضعفت الأخلاق المسيحية . وشاهد ذلك أن رسالة لا يعرف كاتبها تسمى راعي هرماس (حوالي عام ١١٠) تندد بعودة البخل ، والخيانة ، وأصباغ الشفاه ، وصيغ الشعر ، وتلوين الجفون ، والسكر ، والزنى بين المسيحيين (٢١) . لكن الصورة العامة التي لدينا عن أخلاق المسيحيين في ذلك العهد تنطق بالتقوى ، والوفاء المتبادل ، والإخلاص بين الزوجين ، والسعادة ، والطمأنينة ، والثقة ، والإيمان . ولم يسع بلني الأصغر إلا أن يكتب إلى تراچان يقول إن المسيحيين يحبون حياة هادئة هي مضرب المثل في الصلاح (٢٢) . ويصفهم جالينوس بأنهم « قد سموا في تأييب أنفسهم » وفي . . . رغبتهم الشديدة في الوصول إلى مستوى خلق رفيع يجعلهم في منزلة لا تقل عن منزلة الفلاسفة الحقيقيين (٢٣) . وقد قوى شعورهم بالخطيئة حين أخذوا يعتقدون أن البشر جميعهم قد تلوّثوا بسقوط آدم ، وأن العالم سينتهي عما قريب ، ويحلّ اليوم الذي يحكم فيه على الناس بالعذاب السرمدي أو النعيم المقيم .

وقد وجه كثير من المسيحيين همهم كله إلى العمل على أن يستقبلوا يوم الحساب الرهيب طاهرين من الدنس ، فكانوا لذلك يرون في كل لذة من ملذات الحواس غواية من غوايات الشيطان ، ولهذا أخلوا بتدبؤهم بعالم الجسم ويعملون لكبت الشهوات بالصوم وبكثير من أنواع التعذيب البدني ، وكانوا ينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى ، والخبز الأبيض ، والخمور الأجنبية ، والحمامات الدفنة ، وخلق اللحية ، ويرون في هذه الأعمال استهانة بإرادة الله الجلية الواضحة للعيان (٢٤) . واتخذت الحياة حتى عند المسيحي العادي نفسه لوناً أشد قتاماً

مما خلعت عليه الوثنية ، إلا حينما كانت تعمل على استرضاء الآلهة السفلى لدفع أذاها . وانتقل إلى يوم الأحد المسيحي ما كان يراعى في السبت اليهودى من جد ووقار حين حل أولهما محل الثانى فى القرن الثانى بعد الميلاد .

فقد كان المسيحيون يجتمعون فى ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب ، ليعلموا قداسهم الأسبوعى . فكان قساوستهم يتلون عليهم نبأ من الكتاب المقدس ، ويؤمنهم فى الصلاة ، ويلقون عليهم مواعظ فى العقائد ، والتعاليم الأخلاقية ، والجدل الطائفى . وكان يسمح لأفراد الجماعة وخاصة النساء ، فى الأيام الأولى أن « ينطقوا » فى أثناء الغيوبة أو النشوة بالفاظ لا يستطيع أن يشرح معناها إلا المفسرون الصالحون ؛ ولما أن أدت هذه الأعمال إلى كثير من التهييج والفوضى فى شئون الدين ، عمدت الكنيسة إلى عدم تشجيعها ثم منعها آخر الأمر منعاً باتاً . ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين عند كل خطوة إلى كبح جماع الخرافات لا إلى خلقها .

وقبل أن يجتمعت القرن الثانى كانت هذه الحفلات الأسبوعية قد اتخذت شكل القداس المسيحى . وأخذ هذا القداس ينمو نمواً بطيئاً بالاعتماد على صلاة الميكل اليهودية ، وعلى الطقوس اليونانية الخاصة بالتطهير ، والتضحية البديلة ، والاشتراك عن طريق العشاء الربانى فى قوى الإله القاهرة للموت ، حتى صار فى آخر الأمر كومة من الصلوات ، والمزامير ، والقراءات ، والمواعظ ، والترتيلات ، وما هو أهم من هذا كله وهو التضحية الرمزية بحمل الله للتفكير عن الخطايا ، وهى التضحية التى حلت فى المسيحية محل القرابين الدموية فى الأديان القديمة . واستحال الخبز والخمر اللذان كانا يعدان فى الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح أمام الإله بفضل تدشين القساوسة له إلى جسم المسيح ودمه ، وأصبحت يقدمان لله بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب . وبلى هذا موكب مؤثر رهيب يشترك فيه العابدون فى حياة منقادهم ومادته نفسيهما .

وكانت هذه فكرة خلع عليها طول الزمن قداسة ، فلم يكن العقل الوثني في حاجة إلى شيء من التدريب لاستقبالها وإدماجها في « طقوس القداس الخفية » وبها أضحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها . لقد كانت هذه عادة حقيرة في منشأها^(٢٥) ، جميلة في تطورها ، وكان قبولها المسيحية وسيلة من أحكم الوسائل التي سلكتها لتوائم بينها وبين رموز العصر وحاجات أتباعها ، ولم يكن في طقوسها كلها طقس يماثل القداس في بعث الحياة في النفس الوحيدة المقفرة ، وتقويتها على مواجهة العالم الذي يناصبها العداوة^(٢٦) .

وكان « منح البركة » للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة ، وهي الطقوس التي يعتقد الناس أنهم ينالون بها البركة الإلهية . وهنا أيضاً تستخدم الكنيسة شعر الرموز لتخفف به من أعباء الحياة الإنسانية وتعلو مكانتها ، وتجدد في كل مرحلة من مراحل الملحمة الإنسانية صلة الخالق بالخلق وهي الصلة التي تقويه على احتمال متاعب الحياة وآلامها ؛ ولسنا نجد في القرن الأول الميلادي إلا ثلاث شعائر دينية يؤمن المسيحيون بقداسها — التعميد ، والعشاء الرباني ، ورسامة الكهنوت ؛ ولكن سائر الشعائر كانت أصولها موجودة في عادات المجتمعات الدينية من ذلك الوقت البعيد . ويلوح أنه كان من عادة المسيحيين الأولين أن يضيفوا إلى التعميد « وضع الأيادي » على من يعمدون ، وبذلك يدخل الرسول أو القسيس الروح القدس في المؤمنين^(٢٨) : ثم انفصل هذا العمل عن التعميد على توالي الأيام وأصبح هو تثبيت العهد^(٢٩) .

ولما استبدل تعميده الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحي بعد مرحلة الطفولة ، فاستحال الاعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصاً أمام القس ، الذي يقول بأنه تلقى من الرسل أو خلفائهم من الأساتذة حق

(٢٥) وكان الخبز والماء المقدسان يقديمان لمابدى مئراس في أثناء طقوسه الخفية ، ولقد دهش الغزاة الفاتحون حين وجدوا طقوساً مماثلة لهذا ، منتشرة بين هنود المكسيك وبيرو .

« الربط والحل » أى فرض الكفارات وغفران الذنوب (٣٠)؛

ولقد كان فرض الكفارات هذا من الأنظمة التى يمكن أن يساء استخدامها لسهولة نيل المغفرة ؛ ولكنه مع هذا يمد المذنب بقوة تمكنه من إصلاح نفسه ، ويوفر على النفوس القلقة متاعب الندم العصبية .

وكان الزواج فى تلك القرون لا يزال من النظم المدنية ؛ ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها ، وأخذت تطالب الزوجين به ، فرفعت الزواج بهذا العمل من عقد زمنى يستطيع حله إلى عهد مقدس لا يستطيع نقضه . وقبل أن يحل عام ٢٠٠ بعد الميلاد اتخذت عادة « وضع الأيادى » صور « الرسامة الكهنوتية » ، وبمقتضاها أصبح الأساقفة وحدهم حق رسامة الفسوسة القادرين على إقامة القداس بصورته الصحيحة ، ثم استمدت الكنيسة فى آخر الأمر من رسالة يعقوب (٥ : ١٤) « دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت » وهى البركة الأخيرة التى يتلقاها من النفس حين يدهن المسيحي المحتضر أعضاء الحس والأطراف ، فيطهره مرة أخرى من الخطايا ويهيئه للقاء الله . ولو أننا حكمنا على هذه الشعائر .ا. كان يعزوه إليها القائمون بها والمؤمنون بقوتها ، وأخذنا أقوالهم فيها بحرفيتها ، لكان هذا منتهى السخف منا والجهالة ، لكننا إذا أدركنا أنها تبعث فى النفوس البشرية الشجاعة والإلهام ، حكمنا من فورنا بأنها خير علاج للنفوس وأقربه إلى الحكمة .

وكانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تكرم به حياة المسيحي . ذلك أن من عقائد الدين الجديد عودة الحياة إلى الجسم والروح ، ولهذا كان معنى بالميت أشد العناية ، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه ، وتوضع كل جثة وحدها فى قبر خاص ؛ ثم أخذ المسيحيون حوالى عام ١٠٠ يتبعون العادات السورية والتسكانية القديمة فيدفنون موتاهم فى سراديب - وأكبر الظن أن هذا لم يكن بقصد إخفائها بل كان رغبة منهم فى الاقتصاد فى الممكنة

والنفقات ، فكان العمال يحفرون طرقاً طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها ، توضع فيها أجسام الموتى في دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبي هذه الطرق . وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها ، ولعلمهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التي كانت تقوم بهذه المهمة . ويبدو لنا أن بعض هذه الطرق قد جعلت ملتوية عمداً ، وقد يبعث هذا على الظن بأنها كانت تستخدم مخائى في أوقات الاضطهاد ، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى في السرايب ، وأضحت الدياميس أماكن معظمة يحج إليها الناس ؛ وقبل أن يحل القرن التاسع سدت السرايب ونسبها الناس ، ولم تكشف إلا بطريق المصادفة عام ١٥٧٨ .

وهذه السرايب وما فيها من نقوش بارزة ومظلمات هي التي احتفظت بمعظم ما بقي لنا من الفن المسيحي الأول . فهنا ظهرت في عام ١٨٠ الرموز التي أصبحت فيما بعد ذات شأن أيمان شأن في المسيحية : اليمامة المثلثة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسم ؛ والفنفس (*) Phoenix الذي عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، والسمة وقد ضمت إلى الشعار المسيحية لأن اسمها اليوناني i-ch-th-u-s يتكون من الحروف الأولى من العبارة Jesus Christos theou uios soter — « يسوع المسيح ابن الله ، المنقذ » ، وهنا أيضاً نجد تلك الفكرة الدائعة الصيت ، فكرة الراعي الصالح ، ممثلة تمثيلاً صريحاً على تمثال لعطارد يحمل معزى . وتتمثل في هذه الرسوم أحياناً رشاقة رسوم يمي ، ونشاهد ذلك في الأزهار ، والكروم ، والطيور التي كان يزدان بها قبر دومتيان . وهذه النقوش في العادة من أعمال صغار الصناع المغمورين الذين يفسدون وضوح الخطوط اليونانية والرومانية بالغموض

(*) طائر خرافي يقولون عنه إنه عاش خمسمائة عام وحيدا في البرية ، وبعد أن حرق نفسه على كومة الخريق عادت الحياة إلى رماده ، ولهذا كان يعد رمزاً للخلود . (المترجم)

الشرق . ذلك بأن المسيحية كانت في تلك القرون الأولى منهكة في شئون الدار الآخرة انهما كما يحول بينها وبين العناية بتزيين دار الدنيا . يضاف إلى هذا أنها سارت على السنة اليهودية سنة كراهية التماثيل ، وخلطت بين التصوير وبين عبادة الأوثان ، وذمت النحت والتصوير لأنهما في أكثر الأحيان يمجدان العرى ، وكان من أثر هذه الآراء أن اضمحل الفن التشكيلي بناء المسيحية ، أما الفسيفساء فكانت أكثر انتشاراً ، فكانت جدران الباسليques وأماكن التعميد مرصعة برصائع من أوراق الأشجار وأزهارها وبخروف عيد الفصح ، وصور من العهد القديم .

وكانت صور شبيهة بهذه تنقش نقشاً غير متقن على التوابيت . وكان المهندسون المعماريون في هذه الأثناء يعملون على تكيف الباسليقات اليونانية - الرومانية للوفاء بحاجات العبادات المسيحية ؛ ولم تكن الهياكل الصغيرة التي كانت تضم الآلهة الوثنية نموذجاً صالحاً للكنائس المعدة لاستقبال الجماعات الكبيرة ، أما صحن الباسليقا الرحب وطرقاتها فكانت صالحة لهذا الغرض ، وكأن قبائها قد أعدت لأن يكون هو المحراب ؛ وفي هذه الأضرحة ورثت الموسيقى المسيحية على استحيا النغم ، والوزن ، والسلم الموسيقى ؛ وكان كثير من رجال الدين يعارضون في أن تغني النساء في الكنيسة ، بل كانوا يعارضون في أن يغنّين في أى مكان عام ، لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة في الرجل القابل للتهيج على الدوام^(٣١) : لكن المجتمعين في الكنائس كثيراً ما كانوا يعتبرون بترانيمهم عن أملهم ، وشكرهم ، وبهجتهم ؛ وأضحت الموسيقى على توالي الأيام أجمل الزينات ، وأرق الوسائل لخدمة الدين المسيحى .

وهذا الدين في جملة أعظم الأديان التي عرضت على بنى الإنسان جاذبية ، فهو يعرض نفسه دون ما قيّد على جميع الأفراد ، والطبقات ، والأُمم ؛ ولم يكن كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه أو على الأحرار في أمة بعينها كما كانت الشعائر الرسمية في رومة وبلاد اليونان ؛ والمسيحية إذ تجعل الناس

جميعاً وارثين لانتصار المسيح على الموت تعلن المساواة التامة الأساسية بين جميع بني الإنسان ، وتجعل كل الفروق في المراتب الدنيوية أموراً عارضة تافهة ؛ وقد وهبت البائسين ، والمخطئين ، والمحرومين ، والبائسين ، والأذلاء ، جميعاً فضيلة الرحمة التي لم يكن لهم بها عهد من قبل ؛ كما وهبتهم العزة والكرامة التي ترفع من قدرهم وتعلو شأنهم ، وهبتهم فوق ذلك حياً وإلهاماً ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ؛ وأضأت حياتهم بما تبعث فيهم من أمل في ملكوت الله المقبلة ، وفي السعادة الدائمة بعد الموت ؛ ووعدت أشد الناس ذنباً بالعفو عن ذنوبهم وبقبولهم في الناجين من العقاب في الدار الآخرة ؛ أما العقول التي أفلقتها طول البحث في المشاكل المعقدة كمشاكل أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاءت إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله تستطيع أكثر النفوس سداجة أن تجد فيها السلوى والراحة العقلية ؛ وجاءت إلى الرجال والنساء الذين يحبون حياة الفاقة والكدح بمباهج العشاء الرباني والقداس ؛ وهما من الشعائر التي تجعل كل حادثه كبرى في الحياة منظراً خطيراً في مسرحية الله والإنسان ؛ وجاءت إلى الفراغ الخلقى الذي خلقته الوثنية المحتضرة ، وإلى فتور الرواقية وفساد الأبيقورية ، وإلى العالم الذي أنهكته علل الوحشية ، والقسوة ، والظلم ، والفوضى الجنسية ؛ وإلى الإمبراطورية الجانحة إلى السلم ، والتي بدت في غير حاجة إلى فضائل الرجولة القوية ، أو إلى آلهة الحرب ، جاءت إلى هذه كلها بقانون أخلاقي جديد قائم على الأخوة ، والرحمة ، والتأديب ، والسلام .

وبعد أن تشكل الدين الجديد بحيث يفي بمحاجات الإنسان أخذ ينتشر بين الناس بما أوتي من قدرة على الذبوع والانتشار ؛ فكان كل من اعتنق هذا الدين ينصب نفسه داعياً له بحماسة لا تقل في قوتها عن حماسة الثوار . وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية ، وأنهارها ، وشواطئ بحارها ، ومسالكها التجارية

أهم العوامل التي هيئت للخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق ، والرها ، ودورا ، وسلوقية ، وطشقونة ؛ واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى ، وبطرا إلى بلاد العرب ؛ وغربا عن طريق سوريا إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ؛ ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجه إلى كورنثة (كورنثوس) وتسالونيكى ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الإجناسى ؛ ثم اخترق البحر الأدرباوى إلى برندينزيوم ، أو عن طريق سلاوكريدس إلى بتيولى ورومة ؛ وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى أفريقية ، واخترق البحر المتوسط أو جبال الألب إلى أسبانيا وغالة ، ومنها إلى بريطانيا . ثم سار الصليب على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح ؛ وكانت آسية الصغرى فى ذلك الوقت حصن المسيحية الحصين ، ولم يكذب يحل عام ٣٠٠ حتى كانت الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير من المسيحيين (٣٢) . وعلا شأن الدين الجديد فى شمالى أفريقية ، فأضحت قرطاجنة وهو مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحيين ، وفيهما وجد آباء الكنيسة اللاتينية ، العظام - ترتليان ، وكيريان ، وأوغسطين ؛ وهنا اتخذت نصوص القدايس اللاتينية وترجمة العهد القديم اللاتينية صورتيهما المعروفتين وبلغ عدد الجالية المسيحية فى رومة قبيل آخر القرن الثالث نحو مائة ألف ، وكان فى وسع الجالية أن تمد بمعونتها المالية غيرها من الجاليات ، وكانت من عهد بعيد تطالب لأسقفها بالسلطة العليا على سائر الكنائس .

ويمكننا أن نقول بوجه عام إنه لم يحل عام ٣٠٠ بعد الميلاد حتى كان رُبُع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب من المسيحيين . وفى ذلك يقول ترتليان (حوالى ٢٠٠) ، « يجهر الناس بأن الدولة مكتظة بنا ، ذلك أن الحلائق على اختلاف سنهم ، وأحوالهم ، ومراتبهم ، يهرعون إلينا ، وينضوون تحت لوائنا . إنا أبناء الأمس القريب ، ولكننا رغم هذا قد ملأنا العالم كله » (٣٢) .

الفصل الثاني

تنازع العقائد

لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ في مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة ، لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمراً شديداً الغرابة . ولقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطفئ عليها سبيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليوناني الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل ؛ وليس من المستطاع فهم المسيحية على حقيقتها إلا إذا عرفنا ما يدخل فيها من هذه البدع ، لأنها وإن غلبتها لم تسلم من بعض ألوانها وأشكالها .

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحية المنتشرة في أنحاء العالم : هي أن المسيح ابن الله ، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة . ولكن المسيحيين اختلفوا في موعد عودة المسيح ؛ فلما أن مات تيرون ، وخرب تيطس الهيكل ، ولما أن دمر هديران أورشليم ، رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح .

ولما أن هددت الفوضى الإمبراطورية في أواخر القرن الثاني ، ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت (٣٤) ؛ وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقي بالمسيح في منتصف الطريق ، وأفسد أسقف آخر في پنتس نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود في خلال عام واحد (٣٥) . ولما لم تصدق كل هذه العلامات ، ولم يعد المسيح ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً ، فقبل في رسالة معزوة إلى برنابا

لأنه سيعود في خلال ألف عام^(٣٦) ؛ وقال أشد هؤلاء حذراً إن عودته ستكون حين يفرض «جيل» اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل ؛ أو كما يقول لإنجيل يوحنا : لأنه سيرسل بدلا منه الروح القدس أو المقرى^(*) ؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السماء ، ومن حياة الناس في هذه الدنيا إلى الجنة في الدار الآخرة . بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعاً من الكنيسة ، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيف والضلال .

وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هي التي أقامت صرح المسيحية ، وأن الأمل في الدار الآخرة هو الذي أبنى عليها^(**) .

وإذا غضضنا النظر عن هذه العقائد رأينا أن أتباع المسيح قد انقسموا في الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة . ولو أننا عمدنا إلى ذكر العقائد الدينية المختلفة التي حاولت أن تستحوذ على الكنيسة الناشئة ثم عجزت عن الوصول إلى غرضها ، والتي اضطرت الكنيسة إلى أن تصممها واحدة بعد واحدة بأنها كفر وسعى إلى الانشقاق والتفريق ، لو أننا فعلنا هذا لكان ذلك جهلا منا بالغرض من كتابة التاريخ .

(•) إنجيل متى ١٤ : ١٦ : ٢٦ (المترجم)

(••) يفسر آلاف من المسيحيين ، ومنهم كثيرون من العاملين بها ، اضطرابات هذه الأيام بأنها النذر المنبهة بقرب عودة المسيح . ولا يزال ملايين من المسيحيين وغير المسيحيين ، والملاحدين يعتقدون بأن ستكون على الأرض جنة تختفى منها الحروب والشور . ويمكن تشبيه عقيدة النعيم في الدار الآخرة وجنة الدنيا بدلوين يتبادلان النزول في بئر إذا نزلت إحداها ارتفعت الأخرى . فلما أن ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ، ثارت الاضطرابات الشيعية في أثينة (٤٣١ ق . م) ، وبدأت الثورة في رومة (١٣٣ ق . م) ، ولما أغفقت هاتان الحركتان ، نجحت العقائد القائلة بالبعث والنشور وبلغت ذروتها في الدين المسيحي ؛ ولما أن ضعفت العقيدة المسيحية في القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية إلى الظهور . وعلى هذا الاعتبار يكون مستقبل الدين مضمونا لا خوف عليه .

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الأدرية(*) - أى طالب العلم الرباني (gnosis) عن طريق التصوف - لم تكن كفرًا بالمسيحية بقدر ما كانت عقيدة منافسة لها : لقد نشأت هذه العقيدة قبل المسيحية ، وكانت تبشر بوجود المنقذ (Soter) قبل أن يولد المسيح^(٣٧) . وأكبر الظن أن سمعان المجوسى السامرى الذى عاب عليه بطرس اتجاره بالرتب الكهنوتية كان هو نفسه مؤلف كتاب **المعرض الأكبر** الذى جمع فيه طائفة لا حصر لها من الأفكار الشرقية عن الخطوات المعقدة التى يستطيع بها العقل البشرى أن يصل إلى العلم اللدنى بالأشياء كلها . وفى الإسكندرية امتزجت الأفريقية ، والفيتاغورية الجديدة ، والأفلاطونية الجديدة بفلسفة فيلون العقلية ودفعت بسيليدس Basilides (١١٧) ، وفلنتينس Valentinus (١٦٠) وغيرهما إلى تكوين أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » و « إيوناب » العالم المحسدة(**) ؛ وأوجد بردسانس Bardesanes (٢٠٠) فى الرها اللغة السريانية الأدبية بوصفه هذه الإيونات شعراً ونثراً . وعرض ماركس الأدرى The Gnostic Marcus فى غالة أن يكشف للنساء أسرار ملائكتهن الحارسة ، وكان كل ما أوحى به إليهن إطراء لهن ونفاقاً ، وقبل فى نظير ذلك أن يستمتع بهن^(٣٨) .

وكان أعظم الملاحدة الأولين من غير الأدرين ، ولكنه تأثر بأرائهم الدينية . وتتلخص قصة مرسيون Marcion وهو شاب شى من أهل سينوب فى أنه جاء إلى رومة حوالى عام ١٤٠ معترزاً أن يتم ما بدأه بولس وهو تخليص المسيحية من اليهودية . وكان مما قاله مرسيون إن المسيح حسب رواية الأناجيل ،

(*) مذهب شيعة كانت تقول إن المادة قديمة وإن الشر من طبيعتها وتخلط بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس . (المترجم)

(**) جمع إيون وهو فى الفلسفة القديمة صفة من صفات الله تجسدت وكان لها نصيب فى خلق العالم . (المترجم)

قد قال إن أباه إله رحيم ، غفور ، محب ؛ على حين أن يهوه ، كما يصفه العهد القديم ، إله غليظ القلب ، صارم في عدله مستبد ، إله حرب ؛ ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الوداع . وتساءل مرسيون قائلاً : أى إله خير تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعاً بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة ، أو رغب في المعرفة أو أحب امرأة ؟ إن يهوه موجود ، وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة في قالب من الشر . وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح ؛ وكان عند ظهوره في سن الثلاثين ، في جسم طينى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الروحى الخالص . ويقول مرسيون إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس فينبذون يهوه والشرعية اليهودية ، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج ، واللذات الجنسية جميعها ، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد . وعمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد غير العهد المعروف يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ؛ وأصدرت الكنيسة قراراً بجرمانه ، وردت إليه المال الكثير الذى وهبه إليها حين جاء إلى رومة .

وبينا كانت الشيعتان الأدرية والمرسيونية آخذتين في الانتشار السريع في الشرق والغرب ظهر زعيم جديد لشيعه ضالة أخرى في ميسيا Mysia . فقد قام في عام ١٥٦ رجل يدعى منتانس Montanus يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد حق التنبؤ أو القول المهتم إلى أعضاء الجماعات المسيحية . وآمنت امرأتان تدعيان بريسلا Priscilla ومكسميليا Maximillia بأقواله ، وأخذتا تنطقان في أثناء غيوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعه . وكان منتانس نفسه يتنبأ في أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه الفريجيين أخذوا بلقبونه بالحدى الذى وعد

به المسيح ، ويلقونه بنفس الترحيب الحماسى الذى كان يصدر من أتباع ديونيشس . وكان مما تنبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل . ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلطت معها بعض المدن من سكانها . وحدث فى هذا الوقت ما حدث فى بداية عهد المسيحية فامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل ، وجعلوا متاعهم ملكاً مشاعاً بينهم ، وعمدوا إلى النقشف والزهد استعداداً لحجىء المسيح^(٣٩) . ولما اضطهد أنطونينس الحاكم الرومانى المسيحيين فى آسية الصغرى هرع مئات من أتباع منتانس إلى محاكمه سعياً منهم إلى الاستشهاد ، ورغبة فى الجنة . ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتم بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم : « أيها الخلائق العساء ! إذا كنتم تريدون الموت حقاً ، فهل علمتم الحبال وأجراف الصخر العالية ؟ »^(٤٠) وأعلنت الكنيسة أن تعاليم منتانس كفر وضلال ، وأمر جستنيان فى القرن السادس الميلادى بإبادة هذه الشيعة عن آخرها ، فاجتمع بعض أتباع منتانس فى كنائسهم ، وأضرمو فيها النار ، واحترقوا فيها أحياء^(٤١) .

أما الشيع الضالة الصغرى فقد كانت مما يخطئه الحصر ، فنها شيعة الزهاد التى عمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل ، وقالت إن الزواج من الخطايا ؛ ومنها شيعة المتخيلة (Docetists) (*) القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحماً ودماً بل كان شعباً أو خيالا ، ومنها الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان ، والمتبئية (***) ، وأتباع بولس السموساتى Samosata وكانت هاتان الطائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلاً عادياً ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكأله الخلقى ؛ ومنها الظاهرية Modalists والسابلية

(*) والامم مشتق من اللفظ اليونانى *dokein* أى يبدو . (المترجم)

(**) أى التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبني لا بالطبيعة . (المترجم)

«أتباع سابلوس» القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هي صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، ومنها المنكرون وجود شخصية مستقلة للمسيح والقائلون إن ألوهيته ليست إلا قوة وهبت له . وهؤلاء كلهم يعتقدون أن الأب والابن شخص واحد ؛ واليعاقية الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ؛ ومنها القائلون بأن للمسيح مشيئة واحدة ، وتغلبت الكنيسة على هذه الشيع كلها بما كان لها من نظام خير من نظمها جميعا ؛ وبتمسكها الشديد بمبادئها ، وبفهمها طبائع الناس وحاجاتهم أكثر منها .

وظهر في القرن الثالث خطر جديد في بلاد الشرق يهدد كيان المسيحية ، ذلك أن شابا صوفيا فارسيا يدعى ماني الطشة ونى أعلن عند تتويج شابور (٢٤٢) أنه المسيح المنتظر ، وأن الإله الحق أرسله إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية . وأخذ ماني عقائده من الزردشتية ، والمثراسية ، واليهودية ، والأدرية ؛ فقسم العالم مملكتين متناقستين هما مملكة الظلمة والنور ؛ وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة ، وإن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ، ولكن ملائكة إله النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور وهى العقل والذكاء والتفكير . وقال ماني إن في النساء أنفسهن بصيصاً قليلاً من النور ، ولكن المرأة هي خير ما صنع الشيطان ، وهى عاملة الأكبر في إغواء الرجل وإيقاعه في الذنوب . فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية ، والكلف بالنساء وعن السحر ، وعاش عيشة الزهد ، ولم يطعم إلا الأغذية النباتية ، وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ، ويهديه إلى النجاة ، كما يهديه النور الرحيم . وظل ماني ينشر دعوته بنجاح ثلاثين عاماً صلب بعدها بناء على طلب كهنة المجوس ، وحشى جلده بالقش ، وعلق على أحد أبواب مدينة السوس ؛ وبعث استشهاده الناس حماسة قوية ، فانتشرت مبادئه في غرب آسية وشمال أفريقيا ، واعتنقها أوغسطين مدعى

عشرين عاما ؛ وعاشت بعد اضطهاد دقلديانوس ، وفتوح المسلمين ، وظلت تحيا حياة مضمحلة مدى ألف عام إلى أن ظهر چنكيزخان .

وكانت الأديان القديمة لا تزال هي أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ؛ فأما اليهودية فقد ضمت في مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه ، وأخذت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود ؛ وظل السوريون يعبدون بعل وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء ؛ واحتفظت سيبيسل ، وإيزيس ، ومثراس ، بأتباعها إلى آخر القرن الرابع ؛ واستحوذت مثراسية جديدة على الدولة الرومانية في عهد أورليان ؛ واستمرت النذور والقرايين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة في هياكلها ، وظل المبتدئون والطلاب يرحلون إلى اليوزيا ، والمواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا في الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة في مختلف أنحاء ؛ لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ، ولم تعد تثير في الناس ذلك الإخلاص القلبي الذي يبعث الحياة في الدين اللهم إلا في أماكن قليلة متفرقة ؛ ولم يكن سبب هذا الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التي كانت في يوم من الأيام إما جميلة محبة أو قوية صارمة ؛ بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة ، وعمدوا إلى الإسراف في تحديد النسل إلى أبعد الحدود ، أو لإنهاك الجسم ، أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذي أفقد الهياكل عبّادها في الوقت الذي فقدت فيه الأرض زرعها .

وبينا كان أورليوس يقاثل الماركانيين على ضفاف الدانوب في عام ١٧٨ حاولت الوثنية محاولة خطيرة أن تحمي نفسها من المسيحية ؛ وكل ما نعرف عن هذه المحاولة مستمد من كتاب أرجن Origen المسمى ضد سلس Against Selsus وما فيه من عبارات نقلت في غير عناية من كتابه كلمة الحق لسلس .

وكان سلسل س هذا - وهو ثانى رجل نذكره فى قصتنا بهذا الاسم - رجلا من رجال الدنيا الذين يتمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن من الفلاسفة ؛ وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الرومانى ، ولذلك أخذ على عاتقه أن يدافع عن هذا الدين بأن يهاجم المسيحية التى كانت وقتئذ أكبر أعدائه وأشدهم بأساً . وعمد إلى دراسة الدين الجلديد دراسة دهش من غزارتها أرجن العالم التحرير . ثم أخذ يهاجم ما فى الكتاب المقدس من أمور لا تجوز ، على حد قوله ، إلا على بسطاء العقول ، كما هاجم صفات يهوه ، وما يعزى إلى معجزات المسيح من أهمية ، وما بين موت المسيح وقدرته الإلهية من تناقض . وسخر من اعتقاد المسيحيين بالنار التى سيحترق بها العالم آخر الأمر ، وبيوم الحساب ، وبعميدة البعث والنشور :

« من السخف أن نظن أنه حين يأتى الله بالنار ، كما يفعل الطهارة ، سيحترق بها سائر البشر ولا يبقى إلا المسيحيون - لا الأحياء منهم وحدهم ، بل من ماتوا من زمن طويل ، فيقوم هؤلاء من قبورهم فى الأرض بأجسامهم التى كانت لهم قبل الموت . الحق أن هذا هو أمل الدود ! . . . وليس فى وسع المسيحيين أن يُقنعوا بهذه العقائد إلا المغفلين ، الأراذل ، ضعاف العقول من العبيد والنساء والأطفال ماشطى الصوف ، والأساكفة ، والقصارين أجهل الناس وأسافلهم ؛ وكل من هو مذهب آثم ، أو أبله أضله الله سواء السبيل » (٤٢) .

وقد روع سلسل انتشار المسيحية ، وعداؤها للوثنية وازدراؤها لإياها ، هى أو الخدمة العسكرية ، والدولة ؛ وقال فى نفسه : كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟ وكان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن

يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه ، دون أن ينتقد علناً ما فيه من سخافات ، لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشيء المهم حقاً فهو أن يكون للدولة دين يوحدّها ، ويعين على الخلق الكريم ، ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحيين من إهانات ، فدعاهم إلى أن يعودوا إلى الآلهة القديمة ، وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهدها الخطر . غير أن أحداً لم يلق بالاً إلى هذه الدعوة ؛ ولسنا نجد له ذكراً فى الآداب الوثنية ، وكان قسطنطين أكثر منه حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى رومة .

الفصل الثالث

أفلوطينس

يضاف إلى هذا أن سلسلس كان متقدما عن العصر الذى يعيش فيه ؛ فقد كان يطلب إلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق السادة المهلبين المتشككين فى وقت كانوا يعزلونه فيه مجتمعا يستعبد الكثيرين منهم إلى عالم متصوف يجعل من كل إنسانا إلهيا . وكان شعور الناس بهذه القوى التى لاتدركها الحواس ، وهو الشعور الذى يقوم عليه الدين ، قد أخذ ينتشر انتشارا واسعا ويتغلب على مادية العصر الذى كان يزدهى بما فيه ، والذى كانت تسوده المادية والجبرية . وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التى هى ميدان العلوم الطبيعية ، وتوجه همها كله إلى دراسة العالم الغير المنظور . وأنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس على تناسخ الأرواح ، وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلهية ، نظاما من الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسمية ، وأن يعيدوا بتطهير أنفسهم إلى صعود الدرج التى انحطت بها الروح من عالم السماوات وسكنت فى جسم الإنسان .

وكان أفلوطينس أكبر الممثلين لهذه الفلسفة الدينية الصوفية . وكان مولده فى ليقيوپوليس عام ٢٠٣ م ، أى أنه كان قبطيا مصريا ذا اسم رومانى وتربية يونانية . وعثر على الفلسفة فى سن الثامنة والعشرين ، وأخذ ينتقل من معلم إلى معلم دون أن يجد فى أحد منهم بغيته حتى وجد طلبته فى الإسكندرية ، فقد كان فيها وقتئذ أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وهو رجل مسيحى ارتد إلى الوثنية ، وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، كما فعل تلميذه أرجن من بعده . وبعد أن تتلمذ أفلوطينس على أمونيوس عشر سنين انضم إلى جيش موجه إلى بلاد

الفرس لعله يتلقى الحكمة عن الجوس والبراهمة أنفسهم . فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعا إلى أنطاكية ، ثم ذهب إلى رومة (٢٤٤) وبقي فيها حتى توفي . وقد انتشر مذهبه الفلسفي وأصبح طراز ذلك العصر ، فضمه الإمبراطور جالينوس Gallienus إلى حاشيته ، ورضي أن يساعده على أن ينشئ في كهنانيا مدينة أفلاطونية تُحكّم على مبادئ جمهورية أفلاطون ، لكن جالينوس رجع فيما بعد عن وعده ، ولعله فعل ذلك ليوفر على أفلوطينس إخفاقه المخزى .

وأعاد أفلوطينس إلى الفلسفة سمعتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف رومة ورذائلها ؛ فلم يكن يعنى بجسمه ؛ بل إنه « كان يستحي أن يكون لروحه جسد » على حد قول پرفيرى Porphyry^(٤٣) . ومن الأدلة الناطقة باحتقاره جسده أنه أبى أن يقف أمام المصورين بحجة أن جسمه أقل أجزائه شأنا - وفي ذلك إشارة إلى الفن بأن يعنى بالروح لا بالجسم . وحرّم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز إلا قليلا . وكان بسيطا في عاداته رحيما في أخلاقه ، وابتعد عن كل العلاقات الجنسية ، وإن لم يذمها . وكان تواضعه هو الخلق بالرجل الذى يرى الجزء في ضوء الكل . ولما حضر أرجن درسه علت وجه أفلوطينس حمرة الخجل وأراد أن ينتم محاضرتة فقال : « إن تحمس المحاضر يزول حين يحس بأن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه »^(٤٤) . ولم يكن أفلوطينس خطيبا مصقعا . ولكن عنايته الشديدة بموضوعه ، وإيمانه بما يُحدّث عنه قد عوضاه خير العوض عن البلاغة . ولم يسجل آراءه الفلسفية كتابة إلا متأخرا وسجلها مع ذلك وهو كاره . ولم يراجع قط مسودته الأولى ، ولا تزال الوثائق رغم ما بذله پرفيزى من عناية في نشرها أكثر المؤلفات اضطرابا في تاريخ الفلسفة^(*) .

(*) وقد رتب پرفيرى هذه الرسائل الأربع والخمسين في تسع مجموعات زاعما أن ٩ هو الرقم الكامل في نظرية فيثاغورس ، لأنه مربع ٣ الثالث الكامل الانسجام^(٤٥) .

لقد كان أفلوطينس ذا نزعة مثالية يعترف متفضلاً بوجود المادة ، ولكنه يقول إن المادة في حد ذاتها هي إمكانية الشكل غير-المتشكلة ، وكل شكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخلية أى النفس (Psyche) ، والطبيعة هي مجموع الطاقة أو النفس التي تنتج كلبية الإشكال في العالم ؛ والحقيقة الدنيا لا تنتج الحقيقة العليا ؛ أما الكائن الأعلى وهو النفس فينتج الأدنى - الصورة المجسدة . ونمو الإنسان الفرد من بداية خلقه في الرحم وتكون أعضائه البطيء عضواً بعد عضو حتى يكتمل نموه من عمل النفس أو المبدأ الحيوى الذى فيه ؛ والجسم يتشكل تدريجاً بتوقان النفس أو توجيهها . ولكل شىء نفس - أى طاقة داخلية - هي التي تخلق الصورة الخارجية ، وليست المادة خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة ، فهي تطور وقف دون الكمال ؛ والشر هو إمكانية الخير .

ولسنا نعرف المادة إلا عن طريق الفكر - عن طريق الإحساس ، والإدراك ، والتفكير . وليس ما نسميه مادة إلا مجموعة من الأفكار (كما قال هيوم فيما بعد) ، وهي أكثر ما تكون شىء افتراضى مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا (« إمكانية الإحساس الدائمة » التي يقول بها مل) ؛ وليست الأفكار شيئاً مادياً ؛ وما من شك في أن فكرة الامتداد في المكان لا تنطبق عليها ؛ والقدرة على تحصيل الأفكار واستخدامها هي العقل ؛ وهرة الثالوث البشرى المكون من الجسم ؛ والنفس ، والعقل . والعقل مقدار محدد من حيث اعتماده على الإحساس ؛ وهو حر لأنه أرقى صور النفس المبدعة المشكلة .

والجسد عضو النفس وسجنها معا ؛ والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ؛ وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، أى بحياة وقدرة كونيتين من نوع ما ؛ وهي حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال تأمل أن تنصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التي سقطت منها على ما يبدو في أثناء كارثة أو محنة - حدثت في بداية الخليقة . وهنا يستسلم أفلوطينس في بعض

ثوبات من تفكيره إلى الأخرية التي يقول إنه يرفضها ، ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة من السماء إلى الإنسان ذى الجسد ؛ وهو على العموم يفضل الفكرة الهندية التي تقول إن النفس تنتقل من صور الحياة الدنيا إلى العليا أو من صورها العليا إلى الدنيا ، حسب فضائلها ورذائلها ، في كل صورة من صور الحياة تنتقل إليها . وهو يبدو في بعض الأحيان فيثاغوريا مازحا ، كما نراه في قوله : « إن الذين يسرفون في حب الموسيقى يصبحون في تجسدهم الثاني طيوراً مغردة ، والفلاسفة الذين يتجاوزون الحد في التفكير يتحولون إلى نسور »^(٤٦) . وكلما كانت النفس أكثر رقياً كانت أكثر إصراراً في سعيها إلى أصلها القدسي ، ومثلها في ذلك كمثل الطفل الذي ضل من أبيه أو كمثل الجائل المشتاق إلى العودة إلى وطنه . والنفس قادرة على أن تبلغ الفضيلة ، أو الحب الحقيقي ، أو الإخلاص إلى ربات الفن ، أو الفلسفة التي تحتاج إلى صبر طويل ؛ وستعثر على السلم الذي نزلت عليه ، وترقاه إلى ربها . فلتظهر النفس إذن ، ولترغب رغبة صادقة في الجوهر غير المرفى ، ولتفقد العالم عن طريق التأمل ؛ ولعلها في لحظة من اللحظات التي تخفت فيها كل ضوضاء الحواس ، وتنقطع المادة عن طرق أبواب العقل ، ستحس فجأة بأنها مستعركة في محيط الكينونة ، في الحقيقة الروحية النهائية (وقد كتب ثورو وهو يطفو لاهياً على بركة والدين يقول : « لقد فارقت الحياة في بعض الأحيان ، وبدأت أكون ») : ويقول أفلوطينس :

« فإذا حدث هذا ترى النفس الإلهية إلى الحد الذي يحق لها أن تصل إليه في رؤيتها : . . وتشهد نفسها قد أضيئت ، أي ملئت بنور عقلي ؛ أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص ، غير مثقلة ، نشيطة ، خفيفة ، تسير في طريقها إلى أن تكون إلهاً »^(٤٧) .

ولكن ما هو الإله ؟ يقول أفلوطينس إنه « هو » أيضاً ثالث — من الوحدة (ben) ، والفكر (nous) ، والنفس (psyche) . و « من وراء

الكائن يوجد الواحد » ؛ وفي خلال الفوضى الظاهرية البادية في التعدد. الديوى تسرى الحياة الموحدة . ولا نكاد نعرف عن هذا الواحد إلا أنه موجود ، وكل صفة موجبه نصفه بها ، أو ضمير متخيف نخله محله ، تحيد له غير لائق به . وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه ، واحد ، وأول ، وخير ، وأنه هدف رغبتنا العليا . وينشأ من هذه الوحدة العقل العالمى ، وهو المقابل عند أفلاطون للأفكار أى النماذج المشكلة ، والقوانين المتحركة فى الأشياء ؛ أو أنها أفكار الله أو عقل الواحد ، أو نظام العالم ومعقوليته . وإذا كانت هذه الأفكار تبقى مع أن المادة صور متغيرة من الأشكال التى تأتى وتروح ، فإن هذه الأفكار هى الحقيقة الصحيحة الباقية . ولكن الوحدة والعقل ، وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك ، لا يخلقانه ؛ بل الذى يخلقه هو العنصر الثالث من عناصر الألوهية — أى العنصر الذى يبعث الحياة والذى يملأ الأشياء جميعها ويكسبها قوتها وصورتها المقررة لها . ولكل شيء ، من الذرة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، نفس تبعث فيه النشاط ، هى فى ذاتها جزء من النفس العالمية ، والنفس الفردية ليست خالدة إلا من حيث هى باعثة الحياة أو الطاقة لا من حيث هى كائن متميز^(٤٩) . وليس الخلود هو بقاء الشخصية ، بل هو اندماج النفس فى الأشياء التى لا تموت^(٥٠) .

والفضيلة هى حركة النفس نحو الله ؛ وليس الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب كما ظن أفلاطون وأرسطو بل هو النفس الحية ، أو الألوهية غير المنظورة التى فى الأشياء ، وهى غلبة الروح على الجسد ، والصورة على المادة ، والعقل على الأشياء ؛ والفن هو تحويل هذا الجمال العقلى أو الروحى إلى وسط آخر : ويمكن أن تدرب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال فى المادة أو فى الصور البشرية إلى طلبه فى النفس الحقة ، فى الطبيعة وسننها ، وفى العلم ، وما يكشف عنه من نظام دقيق بديع ، وإلى طلبه آخر الأمر فى الوحدة القدسية التى تؤلف بين

الأشياء كلها ، بما فيها الأشياء المتنافرة المتعارضة ، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب^(٥١) . والجمال والفضيلة شيء واحد في نهاية الأمر - وهما اتحاد الجزء مع الكل وتعاونهما معه .

« ارجع إلى نفسك وتأمل ، وإذا لم تجد نفسك جميلاً فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال . . . فهو يقطع هنا ، ويصقل هناك ، ويجعل هذا الخط أخف ، وذاك أنقى ، حتى ينشأ لثمناله وجه جميل . فافعل أنت مثل فعله : واقطع كل شيء زائد ، وقوم كل معوج . . . ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتى . . . ترى الطيبة الكاملة مستقرة في الحرم النقي الطاهر »^(٥٢) .

إننا لنحس في هذه الفلسفة بما نحس به في المسيحية المعاصرة لها من جو روحاني - نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية واتجاهها نحو الدين ، وفرارها من الدولة إلى الله . وليس بعجيب أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين زميلين وصديقين ، وأن ينشئ كلمنت Clement أفلاطونية مسيحية في الإسكندرية . وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام ، وهو مسيحي بلا مسيح ، مثله في هذا كمثل إبيكتس وأورليوس . ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً ، وما أكثر صحائف أوغسطين التي تردد نشوة هذا الصوفي الجليل . وعن طريق فيلون ، ويوحنا ، وأفلوطينس ، وأوغسطين ، غلب أفلاطون أرسطو ، وتعمق في أبعاد أغوار اللاهوت الكنسي ، وأخذت النخرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً ، ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير في ركاب الدين .

الفصل الرابع

جماة الدين

وهنا كسبت الكنيسة طائفة من المؤيدين كانوا أحصاف عقول
الإمبراطورية ، منهم أغناطيوس أسقف أنطاكية الذى أنشأ أسرة قوية من
« الآباء » جاءوا بعد الرسل ، ووهبوا للمسيحية فلسفة غلبوا أعداءها بحججها
القوية . ومنهم جستين Justin الذى حكم عليه بأن يلقى للوحوش لأنه أبى
أن يرتد عن دينه ، فكتب ، وهو فى طريقه إلى رومة ، عدداً من الرسائل
تفيض إخلاصاً وحماسة وتكشف عن الروح التى كان المسيحيون يلقون بها
الموت :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعاً فى حب الله ، إذا لم يحل أحد بينى
وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رافة أرى أنها فى غير أوانها ،
بل اتركونى تنهشنى السباع التى أستطيع أن أصل عن طريقها إلى الله . . .
بل أغرخوا الوحوش بدلا من هذا أن تلتهمنى فلا تترك قطعة من جسدى ،
حتى إذا نمت نومي الأخير لا أكون كلاً على أحد من الناس . . . ألا ما أشد
شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى . . . ألا فليكن من نصيبى النار والصليب
[القتل صلباً] ، وقتال الوحوش ، والتقطيع والتمزيق ، وتهشيم العظام ،
وبتر الأطراف ، وتحطيم جسمى كله ، وأقسى أنواع العذاب الشيطاني
إذا كنت بهذه الطريقة أصل إلى يسوع المسيح » (٥٣) .

وكتب كودراتس Quadratus ، وأثينا جورس Athenagoras
وكثيرون غيرهما « دفاعاً » عن المسيحية ، وكانوا يوجهون هذا الدفاع عادة
إلى الإمبراطور . وكتب منوسيوس فلكس Minucius Felix حواراً رائعاً
يكاد يضارع كتاب شيشرون فى بلاغته ، أجاز فيه لكاسيليوس Caecilius

أن يدافع عن الوثنية دفاعاً قوياً ، ولكنه جعل أكتافوس يرد عليه بأدب
جم كاد يقنع كاسيليوس بأن يعتنق المسيحية . ولما جاء جستين Justin
السامرى إلى رومة في عهد أنطونينس افتتح فيها مدرسة لتعليم الفلسفة
المسيحية ، وحاول في « دفاعين » بليغين أن يقنع الإمبراطور و « فرسمس
Verissimus الفيلسوف » بأن المسيحيين مواطنون مخلصون ، لا يتوانون
عن أداء الضرائب ، وأنهم إذا عوملوا معاملة الأصدقاء قد يصبحون عوناً
عظيم القيمة للدولة . وظل عدة سنين ينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ،
ولكن حدة لسانه خلقت له أعداء ، ولهذا استطاع أحد الفلاسفة المنافسين له
أن يغرى ولاية الأمور في عام ١٦٦ بالقبض عليه هو وستة من أتباعه
وإعدامهم على بكرة أبيهم . وبعد ست سنين من ذلك الوقت قام إيرينيوس
Irenaeus أسقف ليون بمحملة قوية يدعو فيها إلى وحدة الكنيسة ، وذلك في
كتابته المسمى معارضة الهرطقات Adversus Haereses وهو محملة قوية على كافة
ضروب الإلحاد . وقد قال إيرينيوس إنه لا سبيل إلى منع المسيحية أن
تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة
واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم - وتلك السلطة هي قرارات مجالس الكنيسة
الأسقفية .

وكان أجراً المدافعين عن المسيحية في تلك الفترة هو كونتاس سبتيميوس
ترتليانوس Quintus Septimius Tertullianus القرطاجنى . وكان مولده في
تلك المدينة حوالى عام ١٦٠ ، وكان والده قائداً رومانيا على مائة ،
ولما شب درس البلاغة في نفس المدرسة التى تعلم فيها أبوليوس Apuleius ،
ثم اشتغل بالمحاماة عاماً واحداً في رومة . واعتنق المسيحية في كهولته
وتزوج بمسيحية ، وبذ كل اللذائد الوثنية ورسم قساً (كما يقول
خيروم) . فلما تم له هذا استخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت
عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى ، وضم إليها حماسة الرجل
المؤمن المتهندى إلى دينه . لقد كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية
صوفية ، فلما اعتنق ترتليان دينه الجديد جعل المسيحية اللاتينية ديناً

أخلاقيا ، قانونيا ، عمليا ؛ وكانت له قوة شيشرون وحدثه ، وفحش
چوثنال في هجائه وسفاهته ؛ وكان في مقدوره أحيانا أن ينافس تيطس في
تركيز . كل ما لديه من حقد وضغينة في عبارة واحدة . وكان إيرنيوس قد
كتب باللغة اليونانية ، فلما جاء منوسيوس وترتليان أصبحت الأداب
المسيحية في الغرب لاتينية ، وأصبح الأدب اللاتيني مسيحيا .

وبينا كان الحكام الرومان في قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء
للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، وجه ترتليان في عام ١٩٧ إلى محكمة
خيالية أبلغ رسالة من رسائله كلها وهي المعروفة باسم الدفاع Apologeticus
أكد فيها للرومان أن المسيحيين « لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة ،
وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشا بأسلة ،
ومجلس شيوخ وفي أمين ، وأن يمن على العالم بالهدوء »^(٥٤) . وامتدح عظمة
التوحيد ، وقال إنه وجد أدلة عليه عند كتاب ما قبل المسيحية ! « انظروا
إلى ما تشهد به النفس ، ذاتها وهي بقطرتها مسيحية »^(٥٥) . وبعد عام من
ذلك الوقت انتقل بسرعة عجيبة من الدفاع المقتنع إلى الهجوم العنيف ،
وأصدر كتابه المسمى في المسرح De Spectaculis وهو وصف ساخر للمسارح
الرومانية التي قال عنها إنها حصون البذاءة ، وللمدرجات التي وصفها بأنها
أكبر دليل على قسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، وختمها بذلك
الوعيد المرير :

« وستشهدون مناظر أخرى - مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب :
يوم يحترق هذا العالم الذي بلغ سن الشيخوخة ، ويحترق أهله جميعا في لهب نار
واحدة . ألا ما أوسع هذا المنظر في ذلك اليوم ! وما أشد عجبى ، وأعلى ضحكى ،
وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك - وكان يظن أنهم
ينعمون في ملكوت السموات - يثنون ويتوجعون في أعماق الظلام ! -
والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم في لهب أشد حرارة من جميع

النيران التي أوقدوها . . . ضد المسيحيين ! — وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون معاً ! . . . وممثل المأسى وهم الآن أعلى صوتاً في مأساتهم مما كانوا أى يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة في أعماق النار ، وسائقى المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب ! » (٥٦) .

وهذا الخيال المفرط في القوة يخرج صاحبه عن قواعد الدين السليم . ذلك أنه لما تقدمت به تليان السن انقلب ما كان فيه أثناء شبابه من نشاط فياض يطلب به اللذة ويصرفه فيها ، انقلب إلى تنديد شديد بجميع أسباب السلوى عدا سلوة الدين والأمل في نعم الآخرة ، فكان يخاطب المرأة بأوقع الألفاظ ويصفها بأنها « الباب الذى يدخل منه الشيطان » ويقول لها « من أجلك مات يسوع المسيح » (٥٧) .

وكان ترتليان في يوم من الأيام قد أحب الفلسفة ، وألف فيها ، كتباً ككتاب في النفس De Anima حاول فيه أن يطبق على المسيحية مبادئ الرواقية فيما وراء الطبيعة . أما الآن فقد نبذ كل تفكير منطقي منفصل عن الإلهام والوحى ، وقصر أسباب بهجته على ما كان يحتويه دينه من أمور لا يصدقها العقل السليم . « لقد مات ابن الله : ذلك شيء معقول لشيء إلا أنه مما لا يقبله العقل . وقد دفن ثم قام من بين الموتى : وذلك أمر محقق لأنه مستحيل » (٥٨) . واستغرق الرجل في تزمّت نكد مكتئب بلغ من أمره أن خرج وهو في الثامنة والخمسين من عمره على المبادئ السليمة للدين المسيحى ، لأنها في رأيه ملوثة بالأساليب الدنيوية ، واعتنق المبادئ المتتانية (*) لأنه يراها تطبيقاً مستشهاً سليماً لتعاليم المسيح ، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً ، أو فنانين ، أو موظفين في الدولة ، وبجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين ، وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعى الزانين pastor moechorum » (٥٩) .

(*) إلى كان يقول بها متناش القريشى . وقد سبق الكلام عليها . (المترجم)

لكن الكنيسة ازدهرت في أفريقية على الرغم من هذه الأفعال ، فقد قام فيها أساقفة مخلصون من طراز سيريان Cyprian رفعوا أبرشيته قرطاجنة إلى درجة من الغنى والنفوذ لا تقل عما بلغته رومة . أما في مصر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه في قرطاجنة ، وقد اختفت مراحلها الأولى من التاريخ فأصبحنا لا نعرف عنها شيئاً . غير أننا نسمع فجأة في أواخر القرن الثاني عن مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب قائمة في مدينة الإسكندرية قرنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وأخرجت للعالم أبوين من أعظم آباء الكنيسة هما كلمنت وأرجن . وكان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية ، محبا لها على طريقته الخاصة . ولو أن الروح التي كانت تغمرهما سادت في ذلك الوقت لما كان لانفصال الثقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر متلف شديد .

ولما بلغ أرجينيز ادمنتيوس Origenes Adamantius السابعة عشرة من عمره (٢٠٢) قبض على والده بتهمة أنه مسيحي ، وحكم عليه بالإعدام ، وأراد ابنه أن يشاركه في السجن وفي الاستشهاد ، ولم تستطع أمه أن تمنعه من ذلك إلا بإخفاء ملابسه كلها ، فأخذت يبعث إلى أبيه رسائل يشجعه فيها على اجتهال مصيره ، وقد جاء في إحدى هذه الرسائل : « احذر أن ترجع عن آرائك من أجلنا » (١٠) . وأعدم الوالد ووقع عبء كفالة الأم والأطفال الصغار على الشاب . وبعث ما شاهده من استشهاد كثيرين من المسيحيين في نفس أرجن مزيداً من التقى والإيمان ، فعمد إلى حياة الزهد والتعشف ، وأكثر من الصوم ، وأقلل من ساعات النوم ، وافتقرش الأرض ، ومشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعري ، وأخيراً عمد إلى خصي نفسه (*) . إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى بعد أن تزمت تفسيرها أشد التزمت . وفي عام ٢٠٣ خلف كلمنت في رئاسة

(*) يقول جين : « وإذا كان من عادة أرجن أن يفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فإن ما يوسف له في رأينا أنه في هذه الحالة وحدها اتبع المعنى الحرفي لتلك الآية » (١١) .

المدرسة الأفريقية . ومع أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر فقد اجتذب إليه علمه وبلاغته كثيرين من الطلبة وثنيين ومسيحيين على السواء ، وطبقت شهرته جميع أنحاء العالم المسيحي .

ويقدّر بعض القدامى عدد « كتبه » بستة آلاف ؛ وكان الكثير منها بطبيعة الحال نبذاً وجيزة ، وحتى على هذا الاعتبار قال فيها جيروم متسائلاً : « من منا يستطيع أن يقرأ كل ما كتب ؟ » (٦٢) ولقد قضى أرجن عشرين عاماً هائماً بحب الكتاب المقدس ، واستخدم طائفة كبيرة من المختزلين والنساخين يضعون في أعمدة متوازية النص العبري للعهد القديم ، وإلى جواره ترجمة يونانية حرفية لهذا النص ، وفي خانة أخرى ترجمة يونانية له منقولة عن الترجمة السبعينية ، وفي رابعة أكويلية وخامسة سيماكوسية وسادسة ثيودوتية (*) .

ثم أخذ يوازن هذه التراجم المختلفة بعضها ببعض ، واستعان بمعرفته باللغة العبرية فأخرج للكنيسة ترجمة سبعينية مصححة ؛ ولكن هذا لم ينفع غلته فأضاف شروحاً بعضها غاية في الإسهاب إلى كل سفر من أسفار الكتاب المقدس . ويحتوي كتابه *المبادئ الأولى* Peri archon أول عرض فلسفي منظم للعقيدة المسيحية ؛ وفي كتابه *السُّرَرَات* (Stromateis) أخذ على عاتقه أن يثبت جميع العقائد المسيحية بالرجوع إلى كتابات الفلاسفة الوثنيين . وأراد أن يخفف عن نفسه عبء هذا الواجب الثقيل فاستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التي استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوفقوا بين أقوال هومر وبين ما يقبله العقل المنطقي ، والتي بها وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية .

ومن أقوال أرجن في هذا المعنى أن من وراء المعنى الحرفي لعبارات الكتاب

(*) ولم يبق من هذه التراجم الست إلا قطع قليلة . وقد ضاعت كذلك التراجم الرباعية المحتوية على التراجم اليونانية الأربع .

المقدس طبقين من المعاني أكثر منه عمقاً - هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى - لاتصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة . وكان يرتاب فى صحة ما ورد فى سفر التكوين إذا فهم بمعناه الحرفى ؛ ويفسر ما كان يلقاه بنو إسرائيل من يهوه من معاملة غير طيبة أحياناً بأن ما وصفت به هذه المعاملة إنما هو رموز ؛ وقال إن القصص الواردة فى الكتاب المقدس والى تقول إن الشيطان صعد بعيسى إلى جبل عال وعرض عليه ملكوت الأرض ليست إلا أساطير^(٦٣) . ويضيف إلى ذلك أن هذه القصص قد اخترعت فى بعض الأحيان لكى توضح بعض الحقائق الروحية^(٦٤) . ويقول متسائلاً :

« أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الأول واليوم الثانى واليوم الثالث ، وأن المساء والصباح ، قد كانت كلها من غير شمس أو قمر أو نجوم ؟ وأى إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض ، وغرس فيها شجرة الحياة . . . حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة ؟ »^(٦٥) .

وإذا ما واصل أرجن أقواله اتضح لقارئه أنه رواقى ، وفيثاغورى حديث ، وأفلاطونى حديث ، وأدرى ؛ وأنه مع هذا كله مصر على أن يكون مسيحياً . ولو أننا طلبنا إلى رجل مثله أن يترك الدين الذى نشر فيه ألف كتاب وتخلّى من أجله عن رجولته لكلفناه ضد طباعه . ولقد درس أرجن ، كما درس أفلوطينس على أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وإنما ليصعب علينا أحياناً أن نفرق بين فلسفته وفلسفتها . فالله عند أرجن ليس هو يهوه ، بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء . وليس المسيح هو الإنسان آدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب ، وجعله خاضعاً له^(٦٦) . والنفس عند أرجن ، كما هى عند أفلوطينس ، تنتقل فى مراحل وتجسّدات متتالية قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية

مثلها قبل أن تصل إلى الله . فجميع الأنفس حتى أظهرها تتعذب زمناً ما في المطهر ولكنها كلها تنجو آخر الأمر ، وسيكون بعد « الله الأخير » عالم آخر ذو تاريخ طويل ، ثم عالم ثالث ، ورابع . . . كل واحد منها خير من سابقه ، وهذه العوالم الكثيرة المتتالية ستحقق على مهل الخطوة التي رسمها الله (٦٧) .

ولسنا نعجب إذا رأينا دميريوس ، أسقف الإسكندرية ، ينظر بعين الريبة إلى الفيلسوف النابه الذي تزدان به أبرشيته والذي يرأس الأباطرة . وقد أدت هذه الريبة إلى أن رفض دميريوس أن يرسمه قسماً بحجة أن الخصاص يجعله غير أهل للكهنوت . ولكن أسقفين فلسطينيين رسماه أثناء سفره في بلاد الشرق الأدنى . واحتج دميريوس على هذا العمل وقال إن فيه اعتداء على حقوقه ، وعقد مجعاً من رجال الدين الذين كانوا تحت رياسته ، وألغى هذا المجمع رسامة أرجن ونفاه عن الإسكندرية ، فانتقل إلى قيصرية وواصل عمله في التدريس ، وكتب فيها دفاعه الشهير عن المسيحية المسمى ضد سلسس Contra Ce sum (٢٤٨) ، وقد بلغ من كرمه أن أقر بقوة الحجج التي أدلى بها سلسس ، ولكنه رد عليها بقوله إن كل صعوبة ، وكل فكرة بعيدة عن المعقول ، في العقيدة المسيحية يقابلها في الوثنية آراء أصعب منها وأبعد منها عن العقل ، ولم يستنتج من هذا أن كلتا العقيدتين باطلة ، بل استنتج أن الدين المسيحي يعرض أسلوباً للحياة أنبل مما يستطيع أن يعرضه دين محضر يدعو إلى عبادة الأصنام :

وامتد اضطهاد ديسيوس للمسيحيين حتى وصل إلى قيصرية في عام ٢٥٠ ، وقبض على أرجن ، وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره ، ومد على العذراء ، وقيد بالأغلال ، ووضع في عنقه طوق من الحديد ، وبقي في السجن أياماً طويلاً . ولكن الموت عاجل لديسيوس أولاً وأطلق سراح أرجن ، غير أن حياته لم تطل بعد ذلك أكثر من ثلاث سنين ، لأن التعذيب ألحق أشد

الضرو يجسمه بعد أن هد الزهد المتواصل قواه ، ومات فقيراً كما كان حين بدأ يعلم الناس ، ولكنه كان أعظم المسيحيين شهرة في زمانه :
ولما أن ذاعت بدعه ، ولم تعد سرّاً مقصوراً على عدد قليل من تلاميذه ، رأت الكنيسة أن لا بد لها أن تتبرأ منه ، وطعن البابا أنستيسوس في عام ٤٠٠ في آرائه التجديفية . ولعنه مجلس القسطنطينية ، وأصدر عليه قرار الحرمان في عام ٥٥٣ . لكننا لا نكاد نجد عالماً مسيحياً ممن جاءوا بعده بعدة قرون لم يغترف من بحر علمه الفياض ، ولم يعتمد على كتبه ، وأثر دفاعه عن المسيحية في عقول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها « دفاع » آخر قبله . وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب ، بل أضحت فوق ذلك فلسفة ناضجة كاملة النماء ، دعامتها الكتاب المقدس ، ولكنها تعترز باعتمادها على العقل .

الفصل الخامس

تنظيم السلطة الدينية

لعل للكنيسة عندها في الطعن على ارجن وحرمانه : ذلك أن تفسيراته الرمزية لم تجعل من المستطاع إثبات أى شيء فحسب ، بل إنها فضلاً عن ذلك قضت بضربة واحدة على قصص أسفار الكتاب المقدس وعلى حياة المسيح الأرضية ، وأعادت للفرد حقه في الحكم في الوقت الذي كانت تقول فيه إنها تدافع عن الدين . يضاف إلى هذا أن الكنيسة ، وقد رأت نفسها وجهاً لوجه أمام حكومة قوية ، أحست بحاجتها إلى الوحدة ، ولم يكن في وسعها أن تأمن على نفسها إذا رضيت أن تمزقها إلى مائة شعبة صغرى كل ربح تهب عليها من عقل رجل من أتباعها ، أو من عقل زنديق خارج عليها ، أو نبى مشغوف ، أو ابن نابه . وكان سلسلس نفسه قد قال ساخراً : إن المسيحيين « تفرقوا شيعاً كثيرة ، حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً » (٦٨) . واستطاع إبيرينيوس أن يحصى في عام ١٨٧ عشرين شعبة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى إيفانيوس في عام ٣٨٤ ثمانين ؛ وكانت الأفكار الأجنبية تنسرب إلى العقيدة المسيحية في كل نقطة من نقاطها ، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة : وأحست الكنيسة أن عصر شبابها التجريبي يوشك أن ينتهى ، وأن نضجها سيحل بعد قليل ، وأن عليها أن تحدد ميادئها ، وأن تعلن على الناس شروط العضوية فيها . وكان لا بد لذلك من ثلاث خطوات ليست فيها واحدة سهلة : وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس ، وتحديد العقائد ، وتنظيم السلطة .

ونقيص الآداب المسيحية في القرن الثاني بالإنجيل ، والرسائل ، والروى ،

و « الأعمال » . ويختلف المسيحيون أشد الاختلاف من حيث قبولهم هذه الكتابات على أنها تعبير صادق عن العقيدة المسيحية أو رفضها . فقد قبلت الكنائس الغربية مثلاً سفر الرويا ، أما الكنيسة الشرقية فهي بوجه عام ترفضه . وهذه الكنائس الشرقية تعترف بالإنجيل ، كما يقول به العبرانيون ، ورسائل يعقوب ، أما الكنيسة الغربية فترفضهما . ويذكر كلمنت الإسكندري ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت في أواخر القرن الأول الميلادية اسمها تعاليم الرسل الاثني عشر .

ولما نشر مرسيون « عهداً جديداً » اضطرت الكنيسة إلى العمل لتحديد ما تعترف به وما لا تعترف به من الأناجيل . ولسنا نعرف متى حددت أسفار العهد الجديد التي نعرفها الآن واعتُرف بها - أى اعترف بصحة نسبتها لأصحابها وبأنها موحى إليهم بها ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن هتامة لاتينية كشفها مرانورى Muratori في عام ١٧٤٠ وسميت باسمه ، ويرجع الباحثون تاريخها إلى عام ١٨٠ تقريباً ، نفترض أن هذا التحديد تم قبل ذلك الوقت .

وتكرر اجتماع المجالس والجامع الكنسية تكراراً متزايداً في القرن الثاني ؛ واتصرت في القرن الثالث على الأساقفة ؛ وقبل أن يختم ذلك القرن اعترف بأن هذه المجالس هي الفصيل الأخير . العقيدة المسيحية « الكاثوليكية » أى العامة . وتغلب الدين القديم على البدع الدينية لأنه أشبع حاجة الناس إلى عقيدة محددة تخفف من حدة النزاع وتمهدى الشكوك ، لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة .

وكانت مشكلة التنظيم تنحصر في تحديد مركز هذا السلطان . فقد يبدو أن الجامع الدينية المتفرقة ، بعد أن ضعف سلطان الكنيسة الأصلية في أورشليم ، أخذت تمارس السلطات مستقلة عن هذه الكنيسة وعن بعضها بعضاً ، إلا إذا أنشأتها جماعات أخرى أو كانت تحت حماية هذه الجماعات . لكن

كنيسة رومة كانت تدعى أن الذى أنشأها هو الرسول بطرس وتستشهد بقول عيسى : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيتك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات » (٦٩). لكن بعضهم يقول إن هذه العبارة مدسوسة عليه ، وإنها تورية لا يلجأ إليها إلا شيكسبير . غير أنه يحتمل مع هذا أن بطرس ، إن لم يكن هو الذى أوجد الحالة المسيحية فى رومة ، كان يعظها ويخطب فيها ، وأنه عين لها أسقفها (٧٠) . وقد كتب إيرنيو (١٨٧) يقول إن بطرس : « عهد إلى لينس Linus بمنصب الأسقفية » . ويؤيد ترتليان (٢٠٠) هذه الرواية ، ويهيب سبريان (٢٥٢) أسقف قرطاجنة المنافسة الكبرى لرومة بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسي رومة الأسقفى (٧١) .

ولم يترك الأساقفة الأولون الذين تربعوا على « عرش بطرس » أثراً فى التاريخ . ويبرز من بينهم ثالثهم البابا كلمنت (*) مؤلف رسالة باقية إلى الآن أرسلها حوالى عام ٩٦ إلى كنيسة كورنثة يدعو أعضائها إلى نبذ الشقاق والمحافظة على النظام (٧٢) . وفى هذه الرسالة يتحدث أسقف رومة ، بعد جيل واحد من موت بطرس ، إلى مجمع دينى بعيد حديثاً من له سلطان عليه . وكثيراً ما كان الأساقفة الآخرون يتحدثون سلطان أسقف رومة وحتمه فى الإشراف على قراراتهم وإن كانوا يعترفون « بأولوية » هذا الأسقف خليفة بطرس ووارثه . وكانت الكنائس الشرقية تحتفل بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى أيا كان ذلك اليوم فى الأسبوع ، أما الكنائس الغربية فقد أجلت ذلك العيد إلى يوم الأحد التالى لهذا التاريخ .

(*) كان لفظ (بابا) « أب » الذى أصبح فى الإنجليزية Pope يطلق فى الثلاثة القرون الأولى على كل أسقف مسيحى .

ولما زار پوليكارب Polycarp ، أسقف أزمير ، مدينة رومة حوالى عام ١٥٦ حاول أن يقنع أنتسيتس Anticetus ، أسقف رومة ، بأن يحتفل بعيد القيامة فى اليوم الذى تحتفل به فيه الكنيسة الغربية ، لكنه لم يفلح فى محاولته ؛ ولما عاد إلى بلده رفض اقتراحاً ، عرضه عليه البابا ، يقضى بأن تقبل الكنيسة الشرقية التاريخ الغربى . وكرر البابا فكتور (١٩٠) طلب أنتسيتس وصاغه فى صيغة الأمر ، فأطاعه أساقفة فلسطين وعصاه أساقفة آسية الصغرى ، فما كان من فكتور إلا أن بعث برسائل إلى الجامعات الدينية المسيحية يحرم فيها الكنائس التى عصت أمره ؛ واحتج كثيرون من الأساقفة فى الشرق وفى الغرب نفسه على هذا الإجراء الاستبدادى ، ويبدو أن فكتور لم يصر على تنفيذ رغبته .

وكان زفرينس Zephyrinus الذى خلفه (٢٠٢ — ٢١٨) « رجلاً ساذجاً غير متعلماً » (٧٣) ، ولهذا رفع إلى رئاسة الشمامسة رجلاً كان ذكاؤه أقل باعثاً للرغبة من أخلاقه ، ليساعده فى إدارة شئون أسقفية رومة الآخذة بنى الاتساع . ويقول أعداء كالستس Callistus إنه بدأ حياته عبداً ، ثم صار من رجال المال والمصارف ، واختلس الأموال المودعة عنده فحكم عليه بالأشغال الشاقة ، ثم أطلق سراحه ؛ وأثار شغباً فى أحد الجامعات الدينية فحكم عليه بالعمل فى مناجم سردينية ؛ ولكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه فى ثبوت من أعفى عنهم ، وقضى عشر سنين يعيش فى أنتيوم Antium عيشة قاسى من هذونها أشد الآلام . ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أبيا Appia فى السرداب المسمى باسمه ؛ ولما مات زفرينس واختير كالستس Callistus بابا أعلن هبوليتس Hippolytus وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه ، وأقاموا كنيسة وبابوية غير كنيسته وبابويته (٢١٨) . وزادت الخلافات المذهبية هوة الشقاق : ذلك أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم

خطيئة يعاقب عليها بالإعدام ، (كالزنى ، والقتل ، والردة) ثم أعلنوا توبتهم . أما هبوليتس فكان يرى أن هذا التساهل مضر أشد الضرر بالدين ، وكتب **ومضاً لجميع البزغ** مع تأكيد هذه البدعة بنوع خاص ؛ فما كان من كالستس إلا أن أعلن حرمانه ، وأنشأ للكنيسة إدارة حازمة ، وثبت دغائم سلطة كرسى رومة الأسقفى على جميع العالم المسيحى .

وانتهى انشقاق هبوليتس فى عام ٢٣٥ ؛ ولكن قسيسين — هما نوفاتس Novatus فى قرطاجنة ونوفاتيان Novatian فى رومة — أعادا هذه البدعة فى أيام البابا كرنيليوس Cornelius (٢٥١ — ٢٥٣) ، فأقاما كنائس منشقة محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد . وأخرج مجلس قرطاجنة برياسة سبريان Cyprian ، ومجلس رومة برياسة كرنيليوس هاتين الشيعتين المنشقتين من الكنيسة المسيحية . وكانت استعانة سبريان بكرنيليوس سبباً تقوية البابوية ؛ لكن الشقاق دب بين الكنيستين بعد قليل ، وكان يسببه أن البابا استيفن (٢٥٤ — ٢٥٧) قرر أن لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير الموثمة ، فعقد سبريان مجمعا دينيا من أساقفة أفريقية تولى رياسته بنفسه ورفض هذا القرار . وفعل استيفن ما فعله كاتو من قبل فأعلن حرمان أولئك الأساقفة على بكرة أبيهم وشن عليهم حربا شعواء ؛ ولكن موته العاجل سكن هذا النزاع إلى حين ، وحال دون انشقاق كنيسة أفريقية القوية .

وظل كرسى رومة يزداد قوة على قوة فى كل عقد من العقود التالية رغم تجاوزه حقوقه فى فترة ونكوصه فى فترة أخرى ؛ وكان ثراؤه وكثرة صدقاته العامة مما رفع مكانته ؛ وكان العالم المسيحى بأجمعه يستشيريه فى كل ما يصادفه من المشاكل الخطيرة ؛ وكان هو يقدم من تلقاء نفسه على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها ، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة .

لكنه كان ينقصه العلماء الأعلام ، فلم يكن فيه رجال يفخر بهم أمثال
ترتليان ، وأرجن ، وسپريان ، وكان يعنى بالتنظيم أكثر مما يعنى
باللاهوت ، فكان يبنى ويحكم ، ويترك الكتابة والكلام لغيره . وعصاه
سپريان ولكن سپريان هو الذى نادى " كتابه الكنيسة الكاثوليكية الموحدة بأن
كرسى بطرس أو مقره هو مركز العالم المسيحى وأعلى مكان فيه ، وأعلن
لى العالم مبادئ التضامن ، والإجماع ، والثبات التى كانت ولا تزال أساس
الكنيسة الكاثوليكية وعمادها (٧٤) . وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان
مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسوس يقسم
أنه يفضل أن يكون فى رومة إمبراطور ثان يتافسه عن أن يكون فيها
بابا (٧٥) . وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية .
وأمدت رومة المسيحية بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما
أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية . وقد دخلت هذه كلها فى بناء الدين
المسيحى مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة . ولم يكن كل
ما أخذته الكنيسة من رومة هو العادات والمراسم الدينية التى كانت سائدة
فى رومة قبل قيام المسيحية - كالبطرشيلى وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ،
واستعمال البخور والماء المقدس فى التطهير ، وإيقاد الشموع ووضع ضوء
دائم لا ينطفئ أمام المذبح ، وعبادة القديسين ، وهندسة الباسليقا ،
وقوانين رومة التى اتخذتها أساسا للقانون الكنسى ، ولقب الحبر الأعظم
Pontifex Maximus الذى أطلق على كبير الأساقفة مضافا إلى اللغة
اللاتينية التى أضحت فى القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر
الكاثوليكية ؛ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذى أسمى
بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ،
لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان فى

حدائق الإمبراطورية ؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات . وسارت الكنيسة الرومانية في الطريق الذي سارت فيه قبلها الدولة الرومانية ، ففتحت الولايات ، وجعلت العواصم ، وثبتت دعائم النظام والوحدة على طول الحدود . وقصارى القول أن رومة قضت نجها وهي تلد الكنيسة ، واكتمل نمو الكنيسة بأن ورثت التبعات الملقاة على رومة ورضيت أن تضطلع بها .

الباب التاسع والعشرون

انهيار الإمبراطورية

١٩٣ - ٣٠٥ بعد الميلاد

الفصل الأول

أسرة سامية

في أول يوم من شهر يناير سنة ١٩٣ اجتمع مجلس الشيوخ بعد ساعات قليلة من اغتيال كمودس ، في نشوة البهجة والغبطة واختار للجلوس على عرش الإمبراطورية عضواً من أجل أعضائه وأجدرهم بالاحترام ، استطاع بإدارته العادلة وهو حاكم للمدينة أن ينهض منهج الأنطونيين ويواصل أحسن تقاليدهم . وقبيل برتناكس Pertinax ، وهو كاره ، هذا المنصب الخطير الذي يرفع صاحبه إلى مكانة سامية إذا سقط منها هوى إلى الدرك الأسفل . ويقول فيه هيروديان^(١) إنه « سلك سلوك الرجل العادي » ، فكان يستمع إلى محاضرات الفلاسفة ، ويشجع الآداب ، وعند ملأ خزائن الدولة بالمال ، وخفض الضرائب ، وباع بالميزان كل ما ملأ به كمودس القصر الإمبراطوري من ذهب وفضة ، وأقشة مطرزة وحريز ، وجوار حسان . وفي ذلك يقول ديوكاسيوس : « والحق أنه فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله »^(٢) . واثمر المعاتيق الذين فقدوا بفضل سياسته الاقتصادية ما كان يعود عليهم من النفع مع الحرس البريتوري الذي ساءه عودة النظام . وفي الثامن عشر من شهر مارس اقتحم ثلثمائة من الجنود

أبواب القصر وقتلوه ، وحملوا رأسه إلى المعسكر على طرف رمح . وحزن الشعب ومجلس الشيوخ عليه وتوارى أعضاؤه عن الأنظار .

وأعلن قواد الحرس أنهم سيضعون التاج على رأس الروماني الذي يمنحهم أكبر عطاء . وأقنعت دديوس چليانس Didius Julianus زوجته وابنته بأن يغادر مائدة الطعام ويعرض على زعماء الحرس عطاءه ، فسار إلى المعسكر ، حيث وجد منافساً له يعرض خمسة آلاف درخمة (٣٠٠٠ ريال أمريكي) هبة لكل جندي ثمناً لعرش الإمبراطورية . وصار ستماسة الحرس ينتقلون من متر إلى آخر ، يشجعونهم على زيادة العطاء ، فلما أن وعد چليانس كل جندي بـ ٦٢٥٠ درخمة أعلن الحرس اختياره لإمبراطوراً .

وثار تائرة أهل رومة لهذه المذلة المنقطعة النظير ، فأهابوا بالفيالق الرومانية المعسكرة في بريطانيا ، وسوريا ، وبنونيا أن تزحف على رومة وتخلع چليانس . وغضبت هذه الفياق لأنها حرمت من العطاء ، فأخذ كل منا ينادى بقائده إمبراطوراً ، وزحفت كلها على رومة . وتفوق لوسيوس سبتيميوس سفيرس جيتا Lucius Septimius Severus Geta قائد جيوش بنونيا على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته ، وما قدمه من رشا : وقطع على نفسه عهداً أن يهب كل جندي ١٢٠٠٠ درخمة حين يجلس على العرش ؛ وزحف بهم من بلاد الانوب حتى صار على بعد سبعين ميلاً من رومة في شهر واحد ؛ واستمال إليه الجنود الذين أرسلوا لصدّه ، وأخضع الحرس البريتوري بأن عرض عليهم أن يعفونهم إذا سلموا إليه قوادهم ، وخالف جميع السوابق بدخوله العاصمة ومعه جنوده بكامل سلاحهم ، ولكنه أرضى المستمسكين بالتقاليد القديمة بأن لبس ثياب المدنيين . وعثر طربيون على چليانس يبكي في قصره . ن هول تلك الحوادث ، فأخذته إلى حمام وقطع رأسه (٢ يونيه سنة ١٩٣) .

وكانت أفريقية في هذه الأثناء تهب المسيحية أعظم المدافعين عنها ، وقد ولد

فيها وقتئذ (١٤٦) سبتيوس واجتاز فيها أولى مراحل تعليمه ؛ وكانت نشأته في أسرة فينيقية تتكلم بهذه اللغة ، ودرس الآداب والفلسفة في أثينة ، واشتغل بالحمامة في رومة . وكان رغم لهجته السامية من أحسن الرومان تربية وأكثرهم علماً في زمانه ، وكان مولعاً بأن يجمع حوله الشعراء والفلاسفة ، ولكنه لم يترك الفلسفة تغوقه عن الحروب ، ولم يدع الشعر يرقق من طباعه . وكان رجلاً وسيم الطلعة ، قوى البنية ، بسيطاً في ملبسه ، قادراً على مغالبة الصعاب ، بارعاً في الفنون العسكرية ، مقداماً لا يهاب الردى في القتال ، قاسى القلب لا يرحم إذا انتصر . وكان لبقاً فكهاً في حديثه ، نافذ البصيرة في قضائه (٢) ، قديراً صارماً في أحكامه (٣) .

وكان مجلس الشيوخ قد أخطأ إذ أعلن تأييده لمنافسه ألبينس Albinus فذهب إليه سبتيوس وحوله ستمائة من رجال الحرس ، وأقنعه بأن يؤيده في ارتقاء العرش ؛ فلما تم له ذلك أعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيراً من ضياع الأشراف حتى آلت إليه أملاك نصف شبه الجزيرة ؛ ثم ملأ الأماكن التي خلت في مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من بلاد الشرق التي تدين بالنظام الملكي ، وأخذ كبار رجال القانون في ذلك العصر - پاپينيان Papinian ، وبولس Paulus ، وألبيان Ulpian - يجمعون الحجج التي يؤيدون بها السلطة المطلقة ؛ وأغفل سبتيوس شأن المجلس إلا حين كان يبعث إليه بأوامره ؛ وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها ، وأقام حكمه على تلييد الجيش دون خفاء ، وحول الزعامة إلى مَلَكَية عسكرية وراثية ، وزاد عدد رجال الجيش ، ورفع رواتب الجند ، وعمد إلى الإسراف في أموال الدولة حتى كاد ينضب معينها . ومن أعماله أنه جعل الخدمة العسكرية إلزامية ، ولكنه حرّمها على أهل إيطاليا ؛ فأصبحت فيالق الولايات من ذلك الحين هي التي تختار الأباطرة لرومة بعد أن فقدت العاصمة قدرتها على الحكم .

ومن العجائب أن هذا المحارب الواقعى كان يؤمن بالتنجيم ، وأنه كان من أكثر الناس براعة فى تفسير النذر والأحلام . من ذلك أنه لما أن ماتت زوجته الأولى قبل أن يرتقى العرش بستة أعوام عرض على سوزية غنية دل طالعها على أنها ستجلس على عرش أن تزوجه . وكانت هذه الزوجة هى جوليا دمنيا Julia Domna ابنة كاهن غنى لإلجابال Elgabal إله حمص . وكان نيزك قد سقط فى تلك المدينة من زمن بعيد وأقيم له ضريح فى هيكل مزخرف ، وأخذ الناس يعبدونه على أنه رمز للإله إن لم يكن هو الإله نفسه مجسما . وجاءت جوليا إلى قصر سبتيوس ، وولدت له ولدين هما كركلا وجيتا Geta ، وارتقت عرشها الموعود . وكانت أجهل من أن تقتصر على زوج واحد ، ولكن مشاغل سبتيوس لم تكن تترك له من الفراغ ما يسمح له بأن يغار عليها . وقد جمعت حولها ندوة من الأدباء ، وناصرت الفنون ، وأقنعت فيلوسترانس بأن يكتب سيرة أبلونيوس التيبانى Apollonius oi Tyana ويخلع عليه الكثير من أسباب المديح . وكانت قوة أخلاقها ونفوذها مما عجل السير بالملكية نحو الأساليب الشرقية التى وصلت إلى غايتها من الناحية الأخلاقية فى عهد إلجابال Elgabalus ومن الناحية السياسية فى عهد دقلديانوس .

وسلخ سبتيوس من حكمه الذى دام ثمانى عشرة سنة فى حروب سريعة وحشية قضى فيها على منافسيه ؛ ودك بيزنطية بعد حصار دام أربعة أعوام . فأزال بعمله هذا حاجز آكان يقف فى وجه القوط الآخذين فى الانتشار ، وغزا پارثيا ، واستولى على طشقونة ، وضم بلاد النهرين إلى الإمبراطورية . وعجل سقوط الأسرة الأرساسية المالكة . وأصيب فى شيخوخته بداء النقرس . ولكنه لم يكن يرتضى أن يضعف جيشه بعد أن قضى فى السلم خمس سنين ، فزحف به على كلدونيا Caledonia ، وانتصر على الاسكتلنديين فى عدة وقائع غالية الثمن ، انسحب على أثرها إلى بريطانيا ، ثم آوى إلى يورك حيث وافته المنية (٢١١) .

وبما قاله عن نفسه : « لقد نلت كل شيء ، ولكن ما نلته لا قيمة له »^(٤) ويقول هيروديان إن « كركلا قد أغضبه أن تطول حياة أبيه ، : فطلب إلى الأطباء أن يعجلوا بموت الشيخ بأية وسيلة في متناول أيديهم »^(٥) . وكان سبتميموس قد لام أورليوس حين سلم الإمبراطورية إلى كمودس ، ولكنه هو نفسه أسلمها إلى كركلا وجيتا ، بهذه النصيحة الساخرة : « وفرا المال الجنود كما ولا يهتم كما شيء غير هذا »^(٦) . وكان آخر إمبراطور مات في فراشه في الثمانين عاما التي سبقت وفاته :

ويبدو أن كركلا(*) قد خلق ، كما خلق كمودس ، لكي يثبت أن نصيب الرجل من النشاط قلما يكفي لأن يجعله عظيما في حياته وفي قوته الجنسية معا ، وقد كان في صباه وسيما طيعا ، فلما بلغ رشده أصبح همجيا مفتتنا بالصيد والحرب ، يقتنص الخنازير البرية ، وينازل أسدا بمفرده ، ويحتفظ بعدد من الأسود بالقرب منه في قصره ، واتخذ واحد منها رفيقا له في بعض الأحيان يجالسه على مائدته وينام معه في فراشه^(٧) . وكان يستمتع بصحبة المجالدين والجنود بنوع خاص ، ويبقى أعضاء الشيوخ زمنا طويلا في حجرات الانتظار حتى يفرغ من إعداد الطعام والشراب لرفاقه . ولم يكن يرضى أن يشترك معه أخوه في حكم الإمبراطورية ، فأمر بقتل جيتا في عام ٢١٢ ، فاغتيال الشاب وهو بين ذراعي أمه ، وخضب أثوابها بدمه . ويقال إنه حكم بالموت على عشرين ألفا من أتباع جيتا ، وعلى كثيرين من المواطنين ، وعلى أربع من العذارى القسيتية ، اتهمن بالزنى^(٨) . ولما تذر الجيش على أثر مقتل جيتا أسكته بأن نفعه بهية تعادل كل ما ادخره سبتميموس من الأموال . وكان يفضل الجنود والفقراء على رجال الأعمال والأشراف ؛ ولعل ما نقرؤه عنه

(*) وقد سمي نفسه بهذا الاسم نسبة إلى الجلباب الغال الطويل الذي كان يلبسه ، أما اسمه الحقيقي فهو بسانيوس Bassianus ، ولما جلس على العرش سمي نفسه ماركس أورليوس أنطونيلس كركلا .

من القصص التي يرويها ديوكاسيوس ليست إلا انتقاماً كتبته عضو في مجلس الشيوخ . واشتدت رغبته في جمع المال فضايف ضريبة التركات بأن جعلها عشرة في المائة من مقدار التركة ؛ ولما رأى أنها لا تطبق إلا على المواطنين الرومان وسع دائرة هذه الحقوق حتى شملت جميع الراشدين من الذكور الأحرار في الإمبراطورية كلها (٢١٢) ؛ فنال هؤلاء حقوق المواطنين حين استتبع أكثر ما يمكن أن تستتبعه من القروض وأقل ما تستتبعه من السلطان . وأضاف إلى زينات رومة قوساً أقامه لسبتيميوس سفيرس لا يزال باقياً إلى اليوم ، وحمامات عامة تشهد خرائبها الضخمة بما كانت عليه من عظمة وجلال ، ولكنه ترك معظم شئون الحكم المدني لوالدته ، وشغل نفسه بالحروب .

وكان قد عين جوليا دمنا أمينة سره لشئون العرائض والرسائل . وكانت تشاركه أو تحمل محله في استقبال رجال الدولة أو ذوى المكانة العالية من الأجانب . وهمس الوشاة بأن سلطانها عليه ناشئ من مضاجعته لإياها ، وأثار الفكهون الجبناء من أهل الإسكندرية حنقه بتشبههم لها وله بجوكستا Jocasta وأوديب ؛ وأراد أن ينتقم لنفسه من هذه الإهانة وأمثالها من جهة ، ويأمن على نفسه من ثورة تنقد نارها في مصر أثناء جروبه لبارثيا من جهة أخرى ، فزار المدينة وأشرف بنفسه (كما يؤكد المؤرخون) على قتل جميع أهل الإسكندرية القادرين على حمل السلاح ^(٩) .

ومع هذا فقد كان منشيئ الإسكندرية المثل الذي احتذاه والمطمع الذي يأمل أن يبلغه . وللوصول إلى هذه الغاية أنشأ فيلقاً من ١٦٠٠٠ جندي سماه « فيلق الإسكندر » وسلحه بأسلحة مقدونية من الطراز القديم ، وكان يأمل أن يخضع به بارثيا كما أخضع الاسكندر فارس . وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليكون جندياً عظيماً ، فكان يشارك جنوده في طعامهم وكدهم ، وسيرهم أشاق الطويل ، وكان يساعدهم في حفر الخنادق ، وإقامة الجسور ، ويظهر

الكثير من صروب البسالة في القتال ، وكثيراً ما كان يتحدى أعداءه ويطلب إليهم أن يبارزوه رجلاً لرجل ؛ ولكن رجاله لم يكن لهم مثل ما كان له من رغبة في قتال البارثيين ، بل كان حبهم للغنائم أكثر من حبهم للقتال ، فقتلوه في كارى Carrhae التي هزم فيها كرامس (٢١٧) . ونادى مكريانس Macrinus قائد الحرس بنفسه إمبراطوراً ، وأمر مجلس الشيوخ ، بعد أن أظهر بعض التردد ، بأن يتخذ كركلا إلهاً . ونفيت جوليا دمناً إلى أنطاكية بعد أن حرمت في خلال ست سنين من الإمبراطورية ، ومن زوجها ، وأبنائها ، فأضربت عن الطعام حتى ماتت .

وكان لها أخت تدعى جوليا ميزا Julia Maesa لا تقل عنها قدرة وكفاية ، فعادت جوليا الثانية إلى حمص ووجدت فيها حفيدين يبشران بمستقبل عظيم . فأما أحدهما فكان ابن ابنتها جوليا سوامياس Julia Soaemias ، وكان كاهناً شاباً من كهنة بعل ، يسمى فاربوس أفيتس Varius Avitus ، وهو الذى سعى فيما بعد الجاهل بالسل Elgabalus أى « الإله الخالق » (*) . أما الثانى فكان ابن جوليا ماميا Julia Mamaea ابنة ميزا ، وكان غلاماً فى العاشرة من عمره يدعى ألكسيانوس Alexianus وهو الذى أصبح فيما بعد الكسندر سفيرس . ونشرت ميزا الشائعة القائلة إن فاربوس هو الابن الطبيعى لكركلا ، وإن كان فى واقع الأمر ابن فاربوس مرسلس ، وأطلقت عليه اسم بسيانوس ؛ ذلك أن الإمبراطورية كانت أفضل عندها من سمعة ابنتها ، وماذا يضيرها بعد أن مات مرسلس والد الشاب . وكان الجنود الرومان فى سوريا قد ألغوا الشعائر الدينية السورية ، وكانوا يشعرون باحترام لهذا القس الشاب الذى لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر تبعته فى قلوبهم عاطفة دينية قوية . يضاف إلى هذا أن ميزا أوعزت إليهم بأنهم إذ

(*) وقد أخطأ الكتاب اللاتين فترجوا اسمه Heliogabalus إلى « إله الشمس » .

اختاروا ألباليس إمبراطوراً فإنها ستنتفعهم بعبية سنية . ووثق الجنود بوعدها لهم وأجابوها إلى ما طلبت . وضمت ميزا بلبها إلى صفها الجيش الذى سيره مكزينس لقتالها ، ولما أن ظهر مكزينس نفسه على رأس قوة كبيرة ، تردد مرتزقة السوريين فى ولائهم ، ولكن ميزا وسوامياس قفزتا من مركبتهما ، وقادتا الجيش المتردد إلى النصر ؛ لقد كان رجال سوريا نساء ، وكانت نساؤها رجالات .

ودخل ألباليس رومة فى خريف عام ٢١٩ مرتدياً أثواباً من الحرير الأرجوانى موشاة بالذهب الإبريز ، وحذاءين مصبوغين باللون القرمزى ، وكانت عيناه تشعان بريقاً مصطنعاً وكان فى ذراعيه إسورتان غاليتا الثمن ، وفى جيبه عقد من اللؤلؤ ، وعلى رأسه الجميل تاج مرصع بالجوهر . وركبت إلى جواره فى موكب فخيم جدته وأمه . وكان أول ما فعله حين حضر إلى مجلس الشيوخ أول مرة أن طلب إليه الموافقة على جلوس أمه إلى جانبه لتستمع إلى المناقشات . وأوتيت سوامياس من الحكمة ما أوحى إليها بالانسحاب ، وقنعت برياسة المجلس الأصغر مجلس النساء الذى أنشأته سابينا ، والذى كان يبحث المسائل المتعلقة بأثواب النساء وحلهن ، وترتيبهن فى الحفلات الرسمية ، وآداب اللياقة وما إليها ، وترك حكم الدولة للجدّة ميزا .

وكان فى أخلاق الإمبراطور الشاب بعض العناصر الحبية . من ذلك أنه لم ينتقم ممن أيدوا مكزينس ، وأنه كان يحب الموسيقى ، ويحيد الغناء ، وينفخ فى المزمار والبوق ، ويضرب على الأرغن ؛ ولذا كان أصغر من أن يحكم الإمبراطورية فإنه لم يطلب أكثر من أن يستمتع بها . ولم يكن معبوده بل كان هذا المعبود هو الشهوة ، وكان معتزماً أن يعبدتها بجميع صورها فى الذكور والإناث على السواء ؛ وكان يدعو كل طبقة من الأحرار إلى زيارة قصره ، وكان أحياناً يأكل معهم ويشرب ويمرح ؛ ويوزع عليهم من آن إلى آن جوائز الاقتراع تختلف من بيوت موثقة إلى حفنة من الذباب . وكان يجب أن يمزح

مع ضيوفه : من ذلك أنه كان يجلسهم على وسائل منفوخة تنفجر من تحتهم فجأة ، ويسكرهم حتى يفقدوا وعيهم حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين فهود ، ودبية ، وآساد أليفة غير مؤذية . ويؤكد ليريديوس Lampridius أن ألباليس لم ينفق مرة أقل من ١٠٠٠ ر٠ ١٠٠٠ سسترس (١٠٠٠ ر٠ ١٠٠٠ ر٠ ١٠٠٠) على وليمة واحدة لضيوفه ، وربما بلغت نفقات إحدى الولايات (أمريكي) ٣٠٠٠ ر٠ ٣٠٠٠ . وكان يخطط قطع الذهب بالبالازلا ، والعقيق بالعدس ، واللؤلؤ بالأرز ، والكهرمان بالفول . وكان يهدى الخيل والمركبات ، والخصيان ، وكثيراً ما كان يأمر كل ضيف أن يأخذ معه إلى منزله الصفحة الفضية والكووس التي كان يقدم له فيها الطعام والشراب . وكان يختار لنفسه أحسن كل شيء . فكان الماء الذي في أحواض سباحته يعطر بروح الورد ، وكانت المشاجب التي في حماماته من العقيق أو الذهب الخالص ، وكان طعامه من أنلر المأكولات وأغلاها ثمناً ، وأثوابه مرصعة بالجواهر من تاجه إلى حذاءيه ، وتقول الشائعات إنه لم يلبس قط خاتماً مرتين . وكان إذا سافر احتاج إلى ٦٠٠ مركبة يحمل فيها متاعه وقواديه . ولما قال له عراف إنه سيموت ميتة عنيفة ، أعد وسائل غالية للانتحار يستخدمها إذا لزم الأمر : منهل حبال من الحرير الأرجواني ، وأسياف من الذهب ، وسوم في قنينات من الياقوت الأزرق أو الزمرد . غير أنه اغتيل في مرحاض .

وأكبر الظن أن أعداءه من أعضاء مجلس الشيوخ ومن في طبقتهم قد اخترعوا أو بالغوا في بعض هذه القصص ؛ وما من شك في أن القصص الخاصة بشذوذه الجنسي مما لا يصدق العقل . وسواء كانت صحيحة أو كاذبة فإنه كان يعطر شهوته بتقواه ، ويعمل على أن ينشر بين الرومان عبادة إلهه السوري بعل ؛ يضاف إلى هذا أنه اختن وفكر في أن يخصص نفسه تكريماً لإلهه ، وأحضر من حص الحجر الأسود المقدس وأخذ يعبد بوصفه رمزاً لإلجبال ، وشاد هيكلًا مزخرفاً ليضعه فيه ، وحمل إليه الحجر مغلفاً بالجواهر في عربة تجرها ستة جياذ-

بيض ، ومشى الإمبراطور أمامها متجهاً بوجهه نحوها وهو صامت لإجلالا لهذا الحجر . ولم يكن يجد ما يمنعه أن يعترف بجميع الأديان الأخرى ، فكان يبسط حمايته على اليهودية ، وعرض أن يجعل المسيحية ديناً مشروعاً ، وكل ما كان يصبر عليه في إخلاص يدعو إلى الإعجاب هو أن يكون حجره أعظم الآلهة (١٢) .

وكانت أمه منهمكة في علتها تنظر إلى هذه المهزلة الدينية نظرة المتسامح الذى لا يعنيه من أمرها شيء ، ولكن جوليا ميزا صممت ، حين عجزت عن وقفها ، على أن تتعجل الكارثة التى ستقضى على هذه الأسرة العجيبة من النساء السوريات . ولهذا أقنعت ألبابالس بأن يتبنى الإسكندر ابن عمه ويوصى به قيصرًا وخليفة له ، وأخذت هى ومامائا Mamaea تدربان الغلام على واجبات منصبه ، وسلكتا كل السبل التى تجعل مجلس الشيوخ والشعب ينظران إليه على أنه خير بديل للقس المأفون الذى أساء إلى رومة - لا بإسرافه أو فحشه - بل بإخضاعه جوبتر إلى بعل السورى . وكشفت سوءامياس المؤامرة وأثارت الحرس البريتورى على أختها وابن أختها . لكن ميزا ومامائا كانتا أقوى منها حجة إذا بسطتا أيديهما للحرس بالمال الوفير ، فقتل رجال الحرس ألبابالس وأمه ، وجروا جثته فى شوارع المدينة وحول ساحة الألعاب ، وألقوها فى نهر التير ، ثم نادوا بالإسكندر إمبراطوراً ، ووافق مجلس الشيوخ على هذه البيعة (٢٢٢) .

وجلس ماركس أورليوس سفيرس ألكسندر على العرش ، كما جلس عليه سلفه ، فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت أمه قد عنت عناية منقطعة النظير بتدريب جسمه ، وعقله ، وخلقه . وزاد هو شهرته بالحد ورياضة الجسم ، فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم ، ويشرب نحو نصف لتر من الماء قبل كل وجبة ، ويقتصد فى الطعام ، ولا يأكل إلا أبسط الأطعمة . ونشأ غلاماً وسياً ، طويل القامة ، قوى الجسم ، ماهراً فى جميع أنواع الألعاب وفنون الحرب ، ودرس الآداب اليونانية واللاتينية ، ولم يقلل من حبه لهما

وانهاكه فيها إلا لإصرار ماماثيا ، إذ تلت عليه أشعار فرجيل التي تهيب بالرومان أن يدعوا جمال الثقافة لغيرهم من الأجانب ، ويعدوا أنفسهم لإقامة دولة عالمية وحكمها في سلام : وكان بارعاً « ممتازاً » في التصوير والغناء ، يعزف على الأرغن والقيثارة ، ولكنه لم يكن يسمح لغير أهل بيته بمشاهدة هذه الأعمال : وكان بسيطاً متواضعاً في ملبسه وأخلاقه « معتدلاً في استمتاعه بالحب ، ولم تكن له قط صلة بالخنشين » (١٣) . وأظهر احتراماً عظيماً لمجلس الشيوخ ، فكان يعامل أعضائه كأنهم أكفاء له ، ويستضيفهم في قصره ، وكثيراً ما كان يزورهم في منازلهم وكان رحباً ، دمث الأخلاق ، يعود المرضى أيا كانت منزلتهم ، ويستمع إلى كل مواطن حسن السمعة ، ويسرع في العقو عن معارضيه ، ولم يسفك قط دماء مدني في الأربعة عشر عاماً التي قضاها في الحكم (١٤) . وعابت عليه أمه لينة وقالت له : « لقد أسرفت في لين الحكم ، وفي الإقلال من سلطان الإمبراطورية » : فأجابها بقوله : « نعم ، ولكنني جعلتها أبقى أمدأ وأقوى دعامة » (١٥) . لقد كان رجلاً من ذهب مصفى ، غير مشوب بزغل يقويه على احتمال صعب هذا العالم .

وأدرك السخف الذي تنطوى عليه جهود سلفه والتي كانت تهدف إلى استبدال إبلبال بجوهر ، وتعاون مع والدته في إعادة الهياكل والشعائر الرومانية إلى سابق عهدها ، ولكن عقله الفلسفي هداه إلى أن يرى أن الأديان جميعها أساليب مختلفة لعبادة قوة واحدة عليا ، ولهذا أراد أن يعظم جميع الأديان التي تدعو إلى الخير ، ووضع في معبده الخاص الذي كان يتعبد فيه كل صباح صوراً لحوهر وأرفيوس ، وأبولونيوس التياناى ، وإبراهيم ، والمسيح . . وكثيراً ما كان يكرر النصيحة الودية - المسيحية القائلة : « لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به الناس » ، وأمر بنقشها على جدران قصره وعلى كثير من جدران المباني العامة . وكان يوصى شعبه بالتخلق بأخلاق اليهود والمسيحيين : ولكن الذين لم يتأثروا به من

أهل أنطاكية والإسكندرية الفكهين كانوا يلقبونه « رئيس الكنيس » وكانت أمه تفضل المسيحيين على غيرهم ، وقد بسطت حمايتها على أرجن ، واستدعته ليفسر للناس أصول دينه المرن .

وإذ كانت جوليا ميرا قد توفيت بعد قليل من اعتلاء الإسكندر العرش ، فقد كانت مامائيا وكان أليبان معلم الإسكندر هما اللذين يرسمان خطته السياسية ، وإصلاحاته الإدارية . ومن أعمالهما أنهما اختاراً ستة عشر من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وألفا منهم مجلساً إمبراطورياً وقرروا ألا ينفذ عمل من الأعمال الكبرى إلا إذا وافق عليه . ولما أن تزوج الإسكندر وأظهر تحيزاً ظاهراً لزوجته بسبب حبه لها أمرت مامائيا بنفسها ، ولم ير الإسكندر بداً من الاستسلام لوالدته . ولما كبر زاد نصيبه في إدارة شئون الدولة فكان « يعنى بالشئون العامة قبل مطلع الفجر » ، كما يقول كاتب سيرته القديم ، « ويوالى النظر في هذه الشئون زمناً طويلاً ، دون ملل أو غضب ، بل يبقى على الدوام مرحاً هادئاً رضيعاً » (١٦) .

وكانت خطته الأساسية تهدف إلى إضعاف سيطرة الجيش المؤدية إلى انحلال الدولة ، وذلك بإعادة هيئة مجلس الشيوخ والأشراف ، فقد كان يبدو له أن حكم الأشراف ذوى الأصول السامية هو البديل الوحيد من حكم المال ، أو الخرافات ، أو السيف ، وقد استطاع بمعونة مجلس الشيوخ أن ينفذ مئآت الخطط التى أدت إلى اقتصاد كبير فى نفقات الإدارة ، يفصل عدداً كبيراً من الموظفين الزائدين على الحاجة فى قصره ، وفى المناصب الحكومية ، وفى الولايات ، وباع معظم ما كان فى خزائن الإمبراطور من جواهر ، وأودع ثمنها فى بيت المال .

وأصدر قرارات اعترف فيها بهيئات العمال والتجار ، وشجعها وأعاد تنظيمها ، وأجاز لهذه الهيئات أن تختار محامين عنها من بين أعضائها (١٧) . ولعل مجلس الشيوخ كان أقل رضاء عن هذا العمل منه عن أعماله الأخرى ، وقد فرض رقابة شديدة على الأخلاق العامة فأمر بالقبض على العاهرات ونفى

بحوى الميول الجنسية الشاذة : ومع أنه خفض الضرائب فقد أعاد بناء «الكولوسيوم وحمامات كركلا ، وشاد مكتبة عامة وقناة ماء طولها أربعة عشر ميلا ، وحمامات للبادية جديدة ، وبذل المال بسخاء لإنشاء الحمامات . وقتوات الماء والطرق في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وعمل على تخفيض فائدة الديون التي كانت ترهق المدينين فأقرض المال من خزانة الدولة بفائدة أربعة في المائة ، وأعطى الفقراء المال من غير فائدة ليشتروا به أرضاً زراعية . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن عم الرخاء جميع أجزاء الإمبراطورية ، وأن قدرت له أعماله وأثنت عليه ، وأن خيل إلى جميع الناس أن أورليوس التقي العظيم قد عاد إلى الأرض وإلى السلطان .

ولكن الفرس والألمان اغتتموا فرصة وجود هذا الإمبراطور القديس على العرش ، كما اغتتموا فرصة وجود سميه الإمبراطور الفيلسوف ، فغزا أردشير رأس الأسرة الساسانية في فارس بلاد النهرين في عام ٢٣٠ وهدد سوريا . وبعث إليه الإسكندر برسالة فلسفية يلومه فيها على عنفه ويقول له إنه « يجب على كل إنسان أن يقنع بما لديه من أملاك » (١٨) : واستنتج أردشير من هذه الرسالة أنه ضعيف خوار العبود فرد عليه بأن طلب سوريا وآسية الصغرى ، فما كان من الإمبراطور الشاب إلا أن امتشق الحسام ونزل إلى الميدان مصحوباً بوالدته ، وخاض غمار موقعة غير فاصلة أظهر فيها من البسالة أكثر مما أظهر من الدهاء . ولا يذكر التاريخ إلا النزر اليسير عن انتصاراته وهزائمه ، ولكن الحرب أسفرت عن انسحاب أردشير من بلاد النهرين ، ولعله انسحب ليرد هجوماً وقع على حدوده الشرقية ، وتصور النقود الرومانية الإسكندر متوجاً بإكليل الظفر ومن تحت قدميه نهرا دجلة والفرات .

ورأت قبائل الألمان والمركمان أن حاميات الرين والدانوب قد سحبت لإمداد فيالق سوريا فافتحمت الطرق الرومانية المحصنة وعاثت فساداً في بلاد غالة الشرقية ، ولكن الإسكندر جاء إليها مع ماميا بعد الفراغ من احتفاله

بالنصر على الفرس ، وانضم إلى جيشه ، وسار على رأسه إلى مينز Mainz ، وعمل بنصيحة والدته فأخذ يفاوض العدو ويعرض عليه مبلغاً سنوياً من المال نظير احتفاظه بالسلم . ولكن جنوده رأوا في هذا العمل ضعفاً واستسلاماً فتمردوا عليه ، ولم يكونوا قد غفروا له شحه ، وتشدده في حفظ النظام ، وإخضاعهم لمجلس الشيوخ ولحكم امرأة ، ونادوا بيوليوس مكسيمس قائد فيالق پانونيا إمبراطوراً . واقتحم جنود مكسيمس خيمة الإسكندر ، وقتلوه هو وأمه وأصدقاءه (٢٣٥) .

الفصل الثمانين

الفوضى

لم يكن من نزوات التاريخ أن أصبح الجيش صاحب السلطة العليا في القرن الثالث ، بل كان هذا أمراً طبيعياً . ذلك أن عوامل داخلية أضعفت الدولة وتركتها معرضة للغزو من جميع الجهات ، وكان وقف التوسع بعد أيام تراجان ، ثم بعد أيام سبتيميوس ، إيذاناً ببدء الهجوم عليها ، فأخذ البرابرة يفتحون بلادها بالتحادهم على غزوها ، كما كانت رومة تفتح بلادهم بتفريقهم . وزادت ضرورة الدفاع من قوة الجيش ورفعت مكانة الجندي ، وجلس القواد على العرش محل الفلاسفة ، وخضع آخر حكم الأشراف لعودة حكم القوة .

وكان مكسيمينس جندياً طيباً لا أكثر ، وكان ابن فلاح تراقى . ونشأ صحيح الجسم قوى البنية ، ويؤكد المؤرخون أن طول قامته كان يبلغ ثمانى أقدام ، وأن إبهامه كانت من الغلظة بحيث كان يلبس فيها إسورة زوجته . كما يلبس الخاتم . ولم ينل شيئاً من التعليم : وكان يحتقر المعلمين ويحسداهم في وقت واحد ، ولم يزر رومة مرة واحدة في الثلاث السنين التي تولى فيها الملك . بل كان يفضل حياة معسكره على الدانوب أو الرين . وقد اضطرت حاجته إلى المال لينفق منه في حروبه وفي استرضاء جنوده إلى فرض ضرائب فادحة على الأغنياء أغضبته فلم يلبثوا أن ثاروا على حكمه ، وقبل جرديانس حاكم أفريقية الثرى المتعلم ترشيح جيشه له إمبراطوراً منافساً لمكسيمينس . وإذا كان وقتئذ في الثمانين من عمره فقد أشرك معه ولده في هذا المنصب المهلك . وعجزا جميعاً عن الوقوف في وجه القوى التي سيرها عليهما . مكسيمينس وقتل الابن في ميدان القتال أما الأب فقتل نفسه ، وثأر مكسيمينس لنفسه بأن حكم على عدد كبير من الأشراف بالقتل والنفي ، ومصادرة

أملاكهم حتى كاد يقضى على هذه الطبقة . وفي ذلك يقول هروديان Herodian « وكان في وسع الإنسان أن يرى في كل يوم أغنى الأغنياء بالأمس يصبح متسولاً » (١٩) . وقاومه مجلس الشيوخ الذي أعاد سفيرس تكوينه وقواه أشد المقاومة ، فأعلن أن مكسيمس خارج على القانون ، واختار اثنين من أعضائه هما مكسيمس Maximus وبلينس Balbinus إمبراطورين . وسار مكسيمس على رأس جيش هزيل لملاقاة مكسيمس . فأنحدر هذا من جبال الألب وحاصر أكويليا Aquileia . وكان مكسيمس أفضل القائدين ، وكانت لديه أكبر القوتين ، ولأجل أن مجلس الشيوخ وطبقات الملوك سيلقيان مصيرهما المحتوم ؛ ولكن جماعة من جنود مكسيمس الذين كانوا حائقين عليه لأنه وقع عليهم عقاباً وحشياً قتلوه غيلة في خيمته . وعاد مكسيمس ظافراً إلى رومة ، حيث اغتاله الحرس البريتوري هو وبلينس ، واختار جرويانس الثالث إمبراطوراً ، وأيد مجلس الشيوخ هذا الاختيار .

ولسنا نريد أن نذكر بالتفصيل الممل أسماء الأباطرة الذين جلسوا على العرش في هذا العصر الدموي الذي سادته الفوضى ، ولا أن نذكر وقائعهم الحربية وقتلهم وماتهم . وحسبنا أن نقول إن سبعة وثلاثين رجلاً نودى بهم الأباطرة في الخمسة والثلاثين عاماً الواقعة بين حكم ألكسندر سفيرس وأورليان : وقتل ج. ديان الثالث جنوده وهو يحارب الفرس (٢٤٤) ، وهزم ديسيوس Decius فليب العربي الذي خلفه على العرش وقتله في فرونا Verona (٢٤٩) ؛ وكان فليب هذا رجلاً من أهل البريا ، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لرومة إخلاصاً خليفاً بالشرف الذي ناله في القصص القديم ؛ وقد وضع فليب هذا في أثناء فترات السلم التي تخللت حرب القوط برنامجاً واسعاً ليعيد به إلى رومة دينها وأخلاقها ، وعاداتها الصالحة ، وأصدر أوامره بالقضاء على المسيحية . ثم عاد إلى نهر الدانوب ، والتقى بالقوط ، وشهد ببعيته مقتل ابنه إلى جانبه ، وأعلن في جيشه الهباب المتردد أن خسارة فرد من الأفراد لا قيمة لها البتة ، وهاجم جيش العدو ، وقتل هو في هزيمة.

من أقسى الهزائم التي أصابت الرومان في تاريخهم كله (٢٥١) . وخلفه جالوس Gallus الذي قتله جنوده (٢٥٣) ، وجاء بعدهما إيميليانوس Aemilianus وقد قتله هو الآخر جنوده في العام نفسه .

وكان فليريان Valerian الإمبراطور الجديد في سن الستين ، ولما جلس على العرش اضطرب لملاقاة الفرنجة ، والألمان ، والمركمان ، والقوط ، والسكوديين ، والفرس في وقت واحد : ولهذا عين ابنه جليئوس Gallienus حاكماً على الإمبراطورية الغربية ، واحتفظ لنفسه بالشرق . وزحف بجيش على أرض النهرين ولكن كبر سنه أعجزه عن القيام بهذا الواجب الذي يحتاج إلى قوة أعظم من قوته فلم يلبث أن تاء به . وكان جليئوس وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان شجاعاً ، ذكياً ، مثقفاً ثقافة لا تكاد تتفق مع أحوال ذلك القرن المليء بالحروب الوحشية . وقد أصلح دولاب الإدارة المدنية في الغرب ، وقاد جيشه من نصر إلى نصر على أعداء الإمبراطورية عدواً بعد عدو ، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت يأخذ فيه بناصر الفلسفة والآداب ، وأحيا الفن القديم لإحياء لم يدم طويلاً ، ولكن عبقريته المتعددة الجوانب لم تقو على مغالبة الشرور التي تجمعت في ذلك الوقت .

وفي عام ٢٥٤ أغار المركمان على بنونيا وشمال إيطاليا ، وفي عام ٢٥٥ غزا القوط مقدونية ودلماشيا ، وهاجم السكوديون والقوط آسية الصغرى ، وأغار الفرس على سوريا . وفي عام ٢٥٧ استولى القوط على مملكة بسپورس ، ونهبوا المدن اليونانية الواقعة على شاطئ البحر الأسود ، وحرقوا طرابزون ، وساقوا أهلها عبيداً وإماء ، وأغاروا على پنتس . وفي عام ٢٥٨ استولوا على خلقدون ، ونيقوميديا . وبروصه ، وأپاميا ، ونيقية ، واستولى الفرس في العام نفسه على أرمينية ، ونادى پستيموس بنفسه حاكماً مستقلاً على غالة . وفي عام ٢٥٩ أغار الألمان على إيطاليا ، ولكن جالينوس هزمهم عند ميلان . وفي عام ٢٦٠ هزم الفرس

فليريان عند الرها ومات أسيراً في زمان ومكان غير معروفين إلى اليوم .
وتقدم شابور الأول وفرسانه الخفاف الكثيرون مخترقين سوريا إلى
أنطاكية ، وباغتوا أهلها وهم يشهدون الألعاب ، ونهبوا المدينة ، وقتلوا
آلآفاً من أهلها ، وساقوا آلآفاً آخرين عبيداً ، واستولوا على طرسوس
وخربروها ، وعاثوا فساداً في قليقية وكيدوكية ، وعاد شابور إلى بلاد
الفرس مثقلاً بالغنائم . وحلت برومة في مدى عشر سنين ثلاث مآس أذلها
وجلتها العار : ذلك أن إمبراطوراً رومانياً خر لأول مرة صريعاً مهزوماً
في ميدان القتال ، وأسر العدو إمبراطوراً آخر ، وضحي بوحدة
الإمبراطورية استجابة لضرورة ملاقة الأعداء الذين أغاروا عليها من جميع
الجهاات . وضعضعت هذه الضربات وما صحبها من رفع الجنود الأباطرة
على العرش واغتيالهم ، أركان الإمبراطورية ، وقضت على هيبتها ، وفقدت
هذه القوى النفسية التي أنزلها الزمان منزلة القداسة وخلع عليها سلطاناً
يألفه الناس ولا يسألون عن مبرراته ، تقول فقدت هذه القوى سيطرتها
على أعداء رومة بل فقدتها أيضاً على رعاياها ومواطنيها ، فاندلع لهيب
الثورة في كل مكان : ففي صقلية وغالة ثار الفلاحون الذين طال عليهم أمد
الظلم ثورات عنيفة ، وفي پنونيا نادى إيجينس بنفسه حاكماً مستقلاً على
الولايات الشرقية : وفي عام ٢٦٣ سار القوط بحراً بإزاء سواحل أيونيا ،
ونهبوا إفسوس ، وأحرقوا هيكل أرتيمس الفخم ، وساد الإرهاب جميع
بلاد الشرق الهلنستي .

ولكن الإمبراطورية في آسية نجت على يدي حليف غير متوقع . ذلك
أن أونائس ، الذي كان يحكم تدمر خاصعاً لسلطان رومة طرد الفرس من
أرض الجزيرة ، وهزمهم في طشقونة (٢٦١) ، ونادى بنفسه ملكاً على
سوريا ، وقليقية ، وبلاد العرب ، وكيدوكية ، وأرمينية . ثم اغتيل في
عام ٢٦٦ ، وووٲ ابن له شاب ألقابه ، وورثت أرمته سلطانه .
وقد جمعت زنوبيا ، كما جمعت كليوبطرة التي تدعى هي أنها من نسلها ،

إلى جمال الخلق ، براعة فى الحكم ، وكثيراً من أسباب ثقافة العقل . وقد درست آداب اليونان . وفلسفتهم ، وتعلمت اللغات اليونانية ، والمصرية ، والسريانية ، وكتبت تاريخاً لبلاد الشرق . ويلوح أنها جمعت بين العفة والقوة والنشاط ، فلم تبج لنفسها من العلاقات الجنسية إلا ما يتطلبه واجب الأمومة (٢٠) . وعودت نفسها تحمل التعب والمشاق ، وكانت تستمتع بأخطار الصيد ، وتسير على قدميها أميالاً طويلاً على رأس جيشها . وجمعت فى حكمها بين الحكمة والصرامة ، وعينت الفيلسوف لنچينس رئيساً لوزرائها ، وأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين ، وجمعت عاصمة ملكها بالقصور اليونانية - الرومانية - الآسيوية التى يدهش لها عابر الصحراء فى هذه الأيام . وأحسنت أن الإمبراطورية تتقطع أوصالها ، فاعترمت إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين ، وأخضعت لسلطانها كيدوكية ، وغلطية ، والجزء الأكبر من بيشنيا ، وأنشأت جيشاً عظيماً وعمارة بحرية ضخمة ، فتحت بهما مصر واستولت على الإسكندرية بعد حصار هلك فيه نصف سكانها . وتظاهرت « ملكة الشرق الداهية » أنها تعمل نائبة عن الدولة الرومانية ، ولكن العالم كله كان يدرك أن انتصاراتها لم تكن إلا فصلاً من مسرحية واسعة النطاق هى مسرحية انهيار رومة .

وعرف البرابرة ثروة الإمبراطورية وضعفها ، فتدفقوا على بلاد البلقان واليونان . وبينما كان السرماتيون يعيشون فساداً من جديد فى المدن القائمة على شواطئ البحر الأسود ، كان فرع من فروع القوط يسير فى خمسمائة سفينة مختزلة مبصيق الهلسينت إلى بحر إيجه ، ويستولى على جزائره جزيرة فى إثر جزيرة ، ويرسو فى ميناء بيريه ، وينهب أثينة ، وأرجوس ، واسبارطة ، وكورنثة ، وطيبة (٢٦٧) . وبينما كان أسطولهم يعيد بعض المغيرين إلى البحر الأسود ، كانت جماعة أخرى منهم تشق طريقها براً نحو موطنها على نهر الدانوب . والتقى

بهم جالينس على نهر نستس في تراقية ، وانتصر عليهم في معركة خسر فيها كثيراً ولكن جنوده اغتالوه بعد سنة واحدة من هذا النصر . وانقضت جموع أخرى من القوط في عام ٢٦٩ على مقدونية وحاصرت تسالونيكي ، ونهبت بلاد اليونان ، ورودس ، وقبرص ، وشواطئ أبونيا . وأنقذ الإمبراطور كلوديوس الثاني تسالونيكي ، وطرده القوط إلى أعلى وادي الواردار ، وهزمهم عند نايسس (وهي نيش الحديثة) هزيمة منكبة قتل فيها منهم مئة كبيرة (٢٦٩) . ولو أنه خسر هذه المعركة لما وقف جيش بين القوط وإيطاليا .

الفصل الثالث

التدهور الاقتصادى

لقد عجلت الفوضى السياسية تدهور الإمبراطورية الاقتصادى ، كما عجل التدهور الاقتصادى انحلال البلاد السياسى ، فكان كلاهما سبباً للآخر ونتيجة له . وكان سبب الضعف الاقتصادى أن ساسة الرومان لم يقيموا قط فى إيطاليا حياة اقتصادية سليمة ، ولعل سهول شبه الجزيرة الضيقة لم تكن فى يوم من الأيام أساساً قوياً تبنى عليه آمال الدولة الإيطالية العالية . وكان يقلل من إنتاج الحبوب منافسة الحبوب الرخيصة الواردة من صقلية ، وأفريقية ، ومصر ، كما أن الكروم العظيمة أخذت تفقد أسواقها التى استولت عليها كروم الأقاليم . وشرع الفلاحون يشكون من أن الضرائب الفادحة تستنفد مكاسبهم المزعجة ولا تترك لهم من المال ما يحفظون به قنوات الري والصرف صالحة ، فانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وأنهكت الملاريا سكان كهانيا ورومة . ويضاف إلى هذا أن مساحات واسعة من الأرض الخصبة قد حولت من الزراعة إلى مساكن للأثرياء أصحاب الضياع الواسعة ؛ وكان أصحاب هذه الضياع البعيدون عنها يستغلون العمال والأرض إلى أقصى حدود الاستغلال ، ويبررون عملهم هذا بمشروعاتهم الإنسانية فى المدن . وازدهرت العائز الفخمة وألعاب الرياضة فى المدائن فى الوقت الذى أفقر فيه الريف ، ومن أجل ذلك هجر كثيرون من ملاك الأراضى وعمال الريف الأحرار المزارع إلى المدن وتركوا الجزء الأكبر من الأراضى الزراعية الإيطالية ضياعاً واسعة يقوم بالعمل فيها أرقاء كسالى مهملون ؛ ولكن هذه الضياع نفسها قضت عليها السلم الرومانية ونقص عدد حروب الفتح فى القرنين الأول والثانى ، وما نشأ عن ذلك من قلة الإنتاج ، وارتفاع النفقات ، وكثرة الأرقاء .

وأراد كبار الملاك أن يغفروا العمال الأحرار بالعودة إلى الأعمال الزراعية ، فقسموا أملاكهم وحدات أجروها إلى « الزراع » (Coloni) ؛ يتقاضون منهم أجوراً نقدية منخفضة أو عشر المحصول ، وجزءاً من الوقت يقضونه في العمل من غير أجر في بيت المالك الريفي أو في أرضه الخاصة . وقد وجد الملاك في كثير من الأحيان أن من مصلحتهم أن يعتقوا العبيد ويجعلوهم زراعاً من هذا النوع ، وأخذ هؤلاء الملاك في القرن الثالث يزدادون رغبة في سكنى بيوتهم الريفية يدفعهم إلى هذا أخطار الغزو الأجنبي والثورات الداخلية في المدن ؛ وحصنوا بيوتهم فاستحالت قلاعاً منيعة أصبحت بالتدريج قصور العصور الوسطى (*) .

وقوى نقص الأرقاء إلى وقت ما مركز العمال الأحرار في الصناعة وفي الزراعة على السواء . ولكن فقر الفقراء لم ينقص على حين أن موارد الأغنياء التهمت الحروب ومطالب الحكومة (٢٢) . وكانت الأجور وقتئذ تتراوح بين ٦ و ١١ في المائة من نظائرها في الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل القرن العشرين ، وكانت الأثمان نحو ثلاثين في المائة من أثمان الولايات المتحدة في ذلك الوقت (٢٣) . وكانت حرب الطبقات آخذة في الاشتداد لأن الجيش المجند من فقراء الأقاليم كثيراً ما كان ينضم إلى من يهاجون أصحاب الثروة ، وكان يشعر بأن ما يؤديه للدولة من خدمات يبرر ما تفرضه عليهم ضرائب تبلغ حد مصادرة أموالهم لتعطي

(*) () وأكبر الظن أن هذا النظام الزراعي الذي وصفناه في المتن قد بدأ على نطاق أوسع من هذا النطاق حين أسكن أورليوس الأسرى الألماني في ضياع الإمبراطورية (١٧٢) ، وجعل هذه الضياع ملكاً لهم يتوارثونه ، مشروطاً عليهم أن يؤدوا له ضريبة سنوية ، وخدمة عسكرية إذا طلب إليهم أدامها ، وأن يتعهدوا له بألا يغادروا هذه الأملاك من غير إذن الدولة . وفرضت هذه الشروط عليها على الجنود الرومان القدامى الذين أقطعوا أرضاً على الحدود وخاصة في « الأراضي العشورية » (agri decumates) — على ضفاف الدانوب والرين (٢٦) ، وانتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً في عهد سبتيوس سثيرس ، إذ قسم الأراضي التي استولى عليها أجزاء يزرعها مستأجرون يؤدون عنها ضرائب نقداً أو عيناً . وحداً سبتيوس حدو البطالة ، وحداً الملاك الأفراد أخذوه ، فبدأ هذا النظام الزراعي بالملوك ، ونشأ عنه النظام الإقطاعي الذي قضى على الملكية .

منها هبات لهم ، أو أن تنهب أموال الأغنياء نهياً سافراً^(٢٤) . وتأثرت الصناعة بكساد التجارة ونقصت تجارة المصادر الإيطالية حين انتقلت الولايات من عميلات لإيطاليا إلى منافسات لها ، وجعلت الغارات والقرصنة الطرق التجارية غير مأمونة كما كانت قبل عهد بيمبي ، وكان انخفاض قيمة العملة وتقلب الأثمان من العوامل غير المشجعة للمشروعات الطويلة الأجل ، ولما أصبحت إيطاليا عاجزة عن توسيع حدود الإمبراطورية ، لم يعد في مقدورها أن تزدهر بأن تمتد بالسلع دولة آخذة في الاتساع ، أو أن تستغل موارد هذه الدولة . وكانت فيما مضى من الأيام تجمع سبائك الذهب والفضة من البلاد المفتوحة ، وتملاً خزائنها بما تنهبه من أموال هذه البلاد ، أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإن النقود كانت تهاجر إلى الولايات الهلنستية الأكثر تصنيعاً من إيطاليا ، وأخذت هي تزداد على مر الأيام فقراً ، في الوقت الذي كانت فيه ثروة آسية الصغرى المطردة الزيادة تختم أن تستبدل برومة عاصمة شرقية للإمبراطورية . واقتصرت المصنوعات الإيطالية على الأسواق المحلية ، ووجدت الأهلين أفقر من أن يبتاعوا السلع التي كان في وسعهم أن ينتجوها^(٢٥) . يضاف إلى هذا أن التجارة الداخلية كان يقف في سبيلها قطاع الطرق ، والضرائب المتزايدة ، وتلف الطرق لقلعة العبيد . وأضحت بيوت الأثرياء في الريف تنتج حاجتها من السلع وتكفي نفسها بنفسها ، وحلت المقايضة في التجارة محل النقود ، كما حلت الحوانيت الصغيرة عاما بعد عام محل الإنتاج الكبير وكانت تسد حاجة الإنتاج المحلي بنوع خاص .

وزاد الطين بلة كثرة الصعاب المالية ، ذلك بأن المعادن الثمينة أخذت تقل شيئاً فشيئاً لأن مناجم الذهب في تراقية ومناجم الفضة في آسية تناقص إنتاجها ، وكانت داشيا وما فيها من الذهب توشك أن تخرج من يد أورليان . وكانت الفنون والحلى تستنفد كثيراً من الذهب والفضة . وواجه الأباطرة من سبتيميوس سفيرس ومن جاءوا بعده هذا النقص الشديد في الوقت الذي كانت فيه الحروب

لا تخبو نارها أبداً ، فلجثوا أكثر من مرة إلى إنقاص نسبة ما فى النقود من ذهب أو فضة لكى يستطيعوا القيام بنفقات الدولة أو حاجات الحرب . فقد كان ما فى الدينار من معدن خسيس أيام نيرون عشرة فى المائة ، وبلغ فى عهد كمودس ثلاثين ، وفى عهد سبتيميوس خمسين ، واستبدل به كركلا الأنطونيانوس Antoninianus المحتوى على خمسين فى المائة من وزنه فضة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٦٠ نقصت نسبة ما فيه من فضة إلى خمسة فى المائة (٢٦) .

وأصدرت دور السك الحكومية كميات لم يسبق لها مثيل من العملة الرخيصة ، وكثيراً ما كانت الدولة ترغم الناس على أن يقبلوا هذه النقود بقيمتها الاسمية ، بدل قيمتها الحقيقية ، وكانت فى الوقت نفسه تأمر بأن تؤدى الضرائب ذهباً أو عينا (٢٧) . وأخذت الأثمان ترتفع ارتفاعاً سريعاً ، فزادت فى فلسطين إلى ألف فى المائة من القرن الأول إلى القرن الثالث (٢٨) . وفى مصر لم يعد فى مقدور الحكومة وقف تيار التضخم ، حتى صار مكيال القمح الذى كان يباع بثمان درنحات فى القرن الأول يباع بمائة وعشرين ألف درنحة فى أواخر القرن الثالث (٢٩) . ولم تصل الحال فى الولايات الأخرى إلى مثل هذا الحد ، ولكن التضخم فى عدد كبير منها خرب بيوت الكثيرين من أهل الطبقة الوسطى وأضاع أموال الموائقات والمؤسسات الخيرية وزعزع قواعد جميع الأعمال المالية ، فأحجم الناس عنها ، وأضاع جزءاً كبيراً من رؤوس الأموال المستخدمة فى التجارة والاستثمار التى كانت تعتمد عليها حياة الإمبراطورية .

ولم يكن الأباطرة الذين جاءوا بعد پرتناكس ليسوءهم انعدام طبقة الأشراف وطبقة الملاك الوسطى على هذا النحو . ذلك بأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار عليهم بسبب أصلهم الأجنبى ، واستبدادهم العسكرى ، واغتصابهم أموالهم . ولذلك تجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والأباطرة وكانت قد خبت نارها من عهد نيرون إلى عهد أورليوس ؛ وأقام الأباطرة سلطانهم

قاصدين متعمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن ، والفلاحين يشترونه بالهبات والأعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .

وعانت الإمبراطورية من البلاء مثل ما عانت إيطاليا وإن نقص عنه بعض الشيء . نعم إن قرطاجنة وشمالي أفريقية للبعدين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ؛ ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشئ من تنازع الأحزاب ، ومن مذابح كركلا ، ومن غزو زنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخي في العمل ؛ وما كانت تبتزّه رومة من الحبوب في كل عام . وكانت آسية الصغرى وسوريا قد قاستا الأمرين من الغزو والنهب ، ولكن صناعاتهما القديمة التي تعودت الصبر على الشدائد لم تقص عليها هذه الاضطرابات . وكانت بلاد اليونان ، وتراقية ، ومقدونية ، قد خربها البرابرة ، ولم تكن بيزنطية قد أفادت من حصار سبتيوس .. ولما جاءت الحرب بالحاميات الرومانية وبالموّن إلى حدود القبائل الألمانية ، قامت مدائن جديدة على شواطئ الأنهار - ويانة ، وكارلزبرج ، واستراسبرج ، ومينز . وكانت غالة قد اضطرب فيها النظام ، وفترت همه أهلها بسبب غزو الألمان لها ، ذلك بأنهم نهبوا ستين مدينة من مدنها ، وأخذت الكثرة الغالبة من المدن والبلدان الأخرى تنكمش داخل أسوارها الجديدة ، وتتخلى عن طراز الشوارع العريضة المستقيمة الرومانية التخطيط والطراز ، لتحل محلها الأزقة الضيقة غير المستقيمة التي يسهل الدفاع عنها والتي كانت من مميزات العهود القديمة والعصور الوسطى . وحتى في بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة في النقصان وكانت بيوت الريف آخذة في الاتساع (٣٠) ؛ ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة أو اضطرتها إلى الاختفاء في الريف . وقصارى القول أن الإمبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وهامى ذى تختم حياتها بالعودة إلى الريف وبالهمجية .

الفصل الرابع

الوثنية تختصر

يمكن القول بوجه عام إن الضعف الثقافي سار في إثر الضعف الاقتصادي والسياسي ، ولكن حدث في هذه السنين البئسة أن نشأ علم الجبر ذو الرموز ، وبرزت أعظم الأسماء في فقه القانون الروماني ، وأروع نماذج النقد الأدبي القديم ، وطائفة من أفخم المباني الرومانية ، وأقدم قصص الحب ، وأعظم الفلاسفة الصوفيين .

ويلخص الديوان اليوناني سيرة ديوفانتس Diophantus الإسكندري (٢٥٠) تلخيصاً جبرياً فكها فيقول إن حياته دامت سدس حياته ، وإن لحيته نبتت بعد أن انقضى $\frac{1}{3}$ من عمره بعد سن الحداثة ، وإنه تزوج بعد أن مضى $\frac{1}{4}$ آخر من حياته ، وإنه رزق بولده بعد خمس سنين أخرى ، وإن هذا الولد عاش حتى بلغت سنة نصف سن أبيه ، وإن الوالد مات بعد أربع سنين من موت الولد - أي إنه مات في سن الرابعة والثمانين ، وأشهر ما بقي من مؤلفاته حتى الآن هو كتابه « الأريثماتيقي Arithmetica (الحساب) - وهو رسالة في الجبر . وفيه حل لمعادلات الدرجة الأولى ، والمعادلات الرباعية التي تؤدي إلى معرفة المجهول ، والمعادلات التي لا يمكن منها وحدها معرفة المجهول حتى الدرجة السادسة . وقد استخدم حرف sigma اليوناني للدلالة على الكمية المجهولة التي نرمز لها نحن بحرف س (وفي الإنجليزية بحرف x) ، وسمى هذه العلامة أرثموس Arithmos (أي العدد) ، واستعمل حروف الهجاء اليونانية للدلالة على الأسس وكان جبر من نوع ما معروفاً قبل أيامه : فقد اقترح أفلاطون لتدريب عقول الشبان وتسليتهم مسائل متنوعة كتوزيع تفاحة بنسب معينة على عدد

من الأشخاص (٣٢) ، وأذاع أرخميدز الغاز من هذا النوع في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان المصريون واليونان يحلون بعض المسائل الهندسية بالطرق الجبرية دون الالتجاء إلى رموز علم الجبر . وأكبر الظن أن ديوفانتس لم يفعل أكثر من تنظيم طرق كان يعرفها معاصروه (٣٣) ، وأن مصادفات الزمان هي التي أبقت على أعماله ؛ وفي استطاعتنا أن نرجع إليه عن طريق العرب تلك الطريقة الجبرية الغامضة التي تهدف إلى صياغة جميع النسب الكمية في العالم كله في قانون واحد .

وعلا نحم باپنيان ، وبولس ، وأليان ، أعظم الأسماء الثلاثة في القانون الروماني في عهد سبتيميوس سفيرس ؛ وكانوا كلهم رؤساء الحرس الپريتورى وكانوا يحكم مناصبهم هذا رؤساء الوزارة في الدولة ؛ وكانوا كلهم يبررون قيام الحكم المطلق بحجة أن الشعب قد عهد بحقوقه في السيادة إلى الإمبراطور . ويمتاز كتابا باپنيان *الأسئلة* ، *Questiones* و *الأجوبة* *Responsa* بوضوحهما ، وإنسانيتهما وعدالتهما إلى حد جعل جستنيان يعتمد عليهما في كثير من مجموعاته القانونية . ولما قتل كركلا جيتا أمر باپنيان أن يكتب دفاعاً قانونياً عن عمله هذا ، فأبى باپنيان وقال إن « قتل الإخوة أسهل من تبرير هذا القتل » ، فأمر كركلا بقطع رأسه . ونفذ أحد الجنود الأمر فقطع رأسه ببلطة في حضرة الإمبراطور . وواصل دومينيوس أليانس جهوده باپنيان القضائية والإنسانية . وسخر جهوده القضائية للدفاع عن العبيد لأنهم في رأيه أحرار بالفطرة ، وعن النساء لأن هن مثل ما للرجال من الحقوق (٣٤) ، وكانت كتاباته في جوهرها تنسيقاً لأعمال من سبقوه شأنها في هذا شأن جميع الأعمال الهامة في تاريخ القضاء ؛ ولكن أحكامه كانت بانية جازمة إلى حد أبقي على ما يقرب من ثلثها في ملخص جستنيان . ويقول عنه لمريديوس : « لم يبلغ الإمبراطور ألكسندر سفيرس ما بلغه من سمو المنزلة إلا لأنه كان يحكم أكثر ما يحكم وفقاً لنصائح أليان » (٣٥) . بيد أن أليان قد عمل على قتل بعض

معارضيه ؛ ومن أجل هذا فإن بعض أعداءه من رجال الحرس قتلوه عام ٢٢٨ انتقاماً منه . وكانت أسباب قتله أقل انطباقاً على القانون من قتل معارضيه ولكنه أدى إلى نفس النتيجة . وشجع دقلديانوس مدارس القانون وأمدّها بالمال ، وألف لجائاً لتقنين ما سن بعد تراچان من شرائع ، وجمعها كلها في القانون الجريجوريانى Codex Gregorianus . ثم أتت على فقه القانون سنة من النوم دامت إلى أيام جستنيان .

وسار فن التصوير في القرن الثالث على الأنماط التي كان يسير عليها في عبي والإسكندرية ، والقليل الذي أبقي عليه الزمان منه فج ، كاد الدهر أن يبلّيه ؛ أما النحت فكان مزدهراً لأن الكثيرين من الأباطرة كانوا يطلبون أن تنحت لهم تماثيل ، غير أنه جمد حتى أصبح المنظر الأمامي للشخص المصور بدائي الطراز ؛ ولكن هذا العصر لم يفقه أى عصر بعده فبما أخرجه من صبور تدهش الناظر إليها بصدقها وواقعيتها . ومما يدل على فضل كركلا ، أو يدل على غباوته ، أنه أجاز لمثال أن يصوره في صورة شخص فظ ، أكرت الشعر متجهّم الوجه ، وهي الصورة المحفوظة إلى الآن في متحف نابلي . ولدينا تماثلان ضخمان من تماثيل ذلك العصر هما الثور القرنبزي . يهرقول القرنبزي ، وكلاهما مبالغ في حجمه ، متوترة عضلاته توتراً غير مستحب ، ولكنهما يشهدان بما كان في هذا العصر من إتقان فني لم ينقص قط عن إتقان العصور السابقة ؛ ومما يدل على أن المثاليين كانوا لا يزالون قادرين على أن يجروا على النمط القديم تلك النقوش البارزة الناطقة بالعفة والطهارة والتي نراها علىثالوث ألكسندر سفيرس وهيثالوث لدوفيزى . غير أن النقش الذي على قوس سبتيموس سفيرس في رومة ليس فيه شيء مما يمتاز به الفن الأتكي من بساطة وظرف ، بل يتصف بالخشونة والقوة الواضحتين اللتين تكادان تثبتان بعودة البربرية إلى إيطاليا .

وسار فن العمارة بالنزعة الرومانية التي ترى السمو في ضخامة الحجم إلى أقصى

حد ، فأقام سبتيوس على تل البلاتين آخر ما أقيم عليه من القصور
الإمبراطورية وضم إليها جناحا جهة الشرق يعلو في الجو سبعة طباق - وهو
المعروف بالسبتيونيوم Septizonium . وقدمت جوليا دمنيا ما يلزم من
المال لإنشاء إيوان فستا ، وإقامة هيكل فستا الصغير الذى لا يزال باقيا في
السوق العامة . وشاد كركلا لسرپيس زوج إيزيس ضريحاً ضخماً احتفظ
الزمان يقطع جملة منه إلى اليوم . ومن أعظم خرائب العالم روعة حمامات
كركلا التى تم بناؤها في عهد ألكسندر سفيرس . نعم إنها لم تضاف شيئا
جديداً إلى هندسة البناء ، لأنها تسير في جوهرها على طراز حمامات تراجان ،
ولكن البناء الضخم القائم يعبر أحسن تعبير عن صاحبها قاتل جيتا وپاپنيان :
وكان بناؤها الرئيسي المكون من الآجر والأسمنت المسلح يشغل ٢٧٠.٠٠٠ قدم
مربعة - أى أكبر من مسطح مجلس البرلمان الإنجليزي وهو مستمر
مجتمعين . وكانت درج حلزونية تؤدي إلى أعلى الجدران . وهناك مجلس
شلى وكتب قصيدة برومبوس الطليح . وكان بداخل الحمامات عدد
كبير من التماثيل ، ويحبل سقفها ٢٠٠ عمود منحوتة من الحجر الأبل
والمرمر ؛ والحجر السماقي ، وكانت أرض الحمامات وجدرانها المبنية من
الرخام مطعمة بمناظر من الفسيفساء ، وكان الماء يصب من أفواه ضخمة
من الفضة في برك وأحواض تتسع لاستحمام ١٦٠٠ شخص في وقت واحد :
وأنشأ جليئس وديسيوس حمامات مماثلة لها ، وفي هذه الحمامات الأخيرة
أقام المهندسون الرومان قبة مستديرة فوق بناء ضخيم ذى عشرة أضلاع
متساوية وسندوها بدعامات عند زوايا البناء ذى العشرة الأضلاع وهى
وسيلة لم تكن تستعمل إلا قليلا قبل ذلك الوقت ولكنها أصبحت كثيرة
الاستعمال في المستقبل . وفي عام ٢٩٥ شرع مكسميان في بناء الحمام
الحار الذى كان أضخم الحمامات الإمبراطورية الحارة الأحد عشر ،
وسماه حمامات دقلديانوس ، وهو تواضع منه لم يكن معروفا في وقته .
وقد أعد لأن يستحم فيه ٣٦٠٠ شخص في وقت واحد . وكان به فوق

ذلك مدارس للتدريب الرياضى ، وأنباء الحفلات الموسيقية ، وثقاعات للمحاضرات . وأنشأ ميكل أنجلو من حجرة واحدة من هذا الحمام كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلي Santa Maria degli Angeli وهى أكبر كنيسة فى إيطاليا بعد كنيسة القديس بطرس . وأنشئت فى الولايات مبان لا تفوقها فى ضخامتها إلا العماثر السالفة الذكر ، وأقام دقلديانوس نفسه كثيراً من المباني فى نيقوميديا ، والإسكندرية ، وأنطاكية . وزين مكسميان ميلان وزين جليرىوس سريميوم وجمل قسطنطينوس ثريف Treves .

وكان الأدب أقل ازدهاراً من العمارة ، لأنه قلما كان فى مقدوره أن يصل إلى الثروة التى تجمت فى أيدي الأباطرة . ومع هذا فقد زاد عدد دور الكتب ووسعها ، وكان لطبيب من أطباء القرن الثالث مجموعة تبلغ ٦٢٠٠٠ مجلد ، واشتهرت مكتبة أليان بما فيها من المخطوطات التاريخية ، وبعث دقلديانوس بالعلماء إلى الإسكندرية لينسخوا ما فيها من المخطوطات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ، ويأتوا بنسخ منها إلى مكتبات رومة . وكان العلماء كثيرون يذهبون إلى الأهلين ، وقد أشاد فيلوستراتس بذكرهم فى كتابه حياة السوفسطائيين ، وواصل برفيرى عمل أقلوطين ، وهاجم المسيحية ، واهاب بالعالم أن يقتصر على أكل الخضر ، وحاول إيميليكس Iamblicus أن يوفق بين الأملاطونية ومبادئ الديانة الوثنية ، وأفلح فى ذلك . إلى حد استطاع معه أن يوحى بآرائه إلى الإمبراطور جوليان . وجمع ديجين ليرتيوس سير الفلاسفة وآراءهم فى مقتطفات وقصص رائعة فاتنة ، وبعد أن التهم أثينيوس النقراطيسى Athenaeus of Naucratis كل ما فى مكاتب الإسكندرية أفرغ كل ما جمعه فى كتابه المعروف باسم سوفسطائي مأثرة الفراء وهو حوار ممل فى الأطعمة ، ومرق التوابل ، والماهرات ، والفلاسفة ، والمفردات اللغوية ، يخفف من ملله ما يجده فى بعض أجزائه من كشف عن عادة قديمة ، أو ذكرى عظيم ، وكتب لنجيس ، وهو كاتب من بلميريا فى أغلب

الظن ، رسالة لطيفة في « السمو » قال فيها إن اللذة الخاصة التي يبعثها الأدب في الإنسان ، منشؤها أنها « تسمو » بالقارئ عن طريق الفصاحة التي يستمدّها الكاتب من قوة اقتناعه ، وإخلاصه ووفائه لأخلاقه(*) . وشرع ديوكاسيوس ككيانس من أهل نيقية في بيثينيا يكتب تاريخ روم (٢١٠) وهو في سن الخامسة والخمسين بعد أن قضى حياته يتقلب في مناصب الدولة . وأتم هذا الكتاب في الرابعة والسبعين وقص فيه تاريخ المدينة من رمبولوس إلى أيامه ، ولم يبق من هذا الكتاب إلا أقل من نصف أسفاره الثمانين ، ولكن هذه الأسفار الباقية تشمل ثمانين مجلداً ضخماً . ويمتاز هذا العمل باتساع نطاقه أكثر مما يمتاز بعلو صفاته ، وفيه قصص واضحة حية ، وخطب مميّنة ، واستطرادات فلسفية ليست سخيطة المعنى رثة العبارة مستمسكة بالقديم ، ولكن النبوءات والنثر تفسد الكتاب كما تفسد كتاب ليفي ، وهو مثل كتاب تاسيتس وصف مطول لمعارضة مجلس الشيوخ ، وهو كجميع كتب التاريخ الرومانية يعنى أكثر ما يعنى بتقلبات السياسة والحرب كأن الحياة لم تكن في ألف عام إلا ضرائب وموت ؛

وأهم من هؤلاء الرجال والكرام في نظر مؤرخ العقل هو ظهور الرواية الغرامية في هذا القرن . وقد سبقها إعداد طويل تدرج من القبرويريا لزنفون ، إلى القصائد الغزلية لكلماكس ، إلى القصص الخرافية التي تجمعت حول الإسكندر ؛ « والحكايات الميليشية » التي يرويها أرسطيدز وغيره في القرن الثاني قبل الميلاد وما تلا ذلك القرن من أجيال . وقد أعجب بهذه القصص

(*) تنزو أقدم المخطوطات هذا المقال مرة إلى « ديونيسيوس لنجينس » ومرة أخرى إلى « ديونيسيوس أورلجنس » ، ولا تذكر شيئاً غير هذا يستدل به على شخصية كاتبه . ولنا نعرف أديباً يدعى لنجينس في التاريخ القديم إلا كاسيوس لنجينس كبير وزراء زنوبيا . وقد اشتهر في جميع أنحاء الإمبراطورية بفضارة علمه حتى لقد سماه يونايبوس Unapius « مكتبة حية » . ووصفه برفيري « بأنه زعيم النقاد » (٣٦) .

التي تروى أخبار المغامرات والحب بجمهرة اليونانيين اليونان بتقاليدهم ، الشرقيين بمزاجهم ، ولعلهم وقتئذ قد أصبحوا شرقيين بدمائهم . وتطورت الرواية المنمقة تطورات شتى على أيدي بطرونيوس في رومة وأبوليوس في أفريقية ، ولوشيان في بلاد اليونان ، وأيمبليكس في سوريا ، ولم تكن في يادى الأمر تعنى بالحلب عناية خاصة ، حتى إذا كان القرن الأول بعد الميلاد امتزجت رواية المغامرات برواية الحب ، ولعل هذا الامتزاج كان استجابة منهما لزيادة عدد القارئات من النساء .

وأقدم الأمثلة الباقية من هذه الروايات هي « *Aethiopica* » أو القصص المصرية التي كتبها هليودورس الحمصى ، وقد ثار الجدل الكثير حول تاريخ هذه القصص ، ولكن في وسعنا أن نعزوها إلى القرن الثالث ، وتبدأ بأسلوب خلع عليه قدم العهد ثوباً من الجلال :

« افتر ثغر النهار عن بسات البهجة ، وأرسلت الشمس أشعتها فأنارت قلل التلال ، حين وقف جماعة من الرجال يبدو من أسلحتهم ومظهرهم أنهم قراصنة ، وأخذوا ينظرون إلى البحر بعد أن صعدوا إلى قمة أحد المنحدرات المطل على مصب النيل الهرقليونى . ولكنهم لم يجدوا هناك شراع سفينة يبشرهم بالغنيمة فوجهوا أبصارهم نحو الشاطئ الممتد من تحتهم ، وكان هذا هو الذى رآوه (٣٧) .

ونلتقى على حين غفلة بثياجينس *Theagenes* الشاب الغنى الوسيم وبالأميرة كركليا *Chsriclea* الحميلة الباكية . وكان القراصنة قد قبضوا عليهما ، وحلبت بهما كثير من ضروب الشدائد المختلفة ، من سوء التفاهم ، والوقائع الحربية ، والقتل واللقاء ، تكنى لأن تكون مادة لجميع القصص التي تصدر في فصل من فصول السنة في هذه الأيام . وتختلف هذه القصة عن قصص بطرونيوس وأبوليوس في أن عفة العذارى في رواية هليودورس مسألة غير ذات خطر كبير ، يمر عليها القارئ بسرعة ، بينما هي عند بطرونيوس وأبوليوس جوهر القصة ومحورها الذى تدور عليه

فخرى هليودورس يحافظ على عفة كركليز وينجها من عشرات الأخطار ،
ويدبج عدداً من العظات القوية المقتنة في جمال الفضيلة النسوية ووجوب
المحافظة عليها . ولعلنا نجد هنا شيئاً من تأثير المسيحية ؛ بل إن الرواية
المتواترة تجعل مؤلف القصة أسقف تسالونيكي المسيحي فيما بعد . ولقد كانت
الرواية ، على غير علم أو قصد من مؤلفها ، منشأ عدد لا يحصى من
الروايات التي نسجت على منوالها ؛ فلقد كانت هي أنموذج قصة سرفنتيز
Cervantes المسماة Pesilesy Sigismunda وقصة كورندا في رواية إنفاذ
أورسليم لتاسو ، وقصص السيدة ده اسكوديري Mme de Scudéry في
هذه الرواية نجد جريمة الحب ، ودلائله ، والتوجع والإنعاش والحائمة
السعيدة التي نجدها في الآلاف من القصص الممتعة ، وهنا نجد رواية
كلاريسا هارلو Clarissa Harlow قبل كاتبها رتشر دسن Richardson بألف
وخمسة عام .

وأشهر قصص الحب جميعها في النثر القديم قصة دفينيس وكلوي
Daphnis and Chloë . ولسنا نعرف عن مؤلفها إلا اسمه لنجس
Longus ، كما أننا نظن مجرد ظن أنها ألفت في القرن الثالث بعد الميلاد .
وتقول إن دفينيس عرض لتقلبات الجو القاسية وقت مولده ، وإن راعياً
أنقذه وعنى بتربيته وإنه أصبح هو الآخر راعياً . وفي القصة فقرات رائعة
في وصف الريف توحى بأن لنجس كشف ما فيه من جمال بعد طول مقامه
في المدينة ، كما كشفه الشاعر ثيوكريتس الذي نسج هو على سؤاله . ويحب
دفينيس فتاة حسناء أنقذت هي الأخرى بعد أن عرضت للجو القاسي في
طفولتها . ويرعى الفتى والفتاة قطعانهما وتتوثق بينهما عرى الصداقة والألفة ،
ويستحان معاً وهما عريانين في طهر وبراءة ، ويقبل كلاهما الآخر أول قبلة
يسكران منها . ويشرح لهما جارسنج نشوة حبهما ، ويصف لهما ما لاقاه
في أيام شبابه من آلام العشق فيفرون « لم أكن أفكر في طعamy ،

ولم أكن أذوق طعم الراحة ، وهجر الكرى عيني ، وأمضى الحزن ، وأسرعت ضربات قلبي ، وأحسنت أطرافى ببرودة الموتى (٣٨) . ويعرفهما أبوهما ، وكانا وقتله من أغنياء الناس ، وهبانهما الكثير من المال ، ولكنهما لا يعبان بالثراء ، ويعودان إلى حياة الرعى المتواضعة : والقصة مكتوبة ببساطة الفن الجميل المصقول وقد ترجمها أميو Amyot إلى اللغة الفرنسية . بالسلسلة المطواعة (١٥٥٩) فكانت هذه الترجمة هي المثال الذى احتذاه سان بيير فى نول وفريجينا كما أوحى بما لا يحصى من الرسوم والتصانيد والقطع الموسيقية .

وشبيه بها قصيدة من الشعر تعرف باسم أمسية فينوس . ولا يعرف أحد اسم منشئها أو متى أنشأها ، وأغلب الظن أنها من شعر ذلك القرن نفسه (٣٩) . وموضوعها هو موضوع خطب لكريشيوس التى تمتاز بما فيها من التفات ، ورواية لنجس الغرامية — وخلاصتها أن ربة الحب تلهب قلوب جميع الأحياء بالرغبة الجارحة ، وأنها لهذا السبب هى خالقة العالم الحقة !

غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ،

غداً سيحب من ذاق قبل طعم الحب ،

لقد أقبل الربيع . النضر ، وأخذ يغنى . غناء الحب ،

وولدت الدنيا من جديد ، وها هو ذا حب الربيع ،

يدفع كل طير إلى قرينه ، وها هى ذى الغابات المترقة

نثر غداثرها لتستقبل شآبيب الربيع ،

غداً سيحب من لم يطف به طائفة الحب ،

وسيحب من ذاق قبل طعم الحب .

وعلى هذا النحو يترسل الكاتب فى شعره العذب الصافى ، ويمجد الحب فى المطر المنصب ، وفى أشكال الزهر ، وفى أهازيج الأعياد البهجة ، وفى التجارب ،

الصعبة التي يعانيها الشباب المشتاق . وفي مواعيد اللقاء الوجلة ، وسط الغابات ؛ وبعد كل مقطوعة يتردد الوعد القوي الجامع : « غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ، وسيحب من ذاق قبل طعم الحب » . وإنا لنجد هنا في آخر القصائد الغنائية الكبرى التي تغنت بها الروح الوثنية الوزن الشعري لترانيم العصور التي تسبق أنغام شعراء القروسية الغزليين بعدة قرون .

الفصل الخامس

الملكية الشرقية

لما مات كلوديوس الثانى فى أثناء انتشار وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء (٢٧٠) اختار الجيش خليفة له ابن فلاح لإيراي : وكان دوميتيوس أورليانوس Domitius Aurelianus قد ارتفع من أوطأ الطبقات بقوة الجسم والإرادة ؛ وقد لقبوه من قبيل السخرية « يد على سيف » . وكان مما يشهد بعودة العقل إلى الجيش أنه اختار رجلا يطلب عند غيره من النظام ما يطلبه عند نفسه :

وبفضل قيادته صد أعداء رومة عن حدودها فى كل مكان عدا نهر الدانوب ، فهناك نزل أورليان عن داشيا للقوط لعلهم بذلك يفتقون حاجزاً بين الإمبراطورية وبين غيرهم من البرابرة . ولعل هذا الاستسلام قد شجع الألمان والوندال على غزو إيطاليا ، ولكن أورليان انتصر عليهم فى ثلاث معارك وشتت شملهم . وكان يفكر فى القيام بحملات حربية على أجزاء قاصية ، ويخشى أن يهاجم الأعداء رومة فى أثناء غيابه ، فأقنع مجلس الشيوخ بأن يوافق على صرف المال اللازم لبناء أسوار جديدة حول العاصمة ، كما أقنع النقابات الطائفية بأن تقوم بهذا العمل . وأخذت المدن فى جميع أنحاء الإمبراطورية تشيد الأسوار حولها ، وكان قيامها بهذا العمل شاهداً على ضعف قوة الرومان وخاتمة السلم الرومانية .

ورأى أورليان أن الهجوم أفضل من الدفاع ، ولذلك اعتزم أن يعيد مجد الإمبراطورية بالهجوم على زنوبيا فى الشرق . ثم على تريكس Tetri cus الذى اغتصب السيادة على غالة بعد پستوس . واسترد پروبس Probus قائد أورليان مضر من ابن زنوبيا فى الوقت الذى كان هو نفسه يخترق بجيوشه بلاد البلقان ،

ويعبر الهلنست ، ويهزم جيش هذه الملكة في حمص ويحاصر عاصمتها ،
وحاولت الملكة أن تمر ، وتستنجد بالفرس ولكنها أسرت ، واستسلمت
المدينة ونجت من التدمير ، ولكن لنجيس قتل (٢٧٢) . وبينما كان
الإمبراطور عائداً على رأس جيشه إلى الهلنست ، ثارت تدمير وقتلت الحامية
التي تركها فيها . فعاد إليها مسرعاً كسرعة قيصر ، وحاصر المدينة مرة أخرى
واستولى عليها بعد قليل من الوقت ، وأباحها لجنوده يسلبون وينهبون
ويعيثون فيها فساداً ، ودك أسوارها ، وقضى مرة أخرى على تجارتها ،
وتركها تعود قرية صحراوية ، وهكذا ظلت من ذلك الحين إلى الوقت
الحاضر . وسارت زنوبيا مكبله بالأغلال تزين موكب أورليان وهو داخل
منتصر إلى رومة ؛ وسمح لها بأن تقضى البقية الباقية من عمرها حرة إلى حدما
في تيبور Titur (*) .

وفي عام ٢٧٤ هزم أوليان تريكس عند شالون Châlons وعاد بعدئذ
إلى غالة . واغتبطت رومة بعودة سيادتها إليها فرحبت بالقائد الظافر
ولقبته « مرجع العالم » restitutor orbis . ثم وجه عنايته إلى واجبات
السلم ، فأعاد إلى الإمبراطورية شيئاً من النظام الاقتصادي بإصلاح النقد
الروماني ، وأعاد تنظيم الأداة الحكومية بأن طبق عليها نفس النظام
الصارم الذي رد به الحياة إلى الجيش . وكان يعزو بعض ما تعانيه
رومة من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمناسبات فيها ،
ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة ويوجهها إلى عبادة إله واحد
هو إله الشمس ، والإمبراطور نائبه في الأرض . ولما أظهر الجيش ومجلس
الشيوخ تشككهما ، أبلغهما أن الله ، لا اختيارهما ولا تأنيدهما ، هو
الذي جعله إمبراطوراً . وأنشأ في رومة هيكلًا للشمس رائع الجمال ، كان يرجو
أن يمتزج فيه بكل حصن وإله المثراسية . وكانت الملكية المطلقة والتوحيد تسيران

(*) انظر الرسالتين المتبادلتين بين زنوبيا وأورليان في الجزء الأول من كتابنا « أشهر
الرسائل العالمية » . (المترجم)

وقتل جنبا إلى جنب ، وكانت كلتاها تعني لأن تستعين بالآخرى ؛ وكانت سياسة أورليان الدينية توصي بأن قوة الدولة آخذة في الاضمحلال ، وأن قوة الدين آخذة في الارتفاع ، وقد أصبح الملوك وقتل ملوكاً بنعمة الله . وكانت هذه هي فكرة الشرقيين عن الحكومة ؛ وهي فكرة وجدت في مصر ، وبلاد الفرس ، وسوريا . فلما قبلها أورليان عجل التيار الذي كان يحول الملكية إلى حكومة شرقية ، وهو التيار الذي بدأ من عهد ألبالاس وانتهى عند دقلديانوس وقسطنطين .

وبينا كان أورليان يقود جيشاً مخترقاً به تراقية ليحسم الأمر بينه وبين فارس إذ اغتاله في عام ٢٧٥ جماعة من ضباطه لأنهم خلدوا فظنوا أنه ينوي إعدامهم . وارتاع الجيش لكثرة ما ارتكبه هو نفسه من الجرائم فطلب إلى مجلس الشيوخ أن يختار من يخلف الإمبراطور القاتل ؛ ولم يكن أحد يرغب في هذا الشرف الذي ينذر بالقتل على الدوام ؛ وانتهى الأمر بأن رضى به تاسيتس لأنه كان وقتل في الخامسة والسبعين من عمره . وكان تاسيتس هذا يدعى أنه من نسل المؤرخ المسمى بهذا الاسم ، وكانت تتمثل فيه جميع الفضائل التي كان ينادى بها ذلك الكاتب الموجز المتشائم ؛ لكنه قضى نحبه من فرط الإعياء بعد ستة أشهر من جلوسه على العرش . وندم الجند على ندمهم ، فعادوا إلى الاستئثار بالسلطة ونادوا بـ *Probus* إمبراطوراً (٢٧٦) . وكان ذلك اختياراً موفقاً ، كما كان *پروبس* خليقاً باسمه (*) لأنه كان يمتاز بالشجاعة والاستقامة . فقد طرد الألمان من غالة ، وطهر *إليركم* *Illyricum* من الوندال ، وشاد سوراً بين الرين والدانوب ، وأرهب الفرس بكلمة منه ، واستمعت الإمبراطورية كلها في أيامه بالسلم ؛ وسرعان ما عاهد شعبه على ألا تكون في البلاد أسلحة ، ولا جيوش ، ولا حروب ، وعلى أن يعم الأرض كلها حكم القانون .

(*) يشير الكاتب إلى أن معنى الكلمة اللاتينية *Probus* هو طيب أو صالح .
(المترجم)

وبدأ هذه الطوبى بأن أرغم جنوده على أن يصلحوا الأراضى البور ، ويحفظوا المستنقعات ويغرسوا الكروم ، ويقوموا بضروب أخرى من الأعمال العامة . واستاء الجيش من هذا التسامى الذى لم يكن له به عهد ، فاغتاله (٢٨٢) ، وحزن عليه ، وأقام نصباً تذكاريًا له .

ونادى برجل يدعى ديو قليز Diocles ابن معتوق دلماشى إمبراطوراً على الدولة . وكان ديو قليشيان أودقليديانوس - وهو الاسم الذى اختاره بعد ذلك لنفسه - قد ارتقى بمواهبه الفذة ومبادئه الأخلاقية المنة حتى عين قنصلاً ، وحاكماً فى بعض الولايات ، وقائداً لحرس القصر . وكان رجلاً أكثر دراية بشئون الحكم منه بالحرب . وقد جلس على العرش بعد عهد من الفوضى أشد من الفوضى التى عمت البلاد من أيام ابنى جراكس إلى أيام أنطونيوس ، ولكنه هدأ كل الأحزاب الثائرة المتنافرة ، وصد الأعداء عن جميع الحدود ، وبسط سلطان الحكومة وقواه ، وأقام حكمه على تأييد للدين ورضاء رجاله . وكان ثالث ثلاثة تدبى لهم الإمبراطورية بالشىء الكثير - أغسطس وأورليان ، ودقليديانوس . فأما أغسطس فقد أنشأها ، وأما أورليان فقد أنقذها ، وأما دقليديانوس فقد نظمها تنظيمًا جديدًا .

وكان أول قراراته الحاسمة قراراً كشف عن المستور من أحوال الدولة وعن أفول نجم رومة ، فقد هجر المدينة ولم يتخذها عاصمةً للملكه ، واتخذ مقامه فى نيقوميديا وهى مدينة فى آسية الصغرى تبعد عن بزنطية بقليل من الأميال جهة الجنوب ، وظل مجلس الشيوخ يعقد جلساته فى رومة كما كان يعقدها قبل ، وظل القناصل يقومون بمراسمهم المألوفة ، وظلت الألعاب الصاخبة تدور كسابق عهدها والشوارع تزدحم بمن فيها من الناس على اختلاف أجناسهم ، ولكن السلطة والقيادة قد انتقلت من هذه المدينة التى أضحت مركز الانحلال الاقتصادى والأخلاقى . وكان الذى دفع دقليديانوس إلى هذا العمل هو الضرورة الحربية . ذلك أنه كان لا بد

من الدفاع عن أوروبا وآسية ، ولم يكن الدفاع عنهما مستطاعا من مدينة في جنوب جبال الألب وتبعد عن تلك الجبال هذا البعد الشاسع ؛ ولهذا أشرك معه في الحكم قائداً محمداً يدعى مكسميان (٢٨٦) ، وعهد إليه الدفاع عن الغرب ، ولم يتخذ مكسميان رومة عاصمة له بل اتخذ بدلا منها مدينة ميلان . وبعد ست سنين من ذلك العام اتخذ كلا الإغسطس Augusti « قيصرأ » ليساعده في أعباء الحكم وليكون خليفة له من بعده . فاختار ديوقليشان جليريوس Galerius واتخذ هذا عاصمته مدينة سرميوم Sirmium وهي متروفيكا Mitrovica على نهر الساف Save ، وعهد إليه حكم ولايات الدانوب ؛ وعين مكسميان قسطنطيوس كلورس Constantius Chlorus (الأصغر) خلفاً له . واتخذ هذا حاضرتة مدينة أوغسطا ترقرورم Augusta Trevirorum (تريف Trèves) . وتعهد كل أغسطس أن يعتزل الملك بعد عشرين عاما ليخلفه قيصره ؛ وكان من حق هذا القيصر أن يعين هو الآخر « قيصرأ » يعاونه ويخلفه . وزوج كل أغسطس ابنته « بقيصره » فأضاف بذلك رابطة الدم إلى رابطة القانون . وكان دقلديانوس يرجو بذلك أن يسد الطريق على حروب الوراثه ، وأن يعيد إلى الحكومة استقرارها ودوامها وسلطانها ، وأن تكون الإمبراطورية متأهبة للملاقاة الأخطار في أربع نقاط هامة ، سواء أكانت هذه الأخطار ناشئة من الثورات الداخلية ، أم من الغزو الخارجي . لقد كان تنظيمها باهراً ، جمع كل الفضائل إذا استثنينا فضيلتي الوحدة والحرية . فقد انقسمت الملكية ، ولكنها كانت ملكية مطلقة ، وكان كل قانون يصدره كل حاكم من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ، ويطبق في أنحاء الدولة ، وكان قرار الحكام يصبح قانوناً ساعة صدوره ، من غير حاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ في رومة ؛ وكان الحكام لهم الذين يعينون جميع موظفي الدولة ، ومدت أداة بيروقراطية ضخمة فروعها في جميع أنحاء الدولة . وأراد دقلديانوس أن يزيد

من قوة هذا النظام فحول عبادة عبقرية الإمبراطور إلى عبادة شخصه بوصفه تجسيدا لجوهر ، وتواضع لكسمليان فرضي أن يكون هو هرقل ؛ وهكذا هبطت الحكمة والقوة من السماء لتعيدا النظام والسلم إلى الأرض ، واتخذ دقلديانوس لنفسه ثاجا - عصابة عريضة مرصعة بالآلى - وأثواباً من الحرير والذهب ؛ وأخذية مرصعة بالحجارة الكريمة ، وابتعد عن أعين الناس في قصره ، وحتم على زائريه أن يمشوا بين صفين من خصيان التشريفات والحجاب وأمناء القصر ذوى الألقاب والرتب ، وأن يركعوا ويقبلوا أطراف ثيابه . لقد كان في الحق رجلا يغرف العالم حق المعرفة . وما من شك في أنه كان يضحك في السر من هذه الخرافات والأشكال ولكن عرشه كان يعوزه ما يخلعه الزمان عليه من شرعية ، وكان يأمل أن يدعّمه وأن يجمع اضطراب العامة وعصيان الجيش بأن يخلع على نفسه مظاهر الألوهية والرهبة . وفي ذلك يقول أورليوس فكتور : « واتخذ لنفسه لقب السيد Dominus ، ولكنه كان يسير في الناس سيرة الأب »^(١٠) وكان معنى إقامة هذا الطراز الشرقى من الحكم الاستبدادى على يد ابن عبد رقيق ؛ وهذا الجمع بين الإله والملك في شخص واحد ، كان معنى هذا عجز الأنظمة الجمهورية فى اليهود القديمة ، والتخلى عن ثمار معركة مرثون ، والعودة إلى مظاهر بلاط الملوك الإكيمينيين ، والمصريين ، والبطالمة ، والپارثيين ، والملوك الساسانيين ، وإلى النظريات التى كان يقوم عليها حكم هؤلاء الملوك . كما عاد الإسكندر إليها من قبل . ومن هذه الملكية الشرقية الصبغة بجاء نظام الملكيات البيزنطية والأوربية ، وهو النظام الذى ظل قائما إلى أيام الثورة الفرنسية . ولم يبق بعد هذا إلا أن يتحالف الملك الشرقى عاصمة شرقية مع دين شرقى . ولقد بدأت الخواص البيزنطية فى الظهور أيام دقلديانوس .

الفصل السادس

اشتراكية دقلديانوس

وسار دقلديانوس في عمله بنشاط لا يقل عن نشاط قيصر ، فأخذ يعيد تنظيم كل فرع من فروع الإدارة الحكومية . وبذل أحوال الأشراف بأن رفع إلى طبقتهم كثيرين من الموظفين المدنيين أو العسكريين ، وبأن جعلها طبقة وراثية ذات مراتب مختلفة على النظام الشرقى ، وألقاب كثيرة ، ومراسم معقدة متعددة . وقسم هو وزملاؤه الإمبراطورية إلى ست وتسعين ولاية تتألف منها اثنتان وسبعون أبرشية ، وأربع مقاطعات ، وعيّن لكل قسم حاكم مدنى وآخر عسكري وأصبحت الدولة بذلك ذات حكومة مركزية صريحة ، ترى أن الاستقلال الذاتى المحلى ، وأن الديمقراطية نفسها ، ترف لا يصلح إلا لأوقات الأمن والسلم ، وتبرر سلطانها المطلق بحاجات الحرب القائمة أو المتوقعة . ودارت رحى الحرب فى تلك الأيام فعلا وأحرزت الدولة فيها انتصارات باهرة ؛ فاستعاد قنسطنطينوس بريطانيا التى ثارت عليه ، وأوقع جليريوس بالفرس هزيمة منكرة حاسمة أسلموا بعدها أرض النهرين وخمس ولايات وراء نهر دجلة ، وصد أعداء رومة عن حدودها جيلا من الزمان .

وواجه دقلديانوس وأعوانه فى زمن السلم المشاكل الناشئة من الانحلال الاقتصادى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاماً اقتصادياً تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات^(٤١) . ووضع نظاماً نقدياً سليماً بأن عين للعملة الذهبية وزناً وعياراً محددين ، احتفظت بهما الإمبراطورية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق

أو بغير ثمن على الإطلاق ، وشرع يقيم كثيراً من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملاً للمتعتلين^(٤٢) ، ووضع عدداً كبيراً من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك حاجات المدن والجيش ؛ وبدأ هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجار والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا لإشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لعدم تعطيلهم ولأرباحهم^(٤٣) . وكانت الدولة من زمن قديم تمتلك معظم مقالع الحجارة ، ورواسب الملح ، والمناجم ، ولكنها خضت في ذلك الوقت خطوة أخرى فحزمت تصدير الملح ، والحديد ، والذهب ، والحرير ، والحبوب ، والزيت ، من إيطاليا ، وفرضت نظاماً دقيقاً صارماً على استيراد هذه المواد^(٤٤) . ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التي تنتج حاجيات الجيش ، وموظفي الدولة وبلات الأباطرة . وحتمت على مصانع الذخيرة ، والنسيج ، والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين ، واشترت هذا القدر بالأثمان التي حددتها هي له ، وألقت على جميعات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أمت هذه المصانع ، وجهزتها بعمال فرضت عليهم أن يعملوا فيها^(٤٥) . وبهذا وضعت الكثرة الغالبة من المؤسسات الصناعية والثقابات الطائفية في إيطاليا شيئاً فشيئاً تحت سيطرة الدولة المتحدة في عهد أورليان ودوقلديانوس . ونخضع القصابون ، والمخابزون ، والبناءون ، وصناع الزجاج ، والحديد والحفارون خضع هؤلاء جميعاً لنظم مفصلة وضعتها لهم الحكومة^(٤٦) . ويقول رستوفتزف Rostoytzeff إن الهيئات الصناعية المختلفة كانت أشبه بأجراقيات صغرى على مؤسساتها تقوم بهذا العمل نيابة عن الدولة ، كانت أشبه بهذه المراقبات منها بمالكة المؤسسات . وكانت خاضعة لسلطان موظفي المصالح الحكومية المختلفة ، ولقواد الوحدات العسكرية المتباينة^(٤٧) .

وحصلت جميعات التجار والصناع من الحكومة على مزايا كثيرة متنوعة ،

وكثيراً ما كانت تؤثر تأثيراً كبيراً في خططها ؛ وكانت في نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء في الإدارة القومية ، فكانت تساعد الحكومة على تجنيد الأيدي العاملة ، وجباية الضرائب للدولة من أعضائها^(٤٨) . وامتدت وسائل من الإشراف الحكومي شبيهة بهذه الوسائل في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة في الولايات ، وإلى صناعة الأطعمة والملابس . وفي ذلك يقول بول - لوى Paul Louis : « وكان في كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحي النشاط الصناعي ، وأضحت الدولة في كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة تسيطر على جميع المصانع الخاصة التي كانت ترزح تحت أعباء الضرائب الفادحة »^(٤٩) .

ولم يكن مستطاعاً أن يسير هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع ، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه في عام ٣٠١ قانونه^{الرقم} الذي حددت به أقل الأثمان والأجور التي يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات الهامة في جميع أنحاء الإمبراطورية . وهاجم القرار في مقدمته الاحتكارات التي منعت البضائع من السوق في الوقت الذي « قلت فيه السلع » لكي ترتفع أثمانها .

« ومنذا الذي خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة في أسواق مدننا ، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء ؟ - ولهذا . . . يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات إن من الناس من يجعلون همهم الوقوف في وجه الرخاء العام والجري وراء الأرباح الباهظة القاتلة لقد عم الشره جميع العالم فحيثما اضطرت جيوشنا للذهاب لتأمين الناس بوجه عام ، رفع الجشعون الأثمان ، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه ، بل زادوه إلى الحد الذي تعجز الألفاظ عن وصفه ، حتى لقد يضطر

البحندى إلى دفع مرتبه كله وإعانة الحرب في شراء سلعة واحدة ، وبذلك يذهب كل ما يقدمه العالم كله لإمداد الجيش بحاجته في جيوب أولئك اللصوص الجشعين(*) (٥٠) .

ولقد ظل هذا المرسوم حتى وقتنا الحاضر أعظم محاولة في التاريخ كله لاستبدال القرارات الحكومية بالقوانين الاقتصادية . ولكن التجربة أخفقت إخفاقا عاجلا كاملا ، فقد أخفى التجار ما عندهم من السلع وشحت البضائع أكثر من ذي قبل ، واتهم دقلديانوس نفسه بالتغاضي عن ارتفاع الأسعار (٥٢) ؛ وحدثت عدة اضطرابات ؛ واضطرت الحكومة إلى التراخي في تطبيق المرسوم لإعادة الإنتاج والتوزيع إلى حالتها الطبيعية (٥٣) . وانتهى الأمر بإلغائه على يد قسطنطين .

وكانت علة ضعف هذا النظام الاقتصادي الخاضع للسيطرة الحكومية

(*) وتكشف أقصى الأثمان التي حددها ذلك المرسوم لبعض السلع عن مستوى الأسعار والأجور في عام ٣٠١ م فالقمح ، والعنيس والبسلة كان ثمن (البشل Bushel) منها يعادل ٥ ريال أمريكي ، وكان الشعير ، والشيلم ، والفول ١٠ ٢ ريال للبشل ؛ والنبيلة ٢١ - ٢٦ من مائة من الريال للبينت pint ؛ وزيت الزيتون ٥ ١٠ من مائة من الريال للبينت ، ولحم الخنزير ٥ ١٠ من مائة من الريال للطل الإنجليزي ، ولحم المجدول أو الضأن ٥ ٧ من مائة من الريال للطل الإنجليزي ، والدجاج الصغير كل اثنتين ٥ ٥٢ والزبابات (dormouse) كل عشر ٥ ٣٥ ؛ وأحسن أنواع الكرنب والخس كل خمس منها ٥ ٣ والبصل الأخضر كل ٥ ٢٥ ؛ وأحسن البزائب (snails) كل عشرين ٥ ٣ ؛ والتفاح أو الخوخ الكبير كل عشر ٥ ٣ ؛ والتين كل ٥ ٢٥ ؛ والشعر كل رطل إنجليزي ٥ ٣ ، والأحذية يتراوح ثمن الزوج منها بين ٦٢ من مائة و٣٨ ١ ريال ، وكانت أجور عمال الزراعة بين ٢٣ ، ٤٦ من مائة من الريال ؛ يضاف إليها الطعام ؛ وكان البنامون ، والتجارون ، والحدادون ، والحجازون ، يتقاضون ٤٦ من مائة من الريال مضافا إليها ثمن الطعام ؛ والحلاقون ٧٥ ر ١ ريال عن كل شخص ، والكتبة ٢٣ ر عن كل ١٠٠ سطر ، ومدرسو المدارس الأولية ٤٦ ر عن كل تلميذ في كل شهر ؛ ومدرسو الآداب اليونانية أو اللاتينية أو الهندية ٨٤ ر ١ عن كل تلميذ في الشهر ، والمحامون ٣٦ ر ٧ ريالات عن كل قضية ٥١

هى ما تطلبه تنفيذه من نفقات . فقد بلغت البيروقراطية التى تطلبها تنفيذه من الاتساع درجة وصفها اكنيوس بأنها احتاجت إلى نصف السكان ؛ ولا شك فى أنه بالغ فى هذا التقدير مبالغة كان الباعث عليها ميوله السياسية^(٥٤) . ووجد الموظفون آخر الأمر أن عملهم هذا مما تنوء به العدالة الإنسانية ، وكانت رقابتهم متباعدة يستطيع الناس أن يفلتوا منها بما أوتوا من مكر ودهاء . وارتفعت الضرائب ارتفاعاً لم يكن له مثل من قبل ، وفرضت على كل شىء لأداء أجور الموظفين ، ونفقات البلاط ، والجيش ، وبرنامج المنشآت العامة ، وإعالة العجزة والمعتقلين . ولم تكن الدولة قد كشفت بعد طريقة الاستدانة لتخفى بها إسرافها وتوكل يوم حسابها ؛ فقد كانت أعمال كل عام يتفق عليها من إيراد العام نفسه . وأراد دقلديانوس أن يحتاط لما عساه أن يحدث من أداء الضرائب بعملة مخفضة ، فأمر بأن تؤدى الضرائب عيناً كلما كان ذلك مستطاعاً ، وحتم على دافعى الضرائب أن يؤدوا ما عليهم إلى مخازن حكومية ، ووضع نظاماً شاقاً لنقل هذه الضرائب العينية من هذه المخازن إلى مقرها الأخير^(٥٥) . وجعل موظفى البلديات فى كل بلدية مسئولين من الوجهة المالية عن كل تقصير فى تحصيل الضرائب المفروضة على إقليهم^(٥٦) .

وإذا كان من طبيعية كل ممول أن يحاول الهروب من أداء ما عليه من الضرائب ، فقد أنشأت الدولة قوة خاصة من الشرطة للفحص عن أملاك كل شخص ودخله ، واستخدمت وسائل التعذيب مع الزوجات ، والأطفال ، والعبيد لإرغامهم على الكشف عن ثروة بيوتهم أو مكاسبها ؛ وفرضت عقوبات صارمة على من يحاولون الهرب من أداء ما عليهم^(٥٧) . ومع هذا كله فقد كاد الفرار من الضرائب أن يصبح وباء متفشياً فى الإمبراطورية كلها فى القرن الثالث ، وأضحى أكثر تفشياً فى القرن الرابع ؛ فكان الأغنياء يخفون ثروتهم ، وبدل الأشراف طبقتهم ووضعوا أنفسهم فى عداد الطبقة الدنيا حتى لا يختاروا للوظائف

البلدية ؛ وهجر الصنّاع حرفهم ، وترك الزراع أرضهم المثقاة بالضرائب ليصبحوا أجّراء عند غيرهم ، وأفقرت كثير من القرى وبعض البلدان الكبيرة (مثل طبرية في فلسطين) من أهلها لفدح الضرائب المفروضة عليها (٥٨) ؛ فلما كان القرن الرابع اجتاز عدد كبير من الأهليين حدود الإمبراطورية ولجأوا إلى البرابرة فراراً من الضرائب الفادحة .

وأكبر الظن أن الذى حمل دقلديانوس على الالتجاء إلى تلك الأعمال ، التى أوجدت في واقع الأمر نظام الاسترقاق الإقطاعى في الحقول ، والمصانع ، والنقابات الطائفية ، هو حرصه على منع هذه الهجرة التى تكلف الدولة كثيراً من النفقة ، وعلى ضمان ورود الطعام بانتظام للجيش والمدن ، والضرائب لبيت المال . وبعد أن جعلت الحكومة مالك الأرض بما فرضته عليه من الضرائب النوعية مسئولاً عن حسن استغلال مزارعيه لأرضه ، قررت أن يبقى الزراع في أرضه حتى يؤدى جميع المتأخر عليه من الديون أو العشور . ولسنا نعرف متى صدر هذا القرار التاريخى ، ولكننا نعرف أن قسطنطين سن في عام ٣٣٢ قانوناً يفترض وجود هذا القرار ويؤكدّه ، ويعمل المستأجر « يرتبط كتابة » بالأرض التى يزرعها ، لا يستطيع تركها إلا برضاء مالكها ، فإذا بيعت الأرض بيع هو وأسرته معها (٦٠) . وليس فيما وصل إلينا من المعلومات ما يدل على أن الزراع قد احتج على هذه القيود ، ولعل هذا القانون قد قدم إليه ضماناً لأمنه وسلامته ، كما هو حادث في ألمانيا في هذه الأيام . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الزراعة في القرن الثالث من الاسترقاق إلى الحرية ثم إلى الاسترقاق الإقطاعى ، وبهذا النظام استقبلت العصور الوسطى .

واتبعت في الصناعة وسائل من هذا النوع ليضمن بذلك استقرارها . فحرم على العمال تغيير عملهم ، أو الانتقال من مصنع إلى مصنع إلا بموافقة الحكومة ؛ وقصرت كل نقابة طائفية على حرفتها والعمل المقرر لها ، وحرم على أى إنسان أن

يفادو النقابة التي سجل اسمه فيها^(٦١) ، وألزم كل من يعمل في الصناعة أو التجارة بأن ينضم إلى نقابة من هذه النقابات الطائفية ، وحتم على الابن أن يشتغل بحرفة أبيه^(٦٢) ؛ فإذا رغب إنسان في أن يستبدل بمكانه أو حرفته مكاناً آخر أو حرفة أخرى ، ذكرته الدولة بأن إيطاليا يحاصرها البرابرة ، وأن على كل رجل أن يبقى حيث هو .

ولما استهل عام ٣٠٥ نزل دقلديانوس ومكسيمليان عن سلطتهما باحتفالين مهيين أقيما في نيقوميديا وميلان ، وأصبح جالوريوس ، وقنسطنطيوس أغسطس إمبراطورين أولهما للشرق وثانيهما للغرب . ولم يكن دقلديانوس قد تجاوز وقتل الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه اختفى في قصره الواسع القائم في أسبالاتا Spalata ، وقضى فيه الثمانية الأعوام الباقية من حياته . وشهد بعد انهيار حكومته الرابعة في غمار الحرب الأهلية . ولما أن ألح عليه مكسيميان أن يستولى على أزمة الحكم مرة أخرى ، ويقضى على الشقاق والحرب ، قال إنه لو رأى مكسيميان الكرنب الجيد الذي يزرعه في حديقته لما طلب إليه أن يضحى بهذه المتعة جرياً ، اء متاعب السلطان^(٦٣) .

والحق أنه كان قيناً بكرنبه وراحته ، فقد قضى على الفوضى التي دامت خمسين عاماً ، وأقر من جديد سلطان الحكومة والقانون ، وأعاد الاستقرار إلى الصناعة ، ورد الأمن إلى التجارة ، وأذل فارس ، وخضد شوكة البرابرة ، وكان بوجه عام مشرعاً أميناً مخلصاً ، وحاكماً عادلاً إذا ضربنا صفحاً عن بعض الاغتيالات القليلة التي جرت على يديه .

ولسنا ننكر أنه أقام بيروقراطية باهظة الأكلاف ، وقضى على الاستقلال الذاتي للولايات ، وعاقب معارضيهِ أشد عقاب ، واضطهد الكنيسة التي كان في وسعه أن يتخذها حليفة له فيما بذل من الجهود لإصلاح أحوال الدولة ، وجعل سكان الإمبراطورية مجتمعاً من الطبقات ، في أحد طرفه زراع جهلاء وفي طرفه

الآخر ملك مستبد مطلق السلطان . ولكن الظروف التي واجهتها رومة لم تكن تسمح بانتهاج سياسة تقوم على مبادئ الحرية ؛ وقد جرب ماركس أورليوس وألكسندر سبثرس هذه السياسة وأخفقوا فيها ، ورأت الدولة الرومانية نفسها محوطة بالأعداء من كل جانب ، ففعلت ما لا بد أن تفعله الأمم جميعها في أوقات الحروب التي يتقرر فيها مصيرها ، وقبيلت طغيان زعيم قوى ، ورضيت أن يفرض عليها ما لا تكاد تطيقه من الضرائب ، وتخلت عن الحرية الفردية إلى أن تنال الحرية الجماعية . ولقد قام دقلديانوس بالأعمال التي قام بها أغسطس ، وإن كانت قد كلفت أولهما أكثر مما كلفت الآخر ، ولكنه والحق يقال قام بها في ظروف أقسى من ظروفه . وقد أدرك معاصروه ومن جاءوا بعده الأخطار التي نجوا منها بفضل جهوده فلقبوه « أبا العصر الذهبي » . وسكن قسطنطين البيت الذي شاده له دقلديانوس .

الباب الثالثون

انتصار المسيحية

٣٠٦ - ٣٢٥ م

الفصل الاول

النزاع بين الكنيسة والدولة

٦٤ - ٣١١ م

كانت الحكومة الرومانية فيما قبل أيام المسيحية تُظهر في أغلب الأحيان للأديان المعارضة للدين الوثني المقرر تسامحاً تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية ؛ فلم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجّدون بها الآلهة ورئيس الدولة . ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود ، دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يابون أن يعظموا عِفرياً بهم . ذلك إن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء ، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التي تطلب إلى من يتألمون حق المواطنة في هذه الأيام . لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى في عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض . واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية

حركة متطرفة — بل لعلها حركة شيوعية — تعمل في السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معاً من غير أن يشتجر بينهما النزاع ؛ وكان القانون يعنى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور ؛ ونال المسيحيون في أول أمرهم هذه الميزة لأنه لم يكن يستطيع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين ليزيد حرقهم ألعاب نيرون بهاء ، بدلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائماً ، وحرباً تندلع نارها بين الفينة والفينة . فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الإيذاء ، أسلحتهم كلها إلى صدر رومة — فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام ؛ وسخروا بألفها ، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث^(١) ، وتنبؤوا بسقوطها بعد زمن قليل ، وأعلنوا ، في حماسة الدين الذي أخرجه عن تسامحه عدم تسامح الدولة معه ، أن كل من أنيحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذاباً أبدياً ؛ وقال الكثيرون منهم إن هذا سيكون أيضاً مضير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأى سبب من الأسباب ، وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط وحده من هذا العذاب . ورد الوثنيون على هذا بأن سمواً المسيحيين « حثالة الناس » و « البرابرة الوقحين » ، واتهموهم بأنهم « أعداء الجنس البشرى » ، وقالوا إن الكوارث التي حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونهم من المسيحيين بأن يبقوا أحياء^(٢) ؛ وأخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات ، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين ، وأنهم يقترون الخطايا سرّاً ، ويشربون دماء الآدميين في عيد الفصح^(٣) ، ويعبدون الحمار .

لكن النزاع كانت له أصول أعمق من هذا الخصام . ذلك أن الدولة كانت أساس الحضارة الوثنية في حين أن الدين كان هو أساس الحضارة المسيحية . فالروماني كان ينظر إلى دينه على أنه جزء من كيان الحكومة

وشعائرها ، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا . أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي ، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ؛ وكان يدين بأعظم الولاء للمسيح لا لقبصر . وقد وضع ترتليان المبدأ الثوري القائل بأن الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانونا يعتقد أنه ظالم^(٤) ؛ وكان المسيحي يعظم أسقفه ، بل يعظم قسيسه ، أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة^(٥) . وكان اعتزال المسيحي للمشئون الدنيوية يبدو للوثني كأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومي والإرادة القومية . وأشار ترتليان على المسيحيين بأن يرفضوا الخدمة العسكرية ؛ وعمل عدد كبير منهم بنصيحته كما يدل على ذلك نداء سلسس لهم بأن يضعوا حدا لهذا الرفض ، ورد أرجن عليه بأن المسيحيين سيدعون للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها^(٦) . وكان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وأن يتعدوا عن الألعاب الهمجية التي يقيمونها في أعيادهم ، وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور^(٧) . وحرم على المسيحي أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تزوج بغير مسيحي ؛ واتهم الوثنيون العبيد المسيحيين بأنهم يلدنون بنور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي ؛ واتهم الدين المسيحي بأنه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت^(٨) .

على أن معارضة الدين الجديد قد جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة . ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالا مثقفين متسامحين ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين ، وتعاليمهم ، وثقتهم بأنفسهم ؛ وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدون الذين يهينون الآلهة . ويشير ترتليان إلى « الكراهية العامة التي يحسون بها نحونا »^(٩) .

ويلوح أن القانون الرومانى منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام^(١٠) ؛ ولكن معظم الأباطرة كانوا يتفاوضون عن تنفيذ هذا القانون متعمدين^(١١) ، فكان فى وسع المسيحي إذا اتهم بمخالفته أن ينجو عادة من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور ؛ ويبدو أنه كان يسمح له بعد ذلك أن يمارس شعائر دينه غير مضيق عليه^(١٢) . أما المسيحيون الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور فكانوا يسجنون ، أو يجلدون ، أو ينفون ، أو يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، أو بالإعدام فى حالات نادرة . ويبدو أن دومتيان نفى بعض المسيحيين من رومة ولكنه « وهو الرجل الرحيم إلى حد ما ، لم يلبث أن وقف ما بدأه »^(١٣) . ونفذ پلنى هذا القانون مدفوعاً إلى ذلك بفضول الرجل الهاوى الذى يبغي إظهار سلطانه على الناس (١١١) ، إذا جاز أن نحكم عليه من رسالته التى بعث بها إلى تراجان :

« إن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون ؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأذنتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصرروا على قولهم ؛ فإذا أصرروا عليها أمرت بقتلهم إن الناس بعد أن هجروا المعابد ، فلا يكادون يطرقونها ، قد أخذوا الآن يعودون إليها وكثير الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال على شرائها »^(*) .

وقد رد عليه تراجان بقوله :

« إن الخطة التى سرت عليها يا عزيزى پلنى فى بحث حالات من اتهموا أمامك . بأنهم مسيحيون خطة حكيمة يجب ألا تجرد فى البحث عن

(*) انظر نص هذه الرسالة كاملاً ، ورد تراجان عليها فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية »

الجزء الأول (المترجم) .

هو **روء الناس** ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيد ذلك : . . بالابتهاال إلى آلهتنا فاعف عنه . . . فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر في البلاغ اسم المتهم فلا تتخذة بينة على أحد (١٤) .

وتوحي الفقرة التي أثبتناها هنا بخط الرقعة بأن تراجان لم ينفذ القانون القائم من قبل أيامه إلا مكرها ، ولكننا مع ذلك نسّمع عن شهيدين بارزين في أيام زعامته : أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم ، وثانيهما أغناطيوس أسقف أنطاكية ، وأكبر الظن أنه قد استشهد غيرهما ممن هم أقل منهما شهرة .

وأمر هدریان ، المتشكك الذي يتسع عقله لقبول كل الآراء ، موظفيه بأن يفسروا كل شك في مصلحة المسيحيين (١٥) ؛ أما أنطونينس ، الذي كان أكثر منه استمساكا بدينه ، فقد أباح اضطهادهم أكثر من هدریان . وحدث في أزميز أن طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية آسية ألا يتهاون في تنفيذ القانون ، فأجابهم إلى ما طلبوا وأمر بإعدام أحد عشر من المسيحيين في المختلد (١٥٥) ، ولكن هذا لم يطفى من تعطش الغوغاء للدماء بل زادهم ظمأ إليه ، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب وهو أب ورع في السادسة والثمانين من العمر قيل إنه في أيام صباه كان يعرف القديس يوحنا . وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ في بيت في ضاحية من ضواحي المدينة ، فجاءوا به إلى الوالى وهو يشهد الألعاب دون أن يبدي الرجل أية مقاومة . وألح عليه فليب أن « أقسم اليمين ، وسب المسيح ، وسأصفح عنك » . ويقول أقدم سفر من أعمال الشهداء إن بوليكارب أجابه بقوله : « لقد ظللت خادما له ستا وثمانين سنة ؟ لم يسمى فيها إلى قط ، فكيف إذن أسب ملكي الذي أنجاني ؟ » ونادى الغوغاء بأنه ينبغي أن يحرق حيا . وتقول الوثيقة التي فاض بها قلب مفعم بالتقوى والإيمان إن النار

كانت برداً وسلاماً عليه ، « بل كان فيها كالخبز الذى يخبز ، وقد فاحت منه رائحة ذكية كالتى تنبعث من البخور أو غيره من الأفاوية الغالية » وأمر الطغاة آخر الأمر سيافاً أن يجهز عليه بسيفه ؛ فلما فعل خرجت منه يمامة ، وخرج دم بلغ من غزارته أن انطفأت منه النار وأثار ذلك دهشة الجماهير كلها « (١٦) » .

وتجدد الاضطهاد فى عهد أورليوس الورع . ذلك أنه لما حلت بالبلاد الكوارث من فيضان ، ووباء ، وحرب ، فى حكمه الذى كان فى أول أمره حكماً موفقاً سعيداً ، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها . وشارك أورليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها ، فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب « باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة » بتلقيها عقائد جديدة . واثارت الجماهير الوثنية فى تلك السنة نفسها ثورة عنيفة على المسيحيين فى فينا وليون ورجوهم بالحجارة كلما تجرؤوا على الخروج من بيوتهم . وأمر المرسوم الإمبراطورى بالقبض على زعماء المسيحيين فى ليون ، ومات الأسقف پوثينس ، وهو شيخ فى سن التسعين ، فى السجن من آثار التعذيب . وأرسل رسول إلى رومة ليسأل الإمبراطور عما يشير به فى معاملة سائر المسجونين ، فأشار ماركس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحى ، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضى بذلك القانون .

وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطينيا كعادتهم فى كل عام ، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغالة حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية . وبينما كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جرى بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة ، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج ، وأصر سبعة وأربعون على الاستمسك بدينهم « فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا فى أيام محاكم التفتيش . من ذلك أن أتلس الذى يلى پوثينس فى المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسى من الحديد المحمى الذى شوى جسمه وأزهق

روحه (١٧) . وظلت بلندينا Blandina وهى أمة صغيرة السن ، تعذب يوماً كاملاً ، ثم ربطت فى زكينة ، وألقيت فى المجتلد ليفتك بها ثور وحشى . وتحملت الفتاة عذابها وهى صامئة ، ولذلك اعتقد كثيرون من المسيحيين أن المسيح كان يفقد شهادته قوة الإحساس بالألم ، ولعل النشوة الدينية والخوف هما علة عدم الإحساس . وفى ذاك يقول ترتليان : « إن المسيحى كان يلهج بالشكر حتى حين يحكم عليه بالإعدام » (١٨) (*) .

وخفت حدة الاضطهاد فى عهد كودس ، ثم عاد إلى ما كان عليه فى عهد سبتيوس سفيرس ، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يعد جريمة تستحق العقاب . وفى عام ٢٠٣ استشهد كثيرون من المسيحيين فى قرطاجنة ومن هؤلاء أم فى مقبل العمر تدعى بربتوا Berpetua تركت وراءها وصفاً يفتت الأكباد لأيامها التى قضتها فى السجن ، ورجاء أبها لها أن تنكر الدين المسيحى . وقد أقيمت هى وأم شابة أخرى إلى أحد الأتوار الوحشية وافترسهما الثور . ولدينا فى أحد أسئلتها الأخيرة « حين ألقى بها إلى الثيران » دليل على ما يحدثه الخوف والغيوبة من تخدير . وتصف لنا قصتها كيف وجهت بنفسها إلى عنقها خنجر المجالد الذى أمر على الرغم منه أن يقتلها (١٩) ، ولم تكن الإمبراطورات السوريات اللائى جلسن على العرش بعد سبتيوس يعنين كثيراً بالآلهة الرومانية . ولقيت المسيحية فى أيامهن شيئاً من التسامح الناشئ من عدم اهتمامهن بأمرها . ويبدو أن السلم قد سادت جميع الأديان المتنافسة فى أيام ألكسندر سفيرس .

وانتهت الهدنة بتجدد هجمات البرابرة . وإذا شئنا أن نفهم الاضطهاد فى عهد

(*) ومعلوماتنا عن الاضطهاد الذى حدث فى ليون مستمدة من رسالة بعث بها « خدام المسيح فى بلد لوم وثينا من أعمال غالة إلى إخوانهم فى آسية وفرنچيا » وقد بعيت هذه الرسالة فى كتاب تاريخ الكنيسة ليوستيروس ٥ : ١ . ولعل بعض المغالاة قد سرت إلى هذا التقرير .

ديسيوس (أو أورليوس) على حقيقته وجب علينا أن نصور لأنفسنا أمة
منهمكة في حرب عوان ، تزعجها الهزائم المنكرة ، وتتوقع أن يغزو بلادها
الاعداء . وتحتاج الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية في عام
٢٤٩ ؛ ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها
بالصلوات والدعوات ؛ وفي وسط هذه الحمى التي تتأجج فيها نيران الوطنية
والخوف ، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعينهم الأمر ،
ويظلون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها^(٢٠) ،
ويسخرون من الآلهة ، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى
التي وردت في النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح . وأراد
ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية
روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوما يطلب فيه إلى جميع
سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة رومة بعمل يتقربون به إليها
ويردون به غضبها . ويلوح أن المسيحيين لم يطلب إليهم أن ينكروا دينهم ،
بل أمروا أن يشتركوا في التوسل إلى الآلهة التي طالما أنجت رومة من الخطر
المحدق بها كما يعتقد العامة . واستجابت كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر ؛
ففي الإسكندرية « كانت الردة عامة » على حد قول الأسقف ديونيشيوس^(٢١) ؛
وحدث ذلك بعينه في قرطاجنة وأزمير ؛ وأكبر الظن أن المسيحيين من
أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يعبدون أن يكون
نوعاً من الوطنية ؛ ولكن أسقفى أورشليم وأنطاكية قضيا نخبهما في غيابه
السجن ، وأعدم أسقفا رومة وطولوز (٢٥٠) ، وألقي مئات من المسيحيين
الرومان في غيابة الحب ، وقطعت رءوس بعضهم ، ومات الكثيرون
منهم على قوائم الإحراق ، وألقي عدد قليل منهم إلى الوحوش في حفلات
الأعياد . وخفت حدة الاضطهاد بعد عام من ذلك الوقت ، ولم يحل عيد
الفصح في عام ٢٥١ حتى انتهى أمرها أوكاد ؛ وبعد ست سنين من ذلك
الوقت أمر قليريان ، في خلال أزمة أخرى من أزمت الغزو والرعب ،

أن « يمثل كل شخص للشعائر الرومانية » ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية . وعصى البابا سككتس Sixtus هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته ، وكذلك قطع رأس سريان أسقف قرطاجنة ، وحرق أسقف طراقونة حيا . وفى عام ٢٦١ نشر جالينوس ، الذى جلس على العرش بعد أن أزال عنه الفرس فليريان ، أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم . وحدثت اضطهادات خفيفة فى السنين الأربعين التالية ، ولكن هذه السنين كانت فى معظمها سنى هدوء ونماء سريع للمسيحية لم تر لها مثيلا من قبل . فقد كان الناس فى خلال الفوضى والرعب السائدين فى القرن الثالث يقرون من الدولة الواهية المزعزعة الأركان إلى الذين يجدون فيهم سلواهم ، وقد وجدوا هذه السلوى فى المسيحية أكثر مما كانوا يجدونها فى غيرها من الأديان المنافسة لها . واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء ، فشادت كنائس فخمة ، وأجازت لأبنائها أن يستمتعوا بطيبات العالم . ونجبت نار الأحقاد الدينية بين الأهلين ؛ وأصبح المسيحيون أكثر حرية فى الاختلاط بالوثنيين ، بل لمنهم تزوجوا منهم ، وبدا أن ملكية دقلديانوس الشرقية قد قدر لها أن تعزز الأمن والسلام فى الدين وفى السياسة على السواء .

بيد أن جليريوس كان يرى أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل السلطة المطلقة ، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة ، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة . وتردد دقلديانوس فى الأخذ بهذه المشورة ، لأنه كان عازفاً عن ركوب أخطار لا موجب لها ، ولأنه كان أكثر من جليريوس تقديراً لثقل هذا العبء . ولكن حدث فى يوم من أيام القربان الإمبراطورية أن رسم المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين الخبيثة ؛ ولما أن عجز العرافون عن أن يجدوا فى أكباد الحيوانات « المذبوحة العلامات التى كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود أشخاص

كفار نجسين ، فأمر دقلديانوس أن يقرب جميع الحاضرين القرايين إلى الآلهة أو يجلدوا ، وأن يمثل جميع جنود الجيش هذا الأمر أو يفصلوا من الخدمة (٣٠٢) . ومن أغرب الأشياء أن الكتاب المسيحيين يتفقون هنا مع الكهنة الوثنيين فيقول لكتنتيوس Lactantius^(٢٢) إن صلوات المسيحيين أبعدت الآلهة الرومانية ، وكتب الأسقف ديونيشيوس بهذا المعنى ذاته قبل ذلك بجيل . ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة ، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له في آخر الأمر . وأمر الحكام الأربعة في عام ٣٠٣ أن تهدم كل الكنائس المسيحية ، وأن تحرق الكتب المسيحية ، وتحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها ، ويحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، ويعاقب بالإعدام من يضبط منهم في أى اجتماع ديني . وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نقوميديا وتدميرها عن آخرها .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكتلة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية في سوريا ، وأضرمت بعضهم النار مرتين في قصر دقلديانوس بنقوميديا . واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمداً ، واتهموه هم بنفس التهمة ، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا ، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد . وأصدر دقلديانوس في شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يفرض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التي تعرفها رومة . فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدرأ استشاط غضباً من هذه المقاومة ، وأمر جميع كبار الحكام في الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحي ، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة . ولعله قد سره أن يك هذه المقامرة التعسة إلى من يخلفه فاعتزل الملك .

ونفذ مكسميان هذا المرسوم في إيطاليا تنفيذاً عسكرياً كاملاً صارماً .
وشجع جليريوس بعد أن صار أغسطس الاضطهاد في الشرق بجميع
وسائل التشجيع ، فزاد عدد الشهداء في كل جزء من أجزاء الإمبراطورية
عدا غالة وبريطانيا ، حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من
الكنائس . ويؤكد لنا نوسيبيوس ؛ ولعله يفعل ذلك في سورة الغضب ،
أن الناس كانوا يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم ، أو أن لحومهم
كان يقشر عن عظامهم بالأصداف ، وكان الملح أو الخل يصب في
جروحهم ، ويقطع لحومهم قطعة قطعة ويرى للحيوانات الواقعة في
انتظارها ، أو يشدون إلى الصليبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً
جزءاً . ودقت عصى حادة الأطراف في أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم ،
وسملت أعين بعضهم ، وعلق بعضهم من يده أو قدمه وصب الرصاص
المصهور في خلوق البعض الآخر ، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا ،
أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة ؛ ومزقت أشلاء البعض بأن
شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنياً مؤقتاً (٢٣) وقد وصل إلينا
علم ذلك كله عن المسيحيين ، أما الوثنيون فلم ينقلوا إلينا شيئاً من هذه
الأخبار .

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من
المسيحيين ، بعضهم من أتباع الدين القويم ، وبعضهم من الملاحدة ،
وقامى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب . وارتد آلاف
من المسيحيين عن دينهم ؛ وتقول بعض الروايات إن مرسلينس Marcellinus
أسقف رومة نفسه أرغم بضروب من الأرهاب والتعذيب على أن يرتد
عن دينه ، ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم ؛ وكان منظر
استبسالهم في الإخلاص لدينهم ، أو كانت أخبار هذا الاستبسال ، رغم
ما قاسوه من ألوان العذاب ، كان هذا وذاك سبباً في شد عزيمة المترددين ،
وضم أنصار جدد للجماعات الدينية المضطهدة . وأثارت ضروب الاضطهاد
الوحشى المتزايدة الرحمة في قلوب الأهلين الوثنيين ؛ ووجد الصالحون
في نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذي

لم يكن له مثيل في التاريخ الروماني كله . لقد كان الشعب في الأيام الخالية يدفع الدولة إلى القضاء على المسيحية ؛ أما الآن فقد وقف الشعب بعيداً عن الحكومة ، وعرض كثيرون من الوثنيين أنفسهم للموت بحماية المسيحيين أو إخفاتهم حتى تنجلي هذه العاصفة^(٢٤) . وقد انجلت فعلاً في عام ٣١١ ، ففي ذلك العام أصدر جليريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعاً ، وطلب إلى المسيحيين أن يدعوا له في صلاتهم نظير « رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقة »^(٢٥) . وكان الباعث له على إصدار هذا المرسوم رجاء زوجته وتوسلها له أن يصالح إله المسيحيين الذي لم يهزم ؛ وكان جليريوس وقتئذ يشكو من داء عضال ، ويوقن بإخفاقه في القضاء على المسيحية .

وكان اضطداد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية ، كما كان في الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها . نعم إن هذا الاضطهاد أضعفها إلى حين ، بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشأوا في أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء ؛ ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها ؛ ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبتهم ، أو عذبوا في سبيل دينهم ، أخذت تنتشر من مكان إلى مكان . ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية مبالغ فيها . مثيرة للعواطف محركة للنفوس ، كان لها شأن أياً شأن في إحياء العقيدة المسيحية ، وتثبيت دعائمها . وفي ذلك يقول برتليان « إن دم الشهداء هو البذور » التي نبتت منها المسيحية^(٢٦) . وليس في تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالى عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة ، ولكنها صبرت على هذه المحن جميعها واستمسكت بدينها ، وتضاعف عددها وهي هادئة ساكنة ، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى ، تصد القوة بالقوة ، والوحشية بالأمل ، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ . لقد التقى قيصر والمسيح في المختل ، فانتصر المسيح على قيصر .

الفصل الثانى

قسطنطين

شهد دقلديانوس ، وهو هادئ فى قصره بسلامشيا ، فشل الاضطهاد والحكومة الرباعية ، ذلك أن الإمبراطورية لم تشهد قط فى أيامها السابقة ما شهدته من الاضطراب بعد نزوله عن العرش . وقد استطاع جلريوس أن يقنع قنسطنطيوس بأن يعين سفيرس ومكسمينس دازا « قيصرين » (٣٠٥) . وما لبث مبدأ الوراثة أن أخذ يثبت دعواه ، فقد رغب مكسنطيوس Maxentius بن مكسميان أن يخلف أباه فى سلطانه ، واثارت هذه الرغبة نفسها فى قلب قسطنطين .

وكان فلاقيوس فليريوس قسطنطينس قد بدأ حياته فى نايسس Naissus ابناً غير شرعى لقنسطنطيوس من محظيته الشرعية هيلينا ، خادمة إحدى الخانات فى بيشينيا (٢٧) . فلما أصبح قنسطنطيوس قيصرأ طلب إليه دقلديانوس أن يتنحى عن هيلينا ويتزوج بثودورا ربيبة مكسميان . ولم يتلق قنسطنطين من العالم إلا قليلا ، فقد انحرف فى سلك الجندية فى سن مبكرة ، وأظهر بسالته فى الحروب التى قامت ضد مصر وفارس : ولما خلف جليريوس دقلديانوس أبى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس . ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب ، تلكأ جليريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيراً من اللهاء ، ولكن قسطنطين فر من حراسه ، واخترق أوربا راكباً ليلاً ونهاراً لينضم إلى أبيه فى بولونى Boulogne ، ويشترك معه فى حرب ضد بريطانيا . وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لِمَا كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم ، الشجاع ، النشط ، أحبه حبا جما ، ولما مات والده فى يورك York (٣٠٦) ، لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين

« قيصرآ » فحسب بل نادوا به أغسطس — إمبراطورآ . لكنه رضى بأصغر اللقبين بحجة أنه لن يأمن على حياته إذا لم يكن من ورائه جيش يحميه . ولم يستطع جليريوس أن يتدخل في الأمر لبعده ، فاعترف به « قيصرآ » ، وهو كاره . وحارب قسطنطين الفرنجة الذين غزوا الإمبراطورية وانتصر عليهم ، وأطعم وحوش المدرج الغالى ملوك البرابرة .

وفي هذه الأثناء نادى الحرس البريتورى فى رومة بمكسنتيوس إمبراطورآ ، لأنه كان يتوقّ لعودة الزعامة إلى العاصمة الثليدة (٣٠٦) . وانقض عليه سفيرس من ميلان وهاجمه . وضاعف مكسميان الاضطراب والفوضى فعاد إلى لبس الأرجوان (*) لإجابة لطلب ولده ، واشترك فى الحرب التى شبت ناراها وقتئذ . وتخلّى جنود سفيرس عنه وقتلوه (٣٠٧) ؛ وأراد جليريوس ، وكان فى ذلك الوقت شيخا طاعنا فى السن ، أن يقوى مركزه ليواجه الفوضى التى أخذت تضرب أطناها فى البلاد ، فعين أغسطس جديداً — فلافيوس ليسنيوس Flavius Licinius ، فلما سمع قسطنطين بهذا اتخذ لنفسه أيضا هذا اللقب (٣٠٧) ؛ وبعد سنة واحدة لقب مكسمنيوس دازا نفسه باللقب عينه ، وبهذا أصبح فى الإمبراطورية ستة أغطسة بدل الاثنين اللذين كانا على عهد دقلديانوس ، ولم يكتف واحد منهم بأن يكون قيصرآ فقط ، وتنازع مكسنتيوس مع والده ، وذهب مكسميان إلى غالة ليستغيث بقسطنطين ، وقد كان وقتئذ يحارب الألمان على ضفاف الرين . وحاول مكسميان أن يكون هو قائد الجيوش الغالية بدله ، واخترق قسطنطين غالة بجيشه ، وحاصر المغتصب فى مرسيليا ، وأسرّه . وتفضل عليه بأن أجاز له أن ينتحر (٣١٠) .

وأزال موت جليريوس الحاجز الأخير بين الدسائس والحرب ، فاثتمر

(*) أى عاد إمبراطورا كما كان من قبل (المترجم) .

مكسمينس ومكسنتيوس للقضاء على ليسنيوس وقسطنطين ، واثتمر الثانيان للقضاء على الأولين . ورأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل ، فعبّر جبال الألب ، وهزم جيشاً لعدويه قرب تورين Turin ، وزحف على رومة بسرعة مدهشة ونظام عسكري يذكران الإنسان بزحف قيصر من الريبكون Rubicon . والتقى في السابع والعشرين من شهر اكتوبر عام ٣١٢ بقوى مكسنتيوس عند سكسا ربرا Saxa Rubra (الصخور الحمراء) ، التي تبعد تسعة أميال عن رومة جهة الشمال ، وأفلح بخططه الحديثة الفائقة أن يزغم عدوه على أن يقاتل ونهر التيبر من ورائه ، وليس له من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس ويقول يوسيبوس (٢٨) إن قسطنطين شاهد بعد ظهر اليوم الذى دارت فيه المعركة صليبا ملتبها في السماء وعليه تلك العبارة اليونانية en touti mika ومعناها « بهذه العلامة انتصر » (*) .

وفي صباح اليوم الثانى - كما يقول يوسيبوس ولكتنتيوس (٣١) رأى قسطنطين فيما يرى النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف X على دروعهم وفي وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه - علامة الصليب . فلما استيقظ من نومه صددع بأممر وخاض المعركة خلف لواء « عرف من ذلك الوقت باسم اللبارم Labarum » رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب . ولعل حقيقة الأمر أن قسطنطين رأى أن يربط حظه بحظ المسيحيين حين رأى مكسنتيوس يرفع لواء مئراس أورليان ، وهو لواء الشمس التي لا تقهر . وكان عدد جنوده المسيحيين وقتئذ كبيراً ، وبهذا جعل هذه المعركة نقطة التحول

(*) تنقلها الرواية المتواترة عادة في صورتها اللاتينية in hoc signo أو in hoc signo vinces « بهذه العلامة سوف تنتصر » . وعمدتنا الوحيد في هذه الرؤيا هو يوسيبوس وهو باعترافه يميل إلى تأييدها (٢٩) إذ يقول : « وإذا كان الإمبراطور قد أقسم حين قصها على أنها صحيحة بعد أن اعترفت أن أكتب تاريخه . . . فنذا الذى يستطيع أن يشك في قوله ؟ » (٣٠)

في تاريخ الأديان . ولم يكن الصليب يسمى إلى جنود قسطنطين من عبّاد
مثراس ، لأنهم طالما حاربوا تحت لواء يحمل شعاراً مثراسياً من الضوء (٣٢) .
ومهما يكن من شيء فقد انتصر قسطنطين في واقعة جسر ملقيوس وهلك
مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده في نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر رومة
ونحيته المدينة وأصبح سيّد الغرب بلا منازع .

وتقابل قسطنطين وليسنيوس في ميلان في أوائل عام ٣١٣ لينسقا حكمهما :
وأراد أولهما أن يجعل تأييده للمسيحيين عاما يشمل الولايات جميعها ، فأصدر
هو وليسنيوس « مرسوم ميلان » يؤكدان فيه التسامح الديني الذي أعلنه
جليريوس ووسعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها ، ويأمران بأن يعاد إلى
المسيحيين ما انتزع من أملاكهم في أثناء الاضطهاد الأخير . وعاد قسطنطين
للدفاع عن غالة بعد هذا الإعلان التاريخي الذي كان في واقع الأمر اعترافاً
بهزيمة الوثنية ؛ واتجه ليسنيوس نحو الشرق ليكيل الضربات إلى مكسمينس
(٣١٣) ؛ ولكن مكسمينس مات بعد قليل من ذلك الوقت فأصبح
قسطنطين وليسنيوس حاكمي الإمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع . وتزوج
ليسنيوس أخت قسطنطين ، واغتنب الشعب الذي ملّ الحروب بمخايل
السلام البادية في الأفق .

ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أملهم في أن يكون صاحب السيادة
موحده على الدولة جميعها ؛ ووصل العداء المتزايد بينهما في ٣١٤ إلى امتشاق
الحسام ، فغزا قسطنطين باثونيا ، وهُزم ليسنيوس ، واضطر إلى أن يسلم له
جميع أملاك الدولة الرومانية في أوروبا ما عدا تراقية . وانتقم ليسنيوس من
المسيحيين المؤيدين لقسطنطين بالعودة إلى اضطهادهم في آسية ومصر ؛ فطرد
المسيحيين من قصره في نقوميديا ، وحتم على كل جندي أن يعبد الوثنية ،
وحرّم اجتماع الرجال والنساء في أثناء العبادات المسيحية ، ثم حرّم آخر الأمر

جميع الشعائر المسيحية داخل المدينة ، وأمر بطرد من عصى من المسيحيين .
من خدمة الحكومة وحرمانهم من حق المواطنة ، ومن أملاكهم ،
أو حريتهم أو حياتهم .

وظل قسطنطين يترقب الفرصة التي تمكنه من إنقاذ المسيحيين في بلاد
الشرق ومن إضافة الشرق نفسه إلى أملاكه . وأتيحت له هذه الفرصة
حين غزا البرابرة تراقية وعجز ليسنيوس عن الزحف لملاقاتهم ، فصار
قسطنطين على رأس جيشه إلى تسالونيكى لينتقد ولاية ليسنيوس من الغزاة .
فلما أن صد البرابرة احتج ليسنيوس على دخوله تراقية ، وتجددت الحرب
بين الملكين لأن كليهما لم يكن يجنح للسلم . والتقى حامي المسيحية ومعه
١٣٠٠ ر ١٠٠ من رجاله بحامى الوثنية على رأس ١٦٠ ر ١٠٠ في أدرنة أولاً ثم
في كريسبوليس Chrysopolis (أشقودرة) ، وانتصر وأصبح وحده
إمبراطوراً على الدولة الرومانية (٣٢٣) . واستسلم ليسنيوس بعد أن وعده
قسطنطين بالعفو عنه ، ولكنه أعدم في السنة الثانية متهما بأنه عاد إلى
دسائسه . واستدعى قسطنطين المنفيين من المسيحيين ، وأعاد إلى كل « المؤمنين »
ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات . ومع أنه كان لا يزال يعلن أن الناس
كلهم أحرار فيما يعبدون ، فقد أعلن وقتئذ صراحة اعتناقه الدين المسيحي ،
ودعا رعاياه أن ينهجوا نهجة في اعتناق الدين الجديد .

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً ، عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملت لها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب (٣٣) . لقد اعتنقت أمه هيلينا الدين المسيحي حين طلقها قسطنطينوس ؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية ، وما من شك في أنه تأثر بما ناله من انتصارات في المعارك الحربية التي خاض غمارها مستظلاً بلواء المسيح وصلبيه . ولكن المتشكك وحده هو الذى يحتال هذا الاحتمال على استخدام مشاعر الإنسانية الدينية لنيل أغراضه الدنيوية . ويقول صاحب كتاب تاريخ أغسطس Historia Augusta على لسانه : « إن الحظ وحده هو الذى يجعل الإنسان إمبراطوراً » (٣٤) — وإن كان قوله هذا تواضعاً منه لا اعتقاداً بسيطرة الظروف على مصائر الناس . وقد أحاط نفسه في بلاطه ببلاذ غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين (٣٥) ، وقاما كان بعد اعتناقه دينه الجديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس ، ويتضح من رسائله التي بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التي كانت تضطرب بها المسيحية — مع أنه لم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية . " وقد كان في أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ؛ فكان يستدعيهم إليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغليبتهم من آراء . ولو أنه كان مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً وحاكماً سياسياً بعدئذ ؛ ولكن الآية انعكست في حال قسطنطين ، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية .

ولقد شهد في حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات ، وانطبع في نفسه بلاريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد . نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة في الدولة ، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة ، مستبسة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية ، وكان فيها عدد كبير من النفوس التي لا عقيدة لها ولا نفوذ في الدولة . وكان المسيحيون كثيرين في زومة بنوع خاص في عهد مكسنتيوس ، وفي الشرق في أيام ليسنيوس ؛ وقد أفاد قسطنطين من تأييد المسيحية اثني عشر خيلاً لاقى بها هذين القائدين . ولقد أعجب بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية ، وبمتانة أخلاقهم ، وحسن سلوكهم ، وبجمال شعائر المسيحية وخلوها من القرايين الدموية ، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم في أنهم سيحظون بالسعادة في الدار الآخرة . ولعله كان يرجو أن يظهر هذا الدين الحديد أخلاق الرومان ، ويعيد إلى الزواج والأسرة ما كان لها من شأن قديم ، ويخفف من حدة حرب الطبقات . وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد ، ذلك بأن معلمهم قد غرسوا في نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، ولقنوهم حق الملوك المقدس . وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكاً مطلق السلطان وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتي ولسطان الكنيسة الديوى يقمان نظاماً روحياً يناسب نظام الملكية ؛ ولعل هذا النظام العجيب ، بما فيه من أساقفة وقساوسة ، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها .

لكن قسطنطين اضطر إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر ، لأن الوثنية كانت هي الغالبة على العالم الذي يعيش فيه . ولذلك ظل يستخدم ألفاظاً توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثني ؛ وقام في خلال السنين الأولى من سلطانه

المفرد في صبر وأناة بجميع المراسيم التي يتطلبها منه منصب **الطاهر الأكبر** ،
والتي تحتمها عليه الطقوس التقليدية ، وجدّد بناء الهياكل الوثنية ، وأمر
بممارسة أساليب العرافة ؛ واستخدم في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية
ومسيحية معاً ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء
الأمراض (٣٦) .

ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجاً بمحاربة المسيحية ، فحاً بعد
عام ٣١٧ من نقوده واحدة بعد واحدة ما كان على وجهها من صور
وثنية ، ولم يحلّ عام ٣٢٣ حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة
لاهي مسيحية ولا وثنية . ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم
مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه ، يخوّل الأساقفة المسيحيين حق الفصل
فيما يقوم في أبرشياتهم من منازعات قضائية (٣٧) ، وأعفت قوانين أخرى
أُملاك الكنيسة العقارية من الضرائب (٣٨) وجعلت الجماعات المسيحية
شخصيات معنوية قضائية ، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات ،
وجعلت الكنيسة هي الوارثة لأُملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية (٣٩) .
كذلك وهب قسطنطين أموالاً إلى الجامعات الدينية المحتاجة إليها ، وشاد عدداً
من الكنائس في القسطنطينية وغيرها من المدن ، وحرم عبادة الأوثان
في عاصمته الجديدة . وكأنه نسي مرسوم ميلان فحزم اجتماع الشيع
الدينية الملحقة ، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية (٤٠) ، وربى
أبناءه تربية مسيحية سليمة ، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التي كانت
تقوم بها أمه . وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التي فاقت كل ما كانت
تتوقعه ؛ وكتب يوسيديوس صحائف كانت في واقع الأمر عقود مدح
لقسطنطين وإقراراً بفضلته . واحتشد المسيحيون في جميع أنحاء الإمبراطورية
ليعبّروا عن شكرهم لانتصار إلههم .

غير أن سحباً ثلاثاً كثرت صفو ذلك اليوم الذي « لا سحاب فيه » :

تلك هي انشقاق الأديرة ، والانشقاق الدوناني (*) ، والإلحاد الأريوسى (**). وكانت الكنيسة ، في الفترة الواقعة بين اضطهادى ديسبودى ودقلديانوس ، قد أضحت أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية ، وخففت من هجماتها على الثراء . فترى سبريان يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حُبُّ المال عقولهم ؛ ومن أن النساء المسيحيات يصبغن وجوههن ، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدرّ عليهم المال الكثير ، فأثروا ، وأقرضوا المال بربا فاحش ، وارتدوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر^(١) . ويبدى يوسيبوس حزنه من تناحر القساوسة في تنافسهم على المناصب الكنسية العليا^(٢) ،

وقصارى القول أن الدنيا جعلت المسيحيين رجال دنيا في الوقت الذي هدت فيه المسيحية العالم إلى ذلك الدين ؛ وأظهرت الدنيا ما في الفطرة البشرية من غرائز وثنية . وقامت الرهينة المسيحية احتجاجا على هذا التوفيق المتبادل بين الروح والجسم . ذلك أن أقلية من المسيحيين كانت ترغب في الابتعاد عن كل طاعة للشهوات البشرية ، وتطالب بالاستمرار على الانهماك المسيحى القديم في التفكير في الحياة الأبدية الخالدة . وجرى بعض هؤلاء الزهاد على سنّة الكلبين ، فتخلوا عن جميع أملاكهم ، وارتدّوا ثوب الفلاسفة الخلق ، وعاشوا على ما يقدّم لهم من صدقات . وذهب بعضهم ليعيشوا بمفردهم في الصحراء المصرية كما فعل بولس الناسك . وحدث حوالي عام ٢٧٥ أن بدأ راهب مصرى يدعى أنطونيوس ريع قرن من حياة العزلة قضى بعضها أولا في قبر ، وبعضها في حصن جبلى مهجور ، وبعضها الآخر في فجوة ضيقة نحتها في الصخور ، كانت تلتابه فيها أثناء الليل

(*) نسبة إلى دوناتس Donatus وهو زعيم شعبة مسيحية أفريقية ظهرت في القرنين الرابع والخامس ، وكانت تعارض أى نقص في احترام الشهداء ، وتطالب بإعادة تعميم من ينضمون إليها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (المترجم) .

(**) نسبة إلى أريوس الإسكندرى المتوفى عام ٣٣٦ م . والذي كان ينكر الوهية المسيح . (المترجم)

روى خفيفة وأجلام لذينة تغلب عليها كلها ، حتى اشتهر بالقداسة ، وعمت هذه الشهرة جميع أنحاء العالم المسيحي ، وعمرت الصحراء بالنساك المنافسين له : وأحس باخوميوس في عام ٣٢٥ أن اعتزال الناس أنانية فجمع الزهاد في دير عند طابين في مصر ، وأنشأ الرهبنة الجماعية التي صار لها أعظم الأثر في بلاد الغرب . وقاومت الكنيسة حركة الرهبنة وقتما ما ، ثم رضيت بها لتوازن اهتمامها المتزايد بشئون الحكم .

وقبل أن يمضى عام واحد على اعتناق قسطنطين المسيحية حدث فيها انشقاق شديد الخطورة كاد يقضى عليها في ساعة النصر . ذلك أن دوناتس Donatus أسقف قرطاجنة ، يؤيده قس اسمه كاسمه ومزاجه كمزاجه ، أصر على أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بعملهم هذا أهليتهم لمنصبهم وسلطتهم ، وأن شعائر التعميد ورسامة القساوسة التي تجرى على أيدي هؤلاء الأساقفة باطلة ، وأن صحة العشاء الرباني يقف بعضها على الحالة الروحية للقائم بخدمته . ولما رفضت الكنيسة العمل بهذه العقائد الصارمة نصب الدوناتيون أساقفة جدد في كل مكان رأوا أن الأسقف الذي فيه لا تنطبق عليه شروطهم . وحزن قسطنطين أشد الحزن ليمّا أعقب هذه الحركة من فوضى وعنف ، وقد كان يظن أن المسيحية ستكون قوة تعمل على الوحدة ؛ ولعله قد تأثر بعض التأثير بالحلف الذي عقد إلى حين بين الدوناتيين وبين القائمين بالحركات المتطرفة بين الزراع الإفريقيين : ولهذا دعا الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد في أريلس (٣١٤) ، وأيد ما أصدره من قرار بالتشهير بالدوناتية ، وأمر المنشقين بالعودة إلى الكنيسة ، وقرر أن الجماع التي لا تطيع هذا القرار تفقد أملاكها وحقوقها المدنية (٣١٦) . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت طافت بعقله في فترة قصيرة ذكرى مرسوم ميلان ، فألغى هذه القرارات ، وتسامح مع الدوناتيين

تساعماً مصحوباً بالسخرية . وبقيت هذه الشيعة حتى قضى العرب على
(أتباع الدين القويم وعلى الملحددين حين فتحوا أفريقية .

وفى هذه السنين نفسها شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية
فى تاريخ الكنيسة ؛ ذلك أن قسماً مصرياً تقدم إلى أسقفه حوالى عام ٣١٨
بآراء غريبة عن طبيعة المسيح ، ويصفه مؤرخ كاثوليكي عالم وصفاً
كريمياً فيقول :

« كان أريوس . . . طويل القامة ، نحيل الجسم ، مكتئب المظهر ،
ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش . وكان معروفاً بأنه من الزهاد ،
كما يستدل على ذلك من ملبسه - وهو جلباب قصير من غير كمين تحت
ملحفة يستخدمها عبادة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة ، وخطبه
مقنعة . وكانت العذارى اللاتى نذرنا أنفسهن للدين ، وهن كثيرات فى
الإسكندرية ، يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد
كبير من المؤيدين » (٤٣) :

ويقول أريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان
هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسمائها . واحتج الأسقف ألكسندر
على هذا القول ، ولكن أريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من
نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا
لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن . يضاف إلى هذا
أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شيء ، أى من
غير مادة الأب ؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد وُلد
الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها . ونحن
نرى فى هذه العقائد استمراراً للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق
الرواقين ، وفيلون ، وأفلوطينس ، وأرجن إلى أريوس . وبذلك
أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى
نزاع مع الكنيسة .

وارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء ، وارتاع أكثر من هذا من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم . ولهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع في الإسكندرية ، وأقنع أعضائه بأن يحكموا بتجريد أريوس وأتباعه ؛ وأبلغ الإجراءات التي اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة ، فاعترض عليها بعضهم ، وأظهر بعض القساوسة عطفاً على أريوس ، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا في الولايات الآسيوية في هذه المشكلة ، وترددت في المدائن أصدااء « الضميج والاضطراب ... حتى كان الدين المسيحي » ، كما يقول يوسيبوس « موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين ، حتى في دور التمثيل نفسها » (٤٥) . ولما جاء قسطنطين إلى نقوميديا بعد أن هزم ليسنيوس ، سمع هذه القصة من أسقفها ، فأرسل إلى ألكسندر وإلى أريوس رسالة شخصية يدعوها فيها أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة ، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة في سلام ، فإن لم يفعلا فلا أقل من أن يخفيا جدلها عن آذان الجماهير . ويكشف هذا الخطاب ، الذي نقله لنا يوسيبوس ، في صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلوم الدين ، وعن الهدف السياسي الذي كان يبتغيه من سياسته الدينية :

« لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس في الله إلى صورة واحدة ، لأني قوى الاعتقاد بأنني إذا استطعت أن أوحّد آراءهم في هذا الموضوع سهل على كثيرٍ تصريف الشئون العامة . ولكنني مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائماً في أفريقية من وقت قريب . ويبدو لي أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد . فأنت يا ألكسندر تريد أن تعرف رأي قساوستك في إحدى النقاط القانونية ، في جزء من سؤال هو في حد ذاته عديم الأهمية ؛ وأما أنت يا أريوس فقد كان الواجب عليك ، إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل ، أن تظل صامتاً . . . ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير . . . لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل

يشغلون به أنفسهم ، ولا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس وحدة . . .
تلك أعمال سخيفة خليقة بالأطفال العديمى التجربة لا برجال الدين أو العقلاء
من الناس» (٤٦)

ولم يكن لهذه الرسالة أثر ما لأن مسألة اتفاق الأب والابن في المادة
لا مجرد تشابههما كانت في نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية
والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح لها فإن كيان العقيدة المسيحية
كلها يبدأ في التصدع ، وإذا ما سمحت باختلاف الرأى في هذا الموضوع
فإن فوضى العقائد قد تقضى على وحدة الكنيسة وسلطانها ، ومن ثم على
مالها من قيمة بوصفها عوناً للدولة . ولما انتشر الجدل في هذه المسألة ،
واشتعلت نيران الخلاف في بلاد الشرق اليونانى ، اعتزم قسطنطين أن يقضى
عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة . ولهذا عقد مجلساً من الأساقفة عام
٣٢٥ في نيقية البشنية بالقرب من عاصمة نقوميديا ، وأعد ما يلزم من المال
لنفقاتهم . وحضر الاجتماع عدد لا يقل عن ٣١٨ « يصحبهم » كما يقول واحد
منهم « حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة » (٤٧) ، وهو قول
يدل على مقدار نماء الكنيسة العظيم . وكان معظم الأساقفة من الولايات
الشرقية ، لأن كثيراً من الأبرشيات الغربية تجاهلت هذا الجدل ، واكتفى
البابا سلفستر الأول Silvester I بأن مثله بعض القساوسة ، لأن المرض
حال بينه وبين حضور الاجتماع بنفسه .

واجتمع المجلس في بهو أحد القصور الإمبراطورية تحت رئاسة قسطنطين ،
وافتح هو المناقشات بدعوة موجزة وجهها إلى الأساقفة يطلب إليهم فيها أن
يعيدوا إلى الكنيسة وحدتها . ويقول يوسيبوس إنه كان يستمع بصبر عظيم إلى
المناقشات ، ويهدئ من عنف الجماعات المتنازعة (٤٨) ، ويشترك في المناقشات
بنفسه . وأكد أريوس من جديد رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ، لا يرقى إلى
منزلة الأب ، ولكنه « مقدس بالاشتراك » معه لا غير . وقد أرغمته بعض الأسئلة

الحاذقة على أن يعترف بأنه إذا كان المسيح مخلوقاً ، وأن له بداية ، فإن في مقدوره أن يتحول ، وأنه إذا استطاع أن يتحول ، فقد ينتقل من الفضيلة إلى الرذيلة .

وكانت إجاباته عن الأسئلة منطقية ، صريحة ، قاطعة . وقد أوضح أثاناسيوس Athanasius ، رئيس الشمامسة البليغ المشاكس ، الذي نجاء به الإسكندر معه ليقطع به لسان معارضيه ، أنه إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن يقتصّر . وقد سلم بما في تصوير أشخاص ثلاثة في صورة إله واحد من صعوبة ، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من خفاء وغموض . ووافق الأساقفة جميعهم على رأيه عدا سبعة عشر منهم ووقعوا قراراً يعلنون فيه هذا الرأي . ورضى مؤيدو أريوس أن يوقعوا معهم إذا سمح لهم بأن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهي أن يستبدلو كلمة همويوسيون Homoiousion (أى مماثلاً في الجوهر) بكلمة همووسيون Homooousion أى من جوهر واحد . ولكن المجلس رفض هذا التعديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتي .

« نحن نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شيء ، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هو المسيح ابن الله ، المولود ... غير المخلوق من نفس جوهر الأب ... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً ، وتعذب ، وقام مرة ثانية في اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات...(*)»

ولم يرفض توقيع هذه الصيغة إلا خمسة من الأساقفة ، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين . وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذي لم يترشح عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه ، حكم عليهم باللعنة والحرمان ، ونفاهم الإمبراطور

(*) ويختلف هذا عن « العقيدة النيقية » المتبعة الآن والتي هي تعديل لهذا القرار

من البلاد . وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام(*)

واحتفل قسطنطين بانفضاض المجلس بأن دعا جميع الأساقفة الذين حضروه إلى وليمة ملكية ، ثم صرفهم بعد أن طلب إليهم ألا يمزق بعضهم أجساد بعض^(٥١) ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد ، أو أنه هو لن يغير رأيه فيه . غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطأ خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة . فلقد أذاع المجلس عقيدة الكثرة العظمى من رجال الدين ، وهى أن نظام الكنيسة وبقائها يتطلبان تحديد العقائد بطريقة ما ؛ وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملى على العقيدة الأساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكية . وكان فى الوقت نفسه إيدانا باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعنصر القوى للإمبراطورية الرومانية . واضطر قسطنطين أن يكون أكثر تصميماً من ذى قبل على التحالف مع المسيحية ؛ وهكذا بدأت حضارة جديدة ، مؤسسة على دين جديد ، تقوم على أنقاض ثقافة مضعضة وعقيدة محتضرة . لقد بدأت العصور الوسطى .

(*) وقرر المجلس أيضاً أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة فى يوم واحد يحدده كل عام أسقف الإسكندرية على أساس قاعدة فلكية ، ويذمه أسقف رومة . أما مسألة بقاء رجال الكنيسة بلا زواج فإن المجلس كان يميل إلى أن يطلب إلى القساوسة المتزوجين أن يتففوا عن العلاقات الجنسية ، ولكن بفنوتيوس Paphntius أسقف طيبة العليا أقنع زملاءه الأساقفة بأن يتركوا العادة المتبعة كما هى ، وكانت هذه العادة تحرم الزواج بعد الرسامة ، ولكنها تجيز للقس أن يجامع زوجته إذا كان قد بنى بها قبل الرسامة .

الفصل الرابع

قسطنطين والحضارة

أنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطية سماها رومة الجديدة Nova Roma وسمتها الأجيال التي أعقبته باسمه . وفي عام ٣٣٠ أدار ظهره نحو رومة ونيقوميديا كليهما ، واتخذ القسطنطينية عاصمة له ، وأحاط نفسه فيها بأبهة الملوك الشرقيين وحاشيتهم ، لاعتقاده أن ما تحدته هذه الأبهة من تأثير نفساني في الجيش والشعب سوف يجعل ما تحتاجه مظاهرها من المال الكثير اقتصاداً حقيقياً في مطالب الحكم . وبسط رعايته على الجيش بما أوتي من حسن السياسة وقواه بأن أمدّه بالسلاح ، وخفف من نير الاستبداد بقراراته الرحيمة ، وناصر الآداب والفنون ، وشجع مدارس أثينة ، وأنشأ جامعة جديدة في القسطنطينية ، كان فيها أساتذة يتناولون مراتب من قبيل الدولة ، ويعلمون اللغتين اليونانية واللاتينية ، والآداب والفلسفة ، والبلاغة والقانون ، ويدربون الموظفين الذين تحتاجهم الإمبراطورية (٥٢) . وأيد ما كان للأطباء والمدرسين في جميع الولايات من امتيازات ووسّع نطاقها ، وأمر الحكام أن ينشئوا في ولاياتهم مدارس للعمارة ، وأن يستجلبوا الطلاب إليها بمختلف الامتيازات والمكافآت ، وأعفى الفنانين من الواجبات المفروضة على غيرهم من المدنيين حتى يوفر لهم ما يكفي من الوقت لإتقان فنههم وتعليمه أبنائهم . وقد استعان بالكنوز الفنية في جميع أنحاء الإمبراطورية على تجميل القسطنطينية حاضرتة الجديدة .

وبدأت أعمال البناء في رومة في ذلك العهد على يد مكسنتيوس ، فقد

بدأ هو (٣٠٦) وأتم قسطنطين بإسلافا ضخمة كانت هي تاج العمارة القديمة في الغرب ، وعمد في بنائها إلى طراز الحمامات الكبرى فعدله وشاد على طرازه المعدل صرحا عظيما تشغل قاعدته ٣٣٠ قدما في ٢٥٠ . وكانت لردتها الوسطى التي تبلغ ١١٤ قدما في ٨٢ سقف مكون من ثلاث قباب متقاطعة مشيدة بالأسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها ١٢٠ قدما يستند بعضها إلى ثمان دعائم عريضة تواجهها عمد كورنثية ذات حوز غائرة يبلغ ارتفاعها ستين قدما . وكانت أرضها من الرخام الملون ؛ ووضعت بين الأعمدة عدة تماثيل ، وعلت جدران هذه الأجزاء التي بين الأعمدة فوق سقفها لكي تكون دعائم مرتفعة للقباب الوسطى . ولقد تعلم مهندسو القوط ومهندسو النهضة الشيء الكثير من هذه القباب والدعائم ، ولما أراد برامنتي Bramante أن يخطط كنيسة القديس بطرس اعترى أن يتوج صحن الكنيسة الواسع بقبة ضخمة ، أو « أن يقيم بناء الكنيسة الكبرى فوق بإسلافا قسطنطين » .

وشاد أول الأباطرة المسيحيين كنائس كثيرة في رومة ، وأكبر الظن أن الشكل الأول لكنيسة سان لورنزو التي في خارج رومة كان من هذه الكنائس . وأراد أن يحتفل بذكرى نصره عند نهزمليقيوس فأقام في عام ٣١٥ قوسا لا يزال يشرف على طريق النصر Via dei Trionfi ؛ وهو من أكمل الآثار الباقية في رومة ، ولم ينقص من عظمتها كثيرا ما انتزع من أجزائه آثا بعد آن . ويركب من أربعة جذوع دقيقة تناسب ترتفع فوق القاعدة المنحوتة ، وتقسم الأقواس الثلاثة ، وتسند الدعامة المزخرفة المرتكزة عليها . وعلى الطبقة العليا نقوش بارزة وتماثيل مأخوذة من آثار لتراتاجان وأورليوس ، كما أن الحليات الوسطى التي بين الأعمدة مأخوذة من مبان شيدت في عهد هدریان . وربما كان نقشان من النقوش البارزة من عمل فناني قسطنطين ، ويشهد ما في هذا الأثر من صور جالسة ، ومن اختلاط سمج بين الوجوه المصورة من الجانب والسيقان المصورة من الأمام ، ومن

تكديس الرسوم فوق الرسوم بدل أن يراعى الفنان قواعد المنظور . يشهد كل هذا بخشونة الذوق وعدم الإتيان الفنى . ولكن الحفر العميق وما يقع عليه من ضوء وظل ، يطبع في الخيال صورة واضحة من العمق والسعة ؛ والحادثات التي تقصها تلك النقوش ممثلة بحيوية خشنة كأنما الفن الإيطالى قد اعتزم أن يعود إلى منبعه الأول .

ويبدو تمثال قسطنطين الضخم المحفوظ الكنسرثورى بدايئاً إلى حد تشمئز منه النفس ، ولا يكاد العقل يصدق أن الرجل الذى تفضل فرأس مجمع نيقية يشبه البربرى الفظ إلى الحد الذى يطالع الإنسان في هذا التمثال — إلا إذا كان الفنان قد أراد أن يوضح مقدماً تلك العبارة الجامعة الساخرة التى قالها جن : « لقد وصفت انتصار الهمجية والدين » .

وفي أوائل هذا القرن الزابع أخذ فن جديد يتشكل ويظهر في الوجود — وعنى به « تزيين » المخطوطات بصور ملونة صغيرة . وكان معظم الأدب في ذلك الوقت مسيحي الطابع . ومن أدباء ذلك العصر لوسيوس فرمينيانس لكننتيوس Lucius Firminianus Lactantius الذى شرح المسيحية شرحاً بليغاً في كتابية المنظمة المقدسة Divinae Institutiones (٣٠٧) وفي الاضطهاد المسميت De Mortibus Persecutorum (٣١٤) الآلام الأخيرة التى عاناها الأباطرة مضطهدو المسيحيين ، ولم يكن هذا الوصف يقلّ عن وصف شيشرون بلاغة وحقداً . ومن أقواله في هذا المعنى : « إن طبيعة الدين تحتم أن يكون حراً ، طليئاً ، غير متأثر بأى ضغط » (٥٥) ، وتلك بدعة لم تطل حياته حتى يكفر عنها . وكان يوسيبوس بمفيل أسقف قيصرية أوسع منه شهرة . وقد بدأ حياته الأدبية كاتباً قسيساً وأمين مكتبة لسلفه الأسقف بمفيلس ، وقد بلغ من حبه لهذا الأسقف أن تسمى باسمه . وكان بمفيلس الأكبر قد حصل على مكتبة أرچن وضم إليها

أكبر مجموعة من الكتب المسيحية عرفت حتى ذلك الوقت . وعاش يوسبيوس بين هذه الكتب ، فأصبح بذلك أكثر رجال الدين علماً في زمانه . وقضى بمفيلس نخبه أثناء اضطهادات جليريوس (٣١٠) ، وأخذ الناس يتساءلون فيما بعد كيف بقى يوسبيوس حياً بعد هذا الاضطهاد ، حتى أقضت هذه الأسئلة مضجع الرجل وأدت سمعته . وقد عاداه الكثيرون لموقفه الوسط بين أريوس والإسكندر ، ولكنه رغم هذا أصبح في بلاط الإسكندر كما كان يوسويه Bossut في بلاط لويس الرابع عشر ، وكلف بكتابة سيرة الإمبراطور ، وجمعت بعض كتاباته في تاريخ عام - يعد أوفى الكتب التاريخية القديمة . وقد رتب يوسبيوس التاريخين المقدس والدنس في عمودين متوازيين يفصل بينهما صف من تواريخ السنين المشتركة في كليهما ، وحاول أن يحدد السنة التي وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين . وقد اعتمدت كل التواريخ المتأخرة على « قانونه » هذا :

ثم كسا يوسبيوس هذه العظام لحماً ، ونشر في عام ٣٢٥ تاريخاً كفسياً يصف فيه نماء الكنيسة من أول عهداها إلى مجمع نيقية . ويحتوى الفصل الأول من هذا الكتاب - وكان نموذجاً نسج على منواله بوسويه مرة أخرى - على أقدم ما كتب في فلسفه التاريخ - فقد صور الزمان كأنه ميدان القتال بين الله والشيطان ، كما صور الحوادث جميعها على أنها معينة على انتصار المسيح . والكتاب سيئ الترتيب ولكنه حسن الأسلوب . وقد فحص عن المراجع فحصاً دقيقاً راعى فيه الدقة والضمير ، وتبلغ أحكامه من الدقة ما تبلغه أحكام أى كتاب قديم في التاريخ ، وهو في كل خطوة يخطوها يجعل الخلف مديناً له وذلك بما ينقله عن وثائق خطيرة لولا هذا النقل لما عرف العالم عنها شيئاً . والأسقف المؤلف غزير المادة ، واسع الاطلاع إلى حد كبير ، وأسلوبه تسرى فيه العاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويسمو إلى أعلى الدرجات في لحظات الكراهية

الدينية وهو يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوّي إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته ، ويحاول أن يكتب تاريخ المجلس العظيم - مجلس نيقية - دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس : وهذا الغش الشريف نفسه هو الذى يجعل كتابه الآخر حياة قسطنطين تسبيحاً بحمد الرجل لا ترجمة له . فهو يبدؤه ببنائية فصول ملهمة عن تقوى الإمبراطور وأعماله الصالحة ، ويصف لنا كيف « حكم الإمبراطورية حكماً راعى فيه حدود الله أكثر من ثلاثين عاماً » . وليس فى مقدور الإنسان بعد أن يقرأ هذا الكتاب أن يظن أن قسطنطين قتل ولده وابن أخته وزوجته .

ذلك أن قسطنطين قد أحسن تدبير كل الأمور ما عدا أمور أسرته ، شأنه فى هذا شأن أغسطس . ولقد كانت صلاته بأمه طيبة سعيدة بوجه عام ، ويبدو أنها سافرت بتكليف منه إلى أورشليم ودمرت ذلك الهيكل الشائن ، هيكل أفرديتى الذى بنى ، كما يقول البعض ، فوق قبر المسيح المنقذ . ويقول يوسبيوس إن الضريح المقدس ظهر للعين فى ذلك المكان ، وفيه الصليب بعينه الذى مات عليه المسيح . وأمر قسطنطين أن تشاد كنيسة الضريح المقدس فوق القبر ، وحفظت الآثار المعظمة فى خزانة مقدسة خاصة . ومن ذلك الحين بدأ العالم المسيحى يجمع مخلفات المسيح والقديسين ريعبدها ، كما كان العالم الوثنى فى الأيام القديمة السابقة يعزّز بمخلفات حرب طروادة ويعظمها ، وكما كانت رومة نفسها تفخر بتمثال أثينى إلهة الحكمة حامية طروادة . وقد غير العالم المسيحى مظهر هذه العبادة وجدد جوهرها كما يفعل الخلائق من أقدم العهود . وشادت هلينا كنيسة صغيرة فى بيت لحم فى الموضع الذى تقول الرواية إن يسوع ولد فيه ، وقامت فى تواضع بخدمة الراهبات اللائى كن يقمن بالخدمة فى هذه الكنيسة ، ثم عادت إلى القسطنطينية لتموت بين ذراعى ولدها .

وتزوج قسطنطين مرتين : أولاها بمنيرفينا Minervina التي رزق منها بابنه كرسپس Cripus ؛ والثانية بفوستا Fausta ابنة مكسميان التي رزق منها بثلاثة بنين وثلاث بنات . وأصبح كرسپس جندياً ممتازاً ، وكان نِعَم العون لأبيه في حروبه ضد ليسنيوس . وفي عام ٣٢٦ قُتِل كرسپس بأمر قسطنطين ؛ وأمر الإمبراطور حوالى ذلك الوقت نفسه بقتل ليسنيانوس Licinianus بن ليسنيوس من قسطنطينيا أخت قسطنطين ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت أعدمت فوستا بأمر زوجها ؛ ولما نعرف سبب مقتل هؤلاء الثلاثة ، غير أن زوسيمس Zosimus يؤكد لنا أن كرسپس غازل فوستا ، وأنها شكته إلى الإمبراطور ، وإن هلينا ، وكانت شديدة الحب لكرسپس ، انتقمت لموته ؛ بأن أُنعت قسطنطين أن زوجته قد استسلمت لولده (٥٧) . لكن الأرجح من هذا كله أن فوستا عملت على أن تبعد كرسپس من طريق ابنها الذى كانت تريده وارثاً لعرش الإمبراطورية ، وربما كان سبب مقتل ليسنيانوس أنه كان يميل إلى المؤامرات ليحصل على نصيب أبيه في الدولة .

ونالت فوستا بغيتها بعد موتها ؛ ذلك بأن قسطنطين أوصى في عام ٣٣٥ بأن تقسم الإمبراطورية بين من كان حياً من أولاده وأولاد أخته . وبعد سنتين من ذلك الوقت احتفل في يوم عيد القيامة بمرور ثلاثين عاماً من حكمه ، وأحس بعد ذلك بدنو أجله ، فذهب ليستحم في الحمامات الحارة في أكويريون Aquyrior القريبة من القسطنطينية . ولما اشتد عليه المرض استدعى قساً ليجرى له مراسم التعميد المقدس الذى أخره عمداً إلى تلك الساعة . وكان يرجو أن يطهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا في حياته المزدحمة بالأعمال . ثم خلع الحاكم المجهّد الأثواب الملكية الأرجوانية وارتدى الثوب الأبيض ثوب المسيحى الحديث التفسير وأسلم الروح .

لقد كان قسطنطين قائداً بارعاً ، وإدارياً عظيماً ، وسياسياً لا يشق له في شئون الحكم غبار ، ورث الأعمال التي كان ينبغي بها دقلديانوس إعادة الدولة إلى سابق عهدها وأتمها ؛ وبفضله طال عمر الإمبراطورية ١٥٠ عاماً . وقد واصل أنماط الحكم الملكي المطلق التي سار عليها أورليان ودقلديانوس مدفوعاً إلى هذا بأطماعه وكبريائه وباعتقاده أن الحكم المطلق هو العلاج الذي تتطلبه الفوضى السائدة في ذلك الوقت . وكان أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطورية بين أبنائه ؛ ولعله قد تنبأ بأن هؤلاء الأبناء سيتنازعون فيما بينهم ، يريد كل منهم أن ينفرد بالملك ، كما فعل هو من قبل ، ولكنه ظن أنهم سيقاتلون حتماً إذا اختار وارثاً للملك غيرهم ؛ وهذا أيضاً هو الثمن الذي تبتاع به الملكية المطلقة . أما أوامره التي أصدرها بالإعدام فليس في مقدورنا أن نصدر حكماً صحيحاً عليها لأننا لا نعرف أسبابها . وربما كانت مشاكل الحكم وأعباءه الثقيلة قد ناءت به فتغلبت المخاوف والغيرة على العقل والحكمة إلى حين ؛ وإن لدينا لشواهد على أنه في سنيه الأخيرة قد ندم أشد الندم على ما فعل . ويبدو أن عقيدته المسيحية ، التي كانت بدايتها خطة سياسية ، قد استحوطت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص ، وأصبح أكثر المبشرين في دولته مشاركة على عمله ، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه ، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها . وقد وهب الإمبراطورية الهرمة حياة جديدة بأن ربط بينها وبين دين فتي ، ونظام قوى ، ومبادئ أخلاقية ؛ وكان في عمله هذا أعظم حكمة من دقلديانوس . وبفضل معونته أضحت المسيحية دولة وديناً ، وأمست هي القلب الذي صبت فيه الحياة الأدبية والفكر الأوربي مدى أربعة عشر عاماً . ولعل الكنيسة التي رأت أن تشكر له فضله عليها كانت محقة حين لقبته بأنه أعظم الأباطرة إذا استثنينا أغسطس وحده .

الخاتمة

الفضل الأول

لِمَ سقطت رومه ؟

يقول أحد العلماء النابهن في هذه الأيام « إن أعظم ما يواجهه التاريخ من مشاكل مشكلتان : أولاهما كيف نفسر قيام الدولة الرومانية ، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها^(١) » . ولعلنا نقرب من فهم هاتين المشكلتين إذا تذكرنا أن سقوط رومة كقيامها لا يعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب ، وأن هذا السقوط لم يكن حادثاً واحداً بل كان عملية امتدت إلى أكثر من ثلثائة عام . والحق أن ثمة أمماً لم تدم حياتها بقدر ما استلزمه من الزمن سقوط رومة .

والخضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضى هي على نفسها من الداخل . وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة في شعب رومة نفسه ، أى في أخلاقها ، وفي النزاع بين طبقاتها ، وفي كساد تجارتها ، وفي حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفي ضرائبها الفادحة الخائفة ، وحروبها المهلكة . ولقد كان الكتّاب المسيحيون شديدي الإدراك لهذا الضعف المتعدد الأسباب ، فلقد بشر ترتليان حوالى عام ٢٠٠ ، وهو جذلان ، بما سماه ipsa clausula saeculi أى « نهاية عهد » — معتقداً أنه فى أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثنى . ورد سيريان قبيل عام ٢٥٠ على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية من محن بأن هذه المحن ترجع إلى أسباب طبيعية :

« يجب أن تعلموا أن العالم قد شاخ ، ولم يبق ما كان له قبل من قوة ، وأنه يشهد بنفسه على اضمحلاله . إن مقدار ما يسقط من المطر وما تشعه الشمس من دفء آخذان في النقص ، كادت المعادن ينضب معينها ، وقل ما ينتجه الزارع من غلة » (٢) .

وما من شك في أن هجمات البرابرة ، واستغلال العروق المعدنية الغنية الذي دام عدة قرون ، قد أنقصا ما تخرجه رومة من المعادن النفيسة ؛ وأن ما حدث في إيطاليا الوسطى والجنوبية من تقطيع الغابات ، وفعل التعرية والتسحات ، وإهمال قنوات الري الناشئ من نقص عدد الفلاحين ، واضطراب الحكومات — ما من شك في أن هذا كله قد ترك إيطاليا أفقر مما كانت في سابق عهدها . بيد أن السبب الحقيقي لم يكن ناشئاً من أن التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج ، أو أن جو البلاد قد تغير ، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حل بهم من ضيق وتثبيط للعزيمة .

وكانت الأسباب الأحيائية (*) أدم من الأسباب السابقة وأعظم منها أثراً . فقد بدا نقص خطير في ١٤٠٠ إسكان في الغرب ، بعد هديران . ويشك بعض المؤرخين في هذا النقص ، ولكن إسكان البرابرة بالجملة في ولايات الدولة على أيدي أورليوس ، وفلنتيان ، وأورليان ، وپروبس ، وقسطنطين ، لا يكاد يترك مجالاً للشك في حقيقة هذا النقص (٣) . ولما أراد أورليوس أن يسد ما حدث من النقص في جيشه جند العبيد ، والمجالدين ، ورجال الشرطة ، والمجرمين ؛ وهذا لا يحدث إلا إذا كان الخطر الذي يهدد البلاد وقتئذ أشد من ذي قبل : أو أن السكان الأحرار كانوا أقل عدداً منهم في الأيام السابقة ؛ والذي لا شك فيه أن غير الأحرار من السكان قد نقصوا عما كانوا عليه من قبل . ولهذا السبب أقفرت

(*) نسبة إلى علم الأحياء biological (المترجم)

نضباع كثيرة وتركزت أرضها بوراً ، وخاصة في إيطاليا ، حتى لقد عرضها
پرتناكس من غير ثمن على من يرضى أن يفلحها . ويتحدث قانون سبته
سپتيميوس سفيرس عن نقص الرجال . *hominum penuria* (٤) . وقد ظل
هذا النقص يجري في مجراه قروناً طوالاً في بلاد اليونان . وشاهد ذلك أن
الأسقف ديونيشيوس يقول إن سكان الإسكندرية نقصوا في أيامه (٢٥٠)
إلى نصف ما كانوا عليه في الأيام السابقة ، وكانت هذه المدينة في تاريخها
السابق تفخر بكثرة من فيها من السكان . وكان يؤله أن « يرى أجنس
البشرى آخذاً في النقصان والتبدد المستمر » (٣) . ولم يكن يزداد في هذا الوقت
إلا البرابرة والشرقيون في خارج الإمبراطورية وفي داخلها .

ترى ما سبب هذا النقص في عدد السكان ؟ إن أكبر أسبابه هو تجديد
النسل ، وهو عملية كانت تلجأ إليها الطبقات المتعلمة أولاً ، ثم سرت عدواها
إلى الطبقات الدنيا المشمورة بكثرة أبنائها (٦) ؛ ولم يحل عام ١٠٠ بعد الميلاد
حتى وصلت هذه العدوى إلى طبقات الزراع ، كما يدل على ذلك امتداد
المعونة الإمبراطورية إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء ؛
وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمت هذه العادة الولايات الغربية ، وأدت إلى
نقص السكان في غالبه (٧) . وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على
الرغم من أن القوانين كانت تعد هذا العمل جريمة (٨) . وربما كان الإفراط
في الصلات الجنسية قد أنقص الخصوبة البشرية ؛ وكان للإمتناع عن الزواج
أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه . يضاف إلى هذا أن عادة الإنحصاء أخذت
تزداد بسبب سريان العادات الشرقية في بلاد الغرب وليس أدل على انتشار
هذه العادة من أن پلنتيانس Plantianus رئيس الحرس الپرتوى أمر بإحصاء
مائة غلام قدمهم هدية إلى ابنته بمناسبة زواجها (٩) .

ويلي تحديد النسل في أسباب نقص السكان ما كان ينشأ عن الأوبئة

والثورات والحروب من مجازر بشرية : وقد قضت الأوبئة التي اجتاحت البلاد في أيام أورليوس ، وجلينس ، وقسطنطين على عدد كبير من السكان ؛ ولم تكد تنجو أسرة واحدة في الإمبراطورية كلها من الوباء الذي تفشى فيها بين عامي ٢٦٠ و ٢٦٥ ؛ ويقال إن خمسة آلاف كانوا يموتون في رومة نفسها كل يوم ، وإن هذه الحال دامت أسابيع كثيرة^(١٠) . وقد شرع بعوض كهانيا يتغلب على الآدميين الذين غزوا المستنقعات البنية ، وأخذت الملايا تضعضع قوى الأغنياء والفقراء على السواء في لاتيوم وتسكانيا . ولقد كان لمجازر الحروب ، والثورات ، وربما كان لعادات منع الحمل ، والإجهاض ، ووآذ الأطفال ، أثر في نقص القدرة على النسل فضلاً عن أثرها في تقليل عدد السكان ؛ ذلك بأن أقدر الرجال كانوا أكثرهم تأخيراً لوقت الزواج ، وأقلهم نسلاً ، وأقصرهم آجالاً . وكانت معونة الدولة سبباً في ضعف الفقراء ، كما كان الترف سبباً في ضعف الأغنياء ، والسلم الطويلة الأجل سبباً في حرمان الطبقات كلها في شبه الجزيرة من الروح العسكرية والفنون الحربية . وكان الألمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يسكنون شمالاً إيطاليا ويكثر عددهم في الجليش ، أصبح أجساماً وأمتن أخلاقاً ممن بقي على قيد الحياة من سكان البلاد الأصليين . ولو أن الزمان سمح لهذا الجنس الحديد أن يمتزج بالسكان الأصليين على مهل لكان من الجائز أن يتشقق بثقافة الرومان ويبعث النشاط والقوة في الدم الإيظالي ؛ ولكن الزمان لم يكن كريماً إلى هذا الحد . يضاف إلى هذا أن سكان إيطاليا كانوا قد اختلطوا من زمن بعيد بأجناس شرقية ، أضعف من الجنس الروماني جسماً وإن جاز أن تكون أرق منه عقلاً . ولم يكن في مقدور الألمان الذين أخذوا يتكاثرون بسرعة أن يفهموا الثقافة الرومانية ؛ فلم يقبلوها ، ولم ينقلوها إلى غيرهم من الشعوب ؛ وكان الشرقيون الذين يتناسلون هم أيضاً بسرعة يميلون إلى تدمير هذه الثقافة ، أما أصحابها الرومان فقد ضحوا بها في سبيل

الراحة التي يجلبها العقم ؛ وقصارى القول أن رومة لم يغلبها على أمرها غزو البرابرة لها من خارجها بل غلبها تكاثر البرابرة في داخلها .

وعجل الفساد الخلقى هذا الانحلال . ذلك أن صفات الرجولة التي نشأت من بساطة العيش وتحمل المشاق ، ودعمها إيمان قوى — نقول إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان . فقد أوتى الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا في ذلك الوقت الوسائل التي يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحيط بهم من غوايات ، لا يصدهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة والآداب العامة ، وضاعف ازدحام المدن بالسكان ضروب التعاقد والمشارطات العامة ، ومنعت رقابة الحكومة والأمة من الامتداد إليها ؛ وجاءت الهجرة بمائة أو نحوها من الثقافات التي لم يعد يهتم الناس بالتفريق بينها لكثرة ما بينها من فروق . وانحطت عند الناس معايير الخلق والجمال لتغلب طبقات الشعب وما أصبح لها من أثر كبير في البلاد ، وتحورت الشهوات الجنسية من القيود في الوقت الذي ضاعت فيه الحرية السياسية .

ويقول عظيم المؤرخين : إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية^(١١) ، لأن هذا الدين ، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه^(١٢) ، قد قضى على العقائد القديمة التي كانت هي الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانية ، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء — فحارب العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ؛ وجاء بالتصوُّب الشرق الموهن فأدخله في الرواية الواقعية التي كانت من خصائص الحياة الرومانية ؛ وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ؛ وأغراهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفانى في الدفاع ؛ وحطم وحدة الإمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها ؛ وشجع أتباعه على

الامتناع عن تولى المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية ؛ وكان المبدأ الأخلاقى الذى يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة ، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية ، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذاناً بموت رومة .

ولا يخلو هذا الاتهام القاسى من بعض الحقيقة ؛ فقد كان للمسيحية ، على الرغم منها ، نصيب فى فوضى العقائد التى ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التى كان لها نصيب فى انهيار رومة . ولكن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف رومة أكثر مما كانا سبباً فى هذا الضعف . ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل ؛ وقد وجه إليه إنيوس Ennius ولكريشيوس Lucretius هجمات أشد عنفاً من كل ما وجهه إليه أى مؤلف وثنى بعدهما . أما الانحلال الخلقى فقد بدأ من وقت أن فتح الرومان بلاد اليونان ، وبلغ أوجه فى عهد نيرون ؛ ثم صلحت أخلاق الرومان بعده ، وكان أثر المسيحية فى الحياة الرومانية من الناحية الخلقية أثراً طيباً بوجه عام . وبناء على هذا نقول إن المسيحية قد نمت هذا النماء السريع لأن رومة كانت وقتئذ فى دور الاجتثاث ، فالناس لم يفقدوا إيمانهم بالدولة لأن المسيحية أبعدت عواطفهم عنها ، بل فقدوه لأن الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر ، وتحارب لتستولى على العبيد ، وتفرض الضرائب على الكدح لتعين على الترف ، ولأنها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات ، والأوبئة ، والغزو الأجنبى ، والفقر المدقع ؛ فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحولوا عن قيصر الذى يدعو إلى الحرب إلى المسيح الداعى إلى السلم ، ومن الوحشية التى لا يكاد يصدقها العقل إلى الإحسان الذى لم يسبق له مثل ، ومن حياة بخالية من الأمل والكرامة إلى دين يواسيهم فى فقرهم ويكرم إنسانيتهم ؟ ألا إن نصيب المسيحية فى القضاء على الدولة الرومانية لم يكن أكثر من نصيب غزو البرابرة لها . لقد كانت هذه الدولة قشرة فارغة حين قامت المسيحية فى ربوعها ، وحين داهمها غزو البرابرة .

ولقد ذكرنا في فصل سابق الأسباب الاقتصادية التي أدت إلى ضعف رومة، لأننا رأينا أن ذكرها كان ضرورياً لفهم إصلاحات دقلديانوس، ولسنا نحتاج إلى أكثر من تلخيصها هنا تذكراً للقراء . نذكر اعتماد رومة على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعاً لا تؤمن مغبته ، وانقطاع ورود العبيد وانهار الضياع الكبيرة ، وانحطاط وسائل النقل والأخطار التي تتعرض لها التجارة ، وفقد رومة أسواق الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها لها ، وعجز الصناعة الإيطالية عن تصدير ما يوازى واردات إيطاليا ، وما أدى إليه ذلك من انتقال المعادن الثمينة إلى الشرق ؛ والحرب المدمرة بين الأغنياء والفقراء ، وارتفاع نفقات الجيوش ، والمساعدات التي تقدم للعجزة والفقراء ، والأعمال العامة ، والبيروقراطية المطردة الزيادة ، وتثييط همم النابهين ذوى الكفايات ، والحاشية المتطفلة التي لا تؤدى عملاً من الأعمال ، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة لما كان يفرض عليها من الضرائب التي تبلغ حد المصادرة ، وهجرة رؤوس الأموال والعمال ، واستخدام العبيد في الأعمال الزراعية ، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعية ؛ كل هذا قد قوض الأسس المادية للحياة الإيطالية حتى أضحت قوة رومة في آخر الأمر شبحاً سياسياً يعيش بعد موتها الاقتصادي .

وأما الأسباب السياسية التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية فترجع كلها إلى أصل واحد - هو أن الاستبداد المتزايد قضى على شعور الفرد بحقوق المدنية ، وأنصب معين قدرته على القيام بأعباء الحكم . ولما عجز الروماني عن التعبير عن إرادته السياسية إلا بالعنف ، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم وانهمك في أعماله ، وفي متعه ، وفي فيلقه ، أو في نجاته الفردية . لقد كانت الوطنية والديانة الوثنية وثيقتي الارتباط إحداهما بالأخرى ، وهما الآن يقضى عليهما معاً (١٣) . واستنাম مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول ، واعتاد الخضوع أو الارتشاء بعد أن ظل يفقد سلطانه ومكانته شيئاً فشيئاً بعد پرتناكس ،

فانهار بذلك الحاجز الأخير الذى كان يستطيع إنقاذ الدولة من أخطار العسكرية والفوضى . وأما الحكومات المحلية التى عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تستهوى رجالاً من الطراز الأول ، وأدت مسئولية الموظفين فى الولايات عن مجموع الضرائب المفروضة على أقاليمهم ، وما تتطلبه مناصبهم العليا من نفقات لتؤديها إليهم الدولة ، وما تنتظره منهم من أموال ، وخدمات ، وأعمال بروا ألعاب ، وما يتعرضون له من أخطار الغزو الأجنبى وحرب الطبقات ، أدت هذه كلها إلى تهرب المواطنين من المناصب تهرباً يشبه تهربهم من الضرائب ، والمصانع ، والمزارع ، فكان الناس يتعمدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولى هذه المناصب بإنقاص الطبقة التى ينتمون إليها ، ومنهم من كان يهاجر إلى بلدة غير بلدته ، ومنهم من عمل زارعاً أو راعياً ، وفى عام ٣١٣ وسع قسطنطين نطاق الإعفاء من مناصب البلديات حتى شمل القساوسة المسيحيين ، كما أعفاهم من عدة أنواع من الضرائب ، وهو الإعفاء الذى اعتاد الكهنة الوثنيون أن يتمتعوا به .

وما لبثت الكنيسة ، بسبب هذا الإعفاء ، أن غمرتها موجة من طالبي الرسامة ، وأخذت المدن تشكو ما أصبها من نقص فى الإيراد وفى اللاتقين من أهلها أن يكونوا شيوخاً ، حتى اضطر قسطنطين فى آخر الأمر أن يصدر قانوناً يقضى بالاقبل فى الكهنوت أى رجل لائق لأن يشغل منصباً فى حكومات البلديات^(١٤) . وكانت الشرطة الإمبراطورية تتعقب الفارين من المناصب العامة كما تتعقب من يهربون من الضرائب أو الخدمة العسكرية ، وتعود بهم إلى مدبهم وترغمهم على العمل فى حكوماتها^(١٥) ، ثم قررت فى آخر الأمر أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعى ، وأن يقبل المنصب العام الذى تؤوله إليه طبقته . إذا اختير له ؛ وهكذا كمل دق الوظيفة القيود الاقتصادية المفروضة على الطوائف المختلفة :

وخاف جليانس أن يثور عليه مجلس الشيوخ فأعفى أعضائه من الخدمة فى

الجيش . ولما كانت الروح الحربية قد انعدمت في إيطاليا فإن هذا القرار كان خاتمة الضعف العسكري في شبه الجزيرة ؛ فكان إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة ، والقضاء على الحرس البريتوري على يد سبتيوس سيفرس ، وظهور قواد للجيش من بين أبناء الولايات ، واستيلاؤهم على عرش الإمبراطورية ، كان هذا كله سبباً في القضاء على رعاة إيطاليا ، بل قل على استقلال إيطاليا ، قبل سقوط الإمبراطورية في الغرب بزمان طويل . ذلك أن جيوش رومة لم تعد كما كانت من قبل جيوشاً رومانية ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة ؛ ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم ، وهباتهم ، ومغانمهم . وكانوا يهاجمون مدن الإمبراطورية وينهبونها بنفس الحراسة التي يظهرونها في مواجهة الأعداء ؛ وكان معظمهم من أبناء الفلاحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى المدن لأن الأولين يستغلون الفقراء ولأن الثانية تستغل الريف ؛ وكانت الحروب الداخلية تتيح لهم الفرصة لنهب المدن نهياً لا يكاد يترك فيها شيئاً يدمره البرابرة الأجانب^(١٦) . ولما أصبحت المشاكل الحربية أعظم خطراً من الشئون الداخلية ، اتخذت المدن القريبة من الحدود مراكز للحكم ؛ وأضحت رومة مسرحاً للانتصارات ، ومظهراً للعناصر الإمبراطورية ، ومتحفاً للآثار والأنظمة السياسية . يضاف إلى هذا أن تعدد العواصم وانقسام السلطة حطاً وحدة البلاد الإدارية ، فلما أصبحت الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها حكامها ، ومن أن تحميها جيوشها ، بدأت تتفكك .

ولما تركت غالة وبريطانيا وشأنهما تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والأسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزية اختارت كلتاها (إمبراطورها) الخاص بها وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة ؛ ثم انفصلت تدمر عن الدولة في عهد زنوبيا ، ولم تلبث أسبانيا وأفريقية أن خضعتا دون مقاومة تذكر إلى الفاتحين البرابرة ؛ فلما جلس جليئس على العرش كان ثلاثون قائداً يحكمون

ثلاثين إقليماً من أقاليم الإمبراطورية حكماً يكاد يكون مستقلاً عن السلطة المركزية . وفي هذه المأساة المروعة ، مأساة دولة عظيمة تتقطع أوصالها ، كانت الأسباب الداخلية هي العوامل الحقة الخفية ، أما الغزاة البرابرة فلم يدخلوها إلا بعد أن فتح لهم ضعفها الأبواب وهياهم السبل ، وبعد أن أسلم ضعف الحكام الأحيائي ، والخلق ، والاقتصاد ، والسياسي ، المسرح إلى الفوضى ، واليأس ، والاضمحلال .

ومن الأسباب الخارجية التي عجلت بسقوط الإمبراطورية الغربية توسع الهون أو الشى أونج - نو Hsiung-nu وهجرتهم في شمال آسيا الغربية . ذلك أنهم لما صدّهم السور الصيني العظيم والجيش الصيني في زحفهم نحو الشرق اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا في عام ٣٥٥ إلى نهري الفلجا وجميحون . وضغطوا في زحفهم هذا على السرماتيين في روسيا فاضطروهم إلى التحرك نحو البلقان ، وتضايق القوط من هذا الزحف فتحركوا مرة أخرى على الحدود الرومانية ، وسمح لهم بأن يعبروا الدانوب ويستوطنوا موثيزيا Moesia (٣٧٦) ؛ ولما أساء الموظفون الرومان معاملتهم في هذه الولاية ، ثاروا عليهم ، وهزموا جيشاً رومانياً كبيراً عند أدريانوبل (أدرنه) (٣٧٨) وهددوا في وقت ما القسطنطينية نفسها .

وفي عام ٤٠٠ قاد أليك Alaric القوط الغربيين وعبر بهم جبال الألب واندقض على إيطاليا ، وفي عام ٤١٠ استولوا على رومة ونهبوها . وفي عام ٤٢٩ قاد جيسريك Gaiseric الوندال لفتح أسبانيا وأفريقية ، وفي عام ٤٥٥ استولوا هم أيضاً على رومة ونهبوها . وفي عام ٤٥١ قاد أتلا Atila الهون وهجم بهم على غالة وإيطاليا ، فهزموا عند شالون Chalons ، ولكنهم اجتاحتوا المبارديا . وفي عام ٤٧٢ عين قائد بانوبى اسمه أرسير Orestes ابنه إمبراطوراً وسماه رميولس أوغسطولس Romulus Augustulus ؛

ويعده ست سنين من ذلك الوقت خلع الجنود البرابرة المرتزقون ، الذين كانوا يسيطرون وقتل على الجيش الروماني ، هذا « الأغسطس الصغير » ، وعينوا قائدهم أدوكر Odoacer ملكاً على إيطاليا ؛ وأقر أدوكر بالسيادة للإمبراطور الروماني الجالس على العرش في القسطنطينية ورضى هذا الإمبراطور به ملكاً تابعاً له . وظلت الإمبراطورية الرومانية في الشرق قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، أما في الغرب فقد لفظت وقتل نفسها الأخير .

الفصل الثاني

ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

إن تعليل سقوط رومة لأيسر من تعليل طول حياتها — وأهم عمل قامت به رومة هو أنها ، بعد أن استولت على عالم البحر الأبيض المتوسط ، تثقفت بثقافته ، ووهبته النظام ، والرخاء ، والسلم مدى مائتي عام ، وصدت عنه غارات البرابرة قرنين من الزمان ، وأورثت الغرب قبل موتها تراث اليونان والرومان .

وليس لرومة سنافس قط في فن الحكم . نعم إن الدولة الرومانية قد ارتكبت آلافاً من الأخطاء السياسية ، فقد أقامت صرحها على البحرية أنانية ، وكهنوت ، ذى طقوس غامضة خفية ، وأنشأت ديمقراطية من الأحرار ثم قضت عليها بالعنف والفساد ، واستغلت ما فتحته من البلاد لتزود بخيرات إيطاليا الطفيلية ، فلما عجزت عن الاستغلال تقوضت دعائمها وانهارت . وخلفت في أماكن متفرقة في الشرق والغرب قفاراً وسمت هذا سلاماً . ولكنها أقامت وسط هذا الفساد كاه نظاماً فعلاً من الشرائع أمن الناس في أوربا كلها تقريباً على أنفسهم وأموالهم وكان باعناً قوياً على الجحد والمثابرة من أيام المشترعين العشرة إلى أيام نابليون . وشكلت حكومة انفصلت فيها السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، وظل ما فيها من ضوابط وموازين مصدراً ملهماً لواضعي الدساتير إلى عهد الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولقد جمعت زمناً ما بين النظم الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، ونجحت في عملها هذا نجاحاً أثني عليه الفلاسفة ، والمؤرخون ، ورعاياها وأعداؤها على السواء . ووضعت أنظمة الحكم البلدى الحلى ، وأمكنك نصف ألف مدينة من أن تستمتع بالحرية زمناً طويلاً ، وأدارت شئون

إمبراطوريتها في أول الأمر بشره وقسوة ، ثم بدلتهما تسامحاً وعدالة رضىت بهما الدولة العظيمة رضا لم نعرف له نظيراً فيما تلا ذلك الزمان . وجعلت الصحراء تزدهر بالحضارة ، وكفرت عن ذنوبها بما بسطته على بلادها من سلم دائمة طويلة ، وها نحن أولاء في هذه الأيام نبذل أعظم الجهود لنحبي السلم الرومانية في هذا العالم المضطرب .

في هذا الإطار الذى لم يسم عليه إطار غيره شادت رومة صرح حضارة يونانية في أصلها ، رومانية في تطبيقها ونتائجها . ولسنا ننكر أن انهماكها في شئون الحكم قد شغلها عن أن تنتج من الأعمال الذهنية مثل ما أنتجت بلاد اليونان ، ولكنها استوعبت التراث الصناعى ، والعقلى ، والفنى الذى تلقتة عن قرطاجنة ومصر وبلاد الشرق ، وقدرته أعظم التقدير ، واستمسكت به أشد الاستمساك : ولسنا ننكر كذلك أن العلوم لم تتقدم على يديها ، ولم تدخل شيئاً من التحسين الآلى على الصناعة ، ولكنها أغنت العالم بتجارة كانت تسير في بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطرق الباقية حتى الآن أضحت شرايين يجرى فيها دم الحياة الجياش : ولقد مرت فوق هذه الطرق ، وفوق ألف من الجسور الجميلة ، إلى عالم العصور الوسطى والعالم الحديث أساليب الزراعة والصناعات اليدوية ، والفنون ، وعلم إقامة المباني التذكارية وأعمال المصارف والاستثمار وتنظيم الأعمال الطبية والمستشفيات العسكرية ، ونظام المدن الصحى ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، وأشجار النخل ، ونباتات الحقول والزينة ، التى جاءت بها من الشرق لتتأقلم في الغرب ، وحتى سر التدفئة المركزية قد انتقل من الجنوب الدفء إلى الشمال البارد . ولقد خلق الجنوب الحضارات ثم غلبها الشمال على أمرها فدمرها أو استعارها من أهلها .

ولم تخترع رومة نظم التربية ، ولكنها أتمتها ووسعتها إلى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، وأمدتها بمعونة الدولة ، ووضعت المنهاج الذى ظل باقياً يعذبنا في

أيام شبابنا . وفي العمارة لم تخترع الأقواس أو العقود أو القباب ، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة جعلت بعض الطرز من عمائرها أرقى من جميع نظائرها إلى هذه الأيام ؛ ولقد أخذت الكنائس الكبرى في العصور الوسطى جميع عناصرها من الباسلغا الرومانية . ولم تخترع رومة التماثيل ، ولكنها وهبتها قوة واقعية ، قلما سما إليها اليونان أصحاب هذه النزعة ؛ ولم تبتدع الفلسفة ولكن لكريشيوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيتين المصقولتين أعظم صقل . ولم تنشئ الأنماط الأدبية إنشاء ، لا نستثنى من ذلك الهجو نفسه ؛ ولكن من منا يستطيع أن يقدر حق التقدير ما كان لشيشرون من أثر في فنون الخطابة ، والمقالة ، وأسلوب النثر ، أو أثر فرجيل في دانتي ، أو تسو Tasso في ملتن ، . . أوليفي وتانسيس في كتابة التاريخ ، أو هوراس وجوفثال في دريدن ، وسوف ، ووب؟

وقد أضحت لغتها بفضل ما دخل عليها من مسخ يبر الإعجاب لغة إيطاليا ، ورومانيا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وأمريكا اللاتينية ، أي لغة نصف عالم الرجل الأبيض ؛ وقد ظلت تلك اللغة حتى القرن الثامن عشر اللغة الدولية للعلم والتبحر في الدرس ، والفلسفة في بلاد الغرب . وكانت هي المعين الذي اغترفت منه مفردات دولية سهلة لعلمي الحيوان والنبات ، ولقد بقيت حية في الطقوس المنعمة والوثائق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولا تزال تكتب به تذاكر الأطباء ، وتتردد كثيراً في المصطلحات القانونية ؛ ودخلت عن طريق اللغات الرومنسية (*) (مثل peasant, pagan, paganus و royal yegal, reyalis) لتزيد من ثروة اللغة الإنجليزية ومرورتها ؛ وملاك القول أن ما ورثناه عن الرومان يظهر أمامنا آلاف المرات في كل يوم ؛ ولما أن فتحت المسيحية رومة انتقل إلى الدين الجديد بناء الدين الوثني

(*) أي المشتقة من اللغة اللاتينية كاللغات السالفة الذكر (المترجم) .

القديم : انتقل إليه لقب الجبر الأعظم pontifex meximus ، وعبادة الأم العظمى ، وعدد لا يحصى من الأرباب التي بثت الراحة والطمأنينة في النفوس ، والإحساس بوجود كائنات في كل مكان لا تدركها الحواس ، وبهجة الأعياد القديمة أو وقارها ، والمظاهر الخلابة للمواكب القديمة التي لا يعرف الإنسان بدايتها ، نقول إن هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها ، وأسرت رومة الأسيرة فاتحها ، وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية ، وشحذت الكلمة المواسية بقوة سحرها ما فقدته السيف المفاول من قوته ؛ فحل مبشر الكنيسة محل جيوش الدولة ، وأخذ هؤلاء يجوبون الآفاق في جميع الجهات متبعين الطرق الرومانية ؛ وعادت الولايات النائرة بعد أن اعتنقت المسيحية إلى الاعتراف بسيادة رومة . وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها ، خلال الكفاح الطويل الذي دام في عصر الإيمان ، وما زال ينمو هذا السلطان ، ينمو ويقوى حتى خيل إلى العالم في عصر النهضة أن الثقافة القديمة قد انبعثت من قبرها ، وأن المدينة الخالدة أضحت مرة أخرى مركز حياة العالم وثرائه وقة تلك الحياة وذهنك الثراء والفن . وقد احتفلت رومة في عام ١٩٣٦ بمضى ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها ، وكان في وسعها أن تعود بنظرها إلى ما تمتاز به حضارتها من استمرار رائع في تاريخ الإنسانية . ألايتها تعود إلى حياتها الماضية .

شكراً لك أيها القارئ الصبور

المراجع مفصلة

CHAPTER XXI

1. Pliny, *Nat Hist*, iii, 6.
2. Dill, 239.
3. Eattorusso, J, *Wonders of Italy*. 473.
4. Herodotus, i, 196.
5. Strabo, v, 1-7.
6. Varro, *Rerum rust.*, i. 2.
7. Pliny, iii, 6.
8. Strabo, v, 4-5.
9. Varro, *sat Men*, frag. 44. in Friedländer, I, 338.
10. Boissier, *Cicero*, 168.
11. Seneca, *Epist.* ii.
12. Strabo, v, 4.3.
13. Reid, 3.
14. Dio, lxxvi, 22.
15. Pliny's *Letters*, vi, 16.
16. Ibid, 20.
17. Rostovtzeff, *Mystic Italy*, 52.
18. Mau, 491 ; Boissier, *Rome and Pompeii*, 430.
19. Id., *La réligion romaine*, II, 296.
20. Mau, 226, 148.
21. Ibid. 16.
22. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 142; Dill. 194 ; Frank, *Economic Survey*, V. 98 ; Friedländer, II. 254.
23. CAH, XI, 587 ; Friedländer II, 228.
24. As at Antium, Lanuvium. Tibur, Aricia.

CHAPTER XXII

1. Cicero, *II, In Verren*, iii. 207.
2. Tacitus, *Annals*, xii. 31.
3. Cicero, *Pro lege Manilia*, 6.
4. Plutarch, *De resp. ger.*, 32.
5. Mommsen, *History*, II, 205.
6. Livy, xxv, 29.
7. Reid 288.
8. Toutain, 269.
9. Bouchier. E. *Life and Letters in Roman Africa*, 73.

10. St. Augustine, *Letters*, 185.
11. Friedländer, I, 312.
12. Boissier, *L' Afrique romaine*, 181-2; Devle, 200.
13. Bouchier, 83.
14. Juvenal, vii. 148.
15. Apuleius, 41; a fine example of Adlington's delectable translation 1566).
16. Book XI.
17. Book IV-VI.
18. Strabo, iii, 4-16.
19. Ibid., 3.7.
20. Ibid. 4-16-18.
21. Buchan, 310.
22. Gest. 201.
23. Caesar, *Belle Gallico*, ii, 80.
24. Pliny, xxxviii, 5.
25. Appian, iv. 7.
26. Strabo, iv, 4-5.
27. Ibid.
28. Caesar, v, 34.
29. Ammianus, xv, 12.
30. Caesar, vi, 14 ; Val. Max ; ii, 6, Hammerton, J., *Universal History of the World*, III. 1524.
31. Caesar, vi, 14.
32. Arnold, W. P., *The Roman System of Provincial Administration*, 142.
33. Pliny, xviii, 72.
34. Frank, *Economic Survey*, V, 133f.
35. Pliny, xxxiv, 18.
36. Ibid, iii, 5.
37. Sidonius Apollinaris, *Poems*, xxiii, 87.
38. Jullian, C. *Histoire de la Gsule*, V, 35n.
39. In Mommsen, *Provinces*, I, 118.
40. See the statemer of their case in Barnes, H. E. *History of Western Civilization*, I, 434.
41. Mommsen *History*, V, 100.
42. Caesar, V, 12.

46. Tacitus, *Annals*, xiv, 29.
47. Tacitus, *Agricola*, 21.
48. Haverfield, F., *The Roman Occupation of Britain*, 213.
49. Id., *The Romanization of Britain* 62, Collingwood and Myres, *Roman Britain*, 197; Home, G., *Roman London*, 98.
50. Strabo, iv, 5.2.
51. CAH, XII, 289.
52. *Tine*, Mar. 17, 1941.
53. Tacitus, *Germania*, 14.
54. Strabo, vii, 1.2.
55. Seneca, *De ira*, v, 10.
56. *Germania*, 22.
57. Sumner, W. G., *Folkways*, 380.
58. *Ibid.*, 316.
59. *Germania* 20.

CHAPTER XXIII

1. Dio Chrysostom, *Orat.*, vii.
2. Plutarch, "*Demosthenes*"
3. In Trench, R.C., *Plutarch*, 40
4. *Ibid.*, 41.
5. In Glover, T. R. *Conflict of Religions in the Early Roman Empire*, 85.
6. Plutarch, *Quaestiones Romani; De Iside et asiride*.
7. Plutarch, *Moralia*, introd., i, 15.
8. *Ibid.*, 37.
9. *Ibid.*, vol. II, pp 123, 128, 131-2, 173.
10. *Ibid.*, 140B.
11. *De tranq. an.*, ix, 20.
12. Dio Chr., *Orat.*, xlii
13. Epictetus, *Discourses*, i, 6.26.
14. Lucian, "Of Pantomime," 2.
15. Id., "Demonax," 57.
16. Apuleius, book X.
17. Alciphron, *Letters*, vi, p. 175.
18. Dio. Chr., *Orat.*, lxxii.
19. Philostratus, *Lives of the Sophists*, 223f.
20. Renan, *Christian Church*, 167.
21. Our sole source for Demonax is an essay uncertainly ascribed to Lucian, and possibly colored with fiction.
22. Lucian, "Peregrinus Proteus".
23. Renan *Christian Church*, 166.
24. Lucian, "Demonax" 55; Epictetus *Discourses*, iii, 22.
25. Id., frag. 1.
27. i, 12. 21; vi, 25.
28. IV, 1.
29. I, 24.
30. II, 5.
31. I, 2.
32. *Encheiridion* 8.
33. *Discourses*, i, 6.
34. *Ibid.*, 9.
35. 3, 9 : ii, 8.
36. I, 29.
37. III, 24 ; ii, 6,
38. I, 16.
39. I, 18, 19 : frag. 43.
40. III, 10.
41. Frag 42.
42. *Encheir.*, 33.
43. *Discourses*, ii, 10.
44. III, 12.
45. 13.
46. Frags. 54. 94
47. *Discourses*, ii 16.
48. i, 9.
49. *Ibid*, introd., xxviii.
50. In Sextus Empiricus, *Hypotyposes Pyrr.*, 1. 36f, and Gellius, xi, 5.6. For details cf Owen, J., *Evenings with the Sceptics*. I, 323-5.
51. Sextus, *Hyp. Pyrr.*, ii, 204.
52. III. 29; i, 135-8.
53. III. 210.
54. *Adv. Dogmaticos*, i, 148 ; *Hyp. Pyrr.*, iii, 9-11.
55. *Ibid.*, i. 7.
56. *Ibid.*, i, 8. 25.
57. III, 235; *adv. Dogm.*, i 49.
58. CAH, XII, 449.
59. Lucian, "Icaromenippus" 25.
60. "Zeus Cross-Examined" 2-18.
61. "Zeus Tragoedus," 53.
62. *Dialogues of the Dead*, x.
63. "Hermotimus," end.

64. "Charon," 2.
65. "Icaromenippus," 17.
66. "Charon," 24.
67. "Menippus," 21.
68. Inge W., *Philosophy of Plotinus*, 82.

CHAPTER XXIV

1. Josephus, *Against Apion*, ii, p. 480.
2. Charlesworth, 26; Frank, *Economic Survey*, II, 330.
3. Ibid., 337.
4. 445; Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, 1288.
5. Josephus, *Wars*, ii, 16.4; Frank V, 245.
6. Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptum*, 41.
8. Dio Chr., xxxii, 69.
9. In Frank, V, 247; Mommsen, *Provinces*, II, 177.
10. Baron, S.W., *Social and Religious History, of the Jews*, ii, p. 489.
11. Edersheim, I, 61.
12. Josephus, *Against Apion*, ii p. 489.
13. Eusebius, *Ecclesiastical History*,
14. Graetz, H. *History of the Jews*, II, 186.
15. Philo, *Quod Deus sit immutabilis* 12.
16. Philo, *De mundi opificio*, i, 4; Inge, I, 98.
17. Philo, *De confusione linguarum*, 28.
18. In Sachar, A, *History of the Jews*, 110.
19. Philo, *De vita contemplativa*
20. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 40.
21. Bailey, 314.
22. Sarton, Q, *Introduction to the History of Science*, I, 274.
23. Ibid., 202; Heath, Sir, T., *History of Greek Mathematics*, II, 306.
24. Ammianus, xxii, 16-19.
25. Philostratus, in Friedländer, I, 171.
26. Bailey, 283.
27. Sarton, 283.
28. Himes, 86.
29. Garrison, 30, 110.
30. Sarton, 282; Castiglione, 202.
31. Ibid; Himes, 90.
32. Higgard, H., *Devils, Drugs, and Doctors*, 23.
33. Galen *On the Natural Faculties*, introd., xv.
34. Galen in Thondike, L, *History of Magic and Experimental Science. I*, 117, 152.
36. Ibid, 143.
37. Williams, I; 174.
38. Castiglione, 275.
39. Thorndike, I, 171.
40. Strabo, xvi, 4.
41. Doughty, C., *Travels in Arabia Deserta*, I, 40.
42. Josephus, *Antiquities*, xv, 9.
43. MacGregor, R, *Greek Anthology*: v, 171.
44. Tr. by Goldwyn Smith in Symonds, J.A. *Greek Poets*, 521.
45. Leslie, S. *Greek Anthology*, vii, 476.
46. Ibid., p. 17.
47. Ibid., ix, 489.
48. *Greek Anthology*, ix, 570.
49. Strabo, xv, 2.23.
50. Frank, IV, 158.
51. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 135; CAH, II, 634.
52. Breasted J.H., *Oriental Forerunners of Byzantine Painting*, pref.
53. CAH, XI, 638.
54. Ibid., 646.
55. In Mahaffy, *Silver Age*, 211.
59. Philostratus, *Apollonius*, iv, 7.
60. Aelius Aristides, *Orat.*, xvii, 8, in Frank, IV, 750.
61. Philostratus, *Lives of the Sophists*, i, 25.
62. Ibid.

- 63 Longus, *Daphnis and Chloe*, ad
enit., in Heliodorus, *Greek Roma-
nces*.
64. Dio Cassius, lxx, 4.
65. Appian, *Roman History*, xiv, 16.
66. Ibid.
67. Pliny, xxv, 8.
68. Ibid., xxxiii, 14.
69. Appian, xiii, 4.
70. Ibid., 7.
71. Ferro, I, 83.
72. Arrian, *Anabasis of Alexander*.
73. Reid, 376.
74. Williams, I, 255.
75. Strabo, i, 1.22-3.
76. Ibid, 8.5.
77. Dio. Chr., xvi, 3.
78. Ibid., x, 21.
79. In Bigg. C., *Neoplatonism*, 70.
80. Ibid., 78.
81. Dio. Chr., xii 10; xiii 28; xiv,
18; xxiii, 7.
82. Friedländer, III, 299.
83. Frazer, *Adonis, Attis, and Osiris*,
157.
84. Cumont, F., *Oriental Religions
in the Roman Empire*, 53.
85. Ibid., 55.
86. Frazer. 306; Boissier, *La religion
romaine*, I, 383; Dill, 549f.
87. Plutarch, *Deicide*; Dill, 577;
Halliday, W., *Pagan Background
of Early Christianity*, 240.
88. Tarn, 296; Dill, 582.
89. Cumont, 41, 93.
90. Breasted, J., *Ancient Times*, 660;
Welgall, A. *The Paganism in
Our Christianity*, 129.
91. Dill, 610.
92. Ibid, 601, 623.
93. Cumont, 158.
94. Guignebert. C., *Christianity Past
and Present*, 71.
95. Hatch, E., *Influence of Greek
Ideas upon the Christian Church*,
283.
96. Frazer, *Adonis*, 229, Halliday, 317.

97. Hatch, 147.
98. Philo, *De, vita contemplativa*.
99. Lucian, "Alexander the Oracle-
Monger"
100. Philostatus, *Apollonius*, i, 14.
101. Ibid, 19; iv, 45.
102. I, 33-4.
103. Apollonius, epistles. xliii and
xiv in Philostratus.
104. Philostratus, iv, 3.
- 105 Ibid, viii, 29-31.

CHAPTER XXV,

1. Appian *Roman History*, xii, 15.
2. Frank, IV, 197.
- 2a. In the State Museum, Berlin;
reproduced in Pope, A., *Per-
sian Art*, IV, 134A.
3. Rawlinson, G., *Sixth Great
Oriental Monarchy*, 423.
4. Plutarch, "Cressus."
5. Sachar, 105.
6. Josephus, *Antiquities*, xiv, 2.9;
Strabo, xvi, 2.40.
7. Josephus, xiv, 11.
8. Id., *Wars*, i, 21.
9. *Antiquities*, xv, 7; xv i 5.
10. Ibid., xv, 8
11. Ibid.; 11.
12. Ibid.; *Wars*, v, 5; Foakes-Jackson
and Lake, *Beginnings of Chris-
tianity*, I, 5-7; Tchürer, Div. I.
Vol, 280.
13. *Antiquities*, xxi, 7
14. Our sole authority for this is
Josephus ant. xv 8.1
15. Ibid, 10.
16. XVII, 5.
17. Klausner, J., *Jesus of Nazareth*,
145.
18. Moore, G., *Judaism*, 1.23.
19. Baron I, 131.
20. Ibid, 192-3.
21. *Antiquities*, iv, 10.
22. *Against Apion*, p. 456.
23. Finkelstein, L., *Akiba*, 38.
24. Schürer, Div. II, Vol, I, 162;
Moore, I, 82; Goguel, M., *Life*

- of *Josys*, 471; Graetz, II, 54-5.
 25. Zeitlin, S., *The Jews*, 43; *id*; *The Pharisees and the Gospels*, 237; CAH IX 408.
 26. Josephus, *Wars*, i 8. 14.
 27. Philo *Quod, omnis homo*, 86; *Hypothetica*, 11.4 and 12; Josephus, *Antiquities*, xviii. 1.
 28. Josephus. *Wars*, ii. 8.
 29. *Ibid*, 9.
 30. Graetz, II, 29; Ueberweg, F. *History of Philosophy*, I, 228.
 31. Klausner, 231; Graetz, II, 145.
 32. Josephus, *Wars*, ii 8.
 33. In Moore, I, 313.
 34. Hastings, J., *Encyclopedia of Religion and Ethics*, s v. Hillel.
 35. Philo. in Eusebius, *Praeparatio evangelica*, viii, 7.
 36. Babylonian Talmud, Abot, I, 42. Shab, 31a.
 37. Abot, ii, 4.
 38. Foakes-Jackson, 134; CAH, IX, 420.
 39. Book of Wisdom ii
 40. *Ibid.*, v.
 41. Isaiah, ix, 6.
 42. Book of Wisdom, xviii. 13f.
 43. Isaiah, liii.
 44. Daniel, ii, 44; vii, 13f; Song of Solomon, xvii.
 45. Sibylline Oracles, iii, 767f in Klausner. *From Jesus to Paul*, 159.
 46. Isaiah, li, 4; xi, 6; Book of Enoch, i-xxvi; Sib. Or., ii. 303f in Klausner, 150.
 47. Book of Wisdom, iv; Enoch, cviii.
 48. Book of Wisdom, ii-iii.
 49. Finkelstein, 263.
 50. Tacitus, *Histories*, v, 9.
 51. Josephus, *Wars*, ii. 14.
 52. Graetz, II, 239.
 53. Josephus, I.c.
 54. *Ibid.*, v., 1f; Tacitus, v, 12.
 55. Josephus, iii, 14.
 56. *Ibid.*, ii 18.
 75. Tacitus, v. 18.

58. Josephus, v, 11.
 59. Dio Cassius, lxxv, 4.
 60. Josephus, x 3: Tacitus, v, 13.
 61. Strabo in Josephus, *Antiquities*, xiv, 7.
 62. Philo, *Legatio ad Caium*, 86.
 63. Baron, I, 132-3; Bevan, E. R. *Legacy of Israel*, 29.
 64. Josephus, *Against Apion*, ii 3.
 65. Josephus, *Life of Flavius Josephus*, p. 540.
 66. Finkelstein, 141.
 67. Baron, I, 191.
 68. Dio Cassius, lxxix, 12f; Renan, *The Christian Church*, 106.
 69. Moore, *Judaism*, I, 98.
 70. Flukelsteiu, 276.

CHAPTER XXVI

1. Reinach, S., *Short History of Christianity*, 22; Guignebert Jesus, 63.
 2. Josephus, *Antiquities*, xviii. 3.
 3. Scott, E., *First Age of Christianity*, 46; Schürer, I, 148. This conclusion applies also to the Slavonic version of Josephus; cf. Onignebert, op. cit. 148.
 4. Klausner, *Jesus*, 46; Goguel, 71.
 5. Pliny the Younger, v, 8.
 6. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
 7. Goguel, 94; Klausner, 60.
 8. Suetonius, "Nero" 16.
 9. *Id.*, "Claudius" 25.
 10. Acts of the Apostles, xviii, 2. Quotations from the New Testament are in most cases from the translation of E. J. Goodspeed.
 11. In Goguel, 9, 184.
 12. E.g., Galatians, i, 19; I Corinthians, ix, 5.
 13. I Cor., xi, 23-6.
 14. *Ibid*, xv, 3; Gal, ii 20.
 15. Eusebius, *E.H.*, iii, 39.
 16. E. g., vi, 30-45; viii, 1-18, 17-20.
 17. Klausner. *From Jesus to Paul*, 260.

18. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 335.
19. Irenaeus, *Contra Haerese*, ii, 1-3.
20. Guignebert, *Jesus*, 30; CAH, XI, 260.
21. Guignebert. 467.
22. Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, I, 268.
23. *Enc. Brit.*, XIV, 587.
24. *Ibid.*, XIV, 477.
25. Partially listed in *Enc. Brit.*, XIII, 95.
26. Scott, *First, Age*, 217; *Enc. Brit.*, XIII, 98; Goguel, 150; CAH, XI, 261.
27. Matthew, ii, 1; Luke, i, 5.
- 27a. Luke, iii, 1. 23.
28. Josephus, *Wars*, ii, 8.
29. Tertullian, *Adv. Marcionem*, iv, 19.
30. *Enc. Brit.*, V, 642; III, 525.
31. Matt. xiii, 55; Mark, vi, 2.
32. Guignebert, *Jesus*, 127; Klausner 23.
33. John, vii, 15; Mark, vi, 2.
34. Thordike, 471.
35. *Enc. Brit.*, XIII, 26.
36. Guignebert *Christianity* 58.
37. Josephus, *Antiquities*, xiii, 5. On the authenticity of the passage cf. Foakes Jackson and Lake I, 10.
38. Graetz, II, 145.
39. Matt., iii, 11-12.
40. *Ibid.*, 23.
41. John, iv, 2.
42. Josephus, *Antiquities* xviii, 5.
43. Mark, vi, 14-29.
44. Matt., xiv, 1-12.
45. Mark, i, 14; Matt., iv, 12.
46. Luke, iv, 14;
47. Isaiah, lxi, 1-2.
48. Luke, iv, 19.
49. Lüke, vi, 14.
50. Mark, ix, 48; Matt., xiii, 31.
51. Luke, xvi, 25.
52. Mark, xi, 12-14.
53. Matt, xii, 46; Luke, viii, 19.
54. Mark, i, 7; Matt., v, 40 Luke, vi, 29.
55. Guignebert. *Jesus*, 186.
56. Klausner, 69.
57. Luke, vii, 36-59.
58. Mark, x, 16.
59. Cf. Robertson, J.M., *Christianity and Mythology*.
60. Matt., xiii, 57.
61. Mark, v, 35f.
62. Matt., xix, 28.
63. Luke, x, 1-4.
64. Guignebert, *Jesus*, 52, 253; Goguel, 282, 287.
65. E.g., Matt., xx, 1-16.
66. Matt., xxiv, 30.
67. John, xviii, 26.
68. Mark, iv, 11, 30; xii, 34.
69. Luke. xvii 20.
70. Matt., xix 29.
71. Cf. Schweitzer. 212; Guignebert, 341.
72. Mark, ..., 29.
73. Matt., x, 23
74. Matt, xvi, 28.
75. Mark, xiii, 30.
76. Mark, xiii, 32.
77. Matt., xxiv, 6-12.
78. E.g, Kaustky, K., *Urprung des Christentums*; Kalthoff, A, *Rise of Christianity*.
79. Mark, x, 23; Matt, vi, 25; xix, 24; Luke, xvi, 13.
80. Matt., xix, 15.
81. Acts, ii, 44-5.
82. Matt., xxii, 21.
83. Matt., xxv, 14.
84. Luke, xix, 26.
85. Matt., xx, 15.
86. Matt., xxiv, 46; Luke, xvii, 7-10.
87. Matt., xi, 12.
88. Mark, i, 14-15; vi, 12; Matt., x.7.
89. Luke xviii. 29; xiv, 26; Matt., viii, 21f; x, 34; xix, 12.
90. Leviticus, xix, 17-18, 34.
91. Exodus, xxiii, 4-5.
92. Jeremiah, lii, 30.

93. Isaiah, i 6.
94. Ibid., i, 2.
95. Hosea, ii, 1.
96. Matt., x, 5.
97. Acts, x-xi
98. John, iv, 22.
99. Matt., xv, 24f; Mark, vii, 27.
100. Matt. viii, 4.
101. Matt., xxiii, 1.
102. Matt., v, 17.
103. Luke, xvi, 17; Matt., v, 18.
104. Foakes-Jackson and Lake, I, 316
105. Matt., v, 31-2.
106. Matt., v, 21-2.
107. Mark, ii, 26.
108. Luke xvi, 16; Matt., v, 18.
109. Matt., xxiii, 1-34; xxi, 31.
110. Cf. Mark, xxii, 32-8, and Klausner, *Jesus*, 113.
111. Luke, xxiii, 31-3.
112. Acts, i, 6.
113. Mark, xii, 35-7.
114. Matt., xix 17.
115. Mark XIV 36.
116. Daniel, vii, 13.
117. Matt., xii, 8.
118. Matt., xi, 27; Luke. x, 22.
119. Matt., xvi, 16f.
120. Luke, xix, 37.
121. John, xii, 13.
122. Mark, xiv 49; Luke, xxi, 1; xxi, 37.
123. John, xi, 50
124. Mark, x, 46; xiv, 24.
125. E.g., Guignebert, *Jesus*, 454; Brandes, G., *Did Jesus Exist?*, 104.
- 1 6. Cf. Ooguel, 497.
127. Mark, xiv, 26 : Klausner, 326.
128. John, xlii, 33, XIV 1-2.
129. Mark, xiv, 48.
130. Mark, xiv, 61; Matt., xxvi, 63.
131. Philo, *Legatio*, I, 38.
132. Matt., xxvii, 11.
133. John, xxviii, 38.
134. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
135. Luke, xviii, 26.
136. Cicero, *vin verrem* 64.
137. Mark, xv, 32.

138. Luke, xxiii, 39-43.
139. John, xix 25; Mark, xv, 37.
140. Justinian, *Digest*, xlviii. 20. 6.
141. Luke, xxiii, 48.
142. Luke, xxiv, 18-32.
143. Matt., xxviii, 16-17.
144. John, xxi, 4.
145. Luke xxiv, 52

CHAPTER XXVII

1. Foakes - Jackson and Lake II, *passim*, and especially, 305-6; Scott, *First Age*, 110; CAH, XI, 257-8, Klausner, from Jesus to Paul 216; Ramsay, W. M., *The Church in the Roman Empire*, 6-8; Renan, *Apostles*, P. v.
2. Shotwell, J., and Loomis, L., *The see of Peter*, 56-7.
3. I Peter, iv, 7.
4. I John, ii, 18.
5. Acts, ii, 46.
6. Ibid., xi, 8.
7. V, 20.
8. Mark, vi, 13.
9. Acts, iv, 32-6; ii, 44-5.
10. IV 4.
11. VI, 11.
12. VII, 51-3.
13. VIII. 2-3.
14. XI, 19.
15. I Cor., ix 5; Clement of Alexandria, *stromata*, vii, 11; Eusebius, *E.H.*, iii, 30.
16. I Peter, i, i-iv, 8.
17. Shotwell and Loomis, 64-5.
18. Laetantius, *De Mortibus Persecutorum*, 2.
19. Eusebius, ii, 25.
20. Ibid., iii, I.
21. Renan *Antichrist*, 93.
22. Acts, xlii, 9; Coneybeare and Howson, *Life, Times, and Travels of St. Paul*, I, 46, 150
23. Guignebert, *Christianity*, 76-6;

- Livingstone, R.W., *The Legacy of Greece*, 83, 54
24. Acts, xxi, 8.
25. Renan, *Jesus*, 167.
26. II Cor., x, 1.
27. Ibid., xii, 7.
28. Gal., v, 12.
29. II Cor., xi, 1.
30. Acts, ix, 1.
31. IX, 3-9.
32. IX, 18.
33. XV, 1.
34. XV, 27-9. The account in Acts harmonizes sufficiently well. *pace* Renan and others, with Paul's report in Gal. ii.
35. Gal. ii, 10.
36. Ibid., ii, iii
37. Acts, xvii, 18.
38. XVII, 22.
39. XVIII, 12.
40. II Cor., iii, 6.
41. Acts, xxi, 12-1.
42. XXVIII, 28.
43. Guignebert, *Christianity*, 65 ; Goguel, 105, CAH, XI, 257; Klausner, *Jesus*, 63.
44. Coloss., iii, 6.
45. II Cor., iii, 6.
46. I Cor., xv, 33.
47. Titus, i, 15.
48. I Timothy, vi, 10. The letters to Titus and Timothy, however, are of doubtful authenticity
49. I Cor., ix, 19; x, 33.
50. Romans, v, 12.
51. Frazer, Sir J., *The Scapegoat* 210, 413; Weigall, 70f.
52. Guignebert, *Christianity*, 88.
53. I Cor., xv, 51.
54. Ibid., i, 24.
55. Coloss., i, 15-17.
56. Rom., ix, 11, 18; xi, 5.
57. Hebrews, xi, 1. Probably not Paul's,
58. Gal. iii 27.
59. I Cor., xii.
60. Ibid., ix, 5.
61. VII, 8.
62. Rom. xiii, 14.
63. Ibid., i, 26.
64. I Cor., vi, 15.
65. Ibid., vii, 20f.
66. Rom., xiii, 1.
- 66a. II Tim., iv, 9, 6.
67. Philippians, iii, 20., IV 6.
68. I Cor., vii, 29; cf. I Thessalonians, iv, 15.
69. II Thess., ii, 1-5.
70. Acts; xvii, 7.
71. Eusebius, *E.H.*, iii, 1
72. Revelation, xvii, 10.
73. Renan, *Antichrist*, 95; CAH, X, 726.
74. Duchesne, Mon. L., *Early History of the Christian Church*, I, 99.
75. Eusebius, iii, 25.
76. Ibid., iii, 33.
77. Rev., viii, 4; xiv, 1.
78. Ibid., vi, 2-8.
79. VII, 14.
80. XX, 15; xxi, 8.
81. XIX, 18.
82. XXI.
83. Proverbs, viii, 22-31.
84. John, i 5.
85. Justin, *Apology*, i66; Tertullian, *De Baptismo* 5; Halliday. 9.

CHAPTER XXXVIII

1. Duchesne, I, 38.
2. Tertullian, *Contra Marcionem*, v, 8.
3. Jerome, *Letters*, xciii.
4. Clement of Alexandria, *Paedagogus*, iii, 11.
5. Paul. I Cor., xi, 3. XIV 34.
6. Lucian, *Peregrinusa Proteus*.
7. Tertullian, *Apologeticus*, xxxix, 11-12
8. Ibid., 5.
9. Renan, *Marc Aurèle* 600.
10. James., v, 1; ii, 5.
11. Ibid., i 10.

12. Renan, *St. Paul*, 402.
13. Klausner. *From Jesus to Paul*, 133-4.
14. Tertullian, *De jejuniis*, i, 17; Duchesne, II, 253. Renan *Christian Church*, 211; Robertson, *History of Freebought*, I, 244.
15. Clement of Alex-*Paedag.*, iii, 11. Renan. *Marc Aurèle*, 520.
16. Tertullian, *Apol.* ix, 8.
17. Gibbon. I, 480.
18. Tertullian *De spectaculis*, i. 3.
19. Sumner., W. O. *War and Other Essays*, 54-5.
20. Tertullian, *Apol.*, xlv, 10.
21. Friedländer III, 204; Tertullian, *De exhort castitatis*, 13; Lea. H. C., *Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy*, 41; Robertson, *History of Freebought*, I, 244.
22. Pliny the Younger. x 97.
23. Oalen in Hammerton. IV, 2179.
24. Tertullian, *De spect.*, 28.
25. Perhaps anthropophagic, cf. Sumner *Folkways* 451.
26. Renan, *St. Paul*, 268.
27. Frazer, Sir J., *Spirits of the Corn and Wild* II, 92-8; Carpenter, Edw., *Pagan and Christian Creeds*. 65-7.
28. Acts, viii. 14-17; xix, 1-6.
29. *Catholic Encyclopedia*, 217-8.
30. Matt., xvi, 18; John, xx, 23.
31. Friedländer. II. 364.
32. Renan. *Marc Aurèle*, 449.
33. Tertullian *Apol.*, xxxvii, 4.
34. Id., *Ad uxorem*. I, 5; Renan, *Marc*, 551. Glover, *Conflict of Religions*. 841.
35. CAH, XII 456.
36. Lake. K., *Apostolic Fathers*. I. 395.
37. Murray, Sir G., *Five Stages of Greek Religion*, 196.
38. Renan, *Marc* 292.
39. Duchesne. I. 196.
40. Friedländer III. 192.
41. CAH, XII, 459.
42. Origen. *Contra Celsum*. in Glover. 252; Carpenter. 220.
43. Plotinus. *Enneads*. xliii.
44. Porphyry. *Life of Plotinus*. 14.
45. Mac Kenna. Stephen. *Essence of Plotinus*. 11n.
46. Plotinus *Enneads*. iii. 4.
47. Ibid. vi 9.
48. V. I.
49. IV. 1; Inge, *Philosophy of Plotinus* II 21-4. 92.
50. Plotinus. v. 1 iii. 7.
51. Ibid. v. 11.
52. Mac Kenna. *Intord*. xx.
53. In Lake. *Apostolic Fathers*, I. 23.
54. Tertullian *Apol.* xxx, 4.
55. Ibid. xvii. 6.
56. Id., *De spect.*, 30.
57. Id. *De cultu feminarum*.
58. In Ueberweg. I. 308.
59. CAH. XII. 593.
60. Eusebius. vi. 2.
61. Gibbon. I. 467.
62. Jerome *Letters*. xxxiii
63. Shotwell. *Introduction*. 292.
64. Origen. *De principiis*. i. 15-16. in Hatch. 76.
65. Origen, op. cit., iv, 1, in Hatch 76.
66. Duchesne, I, 255f.
67. Inge, *Plotinus*, II, 19, 102.
68. In Watson, *Marcus Aurelius*, 306.
69. Matt., xvi, 18.
70. Shotwell and Loomis, 64-5.
71. Ibid., 60-1, 84-6.
72. Lake, I, 121.
73. Duchesne I, 215.
74. CAH, XII, 198, 600.
75. Cyprian's Letter in Inge *Plotinus*. I. 62.

CHAPTER XXXIX

1. Herodian. *History of Twenty Cases* II. 88.
2. Dio Cassius. lxxiv, 5.
3. Herodian. II, 100, 103; III, 155.
4. *Historia Augusta*. "Septimius" Severus, xviii. 11.

5. Herodian, III, 189.
6. Lot, F. *End of the Ancient World* 10.
7. Dio, lxxxix, 7.
8. Ibid., lxxviii, 16.
9. Herodian, IV, 210; Dio lxxviii, 22.
10. Dio, lxxix, 28.
11. *Historia Augusta* "Elagabalus," 19-32. Dio, lxxx, 13; Herodian, IV, 253.
12. Dio, lxxix, 14; Gibbon, I. 141.
13. *Historia Augusta* "Severus Alexander" 30, 39.
14. Herodian, VI, 5.
15. *Hist. Aug.*, "Severus Alexander" 20
16. Ibid., 29.
17. Ibid., 33.
18. Herodian, VI. 8.
19. In Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 399.
20. Gibbon, I, 294.
21. Maine, *Ancient Law*, 177.
22. West, L., "Economic Collapse of the Roman Empire," in *Classical Journal* 1932 p. 106.
23. Abbott, *Common People*, 174.
24. Rostovtzeff, op. cit., 424, 442-3
25. Ibid., 305.
26. Frank, *Economic History*, 489,
72. Ferrero, *Ruin of Ancient Civilization*, 58; Rostovtzeff, *History, of the Ancient World*, II 317.
28. Frank, *Economic Survey*, IV, 220.
29. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 419.
30. Collingwood and Myres. 206.
31. Heath, II, 448.
32. Plato, *Laws* 819.
33. Ball, W. W., *Short History of Mathematics*, 96.
34. Justinian, *Digest*, i 1.4.
35. *Hist. Aug.*, "Severus Alexander," 51
36. Roberts, W. R., introd. to "Longinus" on the Sublime, Loeb Library.
37. Heliodorus, *Greek Romances*, I.
38. Ibid., 289.
39. In Catullus, Tibullus, etc., p. 343
40. In Burckhardt, J., *Die Zeit Constantins*, 54.
41. CAH, XII, 273; Frank *Economic Survey* III, 633.
42. Ferrero, *Ancient Rome and Modern America*, 88.
43. Toutain, 326.
44. West, I. c. 102.
45. Rostovtzeff, *Ancient World*, II, 329.
46. Toutain, 326. CAH XII, 271: *Cambridge Medieval History* 1, 52.
47. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 474.
48. Commingham, W. C., *Western Civilization in its Economic Aspects* I, 191-2.
49. Paul-Louis, 283-5.
- 50 Translation based on that of Elsa Olaser in Frank *Economic Survey* V, 312.
51. Ibid., The prices are calculated on the valuation of gold at \$35 per oz. in the United States of 1944.
52. Frank *Survey* III. 612.
53. Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, vii.
54. Ibid vii, 3.
55. Charlesworth, 98.
56. West, 105. Ferrero, *Ruin of Ancient Civilization* 106.
57. Cunningham, I, 188.
58. Frank, *Survey* II, 245. IV, 241.
59. Reid, *Municipalities*; 492; Arnold 265.
60. Heitland, 382.
61. Davis, W. S., 233.
62. Frank, *Economic History*, 404. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 409.
63. Gibbon, I. 377.

CHAPTER XXX

1. Renan, *Marc*, 597.
2. Tertullian's *Apol.*, xl, 1.
3. Minucius Felix, *Octavius*, ix, 5 in Tertullian's *Apol.*
4. Guignebert, *Christianity*, 164,
5. I Cor. vi 1; Renan, *Marc*, 597.

6. Origen *Contra Celsum*, viii, 69, in Haliday, 27.
7. Tertullian, *Apol.*, xv, 1-7; Duchesne, I, 34.
8. Friedländer, III, 186.
9. Tertullian, *Apol.*, iv, 1.
10. Ramsay, 253; CAH, X, 503.
11. Duchesne, I, 82.
12. Bury, J., *History of Freedom of Thought*, 42.
13. Tertullian, *Apol.*, v, 4, Eusebius iii, 17.
14. Pliny the Younger, 96-7.
15. Recript of Haurian in Eusebius, iv, 9. For a defense of its authenticity cf. Ramsay, 320.
16. From an account said to have been sent to the Christian churches by the elders of the church at Smyrna, in Lake, *Apostolic Fathers*, II, 321.
17. Renan, *Marc*, 331.
18. Tertullian, *Apol.*, xlv, 14.
19. *Memoirs of St. Perpetua*, in Davis and West, *Readings in Ancient History*, 287.
20. Rostovtzeff *Ancient World* II, 349.
21. Duchesne I, 267.
22. Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, x.
23. Eusebius, viii, 11.
24. Gibbon, II, 57.
25. Eusebius, viii, 17.
26. Tertullian, *Apol.*, 1, 13.
27. Ambrose in *Enc. Brit.*, VI, 297.
28. Eusebius, *Life of Constantine*, i, 28.
29. Eusebius, *E.H.*, viii, 2.
30. Id., *Life of Constantine*, i, 28.
31. Lactantius, *De Mortibus*, xiv, 5.
32. *Cambridge Medieval History*, I, 4.
33. For the detailed evidence cf. Burckhardt, 262f.
34. *Hist. Aug.*, "Elagabalus," xxxiv, 4.
35. Lot, 29.
36. Flick, A. C., *Rise of the Medieval Church*, 123-4.
37. Duruy, V., *History of the Roman People* VII, 510.
38. Kalthoff, 172; Lot, 98.
39. Eusebius, *Life*, ii, 36.
40. Ibid., iii, 62f.
41. Duchesne, I, 290.
42. Eusebius, *E.H.*, viii, 1.
43. Duchesne, II, 99.
44. Eusebius, *Historical View of the Council of Nice*, 6.
45. Ibid.
46. Eusebius *Life*, ii, 63, 70.
47. Eusebius, *Nice*, 6.
48. Ibid., 15.
49. *Cambridge Medieval History*, I, 121.
50. Socrates, *Ecclesiastical History*, i, 8.
51. Duchesne, II, 125.
52. Ferrero, *Ruin*, 170.
53. Gatteschi 24, Reimach, *Apollo*, 89.
54. Gibbon, VI, 553.
55. Lactantius, *Divinae Institutiones*, v, 19.
56. Eusebius, *Life*, i, 1.
57. *Cambridge Medieval History*, I, 15.

EPILOQUE

1. Reid, J. S., in *Cambridge Medieval History*, I, 54.
2. Cyprian, *Ad Demetrium*, 3, in Inge, *Plotins*, I, 25.
3. Cf. West, op. cit., 108.
4. Frank, *Survey*, III, 575.
5. In Eusebius, *E.H.*, vii, 21.
6. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 424.
7. Frank, *Survey*, III, 74.
8. Gibbon, I, 274.
9. Davis, *Influence of Wealth*, 214.
10. Gibbon, 274.
11. Id., chap. xvi, etc.
12. Renan, *Marc*, 589; Ferrero *Ruin* 7, 74; White, E.L., *Why Rome Fell*, passim.
13. Montesquieu, *Grandeur et décadence des Romains*, 86.
14. *Cambridge Medieval History*, I, 10.
15. Abbott, 201.
16. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 445.

حقوق الطبع محفوظة

قائمة المراجعين : من بعد ٨٧٢٧ ت ، ٤٣٦١٥ . ٤٣٦١٥ . ٤٣٦١٥ . ٤٣٦١٥
العنوان الجليل ، داره العبدية ، بعبده ، لجانته

فهرس عام

بالأحداث التي أرخ لها في الكتاب

مسلسلة حسب السنين

السنون قبل الميلاد	الحواث	رقم الصفحة
٣٠٠٠٠	بده الحضارة (أيام الرجل الأورفيلدى)	٤٤
١٢٠٠٠	إنتقال فرنسا من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث (تقریباً)	٤٤
٢٠٠٠	إنشاء صناعة البرنز (تقریباً)	٤٠
٢٠٠٠	انتقال فرنسا إلى عصر البرنز (تقریباً)	٤٤
١٢٠٠	عبور فرع من قباثل الكلت البحر من غالة واستقراره في إنجلترا (تقریباً)	٥٤
١٠٠٠	شروع الفينيقيين في البحث عن ثروة إسبانيا المعدنية (تقریباً)	٤٠
٩٠٠	الفيينيقيون يؤسسون في مدينة (أويا) طرابلس قبل تمام العام	٣٣
٩٠٠	تسرب الجنس الألبى من ألمانيا إلى فرنسا وبريطانيا وإيرلندا	٤٤
٨٠٠	الاستيلاء على فادس ومالقة (تقریباً)	٤٠
٧٧٦	بده قيام الألعاب الأولمبية	٧٥
٥٥٠	استيراد فن (لاتين) La Tène في صناعة الحديد	٤٥
٥٢١	دارا الأول في نقش ههستوم	٥٦
٥٠٠	استقرار اليونان في الساحل الجنوبى الشرقى لأسبانيا (تقریباً)	٤٠
٤٥٠	الكلت يمتلكون معظم أوروبا الوسطى وغالة	٤٧
٣٩٤	نهاية قيام الألعاب الأولمبية	٧٥
٣٩٠	الكلت يندفعون جنوباً نحو رومة	٤٧
٣٥٠	عبور پيثيراس (المرتاد الماسليونى) المحيط الأطلنطى	٥٤
٣٠٢	مثر داتس يقيم مملكة تشمل كيدوكيا وپيترس	١٣٥
٢٨٦	اتخاذ مديولانم (ميلان) عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة	٩
٢٧٨	الكلت ينهبون دلى ويستولون على فريچيا	٤٧
٢٤٨	خروج أرساسيس الزعيم السكوزى على حكم السلوقيين	١٥٧
٢٠٩	القرطاجيون يدمرون مدينة جنوى	٨
٢٠٠	صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا والغرب من إيطاليا	٤٩
٢٠٠	نشأة المجلس الأعلى الإسرائيلى	١٧٢
١٨٩	رومة تهزم أنتيخوس الثالث	١٥٧
١٧٠-٩٦	تأليف كتاب أخنوخ	١٨٠

السنون قبل الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٦٥	تاريخ كتاب دانيال	١٨
١٥٢	نشأة قرطبة	٤٢
١٥٠	نشر نبوءات سينيلية	١٨٠
١٤٦	قيام الإمبراطورية الرومانية	١
١٤٤	يوسيدونيوس يكتب تاريخ رومة من ١٤٤ - ٨٢ ق م	١٣٠
١٤٣	افتراع سيمون مكابي استقلال بلاد اليهود من أيدي الملوك السلوقيين	١٦١
١٤٢	اختيار سيمون قائداً أو كاهناً أعلى للدولة اليهودية الثابتة	١٦١
١٣٥	ميلاد يوسيدونيوس في أباديا من أعمال سوريا	١٣٠
١٣٣	أثالس الثالث يوصى بمملكته إلى رومة	١٣٣
١٣٣	الثورة والاضطرابات الشيوعية في رومة	٢٩١
١٣٢	أرسنكس بن الملك يومينز الثاني يهزم جيشاً رومانياً	١٣٣
١٣٢	النضال بين رومة واليهود من ١٣٢ ق م - ١٣٥ م	١٥٦
١٣٠-٤٠ م	نشر سفر أمثال سليمان	١٧٩
١٢٩	موت سينيوس	٨١
١٢٩	عودة بانتيوس إلى أثينة	٨١
١٢٩	تخصيص هيكل لعبادة أرميس	١٢٩
١٢٥	الرومان يفتحون جنوبي غالة	٤٧
١١٥	الانقلاب السياسي المفاجيء	١٣٥
١٠٠	فرع من الكلث يطرد بني عمومته من جنوبي بريطانيا	٥٤
٩٤	موت فيقوميدس الثاني ملك بيثنيا	١٣٧
٩٤	حكم ترجرانس الأكبر أشهر ملوك أرمينية من ٩٤ - ٥٦	١٥٦
٨٨	مترداتس يامر بقتل ثمانين ألف إيطالي في صقلية	١٣٨
٨٨	أمير عربي يشيد قصراً من الجير في جزا بالقرب من الموصل	١٥٨
٨٨ - ٨٤	الحرب المترادفية الأولى	١٣٧
٨٣ - ٨١	الحرب المترادفية الثانية	١٤٠
٧٩	أنتيغوس العسقلاني يعلم شيشرون في المجمع العلمي	٨١
٨٨	الحسمونيون يضمون بلاد السامرة وغيرها إلى بلادهم	١٦١
٧٨ - ٦٩	الملكة شالوم اسكندرة تعقد الصلح مع الفرنسيين	١٦٢
٧٥ - ٦٣	الحرب المترادفية الثالثة	١٤٠
٧٥	مولد همل في بابل	١٧٦
٦٣	انتصار فيالق پيمبي في دمشق	١٦٢
٥٨	زعماء الكلث يستغيثون بقيصر في صلح إغاثة ألمانية	٤٧
٥٤	كرامس في طريقه إلى طشقونه	١٦٢
٥٣	هزيمة كرامس في كاري	٦٠٨

السنون قبل الميلاد ثم بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٤٣ قـم - ٧٠ م	مدة السولة اليهودية الثانية	١٦١
٥٣ قـم - ٢١٧ م	حروب روما مع بارثيا	١٥٨
٥٠ قـم	استرابون السريديس يجمع ديوان شعر كله غزل في الفلجان	١١٩
٥٠ قـم	نشر سفر مزامير سليمان	١٨٠
٤٦ قـم	٣٠٠ صاحب مصرف وبائع بخلة في روما	٣٤
٤٣ قـم	بيع ثلاثين ألف يهودى في أسواق الرقيق	١٦٣
٤٣ قـم	ظهور الاضطرابات الشيوعية في أثينة	٢٩١
٢٧ -	قـم حكم هيرورد بن انتباتر	١٦٣
٣٠٠	تعيين هلال رئيساً للسندرين	١٧٧
٢٨٠	كتابة الترجمة السبعينية للتوراة	١٨١
٢٥	أغسطس إيلويس يبعث جالس ليضم مملكة مأرب والعرب	١١٦
٩ قـم - ٤٠	حكم الملك ارتاس الرابع	١١٧
٩ قـم - ٤٠	ملكة بصرى تلغ ذرى مجدها	١١٧
٨٠ - ٧ قـم	سترينس حاكم سوريا يحصى اليهود	٢١٢
٧٠ قـم	استرابون يخرج كتابه العظيم (الجغرافية)	١٤٢
٦٠ قـم	الحكم على ألكسندر وإستبولس ابني هيزود بالإعدام	١٦٩
٤ قـم	موت هيرود	١٦٩
٤ قـم	جنود أركلوس يقتلون ٣٠٠٠ يهودى جاءوا إلى أورشليم للاحتفال	
	بعيد الفصح	١٨٤
٤ قـم - ٣٢٥	شباب المسيحية	١٩٧
٢٠ - ١	قدم مولد المسيح	٢١٢
٦ - ٧	م إحصاء عام في بلاد اليهود	٢١٢
٦ - ١٢	م كويرنيوس حاكم سوريا	٢١٢
١٠ -	م وفاة هلال	١٧٨
٢٨٠ - ٢٩	م يوحنا يعمد يسوع المسيح	٢١٢
٣٠	تشيد هيكال الشمس	١٢٤
٣٠٠ ؟	اتهام اصطفانوس الشماس بالتجديف	٢٤٣
٣٠ - ٩٥	حياة رسل المسيح	٢٢٥
٣١٠ ؟	بولس يتزعم الاضطاد الأول للمسيحيين في أورشليم	٢٥٢
٣٦٠	إلغاء الملكية في بلاد اليهود وجعلها ولاية رومانية	١٨٥
٤٠٠	وفدان من اليونان واليهود يرضان قضاياها على كلجيولا	١٠٢
٤٠٠ - ٩٠	ديوسكريديز يكتب كتابه في العقاقير	١١٠
٤٠٠ - ١٤٠	ديوكريستوم (ديودور الفهم الذهبى)	١٤٣

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٤١	تقريباً مقتل يعقوب بن زبدي	٢٤٤
٤١	بطرس يشق طريقه إلى رومة ويصل إليها	٢٤٦
٤١	أجرى ملكاً على فلسطين	١٨٥
٤٣	كلوديوس يعبّر القناة	٥٥
٤٣ - ٤٤ ؟	برنابا وبولس يعملان معاً	١٥٤
٤٤	كلوديوس يعبّد بلاد اليهود إلى ما كانت عليه في عهد أغسطس	١٨٥
٤٥ - ٤٧	رحلة القديس بولس التبشيرية	١٥٤
٤٦	مولد سيمويس سقيوس	٣٣
٤٦ - ١٢٦	حياة أفلوطرغس القيرونيائي	٦٩
٥٠	كولوني تقام تكريماً لأم نيرون التي ولدت فيها	٦٢
٥٠	بولس يتم رحلته التبشيرية الثانية	٢٥٥
٥٠	مولد أبكتنس في هيرابوليس	٨٣
٥٠ ؟	بولس وبرنابا يسافران إلى أورشليم	٢٥٥
٥٠ - ١٢٦	دموقا كس الفيلسوف الكلبي	٨٠
٥١	بولس يقلع عن ظهر سفينة إلى أثينة	١٥٦
٥١ - ٥٢	بولس يقيم في كورنثة ثمانية عشر شهراً	٢٥٨
٥٢	كلوديوس ينقّي اليهود لإثارتهم الاضطرابات العامة بتحريض المسيح	٢٠٥
٥٢	انقراض وجود الجالية المسيحية قبل هذا العام	٢٠٦
٥٣ ؟	انتقال بولس من كورنثة إلى أورشليم	٢٥٨
٥٤	الرجوع بولس إلى كورنثة	٢٥٩
٥٧ ؟	استقبال أزمع الكنييسة لبولس	٢٦٠
٥٨ - ٦٠	القبض على بولس وإبقاؤه تحت الحراسة	٢٦١
٦٠ م - ١٢٠ م	الأناجيل الأربعة	٢٠٧
٦١	يودكا ملكة إحدى القبائل البريطانية تقود ثورة	٥٥
٦٢	يعقوب العادل يقتل نفسه	٢٤٤
٦٣	زلزال يدمر بعض ممبى	١٦
٦٣	النسخة الأصلية من سفر الأمثال	٢٢٥
٦٤	رسائل تمزى إلى بولس مؤرخة بهذا العام	٢٠٦
٦٤	استشهاد بولس وصلب بطرس	٢٤٧
٦٤	قتل المسيحيين بعد حريق هذا العام	٢٦٨
٦٤ - ٣١١ م	النزاع بين الكنييسة والدولة	٣٧٠
٦٦	استيلاء الثوار على أورشليم وفلسطين قبل سبتمبر	١٨٧
٦٨ ، ٧١	اندلاع الثورة بقيادة فندكس وسفيلس	٤٨
٦٩ - ٧٠	سفر الربويا ليوحنا	٢٧١

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٧٠ م	تخريب الهيكل	١٧٤
٧٠ م	مليون ومائة وسبعة وتسعون ألف يهودى يهلكون فى الحصار	١٨٨
٧٠ م	تشثيت الآلاف من اليهود	١٩٠
٧٠ م	بقاء بث الدعوة للمسيحية بين اليهود	٢٤٧
٧٣	مقاومة اليهود	١٨٨
٧٥	تاريخ حرب اليهود مؤلف ليوسفوس	١٩١
٧٠٨ - ٥٤ م	أجر كولا حاكم بريطانيا	٥٥
٧٩	ثورة بركان فيزوف	١٦
٨٢	دومتان ينفى ديوكريستوم من إيطاليا وبشينا	١٤٣
٨٥ - ٩٠	كتابة الإنجيل متى	٢٠٨
٩٠ ؟ -	يوحنا الرسول يكتب الإنجيل	٢٧٤
٩٣	أقدم إشارة غير مسيحية تثبت وجود المسيح	٢٠٤
٩٥	أنباء باتخاذ دومتان إجراءات جديدة ضد اليهود	١٩٣
٩٦	البابا كلمنت يرسل رسالة إلى كنيسة كورنثة	٣١٦
٩١ - ٣٠٩	نمو الكنيسة	٢٧٧
٩٧	كلمنت يشير إلى رسائل بولس	٢٦٣
١٠٠	اقتسام التجار مكاسبهم مع الثالوث التدمرى	١٢٤
١٠٠	الحاخام غمائل الثانى يفرض النظام الصارم	١٩٢
١٠٠	كلمنت الإسكندرى وآرائه حول مولد المسيح	٢١٢
١٠٠	دفن موفى المسيحيين فى سراديب	٢٨٥
١٠٠	وصول عدوى تحديد النسل إلى طبقة الزراع	٤٠٦
١٠٦	تراجان يضم المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته	١١٧
١١٠	أقدم الإشارات إلى المسيح فى خطاب بلنى الأصغر	٢٠٥
١١٠	كتابة رسالة راعى هرماس	٢٨٢
١١٥ ، ١١٦ م	يهود قورينة يرفعون علم الثورة على رومة	١٩٤
١١٦ م	سورانس الأنسومى ينشر رسالة فى أمراض النساء . وولادة	
	الأطفال والعناية بهم	١١١
١١٧	إنشاء مدينة تمجاد	٣٤
١١٧	بسيليدس وأنظمة القيص الربانى والأيونات المجسدة	٢٩٢
١١٧ - ١٨٧	إيلوس أرسنديز	١٣٢
١٢٢ - ١٢٧ م	هدريان يشيد سوراً	٥٦
١٢٤ م	ميلاد لوسيموس أبوليوس	٣٦
١٢٧ م - ١٥١ م	كلوديويس بطليموس يرصد الأجرام السماوية	١٠٦

السنون بعد الميلاد	الحواشي	رقم الصفحة
١٣٠	هدريان يعلن اعتزام بنام ضريح بلوثير	١٩٤
١٣١	هدريان يصدر مرسوماً بتحريم الختان ويحرم تعليم الشريعة اليهودية	١٩٤
١٣٢	آخر وقفة لليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم	١٩٤
١٣٥	بيباس يذكر شخصية يوحنا الأكبر	٢٠٧
١٣٥	بيباس يعزو سفر الرؤيا إلى يوحنا اللاهوتي	٢٧١
١٣٥	جستن مارتن يعزو سفر الرؤيا إلى الرسول يوحنا	٢٧١
١٣٥	بيباس يتفرد بذكر الإشارة إلى إنجيل مسيحي	٢٠٧
١٤٠	مرسيون يصل إلى رومة لتخليص المسيحية من اليهودية	٢٩٢
١٤٥	سوتيونيوس يؤرخ اضطهاد نيرون للمسيحية	٢٠٥
١٤٦	مولد سبتيميوس سيفرس	٣٢٢
١٥١	تاريخ الإدشارة إلى إنجيل مسيحي	٢٠٧
١٥٦	متناس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بهذا العالم	٢٩٣
١٥٦	بوليكارب أسقف أزمير يزور رومة	٣١٧
١٦٠	مولد كوثنس سبتيميوس تروثيانس	٣٠٦
١٦٠	لوشيان يصف المسيحية	٢٧٩
١٦٠	فلنتينس وأنظمة الفيض الرباني والأيونات المبهدة	٢٩٢
١٦٤ - ١٦٨ م	جالينوس يمارس الجراحة	...
١٦٥	برجرينس يجمع محرقته بنفسه ويوقد النار فيها ويحترق في لهيبها	٨١
١٦٥	لوشيان يلتقي عصا التسيار ويقم في أثينة	٩١
١٦٥	مدوسة المجالدين في برجوم برومة	١١١
١٦٦	إعدام جستين السامري مع ستة من أتباعه	٣٠١
١٦٩	ماركس أورليوس يستدعي جالينوس ليعي بكنودس الصغير	١١٢
١٧٢	أورليوس يسكن الأمرى الألمان في داخل الإمبراطورية	٢٤٢
١٧٨	أورليوس يقاتل المركانيين على ضفاف الدانوب	١٩٦
١٨٠	برونوبور يبدأ سلسلة من الكتب الجدلية الحاسية	٢٠٤
١٨٠	ظهور الرموز المسيحية ذات الشأن	٢٨٦
١٨٠	تاريخ هتامة لايته كشفها مراتوري	٣١٥
١٨٧	ايريونيوس يحصى عشرين شيمة مختلفة من المسيحية	٣١٤
١٨٧	ايرنيو يكتب عن بطرس وعهده بمنصب الأسقفية للينس	٣١٦
١٩٠	البابا فكتور يكرر طلب انتستيس ويصوغه في صيغة الأمر	٣١٧
١٩٣	اجتماع مجلس الشيوخ واختيار برتناكس إمبراطورا بعد اغتيال كودس	...
	في أول يوم من يناير	٣٢٢

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٩٣	عشور طريون على الإمبراطور جايانثس ييكي في قصره وأخذه إلى حمام وقطع رأسه في ٢ يونية	٣٢٢
١٩٣ - ٣٠٥	إنهيار الإمبراطورية	٣٢١
٢٠٠	تقنين الهلاك (الأحاديث الشقوية بين العلماء)	١٩٣
٢٠٠	اتخاذ عادة وضع الأيادي في الرسامة	٢٨٥
٢٠٠	ترتليان يذكر أن المسيحيين ملأوا العالم كله	٢٨٩
٢٠٠	بردسانس يصف الأيونات شعراً بلغة السريان الأدبية	٢٩٢
٢٠٠	ترتليان يؤيد إبرنيو في عهد بطرس	٣١٦
٢٠٠	ترتليان يبشر بسقوط الدولة الرومانية في كتابه (نهاية عهد)	٤٠٤
٢٠٢	القبض على والد أرجنيوز أرمنيوس بتهمة أنه مسيحي وإعدامه	٣٠٩
٢٠٢ - ٢١٨	زفرينس يخلف البابا فكتور	٣١٧
٢٠٣	أرجنيوز أدمتيوس يخلف كلمنت في رئاسة المدرسة الأفريقية وهو في العشرين من عمره	٢٠٩
	مولد أفلوطينس في ثيقوبولس	٢٩٩
٢٠٣	استشهاد كثير من المسيحيين في قرطاجنة	٢٧٦
٢٠٩	موت فلوجاسيس الرابع	١٦٠
٢١٠ ؟	ديوكاسيوس ككيانثس يؤلف تاريخ رومة	٣٥١
٢١٢	فرض ضريبة ١٠ ٪ على الشركات شاملة جميع الراشدين في الإمبراطورية	٣٢٦
٢١٧	مكرفيس يبتاع الصلح من ارتياس	١٥٨
٢١٧	هزيمة كراسس في كاري	٢١٧
٢١٨	إقامة كنيسة وبابوية بعد إعلان هبوليس للقساوسة أنه لا يصلح لمنصبه	٣٢٧
٢١٩	دخول ألبالبس رومة في خريف العام	٣٢٨
٢٢٢	مجلس الشيوخ يبايع الإسكندر إمبراطوراً	٣٣٠
٢٢٥	فلستراسي يتحدث عن الإخصائين في فروع علم الطب في مدينة الإسكندرية	١١٠
٢٢٧	أردشير يتغلب على ارتبانس	١٦٠
٢٢٨	مقتل الپيان أكبّر الفانويين في رومة	٢٤٨
٢٣٠	غزو أردشير بلاد النهرين وتهديده سوريا	٣٣٣
٢٣٥	نهاية انشقاق هبوليتس	٣١٨
٢٣٥	جنود مكسيمينس يقتحمون خيمة الإسكندر ويقتلونه هو وأمه	٢٣٤
٢٤٢	ماني الطشقوني يتوج شابور ويعلم أنه المسيح المنتظر	٢٩٥
٢٤٤	مقتل جرديان الثالث بيد جنوده وهو يحارب الفرس	٢٣٦
٢٤٤	رحلة أفلوطينس إلى رومة وبقاؤه فيها إلى أن يموت	٣٠٠

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٤٨	أرجن يكتب دفاغه المسمى ضد سلس	٣١٢
٢٤٩	فليب العربى يهزم ديسيوس ويقتله فى فيرونا	٣٣٦
٢٥٠	وصول اضطهاد ديسيوس للمسيحيين إلى قيصرية والقبض على أرجن	٣١٢
٢٥٠	سيرة ديوفانتس الاسكندرية (الديوانى اليونانى)	٣٤٦
٢٥٥ -	إعدام اسقى رومة وطولوز	٣٧٧
٢٥٥	سپريان يرد على ماتهم به المسيحيون من أنهم أصل ماحاق بالإمبراطورية	٤٠٤
٢٥٥	سكان الإسكندرية ينقصون إلى نصف ما كانوا عليه	٤٠٦
٢٥١	مقتل فليب العربى وهزيمة أشنع الهزائم	٣٣٦
٢٥١	نهاية حدة الاضطهاد الدينى قبل عيد الفصح	٣٧٧
٢٥٢	سپريان أسقف قرطاجنة يهيب بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقى	٣١٦
٢٥٣	الإمبراطور جالس ، قتله بيد جنوده	٣٣٧
٢٥٤ - ٢٥٧	البابا استيفن يقرر أنه لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة	٣١٨
٢٥٥	القوط يغزون مقدونية ودملاشية	٣٣٧
٢٥٧	استيلاء القوط على مملكة بسهورس	٣٣٧
٢٥٨	استيلاء القوط على خلفدون وغيرها	٣٣٧
٢٥٩	الألمان يغزون على إيطاليا	٣٣٧
٢٦٠	الفرس يهزمون فلديان عند الرها	٣٣٨
٢٦٠ - ٢٦٥	تفشى الوباء فى الإمبراطورية وهلاك ٥٠٠٠ كل يوم فى رومة لمدة أسابيع	٤٠٧
٢٦١	أونائس يطرد الفرس من الجزيرة ويهزمهم فى طشقونة	٢٣٨
٢٦٣	القوط يسرون بحراً بسواحل أيونيا وينهبون إفسوس ويحرقون هيكل أرتيميس	٢٣٨
٢٦٦	اغتيال أونائس واستيلاء زنوبيا على العرش	٢٣٨
٢٦٧	فرع قوطى يستولى على جزائر بحر ليجه	٣٣٩
٢٦٩	كلوديويس الثانى يهزم القوط عند نايسس	٣٤٠
٢٦٩	انقباض جموع القوط على مقدونية	٣٤٠
٢٧٠	موت كلوديويس لثانى أثناء وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء	٢٥٦
٢٧٢	مقتل لنجينس	٢٥٧
٢٧٤	أورليان يهزم ثريكس عند شالون	٢٥٧
٢٧٥	اغتيال الإمبراطور أورليان بيد جماعة من شباطه	٢٥٨

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٧٥	أنطونيوس الراهب المصرى يبدأ ربع قرن من حياة العزلة والتشف	٣٩٠
٢٧٦	الجند ينادون بروبين امبراطوراً	٣٥٨
٢٨٢	اغتيال الإمبراطور بروبس بيد الجيش	٣٦٩
٢٨٢	تصميم دقلديانوس إمبراطوراً	٣٥٩
٢٨٦	إشراك الإمبراطور دقلديانوس القائد مكسيميان معه في الحكم	٣٦٠
٢٩٥	شروع مكسيميان في بناء الحمام الحار	٣٤٩
٣٠٠	ربع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب مسيحيون	٢٨٩
٣٠٠	الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير مسيحيون	٢٨٩
٣٠١	دقلديانوس يصدر قانون الأثمان والأجور	٣٦٥ : ٣٦٤
٣٠٣	الحكام الأربعة يأمرسون هدم كل الكنائس المسيحية	٣٧٩
٣٠٥	الامبراطوران دقلديانوس ومكسيميان ينزلان عن سلطتهما	٣٦٧
٣٠٥	جالريوس وقنسطنطيوس أغسطس إمبراطوران بعد نزول دقلديانوس ومكسيميان	٣٦٨
٣٠٥	تعيين سفيرس ومكسيميس دازا قيصرين	٣٨٢
٣٠٦ م - ٣٢٥ م	انتصار المسيحية	٣٧٠
٣٠٦	الحرس البريتورى في روما ينادى بمكسنتيوس إمبراطوراً	٣٨٣
٣٠٦	بدء أعمال البناء في رومة على يدى مكسنتيوس	٣٩٨
٣٠٧	ترقليان يوجه رسالة الدفاع	٣٠٧
٣٠٧	مقتل الإمبراطور مكسنتيوس	٣٨٣
٣٠٧	قسطنطين يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٣٨٣
٣٠٧	لوسيوس فرينتاس يشرح المسيحية في كتاب الأنظمة المقدسة	٣٩٩
٣٠٨	مكسمنوس دازا يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٤٨٣
٣١٠	قسطنطين يخترق غالة بحيوشه	٣٨٣
٣١٠	مفيلس يقضى نحبه في اضطهادات جالريوس	٤٠٠
٣١١	الإمبراطور جالريوس يصدر مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين	٣٨١
٣١٣	قيصر يزحف من الريبيكون ويلتقى بقوى مكسنتيوس عند سكساربرا	٣٨٤
٣١٣	قسطنطين وليسنيوس يتقابلان في ميلان	٣٨٥
٣١٣	ليسنيوس يتجه نحو الشرق ويكيل القرىات لمكسيمينس	٣٨٥
٣١٣	قسطنطين يوسع نطاق الإعفاء من مناصب البلديات	٣٨٥
٣١٤	اشتداد النزاع بين قسطنطين وليسنيوس حاكى الإمبراطورية وأمتشاقهما الحسام	٣٨٥
٣١٤	ذوناتس أسقف قرطاجنة يدعو الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد في أريس	٣٩١
٣١٤	لوسيوس فرسنيانوس يشرح المسيحية في كتابه الاضطهاد المميت	٣٩٩

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٣١٥	إقامة قوس يشرف على طريق النصر	٣٩٨
٣١٦	دوفانس أسقف قرطاجنة يؤيد قوار الشهير بالدوناتية... ..	٣٩١
٣١٧	قسطنطين يحرق الصور الوثنية من النقود	٣٨٩
٣١٨	أريوس القس المصري يتقدم إلى أسقفه بأراء غريبة عن طبيعة المسيح	
	تدعو إلى مجمع نيقية	٣٩٢
٣٢٣	انفراد قسطنطين بالإمبراطورية بعد انتصاره	٣٨٦
٣٢٣	قسطنطين يحمل نقوش التقوى محايده لا هي مسيحية ولا هي وثنية	٣٨٩
٣٢٤	إعدام ليسينيوس بتهمة العودة إلى الدسائس	٣٨٦
٣٢٥	باخوميوس يجمع الرهبان في دير عند طابرين في مصر	٣٩١
٣٢٥	نشأة الرهبنة الجاعية	٣٩١
٣٢٥	عقد مجمع الأساقفة في نيقية (مجمع نيقية)	٣٩٤
٣٢٥	يوسبيوس ينشر تاريخاً كتسياً عاماً	٤٠٠
٣٢٦	بناء رومة الجديدة وسط خرائب بيزنطية	٣٩٧
٣٢٦	قتل كرسس بأمر والده قسطنطين	٤٠٢
٣٣٠	قسطنطين يتخذ القسطنطينية عاصمة له	٣٩٧
٣٣٣	قانون بقاء الزارع حتى يؤدي المتأخر عليه من الديون أو المشور	٣٦٧
٣٣٥	قسطنطين يوصى بتقسيم الإمبراطورية بين أولاده وأولاد أخته	٤٠٢
٣٣٧	الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً من حكم قسطنطين	٤٠٢
٣٥٥	الهون أو الشياونج - يو يصلون إلى نهري الفلجا وجيحون	٤١٣
٣٥٧ - ٣٥٨	الإمبراطور يوليان يقضى الشتاء في لوتيريا	٥٢
٣٧٦	السماح للقوط بعبور الدانوب واستيطان موثيزيا	٤١٣
٣٧٨	القوط يهزمون جيشاً رومانياً عند (أدرنه) ويهددون القسطنطينية	٤١٣
٣٨٤	إيفانيوس يحصى ثمانين شعبة مختلفة	٣١٤
٣٩٠	جيروم مؤرخ في القرن الرابع الميلادي	٢٤٦
٣٩٤	ثيودوس يمنع إقامة المباريات الأولمبية	٧٥
٤٠٠	البابا أنستيسوس يطعن في آراء أرجن التجديفية	٣١٣
٤٠٠	أليك يقود القوط الغربيين ويعبر بهم جبال الألب	٤١٣
٤١٠	القوط يستولون على رومة وينهبونها	٤١٣
٤٢٩	جيسريك يقود الوندال لفتح أسبانيا وأفريقية	٤١٣
٤٥١	أتلا يقود الهون ويهجم على غالة وإيطاليا ويحتاج لمبارديا رغم هزيمته	
	عند شمالون	٤١٣
٤٥٥	القوط يستولون على رومة ثانية	٤١٣
٤٧٢	أرستيز القائد البانوني، يعين ابنه رميولوس أوغسطس لإمبراطوراً	٤١٣
٤٨٦	الجنود للبرابرة المرتزقة يخلعون الأغسطس الصغير رميولوس	٤١٤

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة.
٥٥٣	مجلس القسطنطينية يعلن أرجن ويصدر قراراً بحرماته	٣١٣
٩٢٠	أخذ الشعر اليوناني شكله الحالي	١١٩
١٤٥٣	احتفاظ الإمبراطورية الشرقية بالعملة الذهبية وزناً وعياراً	٣٦٢
١٤٥٣	نهاية قيام الإمبراطورية الرومانية في الشرق	٤١٤
١٥٥٩	أسبو يترجم قصة دفينيس وكلووف إلى الفرنسية السلسلة	٣٥٤
١٥٧٨	الكشف عن المراديب والدياميس التي كان المسيحيون يدفنون فيها	
	موتاهم	٢٨٦
١٧٠٩	قائد تمساوى يحفر في موضع هركيلانيم	١٧
١٧٤٠	مراثوري يكشف عن هتامة لاتينية سميت باسمه	٣١٥
١٧٤٩	الكشف عن ممبى	١٧
١٧٩١	نشر كتاب غرائب الإمبراطورية	٢٠٢
١٧٩٦	هردر يشير إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا	
	من فوارق	٢٠٣
١٨٨٧ ، ١٩٠٣	الكشف عن عشرين قطعة من كتاب الكلمات	٢٠٨
١٨٠٨	إلتقاء نابليون بفيلا ند العالم الألماني	٢٠٢
١٨٢٨	هنريخ پولس يلخص حياة المسيح	٢٠٣
١٨٣٥ ، ١٨٣٦	كتاب دافداستروس عن حياة المسيح	٢٠٣
١٨٦٣	كتاب إيرنست رينان عن حياة المسيح	٢٠٤
١٨٩٣	الكشف عن شوارع مدينة برجموم	١٣١
١٩٠٦	آرثر درور يعرض نتائج المحدث الواضحة	٢٠٤
١٩٣٦	احتفال رومة بمضى ٢٦٨٩ عاماً على تأسيسها	٤١٨

٢ - فهرس الأعلام

أبيون (زعيم) : ١٠١ ، ١٩١
 أبيون الإسكندري (مؤرخ) : ١٩١
 أتالس الثالث : ١٣٣
 أتباع بولس السموساني : ٢٩٤
 « عيسى الاثنا عشر - ٢٣٥ (وانظر
 (الاثنا عشر ، والرسل)
 « المسيح : ٢٩١ (وانظر المسيحيين)
 « متانس
 أترجاتس (إله) : ١٤٦
 أتلا (قائد الهون) : ٤١٣
 أتلس (كاهن مسيحي) : ٣٧٥
 أتيس (إله) : ١٤٧ ، ٢٠٢ ، ٢٦٤
 أثناسيوس (رئيس السمامسة) : ٣٩٥ ،
 ٤٠١
 الاثنا عشر = حواريو عيسى = أتباع
 عيسى : ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١
 أثيس : ٢٨٠
 أثينا جورس (كاتب مسيحي) : ٣٠٥
 أثيني (إله الحكمة) : ٤٠١
 أثينيوس النقراطيسي : ٣٥٠
 الاثينيون : ٢٤٩ ، ٢٥٧
 أجيها (الملك حفيد هيرودس - أغرياس)
 ٥١ ، ١٨٥ ، ٢٦١
 جركولا (حاكم بريطانيا) : ٥٥ ، ٥٦
 أجناسيوس (مؤرخ) : ٢٦٣
 الأحبار : ٨٩ ، ١٩٢
 أحبار اليهود : ٢٢٤
 الأحباش : ١٠٠
 أخنوخ : ١٨٠ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٧١
 الإخوة (المسيحيون) : ٢٥٤ ، ٢٥٥
 أدريان الصوري (أستاذ البيان) : ٧٩
 أدفانس : ٢٠٠

(٢)

آباء الكنيسة اللاتينية : ٢٨٩
 الآباء (جماعة جاءت بعد رسل المسيح) :
 ٣٠٥
 آدم : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٢ .
 آرثر دروز : ٢٠٤

(١)

الأباطرة : ١٤٧ ، ١٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠٣
 لأباطرة العسكريون : ٤٠٨
 أبوليم (أستاذ الشريعة) : ١٧٦
 أبودورس : ٧٦
 إبراهيم (الخليل) : ٣٣١ ، ٤٠٠
 أيفانيوس (كاتب ضد المسيحية) : ٣١٤
 إيفروديتس : ٨٣
 أبقرات : ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٩
 إيكتمس (مصور) : ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٢
 - ٨٨ ، ٣٠٤
 أيلو (إله الجمال) : ١٨ ، ٢٠ ، ١٢٩
 أيلونيوس التياناني : ١٥٢ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣١
 أيلونيوس مولو : ١٣٠
 أيلوليوس (فيلسوف أفلاطوني) : ٣٣ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٧٢ ، ٧٦ ،
 ١٥٠ ، ٣٠٦ ، ٣٥٢
 إيبان (مشترع) : ١٢٢
 إيبان (مؤرخ) : ١٣٨ ، ١٣٩
 إبيكتور (فيلسوف) : ٨١
 إبيكتوريون : ٧٢ ، ٨٤ ، ١٤٥ ، ١٨٠

- أدوكر (قائد البرابرة — ملك إيطاليا) :
٤١٤
أدنيس (إله) : ١٤٦ ، ٢٠٢٠
الآديوس : ١٦٤
أرييم : ٧
ارتاس الرابع (ملك) : ١١٧
أرتبانس الرابع (ملك) : ١٥٨ ، ١٦٩
أرتخشتر الشريف = أردشير
رتشيز : ١٤٢
أرتيمس (هيكمل) : ١٢٩ ، ١٣١ ،
٣٣٨
أرجن (مؤرخ) : ٢٤٧
أرخيديز (أرشميدز) : ١٠٨ ، ٣٤٧
أردشير : ١٦٠ ، ٣٣٣
أردشير مثنو : ٧٢
أرجن* (من آباء الكنيسة) : ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ ،
٣١٩ ، ٣٣٢ ، ٣٧٢ ، ٣٩٢
أرجن (تلميذ أفلوطينس) : ٢٩٩ ،
٣٠٠ ، ٣٠٤
أرجن الخصى (انظر) أرجن من آباء
الكنيسة
أرجينيز أدمتيوس (من الآباء) : ٣٠٩ ،
٣١٠
أرساميس (زعيم سكودي) : ١٧٥
الآرساسية (أسرة) : ١٦٠ ، ٣٢٤
أرستاركس : ١٠٦
أرستيس : ٨٩
أرستبولس (حفيد هركانس) : ١٦٥
أرستبولس بن هيرود : ١٦٨ ، ١٦٩
أرستبولس الثاني : ١٦٢
أرستنكس : ١٣٣
أرستنكس بن الملك يومنيز الثاني : ١٣٣
أرستيديز : ٣٥١
أرستتر (قائد بانوي) : ٤١٣
أرسلو : ٨١ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ١١٥ ،
٣٠٣ ، ٣٠٤
- أرشميدس (انظر) أرشميدز
أرطيس (هيكمل) : ٢٥٨
أرطيس الأنيسييين : ٢٥٩
الأرفية (طائفة) : ١٥٠
أرفيوس (إله) : ١٥١ ، ٣٣١
الأرفيون (جماعة) : ١٥١
أركلوس : ١٧٠ ، ١٨٤
أرئيس : ٣٩١
أريان النيقوميدي : ٨٣
أريان الأول (أسقف رومة) : ٢٠٠
أريان : ١٤١ ، ١٤٢
أرينايس (أسقف رومة) : ١٩٩
أريوس الإسكندري (قس مصري) :
٣٩٠ ، ٣٩٢ — ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
٤٠٠ ، ٤٠١
أساقفة آسية الصغرى : ٣١٧
أساقفة أفريقية : ٣١٨
أساقفة فلسطين : ٣١٧
الأساقفة : ٢٩٠ ، ٢٩٣
الأساقفة الأولون : ٣١٦
الأساقفة السوريون : ٢٩٠
الأساقفة المسيحيون : ٣٨٧
أسياط إسرائيل : ٢٢٣
الأسبان : ٣٩
اسبنوزا : ٢٥١
أستاتيوس : ١٣
استرابون (مؤرخ جغرافي) : ١٠ ، ٤٠ ،
٦٠ ، ٦٩ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٨ ،
١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٩٠
استيا : ٧
اسنفيلس : ١٩
استيفن (البابا) : ٣١٨
إسرائيل : ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٥
٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٦٥
بنو إسرائيل : ٢٢٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٧٥ ، ٣١١

٤٠١ ، ١٣٤
 أفلاطون : ٧٢ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٥ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٨٢ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤٦ ،
 ٣٩٢
 الأفلاطونيون الجدد : ٢٩٩
 أفلو طرخس القيرونيائي : ٢٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٥ ، ١٩٢ ،
 أفلو طينس : ٢٩٩
 أفلو طين : ٣٥٠
 أفلو طينس (قبلى مصرى) : ١٣١ ،
 ٢٩٩ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ،
 ٣١٢
 أفليوس فلاكس (حاكم) : ١٠٢
 أكتافيان : ١٦٣ ، ١٦٤
 أكتافوس (كاتب مسيحى) : ٣٠٦
 أكتيوس : ١٩
 أكسوفون : ١٤١
 أكستيس الأول (أسقف رومة) : ١٩٩
 الأكينيون : ١١٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،
 ٣٦١
 أكو ليوس : ١٣٨
 أكيبا : ١٩٣
 أم الإله : ١٤٨
 إله الشمس (انظر الجابالس) : ١٤٩ ، ٣٥٧
 إله المتراسية : ٣٥٧
 أم الپبان (عالم فى القانون الرومانى) :
 ٢٠٠ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، قتله : ٣٤٨
 الپينس (منافس سېتمبوس) : ١٨٥ ،
 ٣٢٣
 الجابال (إله حمص وسوريا) : ٣٢٤ ،
 ٣٣١
 الجابالس : ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ،
 ٣٥٨
 أريك (قائد قوطى) : ٤١٣

اسماعيل الفلكى : ١٠٧
 الأسكانيون : ١٦
 الاسكتلنديون : ٥٦ ، ٣٢٤ ، ١١٢
 أسكلپاديذ : ١١٤
 أسكليپوس (إله) : ٧٦ ، ١٥٢
 الإسكندر الأبونوتيكي : ١٥٢
 الإسكندر الأكبر : ٣٣٠ ، ٣٣٢ -
 ٣٣٤ ، ٧ ، ١٠٠ ، ١٤١ ، ٢١٠ ،
 ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٩٣ ،
 ٣٩٥ ، ٤٠٠
 الإسكندر ابن عم الجابالس : ٣٣٠
 الإسكندر = ماركس أورليوس سفيرس
 الكسندر : ٣٣٠
 الإسكندريون : ٩٧
 أسكورس : ٩٧
 الإسينيون : ١٧٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٧٩
 أشعيا : ١٨٠ - ١٨٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٤٠
 أشوكا (حاكم) : ٢١٥
 إصطفانوس (الشماس - زعيم المهتدين) :
 ٢٤٤ ، ٢٥١
 إغرياس (أنظر أجربا الملك -) : ٢٥٣
 أغسطس (قيصر) : ٨ ، ١٠ ، ٢٣ ،
 ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٧ ،
 ٩٩ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ،
 ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٣
 أغسطس إيليوس : ١١٦
 الأغسطسين (قيصر) : ٣٦٠
 إغناطيوس (أسقف أنطاكية) : ٣٠٥ ،
 ٣٧٤
 أفرديقى پنديوس (هيكل) : ٧٦ ، ١٢٦

أنتيباثر (جماعة النساك) : ١٧٣
 الكسديمية (» ») : ١٧٤
 الكسندر بن هيرود : ١٦٩
 الكسندر (أسقف مصرى) : ٣٩٢ ، ٣٩٣
 الكسندر الأول (أسقف رومة) : ١٩٩
 الكسندر سفيرس (إمبراطور) : ٢٠٠
 ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ - ٣٤٩ ، ٣٧٦
 الكسيانوس (انظر الكسندر سفيرس)
 إلكى (تمثال سيدة) : ٤٠
 الكنسر قنورى : ٣٩٩
 الألمان : ٤١ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٣
 (الامرى الألمان) : ٣٤٢ (القبائل الألمانية) : ٣٥٨ ، ٣٥٦ ، ٣٤٥ ، ٤٠٧ ، ٣٨٣
 أم - المسيح - مريم : ٢١٩
 اليزابث (ملكة) : ١٢٠
 البصايات (فريية مريم أم المسيح) : ٢١٦
 البشع : ٢٤٠
 اليوثريوس (المنجى) : ٢٦٤
 اليوثريوس (أسقف رومة) : ١٩٩
 الأميريون : ٣٩
 الأمخاريون (جماعة) : ٢٢٠
 أمنا (الأم العظمى) : ١٤٧
 أمونيوس سكاس (مسيحى وثنى) : ٢٩٩ ، ٣١١
 أمبانس مرسلينس : ١١٠ ، ٤٦
 أميو : ٣٥٤
 أذا ابنة فانبول : ١٨٣
 الأنبياء : ٢٢٠
 أنبياء بنى إسرائيل : ٢٢٤
 أنتيباثر الأيدومينى : ١٦٣ ، ١٦٤

أنتيباثر (بن هيرود) : ١٦٩
 أنتيسيس (أسقف رومة) : ١٩٩ ، ٣١٧
 أنتيخوس أبفانيس : ١٦٨ ، ١٨٠
 أنتيخوس الثالث (حاكم) : ١٥٧
 أنتيخوس الرابع (حاكم) : ٧٧
 أنتيخوس العسقلاني : ٨١
 أنتيلس (حبيب) : ١١٠
 أنجينس (حاكم الولايات الشرقية) : ٣٣٨
 أندور (من أتباع يوحنا المعمدان) : ٢٢٣
 ابن الإنسان - ٢٢٤ ، ٢٣٢
 أنستيسوس (البابا) : ٣١٣
 أنطونيوس : ١٤٧
 أنطونيوس (حاكم رومة) : ٥٦ ، ١٩٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٤
 أنطونيوس : ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٣٥٩
 أنطونيوس (راهب مصرى) : ٣٩٠
 الأبطونيون : ٣٢١
 أنكريون : ١١٨
 أنياس : ١٤
 إنيوس : ٦٩ ، ٤٠٩
 أهرمان (إله) : ١٤٨ ، ١٤٩
 أهورا (إله) أنظر أهورا مردا
 أهورا - مزدا (إله) : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩
 أواسيس (أسقف رومة) : ١٩٩
 أوتيس : ٢٧٦
 أوديب : ٣٢٦
 أوريس : ١٥٨
 أورجن : ٢٠٠
 أورليان تركيس (الإمبراطور) : ٢٠١ ، ٢٩٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٥٦ - ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥
 أورليوس : ٢٣ ، ٤١ ، ٥٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢

(ب)

البابا (راعى الزائين) : ٣٠٨
 البابلليون (جماعة) : ٢٦٤
 باپنيان (مشرع روماني من علماء القانون) :
 ١٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
 باخوس (هيكل) : ١٢٣
 باخوميوس (الزاهد) : ٣٩١
 الباخيون : ١٥٨ ، ١٦٢
 البارثيون : ١٥٧ - ١٦٣ ، ٣٦١
 باريس (حاكم المدينة) : ٢٠ ، ٢٦٠
 ١٣٤
 پاريه (الطبيب) : ١١١
 پارلوشيا : ١٩٦
 پائينيوس : ٨١
 پابروس : ٢٢٢
 ابنة بايروس : ٢٢٢
 پيباس (مؤرخ لاهوتي) : ٢٠٧ ، ٢٧١
 پترونيوس (مؤلف وكاتب) : ٣٦ ، ٣٥٢
 پثياچينس (شخصية روائية) : ٣٥٢
 البجانبون (القرويون) : ٢٧٨
 البدو : ١١٦
 البرابرة : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٣ ،
 ١٤٤ ، ٢٠١ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ،
 ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٣ - ٤١٥
 برامتي (مخلط كنيسة القديس بطرس) :
 ٣٩٨
 البراهمة : ١٥٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٣٠٠
 برپتوا (مسيحية من الملعدين) : ٣٧٦
 پرتناكس (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٣٢١ ،
 ٣٤٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٠
 برجرپتس : ٨١

٣٤٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
 أورليوس الورع : ٣٥٧
 أورليوس : ٣٧٧ (وانظر ديسيوس)
 أورليوس فكتور : ٣٦١
 أوزوريس (إله) : ٣٧ ، ١٤٧ ، ٢٠٢ ،
 ٢٦٤
 وغطا. ترفورم : ٣٦٠
 وضطين (قديس من آباء الكنيسة
 اللاتينية) : ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٥ ، ٣٠٤
 لوفد : ١١
 أونائس : ٣٣٨
 أونياس (أحد كبار الكهنة) : ٢٣٦
 الأيبريون : ٤٨
 أيدورس : ٦٦
 أيديل : ١٩
 أيرنست رينان (مؤلف ناقد) : ٢٠٤
 الأيرانيون : ٤٥ ، ١٣٥
 أيرينو (كاتب) : ٣١٦
 أيرينيوس (أسقف ليون) : ٣٠٦
 أيرينيوس (كاتب ضد المسيحية) : ٣١٤
 أيرينيوس (كاتب يوناني) : ٣٠٧
 ايرينيوس (ناقد) : ٢٠٨
 ايزيس (إلهة) : ٣٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٩٦ ،
 ٣٤٩
 الإيطاليون : ١٠٠
 إيلوس ارستيديز : ١٣٢ ، ١٣٤
 إيمبليكس (كاتب روائي) : ٣٥٠ ،
 ٣٥٢
 إيمليانس (الإمبراطور) : ٣٣٧
 اينسدنيس النسوسي : ٨٩
 أيوب (النبي) : ١٧٩
 الأيرونون : ٣٥٢ (وانظر اليونان)

وانظر كفافس ، وسيمون
 بطرس (القديس) : ١٩٩ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ - ٢٧١ ،
 ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٧١ ،
 البطرشيل (من ثياب الكهنة) : ٣١٩ ،
 بطليموس (فلكي مصري) : ١٠٧ ،
 ١٠٨ ، ١١٥ ،
 بعل الفينيقي (هيكل الشمس) : ١٢٣ ،
 ١٢٤ ،
 بعل (إله - السوريين) : ٢٩٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٣٠ ، ٣٥٧ ،
 بفنوتئوس (أسقف طيبة) : ٢٩٦ ،
 پلاس (حاكم) : ١٨٥ ،
 بلفنس (إمبراطور) : ٣٣٦ ،
 البلقان : ٦٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٦ ،
 بلنتيانس (رئيس الحرس البريتوري) :
 ٤٠٦ ،
 بلندينا (أمة مسيحية) : ٣٧٦ ،
 بلنى : ٦ ، ١٣٣ ، ٣٧٣ ،
 بلنى (الأصغر) : ٩ ، ١٧ ، ١٤١ ،
 ٢٨٢ ،
 بلنى (الأكبر) : ١٣ ، ١٦ ، ٢٨ ،
 ٤٩ ، ٥٠ ، ١٤٣ ،
 بلوتس : ١١ ،
 بلوتنس : ٩٥ ،
 بلوتينس : ٢٠٠ ،
 بلوسيوسيوس (معلم ابنى جراكس) : ١٣٣ ،
 بيمى : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ،
 ١٦٢ ، ٢٨٦ ،
 بيفيلس الأكبر (أسقف) : ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
 بنيتيوس : ١٣٠ ،
 بوانرجمس : ٢٧١ ، (وانظر ابن الرعد ،
 يوحنا الرسول ، ويحقوب)

برزبتيرى (القساوسة) : ٢٤٧ ،
 رس : ١١ ،
 برسفى (هيكل) : ١٣٤ ،
 برسفونى : ١٥٠ ،
 البرغيزى المجالد (تمثال) : ٧ ،
 برثيرى (مؤرخ) : ٣٠٠ ، ٣٥٠ ،
 برميندز (شاعر) : ١٢ ،
 برنابا (صاحب إنجيل) : ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٩٠ ،
 برهبول (الشمس) : ١٢٤ ،
 بروبرتيوس : ١١ ،
 بروبس (الإمبراطور) : ٢٠١ ، ٣٥٦ ،
 ٤٠٥ ،
 بروتجوراس : ٨٩ ،
 بروتس : ٦٦ ، ٧١ ،
 بروتس : ٧٥ ،
 بروس (تمثال الحب) : ٢٥ ،
 بروسانس : ١٩٢ ،
 البروشيم : ١٧٣ (وانظر الفرسيون)
 برومئوس الطليق : ٣٤٩ ،
 برونوبور (مؤلف جدل) : ٣٠٤ ،
 پريسلا (امرأة) : ٢٩٣ ،
 البريطانيون : ٥٦ ، ٦٢ ،
 پستيوس (حاكم غالة) : ٣٣٧ ،
 يسكال : ٣٤٧ ،
 بسيانس : ٣٢٧ (انظر فاروريوس بن كركلا
 فاروريوس مرسيلس)
 بسيانيوس (اسم كركلا قبل الحكم) :
 ٣٢٥ ، وانظر كركلا
 پسيدن (هيكل) : ١٠٠ ،
 پسيدونيوس : ١٤٢ ،
 پسيليدس : ٢٩٢ ،
 البطالمة : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٦ ،
 ٣٤٢ ، ٣٦١ ،
 بطرس سيمون (أخواندرو) : ٢٢٣ ،

پروپ : ۴۱۷

پوڊيوس روفس : ۱۹

پوتینس (آسقف) ۳۷۵

بوتینس (کاھن مسیحی) : ۳۷۵

بوداس الجولونی (قائد) : ۱۸۴

بودکا : (ملکہ) : ۵۵

بوديسيا (ملكة) : ۵۵ .

البوذيون : ١٧٤ : ٢١٥

پورٹس : ۷

پوسویہ : ۲۰۰

پوسید و نیوس (مورخ) ، ۴۶ ، ۸۱ ، ۶

يوليوس : ١٤٢

بولس (مشرع ، رومانی) ۳۲۳ ، ۳۴۷

بولس (القديس) : ٨٦ ، ١٢٨ تمثاله ،

بولس السموسانی : ۲۹۴

بولس الناسك : ٢٩٠

بولس لوی : ۳۶۴

بولنجيروك : ۲۰۲

بولو (قلیس) : ۱۲۷

بولی و فرجینیا : ۳۵۴

پولیکارب (أسقف آزمیر) : ۳۱۷

پولیکارب : ۳۷۴ ، (انظر القديس يوحنا)

پولیکارب (مؤرخ لاهوتی) : ۲۶۳

بويلمو : ۱۳۲ ، ۱۳۳

پولینس (حاکم رومانی) : ۵۵

یثیاس (المرتاد الماسلیونی) : ۵۴

پیرو : ۹۲

البيزون (الشور الوحشي) : ٢٩

بيلاطس البنطي : ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

بیلاطی : ۲۳۶ ، ۲۳۷

بيوس الأول (أسقف رومة) : ١٩٩

(ت)

تاییدشا (امراة) : ۲۴۵

تاجر الرتب الكهنوتية : ٢٩٢) انظر

سيمان الجرسى الامرى)

تاسئس (مورخ) : ۲۸ ء ۵۵ ء ۵۹ ء

تاکتس (امیر اطور) : ۲۰۱

تثریکس : ۳۵۶

تراجان (الإمبراطور) : ۱۱ ، ۱۳ ،

٢٩٨

التراقيون : ١٣٥

نرتلیان (مورخ ، وکاتب مسیحی لاتینی) :

نرواس (اسكندرية نرواس) : ٢٥٦

نسو (۴۰ رخ) : ۱۷

التلاميذ (جمهوري) : ٢٢٣

تمكيز الرواق : ٩٣

نموز (إله) : ١٤٦

التورينيون الغاليون : ٩

الجالية المسيحية : ٢٤٦ ، ٢٧٩ ، ٣١٦
 جتهوله لسنج (ناشر) : ٢٠٣
 الجلى (لقب متنافس) : ٢٩٣
 جراكس : ٤٠ ، ١٣٣ ، ٣٩٥
 جرديانس (حاكم أفريقية) ثم الإمبراطور :
 ٣٣٥ ، ٤٠٠
 جرديانس الثاني الإمبراطور : ٢٠٠ ، ٣٣٥
 جرديانس الثالث (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٣٣٦
 جرنفل (عالم أثرى) : ٢٠٨
 جستين مارتن (مؤرخ لا هوق) : ٢٧١
 جستينيان (عالم قانونى) : ٢٩٤ ، ٣٤٧ ،
 ٣٤٨
 جستين الأول (من الآباء) : ١٩٩ ، ٣٠٥
 جستين السامرى (إعدامه) : ٣٠٦
 جلريوس (قيصر) : ٢٠١ ، ٣٥٠ ،
 ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٥ ، ٤٠٠
 جليانس الإمبراطور : ٣٢٢
 جلينس (حاكم الإمبراطورية الغربية) :
 ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ،
 ٤١٢
 جليوز (محرر القديس بولس) : ٤٢
 جليينس (الإمبراطور) : ٢٠٠
 ج . كلوزنر : ٢١٠
 جمال الناموس (لقب عماليل) : ٢٥٠
 ج . م . روبرتس : ٢٠٤
 جمهور التلاميذ : ٢٣٣
 الجنس الرومانى : ٤٠٧
 جنكيزخان : ٢٩٦
 جوبا (الثانى) : ٣٥
 جوبتر الهليوپوليسى (إله الرمان) : ١٨ ،
 ٢٠ ، ١٢٣ ، ٣٤ ، ١٩٤ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١
 جورديانس الأول (الإمبراطور) : ٢٠٠

قولستوى : ١٧٥
 قيور : ٣٥٧
 قيبيريوس (حاكم) : ٥٩ ، ١٨٤ ، ٢١٢ ،
 ٢١٦
 قينس (حاكم وقائد) : ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١
 قرياس : ٤٠
 قيطس (كاتب حقوق موجز) : ٢٤٥ ،
 ٢٦٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧
 قيموثاوس (تلميذ بولس) : ٢٥٦ ، ٢٦٧
 قير (إله) : ٦١

(ث)

ثالس (كاتب وثى) : ٢٠٦
 ثاوث الكسندر سفيرس : ٣٤٨
 ثالوث لدوفيزى : ٣٤٨
 ثوبر فراسطس : ٨١
 ثور (إله) : ٦١
 الثور الفرنيزى (تمثال) : ٣٤٨
 ثوريلوم : ١٥٠
 ثورو : ٣٠٢
 الثيودوتية (شيعة) : ٢٩٤
 ثيودورا : ٣٨٢
 ثيودوسيوس : ٧٥
 ثيوكريتس : ٢٥٣

(ج)

جارسنيج : ٣٥٣
 جالس (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٣٣٧
 جالينس : ٣٣٧ ، ٣٤٠
 جالينوس : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١٢٧ ، ٢٨٢ ، ٣٠٠ ،
 ٣٧٨

(د)

دارا الأول : ١٥٦
 دافداستروس (مؤلف حياة المسيح) : ٢٠٣
 دافنى : ١٢٦
 داميس الأبيقورى : ٩٣
 دانتي : ٤١٧
 دانيال (قاضى أو محام) : ١٧٩ ، ١٨٢
 دانيال (الرسول) : ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ٢٣٢ ، ٢٧١
 داود (النبي) : ١٠٨ ، ١٨٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٢ ، ٢١٤ ، ٢١٣
 ديوس جليانوس (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٢٢٢
 درور (مصور) : ٢٥٠
 الدرويد (طبقة) : ٦٢
 دريدن : ٤١٧
 دفتيس : ٣٥٣
 دقلديانون (أبو المصر الذهبى) (الإمبراطور
 ٥٢ ، ٦٣ ، ١٤١ ، ٢٠١ ، ٢٩٦ ، ٣٢٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ - ٣٦٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ - ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ، ٤١٠
 دمتر (هيكل) : ١٢٣ ، ١٥٠
 دمتر بوس (أسقف اسكندرية) : ٣١٢
 دمتر يوس (مثال صانع النماذج القضائية) : ١٣١
 دفتيس وكلوثى : ٢٥٨ ، ٣٥٣
 دمقريطس : ٩٥
 دمنا (كاهن) : ٣٢٤
 دمناكس (فيلسوف كلبى) : ٧٦ ، ١٣٨
 دوفيزى : ٣٤٨

جوسنياس السوفسطائى : ١١٣

جوف : ٩٢

جوفثال (مؤرخ وكاتب هجاء مقلد) :

٧ ، ١٩١ ، ٣٠٧ ، ٤١٧

جوكستا : ٣٢٦

جوليان أويوليان (الإمبراطور) : ٣٥٠

جوليان أويوليان (مؤرخ) : ٥٢

جوليا دمننا (أم كركلا) : ٣٢٤ ، ٣٢٦

٣٢٧ ، ٣٤٩

جوليا سوامياس (بنت جولياميزا) : ٣٢٧ ، ٣٢٨

جوليا ماميا (بنت جولياميزا) : ٣٢٧

جولياميزا (أخت جوليا دمننا) : ٣٢٧ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢

جيتا (أخو كركلا) : ٣٢٤ ، ٣٢٥

٣٤٧ ، ٣٤٩

جيروم (مؤلف) : ٣٠٦ ، ٣١٠

جيروم (القديس) : ٢٧٨

جيسيريك (قائد الوندال) : ٤١٣

جيل اليود : ٢٩١

جيمس (الملك) : ٢٠٧

جيمس وت : ١٠٩

جين (كاتب ناقد) : ٣٠٩ ، ٣٩٩

(ح)

حاي المسيحية (الإمبراطور قسطنطين)

حاي الوثنية (الإمبراطور ليسانيوس) : ٦

الحبشة : ١٩٠

الحثيون : ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٥٦

الحرس البريتوى : ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٦

الحكون (طائفة) : ١٧٦

الحكيم اليونانى : ٢١٠

حمورابى : ٢١٠

(ذ)

ذو الفم الذهبى (انظر ديوكريستيم)

(ر)

الراعى الصالح (انظر عطارد)

الربان (لقب نبالايل) : ٢٥٠

وتشردس : ٢٥٣

الرجل الأورنياكى : ٤٤

الرسول الاثنا عشر (أتباع وحواربه

عيسى) : ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،

٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،

٣٠٥ ، ٣١٥

رستوفرث : ٣٦٣

الرعاة : ٢١٤

رميولا (سيدة) : ١٩

رميولس أغسطس (إمبراطور) : ٤١٣

رميولس : ٣٥١

الرواقيون (من الفلاسفة) : ٨٧ ، ١٠٤

١٣١ ، ١٨٢ ، ٢٧٤ ، ٣٩٢

الروح القدس : ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٣٩٥

روفس الأفسوسى (طبيب) : ١١٠

رولان (سيدة كاتبة) : ١٠

الرومان : ٧ ، ١١ ، ٢٧ ، ٣٠ - ٣٢

٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ،

٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٦٣ - ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٧ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ - ١٢٦ ،

١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٣٢ - ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ،

درمتيان : ٥٦ ، ٨٣ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ،

١٩٣ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ٣٧٣

دومتيوس أو رليانس : ٣٥٦

دوناتس (زعيم شيعه مسيحية فى أفريقيا) :

٣٩٠ ، ٣٩١

دوناتس : ٣٩١

الدوناتيون : ٣٩١

دونار (إله) : ٦١

ديانا (تمثال) : ٢٠

ديجين ليرتيوس : ٨٥ ، ٣٥٠

ديسميوس تلس : ٢٤

ديسيوس (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٣١٢

٣٣٦ ، ٣٤٩ ، ٣٧٧ ، ٣٩٠

ديل (مؤرخ) : ١٠٨

ديماس : ٢٦٧

ديمو (مؤرخ) : ١٨٨

ديوسكوريدز القليقيائى (طبيب وله كتاب

فى العقاقير) : ١١٠

ديوفانتس الاسكندرى (عالم رياضى) :

٢٠٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

ديوقليز (ابن معنوق دلماشى) : ٣٥٩

ديوقليشان جليريوس (انظر دقلديانوس) :

ديوكلسيوس ككيانس : ١٣٤ ، ٣٢١ ،

٣٢٦ ، ٣٥١

ديوكريستيم (مؤرخ) : ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٤٣ ،

١٩٤

ديونييسيوس : ١٤٦

ديونييسيوس أولنچينس : ٣٥١

ديونيشس (تمثال إله - الميث المفتدى) :

٢١ ، ١٢٩ ، ١٥١ ، ٢٠٢ ،

٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤

ديونيشيوس (أسقف مصرى فى القرن

الثالث) : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦

السامرة : ١١٨ ، ١٦١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤
 السامريون : ١٧١
 سافنا ماريادجلى انجيل : ٣٥٠
 سان پير (مؤلف) : ٣٥٤
 سبثميوس سفيرس (الإمبراطور) : ٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٢٦ - ٣٢٣ ، ٢٠٠
 ٣٤٢ - ٣٤٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٤٠٦ ، ٤١٢
 سبيو (اسكيو) : ٤٠ ، ٨١
 سيريان (أسقف قرطاجنة) : ٢٠٠ ، ٣٠٩
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٤
 سترنيس (حاكم رومة) : ١٣٩ ، ٢١٢
 سرايس (هيكل) : ١٠٠
 سرايوم (هيكل) : ١٠٠
 سرپيس (زوج ايزيس) : ٣٤٩
 سرفنتيز : ٣٥٣
 السرماتيون (فى روسيا) : ٣٣٩ ، ٤١٣
 سرينا (قائد بارثيا) : ١٥٩
 سركس : ١٣٤
 السفرون (مؤلف) : ٧٨
 سفيرس : ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٣٦
 سقيلس : ٤٨
 سقراط : ٨٥ ، ١٣٧ ، ٢١٠ ، ٣٧١
 سكئس (البابا) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٣٧٨
 سكندى (أمرة) : ٥٢
 السكوذيون : ١٠٠ ، ١٥٧ ، ٣٣٧
 سلا (محارب) : ٦٩
 سلاوس : ١٩
 سلمت : ١١
 سلسس مؤرخ (مدافع عن الدين الرومانى ومهاجم للمسيحية) : ٢١٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٧٢
 سلسم : ٢٠٠

٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤١٧

(ز)

زحل (هيكل) : ١٠٠
 زعيم النقاد = اسم كاسيوس لنجيفس
 زفرينس (أسقف رومة وخليفة البابا فكتور) : ٢٠٠ ، ٣١٧
 زنثو (امرأة) : ١٢٠ ، ١٢١
 زنوبيا (ملكة تدمر) : ٢٠٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤١٢
 ابن زنوبيا : ٣٥٦
 زنودوتس : ٥٠
 زنوفون (أكسانوفون) (مؤلف القيروبيديا) : ١٤١ ، ٣٥١
 زنوقيلا (غلام) : ١١٨
 الزهاد (شيعة) : ٢٩٤
 زوسمس (مؤرخ) : ٤٠٢
 زينون (شاعر) : ١٢ ، ١٣١
 زيوس تراجودس (تمثال إله) : ٢٥ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧

(س)

سايفو : ١١٩
 السابلية (شيعة أتباع سابليوس) : ٢٩٤
 سابليوس (صاحب شيعة) : ٢٩٤
 سابينا (منشطة مجلس النساء) : ٣٢٨
 ساتريكون (مؤلف) : ٣٦
 الساسانية - (أسرة) : ١٦٠
 الساسانيون : ٣٦١
 سالوم (ابنة هوردياس) : ١٢٧
 سالومة : ٢٣٩

شرف (الدكتور) ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٢٢ ،
الشرقيون ٣٥٢ ، ٣٩٧
الشعب اليهودي ٢٣٧
شماي المحافظ (أستاذ الشريعة) ١٧٦ ،
١٧٨ ، ١٩٢
شمعون (أخو المسيح) ١٨٣ ، ٢١٣
شمعون باركوشيا ١٩٤
الشهداء : ٣٨٩
شوترز (عالم حكيم) ٢٠٨
شوسيان (منقذ) ١٨٠
شيشرون ٧ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ،
٨١ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٣ ، ٢١٠ ، ٢٣٧ ،
٢٦٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٩٩ ،
٤١٧
الشیطان - لقب نيرون : ٢٧٢
الشیع الضالة ٢٩٤
شيكسبير ٧١ ، ٣١٦
الشی أدیغ - نو : ٤١٣

(ص)

صلوق (زعيم طائفة الصدوقية) ١٧٢
الصدوقيون (حزب) ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٧٦ ، ١٨٩
صلا (قائد) ١٣٩

(ط)

طربيون (قاتل چليانس) ٣٢٢

(ظ)

الظاهرية (شعبة) ٢٦٤

(ع)

عابدو الصور : ٢٥٨
العابر (الذي ثابت) ٢٢٠
عباد مئراس ٣٨٥

مفسر الأول (البابا) أسقف رومة ٢٠١ ،
٣٩٤
السلوقيون ١١٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٢
سليمان (بن دود) ١٦١ ، ١٧٩ ، ١٨٢
سيمعان (رئيس كنيسة أورشليم) ٣٧٤
سيمعان الساحر المحوسي ٢٤٥
السمة (تمثال) ٢٨٦
السميون ١٣٩
سنيكا الأكبر ١٤ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٠ ،
سنيكا الأصغر ٤٢ ، ٤١٧
سقامياس ٣٢٨ ، ٣٣٠
سوئر (المنقذ) ٢٦٤
السود - المغاربة - الموري
سورانس الإفوسى (طبيب) ١١١
السوريون ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٤٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٢٨
سوفت ٤١٧
السوفسطايون ٧٥ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ،
١٣١
سبيل (لهة) ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
١٥٤ ، ٢٩٦
سيدونيوس إيلينارس (مؤرخ) ٥٠
سيلاس (مساعد القديس بولس) ٢٥٦
سيمون مكابي ١٦١
سينوب ٢٩٢

(ش)

شابور الأول (ملك القرس) : ٢٩٥ ، ٢٠٠ ،
٣٣٨
شالوم اسكندرة ١٦١
شالون ٣٥٧
شاول (الفارس) ٢٤٤
شاول اسم القديس بولس بالبرانية ٢٥٢
الشرطة الإمبراطورية ٤١١

فاريوس الإله الخالق :
 فاريوس = الجابالس :
 فاليريوس مكسمس : ٤٦
 الفانوم (الهيكل) : ١٤٦
 فانيول : ١٨٣
 الفدائيون : ١٨٥
 فدياس (مصور مثال) : ٢٠ ، ٧٥ ،
 ١٤٥
 الفراغة : ١١٦
 فرانسيس (القديس) : ١١
 فرجيل : ٩ ، ١٤ ، ٣٣١ ، ٤١٧
 فردقاند ستيان بور (مؤلف) : ٢٠٤
 الفرس : ١٠٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ٢٠٠ ، ٢٧٦ ، ٣٠٠ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٦٢ ، ٣٧٨
 فرسمس (الإمبراطور الفيلسوف) : ٣٠٦
 فرناسس (قائد) : ١٤٠
 فرفتو : ٣٥
 القرنجة : ٣٣٧ ، ٣٨٣
 فريس : ٣٠
 الفريجيون : ١٥٦ ، ١٩٣
 الفرسيون : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ -
 ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
 فريزر (مؤرخ) : ٢٦٣
 ٢٤٩ ، ٢٥٠
 فسپازيان (قائد وحاكم) : ٢٤ ، ٨١ ،
 ١٨٧ ، ١٩١
 فستا الصغير (هيكل - تمثال) : ١٣٨ ،
 ٣٤٩
 فستس : ١٨٥
 فستوس (والي قيصرية) : ٢٦١
 فكتور الأول (الابا أسقف رومة) :
 ١٩٩ ، ٣١٧

العبراني (النبي موسى) : ٢١٩
 العبرانيون : ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٣١٥
 العذراء : ٣١٢
 العرب : ١٠٠ ، ١١٥ - ١١٧ ، ١٩٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٨٩ ، ٣٣٨ ، ٣٩٢
 العشيرة المسيحية : ٢٥١
 عطار (إله - تمثال الراعي الصالح) :
 ٢١ ، ٤٥٠ ، ٦١ ، ٢٨٦
 عقيبا بن يوسف (الربان) : ١٩٣
 عيسى بن مريم (عليه السلام) : ٨٨ ،
 ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ،
 ٣١١ ، ٣١٦
 عيسى يسوع = عيسى ابن مريم
 عيسى الناصري = عيسى ابن مريم
 عيسى الرسول = عيسى ابن مريم
 عيسى النبي = عيسى ابن مريم
 عيسى المسيح = عيسى ابن مريم
 عيسى = عيسى ابن مريم

(غ)

غالليون (الحاكم الروماني) : ٢٥٨
 الغاليون ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
 ٦٠ ، ٦٢ ، ١٢٨
 غصن الزيتون (تمثال رمز السلام) : ٢٨٦
 عملائي (حفيد همل) : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٥٠

(ف)

فابيان (أسقف رومة) : ٢٠٠
 فارس (حاكم سورية) : ١٨٤
 فارو (شاعر) : ١٤
 فاويوس أفيتس (كاهن) : ٣٢٧

فيثاغورس : ٩٥ ، ١١٤ ، ١٥١ ،
٢٩٩
الفيثاغوريون : ١٥٢ ، ١٧٤ ، ٢٧٤
الفيثاغوريون الجدد : ٢٩٩
الفيثاغورية : ١٥٠
ثيلاند (العالم الألماني) : ٢٠٢
فيلسبي : ٢٦٢
فيلسكس (والى قيصرية) : ٢٦٠ ،
١٦١
فيلو (مؤرخ وفيلسوف) : ١٠١ م ، ١٠٣
— ١٠٥ ، ١٧٩ ، ١٩٠
فيلو ستراتس (مؤرخ) : ٧٩ ، ١١٠ ،
١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ٣٢٤
فيلون (فيلسوف) : ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٩٢
فيلي (امرأة) : ١٢٩
فينوس (ابن الزهرة — هيكل) : ١٨ ،
٣٨ ، ٧٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٣٥٤
الفينيقيون : ٤٠ ، ١٠٠ ، ٢٦٤ .

(ق)

القديسون : ١٩ ،
القرطاجنيون : ٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧ ،
٢٦٤
قسطنطين قيصر (للإمبراطور) : ٦٨ ،
٢٠١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ،
٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ — ٣٨٨ ،
٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ — ٣٩٦ ،
٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
قسطنطس : ٣٥٠
قسطنطيا (أخت قسطنطين) : ٣٥٠ ،
٣٨٥ ، ٤٠٢ .

حكنتوريا (الملكة) : ١٩
الفلاسة : ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٣٠٤
فلافسيوس = يوسفوس الكاهن : ١٩١
فلافيوس أريانس (أديب) : ١٤١
فلافيوس فليريوس قسطنطينس : ٣٧٢
فلافيوس ليسنيوس : ٢٨٣
فليس : ٢٣٣
فلتير : ٩٠ ، ٩٤ ، ٢٠٢
فليريانس (إمبراطور) : ٢٠٠
فلسكس : ١٨٥ ، ١٩٩
فلنتيان : ٤٠٥
فلنتينس : ٢٩٢ ،
فلتي : ٢٠٢
فلوجاسس الرابع : ١٦٠
فلوجاسس الخامس : ١٦٠
فلوديمس (فيلسوف) : ١٢٠
فلورس (حاكم) : ٤٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦
فليب العربي الإمبراطور (وحاكم آسية) :
٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٢٤٥ ، ٣٣٦ ،
٣٧٤
فليب بن هيرود : ١٧٠
فليب (آخر هيرودس) : ٢١٦
فليريان (الإمبراطور) : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
٣٧٧ ، ٣٧٨
فيلمون (فيلسوف) : ٢٦٤
فندكس : ٤٨
الفنقس (تمثال للطائر الذي يحيى بعد
إحراقه) : ٢٨٦
ختك برنتانو (مؤرخ) : ٥٢
الفنيي (المهاجرون الأولون من اليريا :
١٠
فورتونا بريمجينا (إلهة) : ٨
فوستالينه مكسميان (زوجة الإمبراطور
قسطنطين) : ٤٠٢

٣٢٥ ، ٣٤٤ ، ٣٣٣ ، ٣٢٥
٣٤٩ ، ٣٤٧
كركليا (شخصية روائية) : ٣٥٢
كرميلس (للإمبراطور) : ٢٠١
كرفليوس (البابا) : ٣١٨
كرنيديز (فيلسوف) : ٨١ ، ٩٥
كريسبوليس (الأشقودري) : ٣٨٦
كريسكيس : ٢٦٧
كريشوس (خطيب) : ٣٥٤ ، ٤٠٩
كريوس (إله) : ٢٦٤
الكلبيون : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٧٤
الكلكت : ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٤
كلجيولا : ١٤ ، ٣٥ ، ٦٧ ، ١٠٢
١٨٤ ، ١٠٣
كلما كس (مؤلف القصائد الغزلية)
٣٥١ ، ١٨٥
كلمتس الأول (أسقف رومة) : ٢٠٠
كلغن : ٢٧٠
كلمنت الإسكندري : ٢٠٠ ، ٢١٢
٢٦٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٥
٣١٦
كلمنت الروماني : ٢٦٣
كلمنت (مفتي الأفلاطونية المسيحية) :
٣٠٤
كلوديوس بطليموس الثاني الإمبراطور :
١٤ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ١٠٢
١٠٦ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٣٤٠
كليئس (أسقف رومة) : ١٩٩
كليثيز (مؤلف ترنيمة زيوس) : ٢٥٧
كليوباترة (ملكة الشرق الداهية) :
١٢٦ ، ١٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
كيجيني : ١٢٧
كودس الصغير (إمبراطور) : ١١٢
٣٢٥ ، ٣٤٤ ، ٣٨٦

قسطنطيون أغسطس قيصر (أبو قسطنطين)
٢٠١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨
٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧
القلقيون : ١٠٠
القوط : ٦٤ ، ٢٠٠ ، ٣٣٦ - ٣٤٠
٣٥٦
القياصرة : ٢٧٢
قيصر (إمبراطور الرومان) : ١٤ ، ١٥
٢٦ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٥
٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ -
٥٥ ، ٧٦ ، ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٣٠
١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ٢١٠
٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧
٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢
٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٤٠٩

(ك)

كاثو : ١٤
كارس (الإمبراطور) : ٢٠١
كارون (كاتب) : ٩٣ ، ٩٤
كاسيوس (كاتب وثني) : ٣٠٥ ، ٣٠٦
كاسيوس للجيلس (كبير وزراء زنبوبيا) :
٣٥١
كالتس (البابا) : ٣١٧ ، ٣١٨
كيريان (من آباء الكنيسة للاتينية) :
٢٨٩
كتنبوس : ٣٦٦
كراسس : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢
١٦٣ ، ٣٢٧
كرشنا : ٢٠٢
كرميس بن قسطنطين : ٤٠٢
كر كلا (الإمبراطور) : ٢٠٠ ، ٣٣٤

لوازي (الأب) : ٢٠٤
 لوثر : ٢٧٠
 لوسليوس ، ١١٨
 لوسينيوس : ٢٠١
 لوسيوس : ٥٠
 لوسيوس البتراسي : ٣٦ : ٣٧
 لوسيوس أپوليوس : ٣٥
 لوسيوس سبتيوس سفيري جينا (قائد
 جيوش پنوليا) : ٣٢٢
 لوسيوس فرميناوس لكتنتيوس (أديب
 مسيحي) : ٣٩٩
 لوشيان (مؤرخ) : ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ٩٣ : ٩٤ : ١٢٧ ، ٢٧٩
 ٣٥٢
 لوقا (القديس - الحواري - صاحب
 الإنجيل الثالث وسفر الأعمال) : ٢٠٧
 ٢١٢ ، ٢١٤ : ٢١٦ ، ٢١٨ :
 ٢٢٠ ، ٢٩٣ : ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ :
 اللوقيون (جماعة لوقا) : ٨١
 اللوكانيون : ١٣٩
 لوكلس : ١١٧ ، ١٤٠
 لوليوس : ٥٦
 لويس الرابع عشر : ٤٠٠
 ليبر أبولوجنكس : ٢٠٠
 الليبيون : ١٠٠
 ليتس (أسقف رومة) : ١٩٩ ، ٣١٦
 ليس (امرأة) : ١٢٠
 ليسنيافس بن ليسقيوس : ٤٠٢
 ليسنيوس (الامبراطور) : ٢٠١ ، ٨٤
 ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣
 ٤٠١
 ليثي (مؤرخ) : ٣٥١ ، ٤١٧
 لينان (كاتب ناقد) : ٢٠٩

لكهنةانيون : ٢٦٤
 كنفوشيوس : ٢٢٩
 كهنة بعل : ٣٢٧
 كهنة الهوس : ٢٩٥
 الكهنة المصريون : ٢٩٦
 الكهنة الوثليون : ٣١٩ ، ٤١١
 كوبرنيق (فلكى) : ١٠٦
 كودراتس (كاتب مبيحي) : ٣٠٥
 كورندا : ٣٥٣ ،
 كوليس : ١٠٧
 كورنيليس (أسقف رومة) : ٢٠٠
 كونفس سبتيوس ترتليانس القرطاجي :
 ٣٠٦
 كورنيوس (والي سوريا) : ٢١٢
 كويديسيكي (قصة) : ٣٨
 كيوس (القبصر) : ٣٢ ، ٥٠

(ل)

اللاأديون : ٩٠ ، ٢٩٢
 لاتين (مخترع الحديد) : ٤٥
 اللاويون : ١٧٧ : ٢٢٩
 اللجوريون : ٣٩
 لزوس : ٢١٣
 لنجس (مؤلف) : ٣٥٣
 لنجيس : ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٣٥٧
 لنجيس (كاتب من قديم) : ٣٥٠
 لنجيس (والي سوريا) : ١٦٣
 لنريس : ٢١٣
 لسيدونيوس : ٤٦
 ل . كاسليوس (تمثال) : ٢١
 لكتانقيوس (مؤرخ) : ٢٤٧ ، ٣٧٩
 لكريشيوس : ٤١٧
 لپرديوس : ٣٢٩ ، ٣٤٧

مجلس الشيوخ الروماني : ٣٢١ - ٣٢٣

٣٢٦ - ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦

المجوس : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٧٤

٢١٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠

المختشون : ٢٥٩ ، ٣٣١

مراثوري (مكتشف هتامة) : ٣١٥

المرأة التي زنت ٢٢٠

مرسل : ٣٢٧

مرسلين (أسقف) : ٣٨٠

مريون السينوي (ناشر العهد الجديد) ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٥

مرقس (قديس - صاحب إنجيل) :

٢٠٣ ، ٢٠٦ - ٢٠٩ ، ٢١٣ ،

٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨

المركانيون (جماعة مقاتلة) : ٢٠٠ ، ٢٩٦

المريخ (إله) : ٦١

مريم (أم المسيح) : ٥٤ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ - ٢٤٠

مريم (خالة المسيح) : ٢٣٨

مريم (المجدلية) : ٢٢٢ ، ٢٣٨ -

٢٤٠ ، ٢٤٥

مريمي (زوجة هيرود الثالثة) : ١٦٨ ،

١٦٩

أم مريمي : ١٦٩

مريوس الإسكندري (طبيب) : ١١٠

مزدأ (إله) : ١٤٨ ، ١٤٩

المسلمون : ١١٥ ، ٢١٤ ، ٢٩٦

المسيح - يسوع - المنقذ - المنتظر -

٢٧ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ١٠٥ ،

١١٨ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٧١ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢١٩ -

(م)

حا (إله) : ١٤٦

حاجو : ٣١

الماديون : ٢٩٢

مارسلس الأول (أسقف رومة) : ٢٠١

مارسليين : ١٩

ماركس الفنوصي : ٢٩٢

ماركس أورليوس (إمبراطور) : ٣٣ :

٦٤ ، ٩١ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ،

١١٢ ، ١١٤ ، ٣٦٩

مبارية (انظر مريم أم المسيح)

ماريوس : ٧

مامائيا (أم الإسكندر) : ٣٣٠ - ٣٣٣

ماني الطشقوني : ٢٠٠ ، ٢٩٥

المتبينة (شيمة) : ٢٩٤

المتحمسون (شيمة) : ١٨٥

المتخيلة (شيمة) ٢٩٤

المتشككة : ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠

متناس (صاحب مدرسة) : ٢٠٤

مقي (قديس صاحب إنجيل حواري عيسى) :

٢٠٣ ، ٢٠٧ - ٢٠٩ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ،

٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٩١ ،

٣٠٩

معداتس : ٦٦ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ -

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٧

معراس (إله - الشمس التي لا تغرب) :

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩ - ١٨٠ ،

٢٠٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٤

المتراسيون : ١٤٩

مكرينس (إمبراطور) : ١٥٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

مكسس (إمبراطور) : ٣٣٦

مكسليا (إمرأة) : ٢٩٣

مكسليان : ٣٦١ ، ٣٦٨

مكسميان أغسطس (حاكم) : ٢٠١ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٣٨٠

٣٨٣

مكسميانس : ٢٠١

مكسمينس (يوليوس مكسمينس)
الإمبراطور : ٢٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥

مكسمينس دازا : ٣٨٢ ، ٣٨٣

مكستتيوس بن مكسميان (إمبراطور) :
٢٠١ ، ٣٨٢ — ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧

مكثيوس (أغسطس) : ٢٠١

مل (فيلسوف) : ٣٠١

الملاحدة الأولون : ٢٩٢

الملحدون : ٢٤٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

ملسوس سمايم (ملكة شيوعية) : ١٧٥

مئثيوس : ٣٨٥

ملك إسرائيل = المسيح :

ملك اليهود = المسيح :

مليجير (شاعر) : ١١٨ — ١٢٠

ممن (مؤرخ) : ٥٣

المهتدون الوثنيون : ٢٤٦

المهتدون اليهود : ٢٤٦

منيس (فيلسوف كلبي) : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١١٨

منتانوس القرينجي (صاحب فرقة) : ٢٠٠ ، ٢٩٣ ، ٣٠٨

متناني (كاتب) : ٧٠

المتنافية (مباهي متنانس : ٣٠٨

٢٢٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣

٢٣٥ — ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ — ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣

٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ — ٢٧٠ ، ٢٧٣ — ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣

٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ — ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٤

٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٩

المسيحيون : ٨٨ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٢

٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ — ٣١٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٧٠

٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٧ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠

٣٩٩ ، ٤٠١

المسيحيون السريان = الأبيونيم (الفقراء) : ٢٤٥

المسيحيون اليهودون : ٢٥٩

المصريون : ٧٦ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ٣٤٧ ، ٣٦١

المعمدان (يوحنا) : ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢

المفكرون الوثنيون : ٣١٣

المقرى : ٢٩١

المكابيون : ١٦١

فيرثا : ١٤٣ ، ١٩٣
 نيرون (قيصر رومة) : ١٤ ، ٣٨ ،
 ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٨٣ ،
 ٨٥ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٤٤ ، ٣٧١

٥٠٩

أم نيرون : ١٢
 نيهاس (امراء) : ١٤١
 فيقوميثس الثالث (ملك يوحنا) : ١٣٧ ،
 ١٣٨
 فيقوميثس الثالث : ١٤٠ ، ٢٣٢
 نيك (تمثال العدالة) : ٤٥
 نيومن ٨٨

(ه)

هارفي (طبيب) : ١١٣
 هياركس (ملكي) : ١٠٩
 هيروليس (كسيس) : ٣١٧ ، ٣١٨
 حداد (إله) : ١٤٦
 هديرهان (الإمبراطور) : ١١ ، ٤٢ ،
 ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ،
 ٨٤ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ،
 ١٤٩ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٩٠ ،
 ٣٧٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥

هرثا (إلهة حذراء) : ٦١

هردر (مؤرخ) : ٢٠٣

هرقل : ٦١

هرقليطس : ٧

هرقول الفرنيزي (تمثال) : ١٢٦٠ ، ٣٤٨

هركانس الثاني : ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨

هرمان ريمارس (أستاذ اللغات الشرقية) :

٢٠٣

هرمس : ٩٣ ، ١٥٢

هرموجنيز (مهندس) : ١٢٩

منند (مفتي) : ١٢٨
 منوسيوس فلكس (كاتب مسيحي لاتيني) :

٣٠٥ ، ٣٠٧

ميرفيئا (زوجة قسطنطين) : ٤٠٢
 منيوس أكلويس (حاكم روماني) :

١٣٧

المقاييون : ٢٦٤
 مورينا (المبعوث الروماني في آسيا) :

١٣٠ ، ١٤٠

موسليوس روفس : ٨٣ ، ١٤٣

موسى (النبي) : ١٧١ - ١٧٣ ،

١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ،

٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

المؤمنون : ٢٨٦

ميخائيل : ٢٧٢

مير ألبان : ١٩٣

ميرا = جوليا مير : ٣٢٧ ، ٣٢٨

ميكل أنجلو : ٣٥٠

ابن ميمون : ١٩٤

ميوس (حاكم المدينة) : ٢٠

(ن)

ناير (صاحب مدرسة) : ٢٠٤

نابليون : ٧١ ، ٣٠٢ ، ٤١٥

نارسس (تمثال) : ٢١

نجم البحر : ١٤٨

النسر الذهبي : ١٦٧

النسر الروماني : ٢٨٩

نقولاس الصفيق : ١٢٦ ، ١٦٦ ، ١٦٩

نبرهانس (الإمبراطور) : ٢٠١

النوبيون : ١٠٠

نوح (سفينة نوح) : ١٥٦

نولانس (قس في قرطاجنة) : ٣١٨

نوفاتيان (قس في رومة) : ٣١٨

٧٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٦ ،
 ١٦٣ - ١٦٥ ، ١٦٨ - ١٧٠ ،
 ١٧٢ ، ١٧٧
 هيرودس الأعظم (صاحب المدن الأربع) :
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ٢١٢ ،
 ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٠
 هيرودوت (مؤرخ) : ١٠ ، ٧٥ ،
 ١٢٩
 هيرودماس (زوجة ظيب) : ٣١٦
 هيروديان : ٣٢١
 هيرون (حاكم) : ١٠٨ ، ١٠٩
 الهيكليون : ١٤٦
 هين : ٧١
 هيني : ٢٥٥
 هيوم (فيلسوف) : ٢٩٠ ، ٣٠١

(و)

والدن : ٣٠٢
 و. ب. اسمث : ٢٠٤
 الوثنيون : ١٧٠ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ،
 ٢٣٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦ ،
 ٣٨٧
 ورفيا (إله الحب) : ٦١
 الوندال : ٣٥٦ ، ٣٥٨
 وه أسكوديري (سيدة) : ٣٥٣
 وودن (إله) : ٦١ ، ٦٢

(ي)

يسوع الناصري = المسيح : ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٥ - ٢٣٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

هيرودس أنكس : ١٣٢ ، ١٣٣
 هيرودمان (مؤرخ) : ٢٢٦
 هيرودس : ٩١
 الهيمونيون (الهيمونيون) : ١٦١ -
 ١٦٣ ، ١٧٢
 حنن (إمبراطور) : ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ،
 ١٩٣ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠
 الهلنستيون : ١١٧ ، ١٧٩
 هليتا (أم قسطنطين) : ٤٢ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٧
 هليودورا (اسرة) : ١١٩
 هليودورس الحمصي (كاتب روائي) :
 ٢٥٢ ، ٢٥٣
 حنت (حلم آثار) : ٢٠٨
 الهنوكية (طائفة) : ١٥٠
 الهند يروني : ١٥٦
 هنريخ بولس : ٢٠٣
 الهنوك : ١٠٠
 هنود بيري : ٢٨٤
 هنود المكسيك : ٢٨٤
 هنيبال : ١٤ ، ٤٠
 هوراس (شاعر) : ١١ ، ١١٨ ، ١٩١ ،
 ٤٧١
 هوشع : ٢٢٩
 هولستات : ٤٥
 هومر (شاعر) : ٩١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٣١٠ ،
 هوميروس = هومر :
 أليون (قبائل التي أونج - نو) : ٦٤ ،
 ٤١٣
 هيرج (مؤلف) : ١٠٨
 هيث (مؤرخ) : ١٠٨
 هيجينس (أسقف رومة) : ١٩٩
 هيرا : ١٣٤
 هيرودس الأكبر ابن انتباتر (ملك اليهود) :

٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٩٣ ، ٣١١
يوحنا (قديس - حوارى صاحب الإنجيل
الرابع) : ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،
٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤٠ - ٢٣٩ ،
٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧١ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٤
وحنا الأكبر = يوحنا
يوحنا الرسول = يوحنا
يوحنا اللاهوتى = يوحنا
يوحنا المعمدان = يوحنا
يوحنا بن زبدي : ٢٢٣
يوحنا بن اليسابات : ٢١٦
يورديز (مغنى) : ١٢٨ ، ١٥٨
يوسيبوس : ١٠٣ ، ٢٧١ ، ٣٧٦ ،
٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
٤٠١
يوسيبوس (مؤلف صفحات فى ملح
يوسيبوس بمفيل (أسقف قيصرية) :
يوسف (أخو المسيح) : ٢١٣
يوسف للنجار : ٢١٤
يوسفوس (مؤرخ) : ٩٦ ، ١٠١ ،
١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ -
١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٢ ،
٢١٦ ، ٢١٧
يولى (مؤرخ) : ١٠٨
يوليان (الإمبراطور) : ٥١
يوليوس أفركانس : ٢٠٦
يوليوس مكسيمس (الإمبراطور) : ٣٣٤
يوفانيوس : ٣٥١

يشوع بن سيراك : ١٧٩
اليماقة : ٢٩٥
يعقوب (أخو عيسى) : ٢٠٦ ، ٢١٣ ،
٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٣١٥
يعقوب (أخو الرب) = يعقوب أخو
عيسى
يعقوب العادل = يعقوب أخو عيسى
يعقوب القديس = يعقوب أخو عيسى
يعقوب بن زبدي : ٢٢٣ ، ٢٤٤
الجماعة الممثلة للروح (تمثال) : ٢٨٦
اليهود : ٧٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ - ١٠٥ ،
١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٥١ ،
١٥٩ ، ١٦١ - ١٦٦ ، ١٦٨ ،
١٧٠ ، ١٧٢ - ١٧٤ ، ١٧٦ ،
١٧٨ - ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٥ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ - ١٩٣ ،
١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،
٢٥٦ - ٢٥٨ ، ٢٦٠ - ٢٦٣ ،
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ،
٢٨٦ ، ٢٩١
يهود فلسطين : ١٩٢
يهود قورينة : ١٩٤
يهود يمنية : ١٩٢
يهود يهوذا : ١٧١
يهودا : ٢٧١ ، ٢٣٥
يهودا الأب : ١٩٣
يهودا أخو المسيح : ٢١٣
يهودا الأسخويوطى : ٢٣٥
يهودا الكريوتى (حوارى) : ٢٢٣
يهوه : ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ،
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،

۴ ۲۵۸ ۴ ۲۵۳ ۴ ۲۵۰ ۴ ۱۸۳

۴ ۲۹۶ ۴ ۲۸۷ ۴ ۲۷۵ ۴ ۲۶۴

۴ ۳۴۵ ۴ ۳۴۰ ۴ ۳۳۹ ۴ ۳۱۹

۴ ۴۰۹ ۴ ۴۰۶ ۴ ۳۵۲ ۴ ۳۴۷

۴۱۷ — ۴۱۵

یونان دیلوس : ۱۳۹

یوهنان بن زکای : ۱۹۲

اليونان : ۱۱ ۴ ۱۲ ۴ ۴۰ ۴ ۴۸ ۴ ۵۱

۴ ۷۶ ۴ ۷۵ ۴ ۷۰ — ۶۶ ۴ ۶۴

۴ ۱۰۰ ۴ ۹۷ ۴ ۹۳ ۴ ۹۲ ۴ ۸۱

۴ ۱۱۸ ۴ ۱۱۱ ۴ ۱۰۴ ۴ ۱۰۲

۴ ۱۲۵ ۴ ۱۲۴ ۴ ۱۲۳ ۴ ۱۱۹

۴ ۱۴۸ ۴ ۱۴۴ ۴ ۱۳۷ ۴ ۱۳۵

۴ ۱۶۶ ۴ ۱۵۹ ۴ ۱۵۲ ۴ ۱۴۹

فهرس الأماكن

أتركولى : ٧٥

أتروريا : ٨

أتكا : ٧٧

أثينة : ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ - ٨١ ، ٨٨ ،
٩١ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٣٤ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ،
١٩٩ ، ١٣٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٩٧

أجرجتم : ٣٠

أجزرج : ٦٣

أجلبول : ١٢٤

أجلتزا (قرنزمس) : ١٤

أجناشيا (طريق) : ٦٧

أدانا (عدن) : ١١٦

أديسس (وارنه) : ٦٤

أدرميتيوم (مدينة) : ١٣٨

أدرنة : ٦٨ ، ٢٠١ ، ٣٨٦ ، ٤١٣

أدريانويل = أدرنة :

الأدريايوى (بحر) : ١٠ ، ٦٤ ، ٩٢

أدسا ، أذا الرها أوروقة : ٦٨ ، ١٢٧

أدوم : ١٦١

أدوميا : ١٦١

الأديج (نهر) : ١٠

أديسس (وارنه) : ٦٤

أراتس (فيتومنيا) : ٢٥٧

أرتكساتا (مدينة) : ١٥٦

أرجنترام (أستراسبورج) : ٦٢

أرجوس : ٧٦ ، ٣٣٩

الأردن (نهر) : ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢٤٤

(٢)

آخيه (ولاية) : ٦٦

آسية : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨١ ، ١١٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،
١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٦ ،
١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ،
١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٣١٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ،
٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٥ ،
٤١٣

آسية الصغرى : ٦٩ ، ٨١ ، ١٢٧ ،
١٤٦ ، ٢٠٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ،
٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ،
٢٩٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
٣٥٩

آسية الغربية : ١١٦

(١)

آپاميا : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ٣٣٧

أبجل : ٥٢

أبلوس : ٢٢١

أبراكم يورك : ٥٦

الإبرة (نهر) : ٤١

أبوليا : ١١

أبولونيا : ٦٤ ، ٦٧ ، ١١٨

أپاليا كيتولينا : ١٩٥

أپياسيلنى : ١٢٨

أپيا (طريق) : ٣١٧

أپيروس : ٦٧

أرسنوث (تغر) : ٩٨
 أرض الجزيرة : ١٥٧ ، ١٩٤ ، ٣٠٠
 أركونا : ١٤١
 أرل : ٥١ ، ٥٠
 أرلات (أرل الحديثة) : ٥١ ، ٥٠
 أدليس : ٢٠١
 أروسيو (أورانج) : ٥١
 أروقة الدير : ١٨٤
 أرميم : ١٠ ، ١١
 أرمينية : ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢٨٩ ، ٣٣٧
 رنس (نهر) : ٨
 أريتيوم : ٨
 أريجة : ١٧٠
 الأريويجس (أكة المريخ) : ٢٥٧
 أزدريلا : ١٧٠
 أزميز : ١١٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٩٠
 ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٧٧
 أسبارطة : ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ١٣٩ ، ١٦٨ ، ٣٣٩
 أسبازيا : ٧٧
 أسبانيا : ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠
 ١٤٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩
 ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٧
 أسبلانو الحديثة = سالونا : ٦٤
 أسبندس : ١٢٨
 أسترايون : ٥٧
 أستراسبورج (أرجنترام) : ٦٢ ، ٣٤٥
 استروس : ٦٤
 إستريا (شبه جزيرة) : ١٠٠
 أستيا (طريق) : ٢٦٨
 أستيا (مدينة) : ٢٤
 أستيا (مرقا) : ١٤
 أستيكس (نهر) : ١٤٦

أسهوني (ملكة) : ١٢٧
 أسيوم (بلد) : ١١
 إسطنبول = بيزنطية : ٦٨
 إسكر (نهر) : ٦٤
 اسكليوس (معبد) : ١٣٨
 الإسكلييوم : ١٣٤
 اسكيز : ١٥١
 الإسكندرية : ٣٣ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٦٧ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨
 إسكندرية ثرواس : ٢٥٦
 أسواق الرقيق : ١٦٣ ، ١٨٤
 آشور : ١٥٨
 إصبع إيطاليا : ١٢
 أطلس (جبال) : ٣١
 أغسطس ثرواس : ٥٢
 أغسطس روركورم (أوغسطس) : ٦٢
 أغسطس فند لكورم (مستعمرة) : ٦٣
 أغسطس (أوتون حالياً) : ٥١
 بلدة أغسطس = أجزبرج : ٦٣
 أغسطس : ٤٩
 أفريقية : ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٩٨ ، ١٢٨ ، ٢٨٩ ، ٣٤٧
 ١٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٥٢ ، ٣٩٠
 ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٤٦ ، ٤١٢ ، ٤١٣
 أفريكم (يورج) : ٤٩
 أنسوس : ١١٠ ، ١٣١ ، ١٩٠
 ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧١
 ٢٨٩ ، ٣٣٨
 أنيس : ٢٢٨
 أنيو (أنثيون الحديثة) : ٥٢

أمسرا = أمسارتس	أفيريوس : ١٤
أمها : ٣٤	إقونيوم : ٢٥٤
أموس : ١٨٠	إكيبانا (هذان) : ١٥٧
أميسس = سمسون : ١٤٢	أكتيوم : ٦٧ ، ٣٢
أمين : ٤٥	الأكروبوليس : ٧٧
أنثوليس (أنتيب) : ٥١	أكسير هنكس : ٩٧
أنتيب = أنثوليس	أكمة المريخ (الأريويكس)
أنتيوم (أنزيو) : ٧	أكواسالمس (باث) : ٥٧
إنجلترا : ٥٤ ، ١٧٠ ، ٢٠٤	أكوتانيا : ٤٨ ، ٤٩
الإنديكا : ٤١	أكونكم : ٦٣
أنزيو (أنتيوم) : ٧	أكويريون : ٤٠٢
أنطاكية : ٩١ : ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٦٨	أكريليا : ١٠ ، ٣٣٦
١٩٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ - ٢٥٥	أكوينم : ٧
٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠	الألب (جبال) : ٥٢ ، ٦
٣٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨ ، ٣٥٠	الألب البحرية (ولاية) : ٥١
٣٧٤ ، ٣٧٧	أنتميرا : ٣٩
أنقورة : ١٢٨	التينم : ٢٣
الأهرام : ٩٠٠	ألمانيا : ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١
أوتون = أسطلونم : ٥١	٦٢ ، ٢٠٤
الأود (نهر) : ٤٤	ألمانيا السفلى : ٦٢
أوربا : ٥٣ ، ٥٩ ، ١١٠ ، ١١٥	ألمانيا الشمالية : ١٢
١٣٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩	ألمانيا العليا : ٦٢
٣٦٠ ، ٣٨٥ ، ٤١٥	الوسس : ١٥
أوربا الوسطى : ٤٧ ، ٥٩	البركم : ٣٥٨
أورشليم : ١١١ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠	البريا : ١٠ ، ٣٣٦
٩٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٤	إليس : ٩٦
١٨٦ - ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥	إليسين : ٧٧
٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ - ٢٣٦	أماسيا : ١٤٢
٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢	أمبريا : ١١
٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩	أمجوريا : ٤٣
٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٣	أنتيبرتم : ١١
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٤٠١	أمريكا (الولايات المتحدة) : ٤١٧
ورفة - إذا : ١٢٧	أمرينا (مريدة) : ٤٢
وريلان : ٣٥٩	إمسا القديمة = حمس : ١٢٤
غستاتور نورم (مستعمرة رومانية) :	أمسارتس (أمة) : ١٤١

٣٢٤ ، ١٩٥ ، ١٩٠ ، ١٥٨ —

٣٢٦

پارما : ١٠

باريس : ٤٥

پانونيا : ٣٣٤

بايا (قصور) : ١٣

بايا (مدينة) : ١٤

بتشيوم (بدوا) : ١٠

بتونيا : ١٠

بتيول = يزيول : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ،

٢٨٩ ، ١٩٠

بتيول (مرفأ) : ١٤

بجرداس (نهر) : ٣٢

البحر الأبيض المتوسط : ٧ ، ٢٦ ، ٣١ ،

٣٥ ، ٤٨ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٥٠ ،

٧١ ، ٩٨ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ،

١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧١ ، ١٩٠ ،

١٩٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٤١٥

البحر الأحمر : ٩٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٩٠

البحر الأدرياتي : ٢٨٩

البحر الأسود : ٦٤ ، ٦٨ ، ١٣٤ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٦ ،

٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٩٩

بحر إيجة : ٢٧١ ، ٢٨٩

بحر الخزر : ١٥٧

بحر الشمال : ٥٩

البحر الميت : ١٧٤

البحرين (الأبيض والأحمر) : ٥٤٣

بحيرة الجليل : ٢٢٣

بحيرة مريوط : ١٥١

بدوا (بتشيوم) : ١٠

نهر بدوا (نهر الهو) : ٩

البرانس (جبال) : ٤٣

أولمبس (جبل) : ٩٢

أولمبيا : ٧٥ ، ٨٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥

الأولمبيوم : ٧٧

أيبيريا : ٤٠

إيجه (بحر) : ١٢٩ ، ٣٣٩

ايدوميا : ١٧٠

ايرلندة : ٤٤ ، ٤٧

إيطاليا : ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ — ١٦ ،

٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٩ —

٤١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٥ ،

١٢١ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤٣ ، ١٤٦ — ١٤٨ ، ١٥٢ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦١ ، ٣٢٣ ،

٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،

٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ،

٣٨٠ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤١٢

— ٤١٤ ، ٤١٧

إيطاليا : ٤٢

أيككتس : ١٤١

ايكونيوم : ١٢٨

إيليا = فيليا : ١٢

إيوان قستا : ٣٤٩

أيونيا : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ٣٣٨

٣٤٠

(ب)

بابل : ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ،

٣٧٧

بانري : ٧٥

بات = اكواسالس : ٥٧ ، ٥٨

بائونيا : ٣٨٥

بادن = مجنتياكم : ٦٢

بارثيا : ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٢٧ ، ١٥٦

بسطة : ٩٧
 البسفور (مضيق) : ٦٨ ، ١٣٧ ، ١٤٠
 بسيدونيوس : ١٠٧
 بسيديا : ٢٥٤
 بسيم : ١١
 بصرى : ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٨٩
 بطرة : ١١٨ ، ٢٨٥
 بطمس (جزيرة في بحر إيجة) : ٢٧١
 بطليموثيس : ١٠٦
 بعلبك : ١٢٣
 بلا : ٦٨ ، ١٦١
 بلاتية : ٦٦ ، ٦٩
 بلاد البلقان : ١٤٠ ، ٣٣٩ ، ٤١٣
 بلاد الحبشة : ١٩٠
 بلاد العرب : ١١٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ،
 ٢٨٩ ، ٣٣٨
 بلاد العرب السعيدة (اليمن) : ١١٦
 بلاد النهرين : ٣٢٤ ، ٣٣٣
 بلاد اليهود : ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢١٦
 بلاد اليونان : ٦٦ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١١١
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٣٥٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩
 بلاستيا (بياسترا الحديثة) : ٩
 بلچيكا : ٤٨ ، ٥٢
 بلستريتا = برانسي : ٧
 بلغاريا الحديثة : ٦٤
 بلغراد الحديثة = سنجدلوم : ٦٣ ، ٦٤
 البلقان (انظر بلاد البلقان)
 بلما : ٤٣
 بلنسية : ٤٣
 البلوپونيز : ٨ ، ٧٥ ، ٩٤
 بلوتينس : ١٠٣
 بمر : ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢١ - ٣٤
 ٦٦ ، ١١٧ ، ١٤٠ ، ١٩٠ ،

برانسي = بلستريتا : ٧
 البرتغال : ٤٢
 برج : ٢٥٤
 برجوم : ١١٠ ، ١١١ ، ١٣١ ، ١٣٣
 ١٦٨ ، ١٣٨
 بردجالا = (بردو الحالية) : ٤٩
 بردو : ٤٩
 بردو (نهر) : ٤٤
 برزخ السويس : ١٤٣
 برسا (تل) : ٣٢
 برسينو = (برشلوفة) : ٤٣
 برشلوفة (برسينو) : ٤٣
 برغامس : ٢٧١
 برغنيدية : ٤٩
 برنثس : ٦٨
 برنديزيوم : ١١ ، ٢٨٩
 برنر (ر) : ٩ ، ٦٣
 برنيس = بيروت : ٩٨ ، ١٢٢
 بروتس : ١٢٨
 برونيا = حلب : ١٢٥
 بروزيا : ٨
 بروصه : ١٣٥ ، ١٤٣ ، ٣٣٧
 البرويتس : ٤ ، ١٣٤
 بروفانس : ٣٨ ، ٤٨
 بروفسبا = غالة البربونيه
 بروماليا : ١٢٦
 بريطانيا : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٤ -
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤
 ٣٤٥ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٤١٢
 بريطانيا الكتلية : ٥٤
 برييني : ١٢٩
 بزيولي = بتيولي : ١٣
 يسپورس : ٣٣٧
 يست : ٦٣

بينسزا الحديثة (بلاستيا) : ٩
 بيت الدين (مجلس) : ١٩٢
 بيت أونياس : ٢٣٦
 بيت بيلاطس : ٢٣٧
 بيت سيده : ١٧٠
 بيت قبالا : ٢٣٦
 بيت لحم : ١٧٠ ، ٢١٣ ، ٤٠١
 بيت المقدس : ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٩٥ ،
 ٢١٥ ، ٢٦٠
 بيتكا (الأندلس الحديثة) : ٤١
 بينار : ١٩٥
 بينينيا : ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٣ ، ٢٤٦ ، ٣٣٩ ،
 ٣٥١ ، ٣٨٢
 بير سيج : ١٧٠
 بيرو (بلاد) : ٤١ ، ٢٨٤
 بيرو (مدرسة) : ٨٩
 بيروت (برنيس) : ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 ١٦٨ ، ١٨٨
 بيربا : ١٧٠
 بيرييه : ١٩٠ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٣٣٩
 پيزا : ٨
 پيزنطية (إسطنبول) : ٦٧ ، ٦٨ ،
 ١٣٧ ، ٣٢٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٩
 بيسم (پوسيدونيا : ١٢
 پيسى : ٨
 پيسيدنا : ١٢٨
 بيلاطس : ٢٣٢ ، ٢٣٩
 بيلوس : ١٦٨
 (ت)
 التاجه (نهر) : ٤١
 تارتم : ١١
 التاميز (نهر) : ٥٧
 تدمر بلميرا : ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٥٨ ،
 ٢٠٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٠ ، ٤١٢ ، ٣٥٨

٣٤٣ ، ٣٤٨
 مبيانا : ١٨
 مفييلية : ٢٥٤
 بناكس (بحيرة) : ٩
 بنتانيا (إقليم) : ١٧٠
 بنتس (بنطس) : ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
 ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ،
 ٢٤٦ ، ٢٩٠ ، ٣٣٧
 بنتيكيم (كرتش) : ١٣٧
 بنرث (هودير هيتس) : ٣٤
 البندقية : ١٠ ، ١٣٣
 بنشتم : ١١
 بنورمس (بلرمو الحالية) : ٣٠
 بنونيا (واحة) : ٦٣ ، ٦٤ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨
 بنونيا الجنوبية الشرقية : ٦٣
 بنشوس : ١٦٢
 هو الجايز : ١٧٢
 هو الكهنة : ١٦٧
 هو النساء : ١٦٧
 هو وستمستر : ٣٤٩
 البو (نهر) : ٩ ، ١٠
 پواتيه : ٤٥
 بودا : ٦٣
 البورتانجرا : ٥٢
 بورج : ٤٥
 البورستيز (نهر الدنيپر) : ١٤٤
 پوسيدونيا (بيسم) : ١٢
 پوقيه : ٤٥ ، ٥٢
 پولو : ٢٠
 بولنتا : ٤٣
 بولوف : ٣٨٢
 بولونيا (بولونيا) : ١٠
 بونه (هورجيوس) : ٢٣٤
 بولونيا (بولوفيا) : ١٠
 بقوتيا (جزيرة عوبية) : ٦٨ ، ٦٩

(ث)

ثبساكس : ١٢٥
ثبسوس ٣٣ ، ٣٥
ثجا (دجا الحالية) : ٣٤
ثسدروس : ٣٣
ثمجاد (ثمجادی) : ٣٤
ثمجادی (ثمجاد الحالية) : ٣٤

(ج)

جار (نهر) : ٥٠
جاردا (بحيرة) : ٩
الجارون (نهر) : ٤٤
جامعة القسطنطينية : ٣٩٧
جامعة هبرج : ٢٠٣
جبال أرمينية : ١٥٦
جبال الألب : ٢٨٩ ، ٣٣٦ ، ٣٦٠ ،
٤١٣ ، ٣٨٤
جبال طوروس : ١٢٧
جبال القوقاز : ١٥٦
جبال لبنان : ١٢٣
جبل الزيتون : ٢٣٤
جبل موريا : ١٦٦
جدارا : ١١٨ ، ١٦١ ، ١٧٠
جراسا : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٦١ ، ١٧٠ ،
١٧١
الجزائر : ١٩٠ ، ٢٧٤
جزائر الهند : ١٠٧
الجزيرة : ١٦٠ ، ٣٣٨
جزيرة العرب : ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٦
جزيرة صوبية (بوقوتيا) : ٦٨
جزيرة قبرص : ٢٥٥
جسر ملفيوس : ٢٠١ ، ٢٨٤

تراقية : ٦٧ ، ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ،
٢٧٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
٣٨٥ ، ٣٨٥
تراكننس (ولاية) : ٤٢
تراكو (طرقونه) : ٤٣
ترتسوس (ترشيش الفينيقيّة) : ٤٠
ترجائوسترا : ١٥٦
ترجستن (تريسته) : ١٠
ترشيس (ترتسوس) : ٤٠
التركستان : ١٥٧
تركوينياي : ٢٤
ترلونيا (قصر) : ٨
الترهيني (بحر) : ٧
ترواس : ١٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٨٩
تروزمس (اجلنزا) : ٦٤
تريپوليس (طراپلس) : ٣٣
تريسته (انظر ترجستن) : ١٠
تريف : ٥٢ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠
تسالونيكى (سالونيك) : ٦٨ ، ١٩٠ ،
٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٦٨ ،
٢٨٩ ، ٣٤٠ ، ٣٨٦
تساليا : ٢٧ ، ٦٨ ، ١٣٩
تسكافيا : ٤٠٧
تسكيولم : ٨
تشتير : ٥٧
تكاپي (قابس) : ٣٣
قل البلاتين : ٣٤٩
قل بحجمة : ٢٣٧
تنجيس (طنجة) : ٣٥
تورمينيا (تورمينيوم) : ٣٠
تورومينيوم (تورمينيا) : ٣٠
تورين : ٩ ، ٣٨٤
تومي (قسطنجة الحديثة) : ٦٤
تونس : ٣٣
التيهير (نهر) : ٧ ، ٥٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٤ ،
٣٨٥

خلقون : ٣٣٧

خلقيس : ٦٩

(د)

داشيا (رومانيا الحالية) : ٦٤ ، ٣٥٦

الدانوب (نهر) : ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ١٤٨ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ،

٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ،

٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،

٤١٣

الدير تديي (قصر) : ٨

دجا (نجا) : ٣٤

در دريما : ١٢٩

دجلة (نهر) : ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٣٣٣ ،

٣٦٢

دري : ١٢٨ ، ٢٥٤

الدرديلي (انظر الهلسنت)

دلقى (معبد) : ٤٧ ، ٦٦ ، ٧١ ، ١٣٦ ،

دلماشيا : ١١ ، ٦٤ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ،

دمشق : ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٦٨ ،

١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ —

٢٨٩ ، ٢٦١ ، ٢٥٥

الديبر (نهر) : ١٤٤

دورا (أوريس) : ١٢٤ ، ٢٨٩ ،

دورزو الحديثة (دير هكيوم) :

دوشستر : ٥٧

دوسيتيا (طريق) : ٥٠

دير طابين : ٣٩١

دير هكيوم (دورزو الحديثة) : ٦٤ ،

٦٦ ، ٦٧ ، ٢٨٩

ديلوس : ١٩٠

ديرفيشس : ٧٦

جلاتيا : ١٢٨

جلوستر : ٥٧

جليشم : ٥٦

الجليل : ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٤ ،

١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،

٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥

جندارا (قنطرة) : ١١٨

جنوى (مرفأ) : ٨

چوتوپاتا (حصن الجليل) : ٨٧

جيحون (نهر) : ٤١٣

جيروم : ٢٤٦

(ح)

حترا : ١٥٨

حجر يسينس (الحجر الأسود) : ١٢٨

الجلود الرومانية : ٤١٣

حديقة جشميانى (بخارج أورشليم) : ٢٣٦

جصار لك : ١٣٤

حصن الجليل (چوتوپاتا) : ٨٧

حضر منتم (سوسة) : ٣٣

حلب (بروتيا) : ١٢٥

الحام الحار لمكسميان : ٣٤٩

حمامات تراجان : ٣٤٩

الحمامات الحارة : ٤٠٢

الحمامات الدقة : ٢٨٢

حمامات قلدنيانوس : ٢٠١ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩

حمامات سانت بربارا : ٥٢

الحمامات الكبرى : ٣٩٨

حمامات كركلا : ٣٣٣ ، ٣٤٩

حصن : ١٢٤ ، ٢٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،

٣٤٧

حيرون : ١٧٠

(خ)

الخزر (بحر) : ١٥٧

٤ ٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٠
 ٤ ٣٢٢ ، ٣٢٠ ، ٣١٨ - ٣١٦
 ٤ ٣٢٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦
 ٤ ٣٤١ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦
 ٤ ٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٣
 ٤ ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧
 ٤ ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٣ ، ٣٦٩
 ٤ ٣٨٨ ، ٣٨٥ - ٣٨٣ ، ٣٧٩
 ٤ ٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٣٩٨ - ٣٩٦
 ٤ ٤١٢ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠٧
 ٤١٣ ، ٤١٥ - ٤١٨

رومة الجديدة : ٣٩٧
 رومية (رومة) : ٢٠٤ ، ٢٦٢
 الرون (نهر) : ٤٤ ، ٥١
 رونشستر : ٥٧
 ريتيا (ولاية) : ٦٣
 ريمس : ٤٥
 الرين (نهر) : ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٢
 ٦٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢
 ٣٨٣ ، ٣٥٨
 ريوتنتو : ٤١

(ز)

زانية. بابل = مدينة رومة : ٢٧٢
 الزانية العظيمة = رومة : ٢٧٢
 زجا : ١٢٥
 زميني : ١٠
 زنتوس : ١٢٨

(س)

السادون (نهر) : ٤٤ ، ٥١
 سارديس : ٢٧١
 الساف. (نهر) : ٦٣ ، ٣٦٠
 سالزيم : ١٣

(ج)

واقنا : ١٠
 رافيا (رفح) : ١١٨ ، ١٦١
 الريكون : ٣٨٤
 رجيو (رجيوم) : ١٢
 رجيوم - رجيو : ١٢
 رفح (رافيا) : ١١٨ ، ١٦١
 ركستر (فراكونيوم) : ٥٧
 رميني : ١٠
 الرها : ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٣٨
 رودس : ٢٧ ، ٨١ ، ١٢٥ ، ١٢٩
 ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٦٨ ، ٢٦٤
 ٣٤٠
 الروسيا : ٥٩ ، ١٥٧ ، ٤١٣
 رومانيا : ٤١٧

رومة : ٦ - ٨ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٢
 ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥
 ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٧ -
 ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ - ٦٧ ، ٦٩
 ٨٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩١
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١
 ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ -
 ١٣٠ ، ١٣٣ - ١٣٧ ، ١٣٩
 ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٣
 ١٥٦ - ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥
 ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٠
 ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠
 ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٦
 ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢
 ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
 ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧
 ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨

سمريقتس : ١٧٠
 سموم (أميسس) : ١٤٢
 سمنيوم : ١١ ، ١٢
 سموساتا : ٩١ ، ١٢٧
 سن : ٤٥
 سنايوم (أورليان الحالية) : ٥١
 سنومسلا : ٢٥
 سنلى : ٢ ، ٥
 سواسون : ٤٥ ، ٥٢
 سوريا : ١١٨
 سوسة (حضرمتم) : ٣٣
 السويس : ١٤٣
 سور هديان : ١٤٩
 السور الصغى العظم : ٤١٣
 السوس : ٢٩٥
 سوريا : ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٦
 — ١٨٤ ، ١٦٤ — ١٦٢ ، ١٣٦
 ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢٤٥
 ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢
 ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٥٢ ، ٣٣٨
 سيبيل : ١٢٨
 سيرنا قسطنطينية : ٣٤
 سيكالى : ١٢٩
 السين (نهر) : ٤٤ ، ٢٤٨
 سينوب : ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١
 (ش)
 شارقر : ٤٥
 شالون (كيلونم) : ٥١ ، ٤١٣
 شبه الجزيرة (إيطاليا) : ٣٢٣ ، ٣٤١
 شجرة اللين : ٢١٩
 الشرق (بلاد الشرق) : ١١ ، ٤٥ ، ٤٥
 ١١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤١

سالونا (اسپلانو الحديثة) : ٦٤
 سالونيك (تسالونيكيا - تسالونيكى) : ٦٨
 ساموس : ١٩
 سانت أولينز (فريولانيوم) : ٥٥
 سانت بربارا : ٥٢
 سان كتنن : ٥٢
 سبأ (ملكة) : ١١٦
 السبترنيوم : ٣٤٩
 سبراتا : ٣٣
 سجويا : ٤٢
 سرقة : ٣٥
 سرداب زفرينس : ٣١٧
 سرديس : ١٣٣ ، ١٩٠
 سريكا (صوفية) : ٦٤ ، ٦٨
 سرينية : ٣٠ ، ٣١٧
 سريينا : ١١
 سرقسطة : ١٠٩
 سرقوسة : ٣٠ ، ١٩٠
 سرمزجوسا : ٦٤
 سرميوم (مروثيكيا) : ٦٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠
 سرنم : ١٣ ، ١١٧
 سرننتو : ١٣
 سفتولا : ٣٣
 سكسار برا (الصخور الحمراء) : ٣٨٤
 سكلديز (جزائر) : ١٣٩
 سكوذيا : ٦٨ ، ٩٢ ، ١٤٢
 سلا : ٢٨٩
 سلستر : ٥٧
 سلمو : ٧
 سلواى (خليج) : ٥٦
 سلويا سپريا : ١٢٥
 سلوقيا : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٠ ، ٢٨٩

طربيزس (طرابزون) : ١٤٢
 طرسوس : ١٢٧ ، ١٩٠ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٣ ، ٣٣٨
 طروادة : ١٣٤ ، ١٤٤ ، ٤٠١
 الطريق الأجناسى : ٢٨٩
 الطريق الذهبى : ١٣٢
 طريق النصر (فى رومة) : ٣٩٨
 طشقونه (طشفونة) : ١٥٧ ، ١٦٢ ،
 ٢٨٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
 طليطلة (طليطيم) : ٤٢
 طليطيم = طليطلة
 طنجة (تنجيس) : ٣٥ ، ٣٩
 طولوز : ٥٠ ، ٣٧٧
 طولوزا (طاراوز)
 طيبة : ٦٩ ، ٩٧ ، ١٠٠

(ع)

العاصمة المليدة (رومة) : ٢٨٣
 العاصى (نهر) : ١٢٥
 عدن (أدانا) : ١١٦
 عسقلان : ١١٧
 عقب إيطاليا : ١١
 عقيبا (أكيبيا) : ١٩٤
 المهاجر اليونانية : ١٦٨
 عمواس : ٢٣٩
 عوبية (جزيرة بورتيا) : ١٦٨ ،
 ١٣٩
 عين شمدر (هليوبوليس) : ٩٨

(غ)

غالة : ٩ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ،
 ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٩١ ،
 ١٢٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥ ،

٣٣٩ ، ٣٤٩ ، ٣٨٥ ، ٤١٣ ،
 ٤١٤ ، ٤١٦
 الشرق الأدنى : ٢١٥ ، ٣١٢
 الشرق الملتقى : ٦٧ ، ٣٣٨
 الشرق اليونانى : ٣٩٤
 شل : ٣٤٩
 شيشستر : ٥٧

(ص)

صان : ٩٧
 صحراء العرب : ١١٦
 الصحراء المصرية : ١٥١ ، ٣٩٠ ، ٤١٦
 الصخرة (كنيسة الصخرة) : ٣١٦
 الصفور الحمراء (مكساربرا) : ٣٨٤
 صفورة (عاصمة الجليل) : ٣٨٤
 صقلية : ٣٠ ، ٣١ ، ١٤٨ ، ٢٨٩ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤١
 صهيون : ١٧١
 صور : ٤١ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٦٨
 صوفيا (سردىكا) : ٦٤ ، ٦٨
 صيداء : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٨
 الصين : ١٥٨

(ض)

ضريح بولس (فى طريق استيا) : ٢٢٨
 ضريح سرييس : ٣٤٩
 الضريح المقدس (قبر المسيح) : ٤٠١
 ضياع الإمبراطور : ٤٣٢

(ط)

طبرية : ١٧٠ ، ٣٦٧
 طرابزون : ١٣٧ ، ١٤٢ ، ٢٢٧
 طرابلس (تريبوليس) : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦
 طراقونة (تراكو) : ٤٣ ، ٣٧٨

فريجي : ٤٧ ، ٨٣ ، ١٢٨ ، ١٤٧ ،
٢٥٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٦

فريس : ٢٧٠

فريولانيوم (سانت أولينز) : ٥٥

الفستولا (نهر) : ٥٩

فلادلنيا : ١١٨ ، ١٧٠

الفلاميي (طريق) : ١٠

فلپوپوليس : ٦٨

فلبس : ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩

الفلجا : ٤١٣

فلسطين : ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٢ ،

١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ،

٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٣٤٤ ، ٣٦١

فلورنتيا : ٨

فلورنس : ٧

فليمون : ٢٦٢

فندش (فندونسا) :

فندونسا (قندش) : ٦٢

فندويونا (قينا) : ٦٣

فندوزيا : ١١ ، ١٩١

فنيشيا : ١٠ ، ٢٣

الفورث (نهر) : ٥٦

فورم لوليای (فريجو) : ٥١

فيزوف : ١٣ ، ١٦

فيليا (إيليا) : ١٢

فينا : ٦٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦

فيزي (فاثنتيا) : ١٠

فينوميا : ٢٥٧

الفيوم : ٩٧

فينيقية : ٧٩ ، ١٩٠

(ق)

قادس : ٤٩ ، ٤٢ ، ١٣٠

٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ،

٣٨٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،

غالة الشرقية : ٢٣٣

غالة الكلتيية : ٥٤

غالة اللجدونية : ٤٨ ، ٥١

غالة الترونية : ٥٠

الغرب : ٤٩ ، ١٥٨ ، ٣١٧ ، ٣٣٧ ،

٣٨٥ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٥

غزة : ١١٨ ، ١٦١ ، ١٧٠

غلاطية : ٢٠٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ،

٢٥٩ - ٢٦٢ ، ٣٣٩

(ف)

الفانكان : ٢٤٧

فارس : ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٨٠ ،

٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨ ،

٣٨٢

فارو : ١٢ ، ١١٨

فاثنتيا (فينز) : ١٠

فيليا : ١٢

فجاونيا : ١٤٠

الفرات (نهر) : ٩١ ، ١٢٧ ، ٢٢٤ ،

٣٣٣

قرارا : ١٠

قران (كليرمون) : ٤٩

قربانس (بحيرة) : ٩

فرسكاتي : ٨

فركونيوم (ركستر) : ٥٧

فرنسا : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ،

٤١٧

فروفا : ٩ ، ٣٣٦

فريجو (فورم لوليای) : ٥١

١٨٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٣١٢ ، ٣٩٩
قيصرية قلبس : ٢٣٣

(ك)

كارتيا (جسر) : ٤٢
كارلزبرج : ٣٤٥
كارى : ١٥٨ ، ٣٢٧
كارپا : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٨
كبتولياس : ١٧٠
كبدوكيا : ٢٧ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٢٨
١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٩
١٥٦ ، ٢٤٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
كبرنوم : ٢٢٣
كبريا (جزيرة) : ١٣
كبلوم (شالون) : ٥١
كبوا : ١٤ ، ١٩
كجليارى (كرالس) : ٣٠
كرارا (محاجر) : ٨
كرالس (مرفأ) (كجليارى) : ٣٠
كريدس : ٢٨٩
كرتش (مضيق) : ١٣٧
كرمونا : ١٠
كرمونيا : ٢٤
كروسم : ١٣٣
كسينم : ٢٣
كلتيكا : ٤٥ ، ٤٩
كلدونيا : ٣٢٤
كلشستر (كولودوم) : ٥٦
الكليسيوم (مدرج) : ١٠ ، ٣٣٣
الكليد (نهر) : ٥٦
كليرمون (فران) : ٤٩
كليليا : ٢٤٩
كپانيا : ١٢ ، ٣٠٠ ، ٣٤١ ، ٣٠٧

قبر المسيح : ٤٠١
قبر داود : ١٦٨
قبر دومتيان : ٢٨٦
قبرص : ١١١ ، ١٢٧ ، ١٩٤ ، ٢٥٤
٢٤٠
قرطاجنة : ٣٢ - ٣٦ ، ٤١ ، ٦٧
١٩٠ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٥ ، ٣٧٦
٤١٦ ، ٣٧٨ -
قرطاجنة الحديثة (نوفاكرتاجو)
قرطبة : ٤٢
القرم : ١٣٧ ، ١٤٠
القرن الذهبى : ٦٨
قسطنجة الحديثة (توى) : ٦٤
القسطنطينية : ٣٤ ، ١١٩ ، ١٥٨
٢٠١ ، ٣١٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٧
٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤
القصر الإمبراطورى : ٣٢١
قصر سبتمويس : ٣٢٤
القصور الشرقية : ١٣٦
قطانبا : ٣٠
القناة (قناة تراجان) : ٩٨
القناة الإنجليزية : ٥٤
القناة الرومانية : ٥٠
القنطرة (نوربا قيصرية) : ٤٢
قوبان (نهر) : ١٣٧
قورين (ملكة) : ٢١٥
قورينة : ١٩٤
القوط : ٣٢٤
القوقاز : ١٣٧
قليقية (كليكية) : ١١١ ، ١٢٧ ، ١٢٨
٣٣٨
قيرونية : ٦٩ ، ٧١
قيصر دوم (تور الحالية) : ٥١
قيصرة : ٣٦٠
قيصرية : ٣٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦

(ل)

لاديميا = (اللاذقية) : ١٢٥ ، ١٢٧

١٢٣

لپتس : ٣٣

لپتس مجنا (لبدہ حاليا) : ٣٣

لبدہ = لپتس .

لجدونم (ليون الحالية) : ٥١ ، ٣٧٦

لدًا : ١٩٥

لسترا (ليستر) : ٥٧ ، ١٢٨ ، ٢٥٤ ،

٢٥٦

لشيوثة (أولزيبو) : ٤٢

لمبيز (لمبيس) : ٣٤

لمبيس (لمبيز الحالية) : ٣٤

لمبارديا : ٤١٣

لندم (لنكولن الحديثة) : ٥٦

لندن : ١٤٨

لنديوم (لنديوم) : ٥٥ ، ٥٧

لنكولن : ٥٦

اللوار (نهر) : ٤٤

لوتيريا (باريس الحالية) : ٥١ ، ٥٢

لورد : ٢٢١

لوزنانيا : ٤٢

لوس كوم : ١١٧

ليسليوس بحالا : ٢٤

لونا (ثغر) : ٨

لانيوم : ٧

ليديا : ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٤٧

ليقياس : ١١٨

ليتوپوليس : ٢٩٩

ليكاتونيا : ١٢٨

ليوج ، (ليوم) : ٤٩

ليوم (ليوج) : ٤٩

ليون : ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ١٠٩ ،

كجيتي : ٩١

كولودونم (كلستون) : ٥٦

كنوبس : ١٠١

الكنائس الشرقية : ٣١٦ ، ٣١٧

الكنائس الغربية : ٣١٦ ، ٣١٧

الكنيسة : ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٤١١

كنيسة الصخرة (الصخرة) : ٣١٦

كنيسة القديس بطرس : ٢٤٧ ، ٣٩٨

الكنيسة الكاثوليكية : ٤١٧

الكنيسة الكبرى : ٢٦٠ ، ٣٩٨

الكنيسة المسيحية : ٢٤١ ، ٢٤٥

كنيسة أنطاكية : ٢٥٥

كنيسة أورشليم : ٢٥٣ ، ٣١٥

كنيسة رومة : ٢١٢ ، ٣١٦

كنيسة سانتا ماريا دجل إنجيل : ٣٥٠

كنيسة سان لورنزو : ٣٩٨

كنيسة كورنثة : ٣١٦

كورسكا : ٣٠

كورنثة : ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ ،

٢٥١ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ ،

٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٦ ،

٢٣٩

كورنثوس = كورنثة

كورنثولوس : ١٩

كوس : ١٠٩ ، ١٢٩

كوللا : ٤٩

كولودونم (لنديوم) : ٥٧

كبواوس : ٢٦٢

كولوف : ٦٢

كولونيا (أهرينسس) : ٦٢

كومانانتيكا : ١٣٥

كوم : ٩

كومو (بحيرة) : ٩٠

كوم : ١٤

كونس : ١٣٨

المركبان : ٣٣٣ ، ٣٣٧
 مذبح آلهة الرحمة : ٧٦
 مسادا : ١٨٦
 المسارح الرومانية : ٣٠٧
 مسانا : ٣٠
 المستنقعات البنتية ٤٠٧
 مصر : ٤٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٩١ ، ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ،
 ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،
 ٣٠٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٤١٦
 مصر السفلى : ٩٧
 مصر العليا : ٩٧
 مصر الوسطى : ٩٧
 مضيق الهلسبنت : ٣٣٩
 المعبد الفخم : ١٦٦
 المقبرة البابوية : ٣١٧
 مقدونية : ٦٧ ، ١٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥
 المكسيك : ٤١ ، ٢٨٤
 ملفيوس (نهر) : ٣٩٨
 ملكارت : ٣٢
 ملهى أثينة : ٢٥٨
 مناجم الذهب : ٣٤٣
 مناجم الفضة : ٣٤٣
 منتياك (كهوف) : ٤٤
 مندا : ٤٢
 مندرجوني (قصر) : ٨
 منشتر : ٥٧
 منفيس : ٩٧
 مؤاب : ١٦١
 موئيزيا (ولاية) : ٦٤ ، ٤١٤
 موتينا (مودينا) : ٢٠

٣٠٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦

(م)

مأرب : ١١٦
 مالطة : ٢٦١
 مالقة : ٤٠ ، ٤٢
 مان (جزيرة) : ٥٥ ، ٥٨
 المانش : ٤٤
 ماوزاء النهر : ١٦١
 متحف فايل : ٣٤٨
 متروفيكا (برميوم) : ٦٣ ، ٣٦٠
 متلوى : ١٣٣
 المجمع : ٢٥٦
 مجنيزيا : ١٢٩
 مجبوري (بحيرة) : ٩
 المحيط : ١٣٠
 المحيط الأطلنطي : ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٤ ،
 ١٣٠ ، ١٤٣
 المحيط الهندي : ٩٨
 المذائق الأيونية : ٢٧٤
 مذائق بطليموس : ٩٧
 المدخل الكورنثي : ١٢٣
 مبرسة بيرس : ٢٠٤
 المدرسة الهولندية : ٢٠٤
 المدن اليونانية : ٣٣٧
 مدورا : ٣٦
 مريدة (أمينا) : ٤٢
 مدينة الباريزيين (جزيرة) : ٥٢
 مدينة الشمس : ١٢٣
 المدينة المقدسة : ١٩٦
 مديولانم (ميلان) : ٩
 مراکش : ٣٥
 مرثون : ٣٦١
 مرسلينا (مساليا) : ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ١٠٩ ، ٣٨٣

نهر النيل : ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٦ :
٣٥٢

النهرين : ٣٣٧

نوريا قيصرية (القنطرة) : ٤٢

نوركهم (ولاية) : ٦٣

نوقا كرتاجو (قرطاجنة الحديثة) : ٤٣

نوماجين : ٥٢

نوميديا (ولاية) : ٢٧ ، ٣٤

نيدنس : ١٢٨

نيرفا : ١١٤

نيسيا (نيس) : ٥١

نيقوپوليس : ٨٣

نيقوميديا : ١٣٥ ، ١٤١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩

نيقية : ١٤١ ، ٢٠١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠

نيمز (نموسيس) : ٥٠

النيل الهرقليوني : ٣٥٢

نيوپوليس : ١٣ ، ١٤

(ه)

هجو : ٢٨٩

هجو دير هيتس (بنزرت الحالية) : ٣٤

هجو جيوس (بونة الآن) : ٣٤

هرقول : ٣٦١

هركيولاني : ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣١

هسپالس (أشبيلية) : ٤٢

هستوم : ١٥٦

هقرفيله : ٥٧

هكتوميپيلس : ١٥٧

هلاس : ١٣٢ ، ١٣٨

الهلسنت (ألدرنيل) : ١٣٧ ، ٣٥٧

هلكرئيس : ١٢٩

هليوپوليس (عين شمس) : ٩٨ ، ١٢٣

همبرج : ٢٠٣

مودينا = موتينا

مورتانيا (مراکش الحالية) : ٣٥

الموصل : ١٥٨

ميديا : ١٥٧

ميرليا : ١٤١

ميثيا : ١٢٨

ميسيا : ٢٩٣

ميسيم : ١٦

ميلان : ٣٠١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٨٣

ميليتس : ١٢٩

الميندر (نهر) : ١٢٩

مينز : ٣٣٤ ، ٣٤٥

ميرس هرموس (نهر) : ٩٨

(ن)

نايل : ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٤٨

ناربو (نربونة) : ٥٠

الناصر : ١٧٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

٢٢٢

نايسس (نيش) : ٣٨٢ ، ٣٤٠

نزيب : ١٦٠

نصر تساليا (سلانيك) : ٦٨

نقراطيس : ٩٧ ، ٩٩

نقوپوليس : ٦٧

نقوميديا : ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣

النفسا : ٤٥

نموسس (نيمز) : ٥٠

نهر الأردن : ١٦١ ، ٢١٦

النهر الأعظم : ١٢٥

نهر الدنيبر (البورستينز) : ١٤٤

نهر الذهب : ١٢٣

نهر فستس (يراقية) : ٣٤

ويانة : ٣٤٥
ويلز : (ولاية) : ٤٤ ، ٥٨

(لا)

لاتيم : ٤٠٧
لاريوس (بحيرة) : ٩

(لى)

يانا (چيا) : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٤٠
يانوس : ٢٥٤
يبنى (يمنيا) : ١٩٣
يتكا : ٣٢ ، ٣٤
اليمن : ١١٦
يمنيا : ١٧٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣
يهرذا : ١٧٠
يوج (أفريكم) : ٤٩
يورك : ٣٢٤ ، ٣٨٢
الهوريا : ٢٩٦
يوغوسلافيا : ٦٤
اليرنان : ٣٤٥ ، ٣٥٢

ههذان (اكبتانا) : ١٥٧
الهند : ٩٨ ، ١١٦ ، ١٣٠
هولندة : ٦٢
هيراپوليس : ٨٣ ، ١٤٦
الميكال : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢١٤ ،
٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٦٠

(و)

واحة انجادی : ١٧٤
وادی ألو : ٩
الوادی الكبير (نهر) : ٤١ ، ٤٢
وادی الواردار : ٣٤٠
وارنة (أديس) : ٦٤
الوندال : ٤١٣
الولايات الآسيوية : ٣٩٣
الولايات الشرقية : ٣٩٤
الولايات الغربية : ٤٠١
الولايات المتحدة الأمريكية : ١٩١ ، ٣٤٢
الولايات الهلنستية : ٣٤٣

المقصدين

الكتاب الرابع - الإمبراطورية

الموضوع	الصفحة
جملول بالحوادث للتاريخية	٣
الباب الحادى والعشرون : إيطاليا	
الفصل الأول : المدن	٦
الفصل الثانى : ميمى	١٦
الفصل الثالث : نظام البلديات وحياتها	٢٢
الباب الثانى والعشرون : تمدين الغرب	
الفصل الأول : رومة والولايات	٢٦
الفصل الثانى : أفريقية	٣٠
الفصل الثالث : أسبانيا	٣٩
الفصل الرابع : غالة	٤٤
الفصل الخامس : بريطانيا	٥٤
الفصل السادس : البرابرة	٥٩
الباب الثالث والعشرون : بلاد اليونان الرومانية	
الفصل الأول : أفلو طرخس	٦٦
الفصل الثانى : صيف هندي	٧٥
الفصل الثالث : إيكنتس	٨٣
الفصل الرابع : لوشيان والمتشككة	٨٩
الباب الرابع والعشرون : اليقظة الهلنستية	
الفصل الأول : مصر الرومانية	٩٦
الفصل الثانى : فيلو	١٠٣

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : تقدم العلوم	١٠٦
الفصل الرابع : الشعراء في الصحراء	١١٦
الفصل الخامس : السوريون	١٢٢
الفصل السادس : آسية الصغرى	١٢٧
الفصل السابع : ميثقاتن العظيم	١٣٥
الفصل الثامن : النثر	١٤١
الفصل التاسع : التيار الشرق الجارف	١٤٦

الباب الخامس والعشرون : رواء اليهوديه

الفصل الأول : پارثيا	١٥٦
الفصل الثاني : الحسمونيون	١٦١
الفصل الثالث : هيرود الأكبر	١٦٤
الفصل الرابع : الشريعة وأنبياءها	١٧٠
الفصل الخامس : الأمل الأكبر	١٧٩
الفصل السادس : الثورة	١٨٤
الفصل السابع : التشيت	١٩٠

الكتاب الخامس — شباب المسحية

ثبت مسلسل	١٩٩
-----------	-----

الباب السادس والعشرون : عيسى أو يسوع (عليه السلام)

الفصل الأول : المراجع	٢٠٢
الفصل الثاني : نشأة عيسى (عليه السلام)	٢١٢
الفصل الثالث : الرسالة	٢١٨
الفصل الرابع : الإنجيل	٢٢٤
الفصل الخامس : الموت والتجل	٢٣٤

الباب السابع والعشرون : الرسل

الفصل الأول : بطرس	٢٤١
الفصل الثاني : بولس	٢٤٩
١ — المضطهد	٢٤٩
٢ — المبشر	٢٥٣

الموضوع	الصفحة
٣ - العالم الدينى	٢٦٠
٤ - الشهيد	٢٦٧
الفصل الثالث : يوحنا	٢٧١

الباب الثامن والعشرون : نمو الكنيسة

الفصل الأول : المسيحيون	٢٧٧
الفصل الثانى : تنازع العقائد	٢٩٠
الفصل الثالث : أفلاطينس	٢٩٩
الفصل الرابع : حياة الدين	٣٠٥
الفصل الخامس : تنظيم السلطة الدينية	٣١٤

الباب التاسع والعشرون : انهيار الإمبراطورية

الفصل الاول : أسرة سامية	٣٢١
الفصل الثانى : الفوضى	٣٣٥
الفصل الثالث : التدمير الاقتصادى	٣٤١
الفصل الرابع : الوثنية تختصر	٣٤٦
الفصل الخامس : الملكية الشرقية	٣٥٦
الفصل السادس : اشتراكية دقلديانوس	٣٦٢

الباب الثلاثون : انتصار المسيحية

الفصل الاول : النزاع بين الكنيسة والدولة	٣٧٠
الفصل الثانى : قسطنطين	٣٨٢
الفصل الثالث : قسطنطين والمسيحية	٣٨٧
الفصل الرابع : قسطنطين والحضارة	٣٩٧

الخاتمة

الفصل الاول : لم سقطت رومة	٤٠٤
الفصل الثانى : ما قامت به رومة من جلائل الأعمال	٤١٥
المراجع :	٤١٩

الفهارس

فهرس عام بالأحداث الى أرخ لهاق الكتاب	٤٣١
فهرس الأعلام :	٤٤٣
فهرس الأماكن :	٤٦٤

فهرس الأشكال والصور

رقم الصورة	مذلولها	الصفحة
شكل ١	نقشان رومانيان من الفسيفساء في أول الكتاب
٢	جوهرة أغسطس أمام صفحة ٢٤
٣	الإمبراطورية الرومانية في عهد تراچان ٢٨
٤	مزهريّة من أرئين ٤٨
٥	نقش تلسي ٧٢
٦	صورة خيالة ٩٦
٧	نقش جداري ١٢٠
٨	جندى روماني ، نقش يارز من عهد تراچان ١٤٨
٩	ملابغ من دأشيا ١٦٨
١٠	قوس تراچانه ١٩٢
١١	عرائب قينجايو ١٦
١٢	جسر المحلة في نيمز ٢٤٠
١٣	هيكل جوهتر في بعلبك ٢٦٤
١٤	هيكل فينوس أوباحوس في بعلبك ٢٨٨
١٥	قوس سبتيموس سيفرس ٣١٢
١٦	حمامات كركلا ٣٣٦
١٧	مئراس والثور ٣٦٠
١٨	ثابوت الإمبراطورة هلينا ٣٨٤